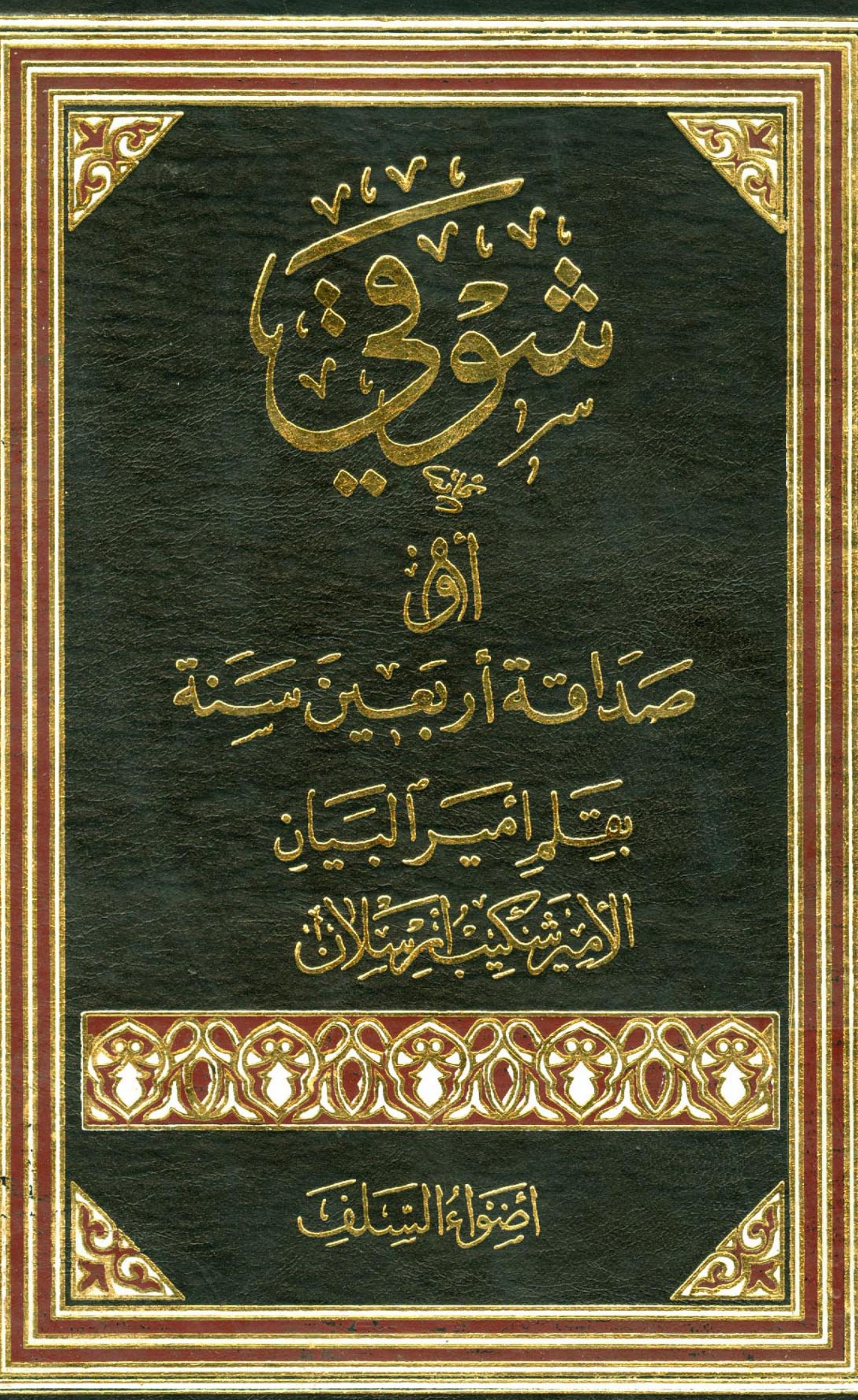

شوقي
أو
صداقة أربعين سنة
بقلم أمير البيان
الأمير شكيب أرسلان
أضواء السلف



شوقي

أو

صداقة أربعين سنة

بقلم أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

أضواء السلف



مقـــــدمة

ماحال حولان على انتقال شوقى رحمه الله الى عالم الخلود حتى رأيت الناس كأنهم قد نسوا أمير الشعراء . ومن عادة الناس أنهم مهما كان الفائت عظيم القدر تناسوه سريعاً ونشدوا غيره على حد ما قال أحد الشعراء :

في الحال يعتاضون منه بغـيره ويعود رب الحزن غـير حزين
الورد كان العندليب حليفه لمـا انقضى غنى على النسرين

ولـكنى أرى مثل شوقى جديراً كلما مضت عليه السنون بأن يزداد حياة فى النفوس ويعظم قدراً فى الصدور لأن الخلود إنما يكون لمثله وهل المتنبى اليوم أقل حياة بروحه مما كان فى عصره وهو حى بجسمه ؟ وهل صاحب الشوقيات التى شرقت وغربت وأحزنت وأطربت ورواها الحادى والعادى وامتلأت بها الحواضر والبوادى يجوز أن ينساه ناطق بالضاد أو يزهد فيه ضارب من الأدب بسهم ولو فى برك الغماد .

وقد كنت لمـا فجع الأدب العربى بطى هذه الصحيفة البشرية العبقرية التى يقال لها أحمد شوقى وعدت بأن أنشر عنه وعن ذكرياتى معه كتابا أسميه «شوقى أو صداقة أربعين سنة» وحالت الأشغال والأسفار وما يتقاذفنى من عوامل الاقدار دون اخراج هذا الـكتاب الذى لا يزال يحك فى صدرى ولما مررت على فلسطين فى هذا الصيف قافلا من جزيرة العرب وتلاقيت مع صديقى سراج العرب وطراز الأدب الأستاذ إسعاف النشاشيبى حفظه الله وهو من عشاق أدب شوقى والمولعين بحفظ آثاره وإحياء تذكاره ، استنجزنى ما كان من وعدى من وضع هذه الرسالة الشوقية ولمـا اعتذرت

له بما أنا فيه من مشاغل ومشاده أجابنى : إن الأليق بوفائك والأخلق بأخلاقك هو أن تقدم هذه الرسالة على غيرها من الرسائل وأن تبادر بانجاز وعد وعدته صريحا فى حق صديقك وأخيك الذى ذكره عندك مقدس وقدره لديك مرجب ، فوجدت كلامه فى محله وعولت على أن لا أماطل فى هذا الدين الذى يجب إيفاؤه لأهله

زيارتى الاولى لمصر

سنة ١٨٩٠ كانت أول قدمة لى إلى مصر وكنت بين العشرين والواحدة والعشرين من العمر فمكثت شيع شهر فى الاسكندرية ثم جئت إلى مصر وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعهودين سعد افندى زغلول وأخيه فتحى ، والشيخ على الليثى ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم افندى اللقانى ، وحفنى افندى ناصف ، والسيد احمد محمود من الرحمانية ، والسيد ابراهيم الوكيل من دمنهور ، والشيخ على يوسف لأول ظهور (المؤيد) ، واحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع . وكانت اجتماعاتنا متواصلة وأسمارنا متطاولة ومذاكراتنا للقاصى والدانى شاملة، ولكننا لم نكن نسمع فى ذلك الوقت بشخص يقال له «شوقى» ولا أحسسنا له ركزا .

ولما برحت مصر كان المرحوم الخديوى توفيق فى الاسكندرية فقال لى أستاذنا الشيخ محمد عبده انه لا يكون خطأ إذا ذهبت إلى سراى رأس التين وودعت الجناب العالى الخديوى ونظمت له بعض أبيات لأن من عادة الشعراء أن يتحفوا بشعرهم الملوك . وكان الأستاذ رحمه الله لا يرغبنى فى الشعر وما عهدته أوصانى بنظم شئ إلا مرتين لا غير احداهما عند ما طبعت ديوانى المسمى « الباكورة » وهو مجموع ما نظمته من سن الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة من العمر فلما اطلع عليه فى بيروت قال لى لأبعث منه بنسخة إلى المرحوم عبد الله باشا فكرى وكان من أعز أصدقائه . وأن أبعث مع النسخة بأبيات تناسب المقام فأرسلت نسخة من الباكورة إلى عبد الله باشا ومعها أبيات لا أتذكرها جميعاً وليست عندى الآن صورتها وانما أذكر منها ما يلى :

بذذت النــاس فى نظم ونثر وفقت الخلق من بدو وحضر

فكيف يقوم عندك نزر شعر ... يذيب الرعب منه كل شطر

ولما كان ديوانى اذ ذاك خالياً تقريبا من الغزل والتشبيب أشرت إلى هذا المعنى بقولى :

جعلت القول فى سيف ورمح ... وعفت النظم فى قد وخصر

فانى عاشق غــرر المعالى ... ولى نفس فداؤك نفس حر

إذا فكرت يوما فى كلام ... يكون بمدح (عبدالله فكرى)

فتلقى عبد الله باشا رحمه الله (باكورتى) والأبيات التى تصحبها بأحسن قبول وأجاب على الشعر بقصيدة من نظمه المنسجم المهلهل رقة وسلاسة فهو يقول :

أتت تختال فى حبر وحبر ... على العشاق لا كبر وكبر

منعمة الشبيبة لم يرعها ... مشيب فى العذار أقام عذرى

لقد وافت على سحر ترينى ... بدائع نظمها نفثات سحر

ألا حيا ربى بيروت عنى ... ولبنان الحيا منهل قطر

بدر يملأ الأرجاء درا ... ويمزج ترب أرضيها بتبر

وحيا من بها ربى وحيا ... زمانا مرّ فيها غير مر

وأظن هذه القصيدة منشورة فى ديوان عبدالله باشا وهو يشير إلى تجانفى عن العبث والتشبيب فى أبيات أنذكرها :

وإن يلعب فما لعب بعيب ... لعهد صبا وشرخ شباب عمر

ولكن تأنف الهمم العوالى ... على رغم الصبا سفساف أمر

تحرم قرب أمر فيه إمر ... وتوجب هجر كل مقال هجر

فأما المرة الثانية التى أشار فيها شيخنا بالشعر فهى عند ماذهبت إلى الاسكندرية قاصداً السفر منها إلى الاستانة فأوصانى أن أقدم إلى الخديوى توفيق أبياتاً . فذهبت إلى رأس التين وقابلت المرحوم الخديوى توفيق ، ولم أنشده الأبيات . وإنما بعد الانصراف دفعتها إلى قلم المعية السنية . وما مضى يومان قبل أن أبحر إلى الاستانة حتى رأيت قصيدتى منشورة فى جريدة الوقائع المصرية أى جريدة الحكومة الرسمية. وقد

كان الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان رئيساً لتحرير الوقائع ، وكان له قلم سيال ونثر أشبه بالقطر إذا انثال ، فانتهز هذه الفرصة وأورد بمناسبة القصيدة مقدمة أوسع فيها هذا الناظم ثناء واطراء .وليس عندى محفوظاً بكثرة ما تناثر من أوراقى بين المشرق والمغرب عدد الوقائع الذى فيه هذه القصيدة وإنما أذكر منها ما يلى :

أقول لنطقى اليوم ان كنت مسعدى ... إذن أرق أسباب السماء عصعد
وانظم من القول النفيس فرائداً ... تنزل شعرى الأفق فى شعر منشد
إذا أنا لم أوف المكارم حقها ... من الشكر فى سلك القريض المنضد
فلا شغفت لى بالمكارم مهجة ... ولا عز آبائى ولا طاب محتدى
ولا بلغت لى رتبة من مكانة ... أنال بها لقيا العزيز محمد
وأذكر علياه وذكر محمد ... ألذ كلام قيل بعد المشهد
عزيز حمدت الدهر عند لقائه ... ومن لقى التوفيق للسير يحمد
ولا غرو إن حنت لتقبيل كفه ... على البعد نفس تلمس النجم باليد
وشاقت له رب الرقائق طلعة ... لعمرك تذكى الشوق فى قلب جلمد

ومنها :

لقد كف كف الدهر أصمت سهامه ... قلوب بنى الأيام من كل مقصد
ورد جماح الدهر بعد كروزه ... عليهم لعمرى قاعداً كل مرصد

ومنها :

فدونكها يا غرة الملك غادة ... تميس كخوط البانة المتأود
ومن رام من إدراك كنهك غاية ... يجد غاية ماتدنِ للوصل تبعد

وآخرها :

وإنى إذا أهدى العزيز مدائحى ... أبوء بصدق القول غير مفند
وإلا فما حاولت إدراك غاية ... بشعرى ولا نظم القصائد مقصدى

أى لم أنظم هذا الشعر إلا للقيام بفرض الشكر على انعطاف الجناب الخديوى نحوى ولست باغياً على ذلك مكافأة. وبعد أن عرفت شوقى فى باريس وتذاكرنا الشعر

والشعراء وجدته معجباً بقصيدتى التوفيقية هذه وقال لى : انها تركت فى ذلك الوقت رنينا فى وادى النيل .

أول ما قرأت لشوقى

خرجت إذن من مصر فى أواخر سنة ١٨٩٠ وأنا لا أسمع بشاعر اسمه شوقى فى مصر . وكنت أوانئذ أراسل جريدة الاهرام وكان صاحب الاهرام يكاتبنى كثيراً ويبثنى كثيراً من الآراء على ملاحظاتى واذا أرسلت اليه بمقالة جعل عنوانها « لأحد الافاضل السياسيين » فاذا راجع القارئ اهرام سنة ١٨٩٠ والتى بعدها وجد بقلم « أحد الافاضل السياسيين » فصولا سياسية كثيرة . و بينما كنت أطالع الاهرام فى ذات يوم وقع نظرى على أبيات لامية فى مدح الخديوى توفيق فيما أذكر قال عنها الاهرام انها من نظم «احمد افندى شوقى» ولما كان هذا الناظم مجهولا عندى لم أشأ أن أضيع وقتى بقراءة تلك الابيات فلم أعلم منها كثيرا ولا قليلا . إلا أنه لم يطل الأمر حتى قرأت شعرا آخر لهذا الذى يقال له احمد افندى شوقى، فجربت هذه المرة أن اقرأه فلما قرأته لم أعجبه ووجدته من الشعراء الذين يقال فيهم « من حقه أن تسمعه » فقد قالوا كما لا يخفى :

الشعراء فى الزمان أربعه ... فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر ينشد وسط المعمعه ... وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفعه

ولم يطل الامر أيضاً حتى قرأت لاحمد شوقى هذه القصيدة الآتية فى مديح الجناب الخديوى :

ان الوشاة وان لم أحصهم عددا ... تعلموا الكيد من عينيك والفندا
لا أخلف الله ظنى فى نواظرهم ... ماذا رأت بى مما يبعث الحسدا
هم أغضبوك فراح القد منثنيا ... والجفن منكسرا والخد متقدا
وصادفوا أذناً بيضاء لينة ... فأسمعوها الذى لم يسمعوا أحدا

لولا احتراسى من عينيك قلت ألا   فانظر بعينيك هل أبقيت لى جلدا
الله فى مهجة أيتمت واحدها   ظلما وما اتخذت غير الهوى ولدا
وروح صب أطال الحب غربتها   يخاف إن رجعت أن تنكر الجسدا
دع المواعيد إنى مت من ظمأ   وللمواعيد ماء لا يبل صدى
بالله رد على العباس شاعره   بنظرة واتخذها فى الزمان يدا
من للعزيز يناجى روض نعمته   إن أسكت الدهر هذا الطائر الغردا

الى آخر ما قال فى ذلك اليوم . فتلوت القصيدة من أولها الى آخرها ومن شدة ماطربت لها أعدت قراءتها مراراً وعلمت ان هناك شاعراً مطبوعا وأيقنت ان فى تلك المغارة أسداً وصرت كلما عثرت على شعر لاحمد شوقى أتهافت عليه تهافت الظمآن على نمير الماء لأنى رأيت فيه الشاعرية بجميع شروطها : النسج الرقيق المتين والاسلوب الرشيق الرصين، اللغة العربية الفصحى التى لا تؤتى من جهة، والمعنى المتناهى فى الدقة اللابس من اللفظ أجمل حلة، والانسجام المطرد من الأول الى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد . فمنذ ذلك حكمت بأن هذا الشاعر سيكون من شعراء العصر وإن لم أصل فى الحكم الى أنه سيكون أمير شعراء العصر. وأذكر الآن انى كنت اطلعت له على قصيدة قبل هذه فى مدح الخديوى توفيق يهنئه فيها بشهر الصيام لم تكن أقل رقة وانسجاماً من القصيدة الدالية المار ذكرها وهى التى يقول فيها :

يا حسنه بين الحسان   فى شكله إن قيل بان
كالبدر تأخذه العيو   ن وما لهن به يدان
ملك الجوانح والفؤا   د ففى يديه الخافقان
ومناى منه نظرة   فعسى يشير الحاجبان
فيها يزكى حسنه   من لا له فى الحسن ثان
خلوه يعدل أو يجو   ر فانه ملك العنان
حق الدلال لمن له   فى كل جارحة مكان
يا أصغرى بأى آ   لاء العزيز تكذبان

ملك يداه بالندى لعفاته مبسوطتان
الناس تشترط الغنى وعلى مكارمه الضمان
ماضى الاشارة والبديـــهة والعزيمة والجنـان
قالت له الآباء كن فى المجد ما كنا فكان
ولجده من نفسه نجم تسامى عن مدان
وكذا معالى الملك تالدها بطارفها يزان
عوذت ملكك يا أبا الـعباس بالسبع المثان
ملك بعدلك آمن والعدل عنوان الامان
مولاى حبك مذهب من لا يدين به يدان
الناس فيه أئمة وأبو حنيفتها الزمان
يا خير من شهد الهلا لوخير من سمع الأذان
بشراك بالشهر الذى لك فيه عند الله شان
تسعى الموالى فيه مز لفة لعلياك التهان
هذا هو السهل المنيـع فهل سمعت عن ابن هان
قدرته ووزنته ونظمته نظم الجمان
وبعثته لك مدحة تجلو مناقبك الحسان
آيات حمد فيك تر جمها عن القلب اللسان
والله ما كذب الفؤا د ولا أشط الترجمان

فعندما قرأت هذه القصيدة وجدتها من النوع المرقص الذى لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتز له طربا وراح نشوان. وكما قال هو عن نفسه كانت أبياته هذه من السهل المتنع أشبه بشعر البهاء زهير لو اندمجت فى ديوانه ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شوقى لكانت حقيقة بشعر البهاء زهير لا تقل عنه شيئا ولو سمعها الحسن بن هانئ لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها . أما ابن هانئ الاندلسى الذى قال فيه المعرى إن شعره أشبه برحى تطحن قرونا فانه بعيد عن هذا الاسلوب بعد الشرق عن الغرب

ومذ ذاك الوقت صرنا نترقب قصائد شوقى رقبة الصائم هلال العيد ونعلم أنه سيكون الشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه ، نعم كنت الى ذلك الحين أرجح عليه محمود سامى البارودى ولا أرى أحداً يعلو علوه فى المتأخرين وقد يلز فى قرن واحد مع أفصح المتقدمين

اجتماعنا الاول فى باريس

وبقيت لاأعرف شوقى معرفة شخصية الى سنة ١٨٩٢ إذ ذهبت من الاستانة الى فرنسا قاصداً السياحة ومستشفياً من مرض طرأ علىّ . وكان احمد شوقى يدرس علم الحقوق فى مونبلييه وفى أثناء العطلة المدرسية جاء الى باريس ومعه رفيق اسمه دلاور فبينما نحن فى الحى اللاتينى بحسب قولهم إذ جمعتنا الاقدار وما عدت أتذكر كيفية اجتماعنا وتعارف بعضنا مع بعض ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين وأكثر تلاقينا كان فى مقهى يقال له مقهى دار كور Dharcourt

ومن غريب الاتفاقات اننا فى سنة ١٩٢٦ تلاقينا أنا وشوقى رحمه الله فى باريس، جاء فسلم علىّ فى فندق ماجستيك فذهبت أرد له السلام فى فندق كان نازلا به فى الحى اللاتينى فسألت عنه فقيل انه خرج الى النزهة واذا بهذا الأوتيل على مسافة مائة متر من مقهى دار كور واذا بشوقى جالس هناك ومعه مطربه محمد عبدالوهاب فجلست اليهما وأخذت أتأمل فى دوران الدهر ورد العجز على الصدر . فقد كنت أول مرة عرفت فيها شوقى أجلس واياه فى هذا المقهى نفسه ومضى على ذلك ستة وثلاثون حولا ولم نجتمع فى باريس فلما اجتمعنا اذا بنا من دون تعمد فى هذا المقهى أيضاً. فقلت لشوقى: أتدرى كم سنة مضت على اجتماعنا فى هذا المقهى؟ هذه ست وثلاثون سنة. وكان رحمه الله لا يرتاح الى الأحاديث التى تذكره بالشيخوخة فقال لى: تمسكك بهذه التواريخ لا أدرى لم؟ فضحكت وعرفت انه ضاق صدره من هذه الذكرى وأنا قصدت أن أتذكر نعمة بقائنا طول هذه المدة ولقائنا من بعدها . هذا اذا كان طول العيش معدوداً من النعم

وفى أثناء لقائنا الاول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة ولكن أهم حديث كنا

نخوض فيه هو الشعر . وكان مع شوقى ديوان المتنبى وكان يحفظ منه ولا شك انه انطبع عليه وسيأتيك فى هذا الكتاب فصل تعلم منه انى شبهت شوقى بالمتنبى فى دقة معانيه وكثرة أبياته الجارية مجرى الامثال وشبهت البارودى بأبى تمام فى علو نفسه وفحولة نظمه وشبهت حافظ ابراهيم بأبى عبادة البحترى فى طلاوته وانسجامه هذا وبقيت أنا وشوقى نتساقى كؤوس الصفاء ونتبادل عواطف الاخاء مدة شهر من الزمن الى أن حان إيابى إلى الشرق فودعته وداع الأخ لأخيه وفارقته فراق الصفى لمن يصافيه . وقد علمت منه اننا فى عمر واحد فقد كنت سنة ١٨٩٢ فى الثالثة والعشرين من عمرى وظهر لى فيما بعد من مقدمة ديوانه الجزء الأول انه فى سنة ١٨٩٨ كان شوقى فى سن الثلاثين . والحال انني فى تلك السنة كنت فى التاسعة والعشرين وعليه يكون شوقى اكبر منى بسنة أو بعدة اشهر. وأنا الذى أشرت عليه بأن يجمع قصائده ويجعل منها ديوانا يسير فى الأقطار فسألنى : وأى اسم أعطيه ؟ فقلت له : سمه بالشوقيات فنسبة هذا الشعر إليك هى عندى كافية . فلما جمع ديوانه أطلق عليه اسم « الشوقيات » كما أشرت عليه به وقد ذكر روّح الله روحه هذه القصة فى ديوانه الطبعة الاولى سنة ١٨٩٨ فقال :

« جمعتنى باريز فى أيام الصبا بالأمير شكيب ارسلان وانا يومئذ فى طلب العلم والامير حفظه الله فى التماس الشفاء فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة . وكنت فى أول عهدى بنظم القصائد الكبر وكان الأمير يقرأ مايرد عليه منها منشوراً فى صحف مصر فتمنى أن تكون لى يوما مجموعة . ثم تمنى علىّ اذا هى ظهرت أن أسميها «الشوقيات» ثم انقضت تلك المدة فكأنها حلم فى الكرى أو خلسة المختلس أو هى كما قلت :

صحبت شكيبا برهة لم يفز بها ... سواى على أن الصحاب كثير
حرصت عليها آنة ثم آنة ... كما ضن بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء وتم لى ... وداد على كل الوداد أمير
تفرق جسمى فى البلاد وجسمه ... ولم يتفرق خاطر وضمير

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت اليه طاعة واجبة وانا بين هاتين هدف للقال والقيل يظن بى نسبة الأثر الضئيل الى الاسم القليل »

ثم قال :

« كانت وفاة والدى من نحو ثلاث سنوات فكان لى عجباً ان وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومى ومنثورى ما نشر منهما وما لم ينشر قـد كتب بعضه بالحبر والبعض الآخر بالرصاص والـكل خط يد المرحوم وقد لفه فى ورقة كتبت عليها هذه العبارة : « هذا ما تيسر لى جمعه من أقوال ولدى احمد وهو يطلب العلم فى أوروبا فكنت كأنى أراه. وانى آمره أن يجمعه ثم ينشره للناس لانه لا يجد بعدى من يعتنى بشؤونه وربما لم يوجد بعده من يعنى بالشعر والآداب ، فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق حيران لوصية الوالد كيف أجريها زارنى صديقى مصطفى بك رفعت فحدثتـه حديثى فسألنى أن أعيره الأوراق أياما ثم يعيدها إلىَّ ، ففعلت . ثم لم يمض شهر حتى بعث بها إلى وإذا هى قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح بحيث لم يبق إلا أن تدفع الى المطابع فأخذتها وبودى لو وفيت صديقى المشار اليـه حقه من شكر الصنيع وأنا أقول فى نفسى : لئن صدق أبى فى الأولى لقد ظلم فى الثانية فان الخير لا يزال فى الناس»

انتهى كلام شوقى. وأنا أزيد على ذلك ان والد شوقى رحمهما الله قد أفرط فى التشاؤم فان نابغة مثـل ولده لا يمكن أن يهمل وأن يعدم من يعتنى بشؤونه وان لم يكن للمرء من يحنو عليه حنو والده فكم قام الأدب مقام الوالد وقد قيل:

إن فاتنا نسب يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد

وهذه الأبيات وتلك القصائد التى كان منها ما هو مكتوب بالحبر وما هو مكتوب بالرصاص جاء وقت نسخها فيه ناسخ بخط مليح ثم جاء وقت آخر يقال فيه : ان هذه القصائد التى كتبت بالحبر جديرة بأن تكتب بماء التبر . وهكذا رجال الدهر تنـمو أقدارهم بطول الدهر

صداقة ومطايبات

واعود الى ماقاله شوقى من انه تفرق جسمى وجسمه ولم يتفرق الضمير والخاطر فقد صدق فى هذه الابيات وأحسن الشعر ما حكى الحال فقد كرعنا من الوفاء بنمير

وتفارقنا ولم يتفارق خاطر وضمير، وبقينا أكتب له ويكتب لى وأبثه مافى نفسي ويبثنى ما فى نفسه وأداعبه ويداعبنى ونتناجى على بعد الديار ونتراءى بالقلوب لا بالابصار وكنت لاأجد أعز علىّ ولا أغلى لدىّ منه مع كثرة الاصحاب ووفرة الاتراب وهذا ماترجمه هو بقوله :

صحبت شكيبا صحبة لم يفز بها سواى على أن الصحاب كثير

فقد كنت أحبه لعذوبة أخلاقه وحسن معاشرته وأجله لعلو فكره وبداعة شعره وأجمع فيه بين الحب والحرمة وما أسعد الانسان اذا كان يحب من يحترم ويحترم من يحب ، وما اصدق قول المتنبى :

ضروب الناس عشاق ضروبا فأعذرهم أشفهم حبيبا

وانى اتذكر من جملة ماكان بيننا من النكات كتابا بعث به الىّ من فرنسا ضمنه عدة جمل متتابعة قلد فى كل واحدة منها اديباً من الادباء المعدودين حاكيا اسلوبه الخاص وليس الكتاب مع الاسف محفوظا عندى ولا غيره من تلك المكاتبات ولكننى أتذكر بعضه فهو يقول : لم يتم له ما اراد من ايصال النفيعة الى ابناء الجادة (بكرية) وقد مرق من ذلك مروق السهم من الرمية (شكيبية) . ثم ذكر جمله ثالثة ماعدت اتذكرها وقال عنها (صبرية) وجملة رابعة لم أعد اتذكرها ولا اتذكر من حاكى بها والحاصل انه فى الجملة الاولى يشير الى أسلوب السيد توفيق البكرى الاديب المشهور وفى الجملة الثانية الى أسلوب هذا العاجز وفى الجملة الثالثة التى نسبتها الى اسماعيل صبرى باشا . وهلم جرا .

وارسلت اليه من بيروت صورتى الفتوغرافية وكتبت تحتها :

لئن كنت أحمد شوقى إلىَّ فما زلت احمد شوقى اليك

رعى لك قلبى وداداً به أضن على الكل إلا عليك

وكنت ابعث اليه من فرنسا بكثير من حلاوات الشام وأتلذذ على البعد بأن يتذوقها ويتلذذ بها . وكنت كلما قرأت له قصيدة من تلك القصائد الرنانة — لان شعره بدأ يرن من ذلك العهد — تمتلئ جوانحى بها مسرة ونواظرى قرة، وبقى ذلك

ديدنى معه الى ان مات لا أتلو له شعراً إلا كان لى سبب سرور . والى هذا أشرت بقولى فى القصيدة التى نظمتها له بمناسبة يوبيله سنة ١٩٢٧

اقرا قصائده فتملأ مهجتى　　جذلاً يزيل شجونها وعناءها
وأظل مغتبطا بها فكأن لى　　دون الانام ثناءها وسناءها

ومن نعم الله علىّ انه عافانى من داء الحسد الذى قد يبتلى به الكثيرون لا سيما من رجال الادب الذين لا يزال الواحد منهم يتعقب ويترقب حتى يجد لاخيه غلطة يبرد غلته بتكرارها وتنبيه الافكار اليها . وأنا لم أكن حاسدا لشوقى ولا كافيا إياه حسدى ونفاستى وغصتى برفيع مقامه فحسب ، بل كنت مفتخرا به فرحاً بنبوغه سعيداً بعبقريته أجده من حسنات هذا الزمان الكبرى ولا تتاح لى الفرصة للاتيان بذكره او للاستشهاد بشعره الا توردتها . وقد كان يبدو لى من كتبه إلىّ أن ذلك يروقه لا سيما عند ما كان فى اول ميدانه ولم يكن أحرز ما أحرزه فيما بعد من الشهرة الطائرة والزعامة القاهرة . وقد كان يفضى بما يشعر به من افتتانى به الى خليله وخليلى معاً شاعر القطرين وثالث القمرين خليل بك المطران فكان الخليل يقول له : ان شكيب لا يحسدك ولا يحسد احداً ولذلك تراه دائما مفتخراً بك .

ولما نشرت كتابى فى تاريخ الاندلس تذييلا على رواية « آخر بنى سراج » للفيكونت شاتوبريان ختمت ذلك الكتاب بفصل فى حالة الشرق وما آل اليه واستشهدت لشوقى بأبيات ذكرت بمناسبتها انه شاعر العصر وهى :

وذات دلال من بنى الروم حولها　　اذا ماتبدت إخوة سبعة مرد
عنيت بها حتى التقينا فهزها　　فتى عربىّ ملء بردته مجد
فقالت أطيب بعد عسر وشدة　　فقلت نعم مسك الاحاديث والند
عطلنا من النعمى وطوق غيرنا　　تداولت الايام وانتقل العقد
وما ضاعت الدنيا علينا وحسنها　　ولكنّ عن أغصانه رحل الورد

معارضات

وكنت مع ذلك أعارضه فى الاحايين فانه نظم مرة قصيدة لدى زيارته الاولى للاستانه وحلوله ضيفا كريما على السلطان عبد الحميد فانه قال يومئذ :

رضي المسلمون والاسلام ... فرع عثمان دم فذاك الدوام
كيف يحصى على علاك ثناء ... لك منك الثناء والاكرام
هل كلام العباد فى الشمس الا ... انها الشمس ليس فيها كلام
ومكان الامام أعلى ولكن ... بأحاديثه يتيه الأنام
إيه عبد الحميد جل زمان ... أنت فيه خليفة وإمام
ما رأت مثل ذا الذى تبتنى الأ ... قوام مجداً وان يرى الأقوام
دولة شاد ركنها ألف عام ... ومئات تميدها أعوام
وأساس من عهد عثمان يبنى ... فى ثمان ومثلهن يقام
حكمة حال كل هذا التجلى ... دونها أن تنالها الأفهام
يسأل الناس عندها الناس هل ... فى الناس ذو المقلة التى لا تنام
أم من الناس بعدُ من قوله وحـ ... ـىٌ كريم وفعله إلهام
صدق الخلق أنت هذا وهذا ... يا عظيما ما جازه إعظام
شرف باذخ وملك كبير ... ويمين سبط وأمر جسام
عمر أنت بيد أنك ظل ... للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجت بالخلافة حتى ... توج البائسون والأيتام
وسرى الخصب والبهاء ووافى الـ ... ـبشر والظل والجنى والغمام
وتلقى الهلال منك جبين ... فيه حسن وبالعفاة غرام
فسلام عليهم وعليه ... يوم حييتهمو به الأيام
وبدا الملك ملك عثمان من عل ... ياك فى الذروة التى لا ترام
يهرع المصر والملوك إليه ... وبنو المصر والولاة الفخام
هكذا الدهر حالة ثم ضد ... ما لحال مع الزمان دوام

ولأنت الذى رعيته الأسـ ـد مسرى ظلالها الآجام
أمة الترك والعراق وأهلو ه ولبنان والربى والخيام
عالم لم يكن لينظم لولا انك السلك وسطه والوئام
هذبته السيوف فى الدهر واليو م أتمت تهذيبـه الأقـلام
أيقـولون سكرة لن تجـلى وقعـود مع الهـوى وقيـام
ليـذوقن للمهلل صحـواً تشرف الكأس عنـده والمدام
وضع الشرق فى يديك يديه وأتت من حماته الأقسام
بالولاء الذى تريد الأيادى والولاء الذى يريد المقـام
كيف تهدى لما تشيد عيـون فى الثرى ملؤها حصى ورغام
مقـل عانت الظـلام طويلا فمناها فى أن يزول الظلام
قد تقوم النفوس فى الضيم حتى لترى الضيم أنها لا تضام
أيهـا النافرون عـودوا الينا ولجوا البـاب إنه الاسـلام
غرض أنتمو وفى الدهر سهم يوم لا تقعـد السهام السهام
نمتمو ثم تطلبون المعالى والمعالى على النيام حـرام
شر عيش الرجال ما كان حلما قد تسيغ المنيـة الأحـلام
ويبيت الزمان أندلسيا ثم يضحى وناسـه الأعجام
عالى البـاب هز بابك منا فسعينا وفى النفـوس مرام
وتجليت فاستلمنا كما للنا س بالركن ذى الجـلال استلام
نستميح الامام نصراً لحـلمى مثلمـا ينصر الحسام الحسام
فلحلمى وآلـه والرعايا بك يا حامى الحمى استعصـام
يشهـد الله للنفوس بهـذا وكفاها أن يشهد العـلام
وإلى السيد الخليفـة نشكو جـور دهر أحراره ظـلام
وعـدوها لنـا وعوداً كباراً هل رأيت القرى علاها الجهام
مطلتنـا ولم يك الداء يحمى أن تمـل الأرواح والأجسام

يمنع القيد أن نقوم فهل تا | ج فبالتاج للبلاد قيام
فارفع الصوت انها هى مصر | وارفع الصوت إنها الأهرام
وارع مصرا ولم تزل خير راع | فلها بالذى أرتك ذمام
ان جهد الوفاء ما أنت آت | فليقم فى وفائك الخدَّام
وليصولوا بمن له الدهر عبد | وله السعد تابع وغلام
فاللواء الذى تلقوا رفيع | والأمور التى تولوا عظام
من يرد حقه فللحق أنصـ | ـار كثير وفى الزمان كرام
لا تروقن نومة الحق للبا | غى فللحق هزة وانتقام
إن للوحش والعظام مناها | لمنايا أسبابهن العظام
رافع الضاد للسهى هل قبول | فيباهى النجوم هذا النظام
قامت الضاد فى فمى لك حبا | فهى فيه تحية وابتسام
إن فى يلدز الهدى لجلالا | أنا صب بلطفها مستهام
قد تجلت لخير بدر أقات | فى كمال بدت له أعلام
فالزم التم أيها البدر دوماً | والزم البدر أيهذا التمام

وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض وأخرى فيها تعقيد ولكنها على كل حال عامرة بشوارد الأبيات وشوقية كسائر الشوقيات وفيها درر يتائم وألفاظ كسجع الحمائم ولما طالعتها نظمت من البحر والقافية :

هل لسان أقواله الالهام | أم بيان آياته الاحكام
فتبارى الألفاظ شأو المعانى | ويوفى حق الثناء الامام
الذى شرفت خلافته الأر | ض لحف البرية الاكرام
وغدت لهجة الثناء عليه | مثلما دام للصلاة إقام
فعدت نهضة البلاغة عنه | ودنت عن خياله الأوهام
فمسّ فى الصفيح من أطلس العـ | ـز تهاوت من دونه الأفهام
انما وصفه على فائح الأفكار | فى الذروة التى لا ترام

كل طرف للفكر عنه كليل   كل طرف للجرى فيه كهام
قصر الوصف دون من يفضح الوصف   وعند الفعال يخفى الكلام
ينبذ الشعر والشهود الرياضيا   ت عدا والحجة الأرقام
ان ما سال فى ثناه يراع   لا كما سحَّ من يديه غمام
وفعال الضرغام أوقع فى النفـ   ـس من القول انه الضرغام
كل يوم له صنائع تترى   فى البرايا لباسهن الدوام
تكفل الناس مثلما يكفل الغـ   ـبراء غيث له عليها انسجام
طوَّق الخلقَ جوده ونداه   فهى فى مدحه لعمرى حمام
وجدير أن تنطق الطير والوحـ   ـش فيتلو المداحَ فيه البغام
نُسخت عنده الملوك وأمسى   خبراً من اخبار كان الكرام
ما رأى مثله الزمان عظيما   صبيةٌ عنده الرجال العظام
جاء من ضئضئ الخلافة فرداً   هو من معشر الملوك السنام
فرع عثمان وكفى المجد والأحسا   ب والمكرمات والأحلام
دولة حجة الزمان على الخلـ   ـق بها دون مرية إلزام
ليس للشرق غيرها فبنو المشـ   ـرق طراً بدونها أيتام
قد أقامت سرادق العز يعليه   الوشيج الرماح والأقلام
فوقه راية الهلال منيراً   يدبر الظلم عندها والظلام
ينضوى تحتها النقاد مع الأسـ   ـد وترعى الذئاب والآرام
مجدَ عثمان ليس غيرَك مجد   كل مدح من دون مدحك ذام
لم تزل شامخا بأنف عزيز   ولكم أعطس الملوك الرغام
لا ترى دولة هزالا وضعفا   حولها المسلمون والاسلام
وعلى رأسها خليفة عصر   دهره تابع له وغلام
لم يزل قائما لديه بأبوا   ب عليهن للجباه ازدحام
حيثما تهطع الملوك وتعنو   تحت تيجانها الطلى والهام

موقف تخشع النواظر فيـه   وتسوّى الرؤوس والأقدام
قد حباه عثمان أسّاً متيناً   مُثّل البيت عنده والمقام
شاب فرق الزمان وهو مكين   وتخطت مثالها الأعوام
وغدا آلفاً سهام الليالى   فلذا لا تنال منه السهام
إيه عبد الحميد ان زماناً   أنت فيه عباسه بسام
أوْلِه نصرك العزيز وأيد   وارو مصراً له اليك أوام
أشخصت نحوك العيون حيارى   أمم الخافقين والأقوام
وتصبي القلوبَ منك خلال   يحرم العشق دونها والهيام
أقبل العصر يرتجيك وفى اليمنى كتاب وفى الشمال حسام
حبذا الدولة التى صار فيها   توأمين العلوم والاعلام
هو ذا الشرق فى حماك لك الامرُ جميعا وفى يديك الذمام
هزّه هزةً تثوب بها الروح   وتحيي الآمال وهى رمام
ارهفِ الحد للخطوب فما ينفع   مع هذه الليالى احتشام
لم تزل أرضنا مآسد بالله   ومأوى رجالنا الآجام
ان للشرق هبة بعد نوم   أزعجته خلالها الاحلام
هبة تبعث الحمية فى النا   س كما يبعث الخمار المدام
يسأل الغرب عندها الشرق هل جا   ءك روح تحيا به الاصنام
ترسل الكهرباء فيها شعاعا   ويرى للبخار فيها ركام
وتشب النيران فى كل ارض   فتعود النيران وهى سلام
انما تثلج الصدور بسلم   حينما يوقد الصدور ضرام
يا إمام الهدى هنيئا وأولى   أن يهنى بالعيد عنك الانام
ان احاول على علاك ثناء   فهو مما قضى علىَّ الذمام
او اعارض فتى القريض فما عا   رض وردَ الحدائق القلام
ذا مجال رضيت فيه من السبق بعزم لم يثنه الاحجام

واذا كان بدع وصفك سمطا ... جاء عفوا من القريض النظام

ان يوما به الجلوس تجلى ... هو يوم خدامه الايام

كفّر الدهر فيه عن كل ماجر ... فلم يتجه عليه ملام

جاء ختما لطارقات الليالى ... فاختلافها الينا لمام

ليس يلحى على أواليه عصر ... بمماليك طاب منه الختام

ولم أجاذب أخى شوقى الحبل الا فى هذه القصيدة ولم انس أن أشير فيها الى المعارضة معترفا بأن الدر لايعارض بالحصى وذلك عندقولى :

أو أعارض فتى القريض فما عا ... رض ورد الحدائق القلام

وقد وجد مع هذا من رجح قصيدتى على قصيدته ومنهم الشاعر الاديب داود بك عمون الذى صار فيما بعد الحرب رئيساً لحكومة لبنان وهو من أترابى فى السن وقد تذاكرت واياه فى موضوع هذه المعارضة فرأيته يستحسن قصيدتى على قصيدة شوقى فقلت له وأين أنت من قوله :

ما كلام الأنام فىالشمس إلا ... انها الشمس ليس فيها كلام

فقال لى : وانت جعلت بازاء هذا البيت قولك :

وفعال الضرغام أوقع فى النف ... س من القول إنه الضرغام

وعلى كل حال فلست أدعى سبق شوقى فى هذا الميدان وأنا الذى أقول فيه فى القصيدة التى قلتها فى يوبيله :

وفرت يا شوقى السباق علىالورى ... برئاسة بات السباق وراءها

تتقطع الأعناق عن ادراكها ... حتى الأمانى لا تحوم إزاءها

* * *

ولكن مما لا مرية فيه اننى أنامذ أيام الشباب قلما نظمت الشعر رغبة فيه ونزوعا منى الى الاتصاف بالشاعرية بعكس النثر الذى كان أبداً مرمى آمالى ومطمح خيالى . وسألنى مرة ابراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور عند ما اجتمعنا فى الاستانة سنة

١٨٩٠ فقال لى : أيهما أفضل عندك النظم أم النثر ؟ فأجبته: لا مقايسة عندى بينهما إنى أفتخـر بأن أكون كاتباً وأستحى من أن أكون شاعراً . فاستحسن المويلحى هذا الجواب الذى لاشك أنى بالغت فيـه ولـكنه كان يعرب عن ذات صدرى لأننى طول حياتى لم أحاول أن أكون فى الشعر سباق غايات وطلاع أنجد على حين انى كنت أرى منتهى السعادة فى الدنيا فى أن أكون من الـكتاب المعدودين . وقلما نظمت الشعر انبعاثاً من نفسى واطاعة لمجرد خاطرى فليس لى على هـذا الوجه إلا قصائد معدودات وكل ما عدا ذلك من شعرى انما نظمته قياما بواجب أو امتثالا لرسم أو نزولا عند رغبة. ولهذا تجد اكثر شعرى مراثى للاصحاب أوللاعلام الذين لامناص من رثائهم . وسيظهر ديوانى قريبا إن شاء الله فيقف القراء منـه على تحقيق كلامى هذا .

صنعة الشعر وابداع شوقى فيها

ومن المعلوم ان صاحب الصنعة انما يتقدم فيها اذا كان راغباً لامتكلفاً ومغرما لامتبرماً وكان مجتهداً أن يبـدع فيها لاجل الابداع ولأجل سبق غيره من الصناع ، فاما شوقى فكان كله شعراً قـد وقف نفسه على هذه الصنعة لا يهمه أن يتقن غيرها وصارت له غراما فـهو آناء ليله يفكر فى الشعر وأطراف نهاره يستنبط المعانى الغريبة وكلما عن له معنى قيـده وكلما انفتق فى ذهنـه مرمى أحرزه وهيأ له قالبا رائعا حتى اذا جاءت أول فرصة أودعه إياها

ومن أهم ما يغفل عنـه الناس وهو من أحق الحقـائق ان نفوس الأدباء لهـا أوقات صفو وأوقات كدر وانها فى اوقات الصـفاء قـد تبرم قوانين وتخلق معانى لا تتأتى لها فى جميع الأحايين . وربما لاح فى فكر الأديب خاطر فى احـدى السويعات لو استرسل فيـه لأتى فيه بالعجائب، على حين انه اذا نشده فى وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له فى ساعة الصفاء لوجد زنده فيـه صلدا ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التى كانت بين يديه فاذاهى الآن لا تطيعه ومنها ما ذهب غير معاود ومنها ما عصى غير مقرن. ولذلك كان يجب

على الأديب شفاف الطبع انه اذا عنّ له في سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ووجد هذا الموضوع منثالا عليه أن يسرع الى قيده أوابده ويأخذ القلم فيحرره واذا كان شعراً نظمه واذا كان نثراً دبجه، حتى لا يفوته فيما بعد، فان الافكار من جملة حظوظ الدنيا تهب أحيانا وتركد أحيانا فاذاهبت مرة وجب اغتنامها ولم يجز اهمالها على نية أن يعاد اليها مرة أخرى، وإن الافكار نظير الأقدار ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر ان يجيدها كل حين، وقد تفيض على الرؤوس أشمة إذا ولت تعذر استردادها. فاللبيب اللبيب هو الذى يقنص الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل انه يصطادها فيما بعد فانها إذا شردت قد تفوت والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء .

وقد كان شوقى ممن يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، وممن يقف في المظان التى تختلف فيها الطرائد فكلما عنّ سانح رمى بسهمه ، فلهذا عظم توفيقه فى الصيد وجاء بما لم يجئ به غيره ، ولم يقل لنفسه فى وقت من الاوقات : دعينا من هذا الآن لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود اليه فى ساعة أخرى ، بل كان المعنى المبتكر هدفا له كيفما عنّ وأنّى عرض، فلا يكاد يتراءى له شئ الا وتر قوسه وفوّق سهمه .

وهكذا ينبغى ان يكون الشاعر اذا أراد أن يجيد وان يقول فيه الناس : من ذا قالها ؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه او شيئا آخر من مناحى الحياة فوق الشعر بل ينبغى أن يكون الشعر هو غرضه الأول وان تدور حياته من حوله فجميع المشاغل تكون له فضلة ويكون الشعر هو العمدة، ولهذا قال خليل مطران : ان شوقى كان يفكر فى الشعر قاعداً وقائما وحاضراً وباديا وسائراً وسارياً وفى المركبة وماشيا الى غير ذلك. فقد قام نحو الشعر بالواجب الذى لم أقم به أنا ولا غيرى ممن جعل الشعر فضلة عمله ولم يقله إلا عند الضرورة . قد اعطى شوقى نفسه للشعر فأعطاه الشعر ما لم يعط غيره فى هذا العصر

انصراف شوقى الى الشعر

هذا وكان شوقى متصلا بخدمة سمو الخديو السابق ومنـذ بداية نبـوغه لقبـوه بشاعر الامير فصار ذلك اللقب باعثا له على زيادة الاجتهاد وفرط الارتياد حتى تكون مكانته الشعرية متناسبة مع المقام العالى الذى يخدمه بشعره. وبعبارة اخرى من حيث قيل له شاعر الامير آلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء فانصرف بكليتـه الى الشعر حتى تعطيه الاجادة قيادها ويعلم العزيز سيده انه ان كان هو سيد الامراء فان شاعره سيد الشعراء وان هذا المقام الذى يشغله شوقى برسمه يشغله ايضاً بنظمه. فاذا لزم أن يكون شاعر الامير سباق الحلبة ومقدام العصبة فانه لـكذلك وان سليقته قبل وظيفته . وقد كان هذا الحرص منه على افهام سيده انه الشاعر الذى لا يشق له غبار والذى اتفقت على تقديمه الاقطار هو الذي يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجعة واوسع فتوحات عقلية، فلا يقول الشيء الذى يقوله سائر الناس . فكان يقضى معظم اوقاته فى تجويد نظمه وتسديد سهمه ، فى تعمير صدره بالمعانى العالية وشحذ خاطره بالمرامى الدقيقـة والاغراض السنية حتى صار ذلك خلقا له غير منفك عنه، وصار اذا قال كلمة سارت فى الآفاق وتطاولت الى قراءتها الأعناق وبذخ فيها على الشعراء بالاتفاق . وأظن أن أصوب آراء شوقى هو انه لم يرد ان يكون شيئا غير شاعر كبير لا يقـال لسيده انه يوجد فى غير المعية السنية من هو أشعر منه . فكان طبع شوقى ظرفا لا يسع مع الشعر حاجة اخرى

ولم يخلط شوقى الشـعر بالسيـاسة ولا التجارة ولا الفقـه ولا الادارة ولا الزراعـة ولا عمـل من الاعمال الاخرى الـتى يتعاطاها الناس وكثيراً ما قرنوا بعضها ببعض فأخـذ العمل الواحـد من قوة العمل الآخر . وقلما زاول الانسان عملين الا غلب أحدهما عليه أو قصر فى الاثنين . وقد علم شوقى بثقوب فكره انه ان حاول أن يكون سياسيـا عظيما أو ادارياً ماهراً أو زراعياً متقناً أو اقتصادياً مدققـاً

سلبت عنايته بمهنته هذه من ملكته الشعرية بمقدار انصرافه عنها الى غيرها فقصر عن ادراك الامد الاقصى الذى لم يزل مطمح نظره فى الشعر وقعد عن الرتبة الأدبية اللائقة بمن يقال له شاعر الأمير وأمير الشعراء . وكما أن لقب شاعر الأمير وأمير الشعراء كان يزيد شوقى نفاذا فى صنعته وصقالا لقريحته كان يكسوه أيضا أمام الناس بهاء يستمده من منصبه ويلمع عليه بسبب حظوته عند الجناب العالى فكان كل من لقبه وأدبه عوناً للآخر .

القول فى مدح الامراء والملوك

وقد عاب بعضهم على شوقى قضاءه عمره فى مدح الامير ومدح السلطان والاشادة بذكر ذوى السلطة وربما عابونا نحن أيضا لمثل ذلك وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا أشعارهم على مدح الامراء والملوك وزعموا أن فى ذلك دليلا على طلب الزلفى أو التماس الجائزة .

والجواب على ذلك يحسن بنا أن نوضحه ايضاح من لا يبقى عليه ظلمة الابهام وهو:

جرت عادة الملوك والامراء سواء فى الشرق أو فى الغرب من قديم الزمان أن ينتدبوا لأنفسهم رهطا من الفصحاء من شاعر مفلق وكاتب مبرز وخطيب مفوه ونديم مطرب وأمثال هذا الضرب من ذوى المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الادبية الراجحة يشيدون بذكرهم فى المحافل بالقصائد الشوارد أو بالخطب الاوابد أو بالمناشير الصادرة كعقود الفرائد مما يزيد فى وقار الملك وسنام العرش وحرمة الرعية للراعى ويلقى على الافعال أقوالا تزيد فى بهائها وتضاعف من بقائها ، إذ لا يوجد مثل الشعر والنثر تقييداً للمآثر وتخليداً للمفاخر، فالشاعر الذى يتصل بملك من الملوك أو أمير من الامراء سواء فى شرق أو غرب لم يكن يجد من الغضاضة فى شىء التغنى فى مدح سيده حتى لو لم يكن أهلاً لكل ذلك الاطراء لأن مثل هذه الطبقة من الشعراء والادباء يذهبون الى أن الكلام انما هو للمقام لا للمقيم وأن المقام إنما هو رمز الامة وعنوان الملة . ثم قد شاءت الاقدار فى أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدول

الاسلامية بأجمعها وأن تغلظ شوكة الاجانب الغربيين بين أيديها ومن خلفها وأن تحيط بكثير منها وتأخذ على أيدى ملوك الاسلام فلا تبقى لهم سوى الرسوم والالقاب ويتغلغل نفوذ الأجانب فى هذه الحكومات المغلوبة على امرها فتصير الأمة التى فى مثل هذا الموقع وقد أخذ الاجانب بخناقها تتطلع الى أميرها الاصلى وتعزز من مقامه وتضاعف من اجلاله بناء على أنه هو رمز استقلالها الوحيد فالمبالغة فى إجلال هذا الرمز إنما هى المبالغة فى حفظ الاستقلال نفسه

فعند ما يهتف شوقى ومن فى نمطه بتلك القصائد الرنانة إما فى مدح عزيز مصر أو فى مدح الخليفة الأعظم فانما هو فى الحقيقة يشيد باستقلال مصر فى وجه الأجانب الطامعين المستأثرين بالأمر ، وعند ما يرسل كلماته الخالدة فى مديح السلطان الخليفة فانما يقدس مقام الخلافة العزيز على المسلمين الناظم لشملهم القائم فى وجه عدوهم . فليس فى هذا المذهب ما يدل على سلوك طريق التزلف كما يظن من لا يدقق فى أسرار الأمور ولكنها الصارخة القومية والنزعة الاسلامية والنضح عن حوض الخلافة والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شئ بالدعاء الذى يقال فى الجوامع نهار الجمعة استنزالا من عند الله لنصر سلاطين الزمان الحافظين لكيان الأمة فى الداخل والخارج وليس هذا الدعاء خاصاً بأشخاصهم وإنما هو للمقام الذى يتبوءونه، لا يزال الخطيب يدعو لهم حتى إذا زال الواحد منهم عن كرسيه دعا لخلفه. ولا يقال فى مثل هذه الحالة ان خطباء الجوامع متزلفون وانهم لذلك ليسوا على شىء من حرية الفكر . فالكلام هنا راجع كله للدولة مقصود به مجد الأمة وليست هنا الأشخاص هى القصد من الرسوم. وأيضاً فان هؤلاء الملوك والأمراء يبرون شعراءهم ويغمرونهم بالنعم الجسام ويحسنون اليهم بأنواع الإحسان، والنفوس مطبوعة على حب من أحسن اليها ، وقد قال المتنبى :

☆ ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا ☆

فلا عجب أن يكون أحمد شوقى قد قال فى الخديوى السابق القصائد التى سارت فى البلاد وترنم بها الحاضر والباد، وقال مثلها وأحسن منها فى السلطان عبدالحميد خليفة المسلمين الذى بمديحه تطيب نفوسهم وتهتز أعطافهم . ويزيد هذا البرهان ظهوراً أنه

لم تكن تقع حرب تظهر فيها قوة الدولة ويتلألأ مجد الملة إلا وجدت شوقى قد جاء يجر جحفل فصاحته ويرفع لواء بلاغتـه كما نظم فى حرب الدولة مع اليونان تلك القصيدة الباقية التى بذ فيها شعراء العالمين وساوى فيها شعر المتقدمين وسنذكر فيما بعد ما يأخذ بالألباب منها .

***

ولقد درت درر شوقى فى مديح الخديوى السابق بخيرات وشتّ بروده وكفته مؤونة العيش الأبله، فما من شعر اخضرّ له رعىٌ وأورق له غصن كشعر شوقى، وهذه هى عائلته تتقلب ولله الحمد فى النعماء التى أثّلها شعره .

وأما أنا فقـد كان أكثر فرارى من الشعر خشية أن يظن بى مزاولته تكسباً لا تأدباً ، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب ، فكنت إذا مدحت السلطان فانما أمدحه لأجـل أمتى التى هو سلطان عليها ، وكنت أنشر قصيدتى فى الجرائد ولا أقدمها إلى الحضرة السلطانية ، وفى إحدى المرار عند ما كنت فى ريعان الصبا نظمت قصيدة واستنسختها بخط أنيق وموهتها بالذهب وقصدت تقديمها للمابين الهمايونى كما كان يقال ثم عدلت عن ذلك واكتفيت بنشرها فى الجرائد . وقد سبق أنى لما أشار إلىَّ الأستاذ الامام بأن أنظم شيئاً للخديوى محمد توفيق رحم الله الاثنين نظمت تلك القصيدة الداليـة التى تقـدمت فى رسالتى هذه ولم أغفل أن أختمها بهذين البيتين

وإنى إذا أهدى العزيز مدائحى أبوء بصدق القول غير مفنَّد

وإلا فما حاولت إدراك غاية بشعرى ولا نظم القصائد مقصدى

وهذا حرصاً منى على أن لا يفهم الخديوى رغبة منى فى المكافأة وفى هذا منى نظر إلى قول أحد شعراء الأندلس وكان من أبناء البيوتات

وما أنا بالباغى على الشعر رشوة أبى ذاك لى جد كريمٌ ووالدُ

وأنى من قوم قديماً وحادثاً تباع عليهم بالألوف القصائد

عفة لسانه شوقى و بعده عن الهجاء

ولنعد إلى أوصاف شوقى الشعرية فنقول:انه وإن كان أسرف فى المديح وفى مديح أمير بلاده خاصة ، فلم يلوث شعره بالهجاء ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحداً، قد عصمه الله من ذلك فان من أقبح ما قبح سمعة الشعراء وجعل الخلق ينظرون إليهم بشىء من الريبة أن كثيراً منهم رتعوا فى لحوم الناس وسيروا المثالب التى قد تكون بلا أصل أو يكون لها أصل ضعيف ولكن الناس حفظوها وتدارسوها لبداعة قوالبها خلفاً عن سلف حتى انتهى الأمر بأن صدقوا فحواها وصارت فى نظرهم وقائع تاريخية. فلو كان شوقى شتاماً مقذعاً مع ما أوتى من الاجادة لكان ثلم أعراضاً وخلد مقابح وأورث أحقاداً وقيد فضائح وكان هجا نفسه بهجوه لغيره . وما أصدق هذه الجملة : الاناء ينضح بما فيه . فعفة لسان شوقى وتنكبه طريقاً طالما سلكها شعراء كبار وصغار ومتوسطون هذا دليل على زكاء طبعه وفرط حيائه وأيضاً على رجاحة عقله واصالة رأيه فكم أحدث الشعر من فتنة وأراق من دم وأحرج من جماعة وحرم العالم من نعمة . وأية نعمة كانت أعظم من شعر المتنبى الذى كانت حياته كلها أقوالا عبقرية آخذا بعضها برقاب بعض ولكنه برغم جميع حكمه الاجتماعية وآرائه الفلسفية لم يتنبه إلى ما فى الهجو من الاستهداف للمقت والتعرض للهلكة فقال من الأقوال الصغار ما يخالف تلك الحكم التى تفرد بها وأسفَّ فى الهجو إسفافاً يحار العقل لصدوره من مثله وانتهى بأن ذهب فريسة إقذاعه . وكل يعلم أن قصيدته المسخوطة التى أولها .

ما أنصف القـوم ضـبه وأمـه الطرطبـه

قد كانت سبب قتله على يد فاتك الأسدى خال ضبة الذى انتقم لشرف أختـه وحرم الناس مواهب تلك النفس العظيمة فى إبان إجادتها وأوج مجادتها . ونكتفى بهذا المثال عن الأمثلة الكثيرة التى كانت مآسى فى تاريخ العرب. وجراحات اللسان ليس لها التآم . فمن محاسن شوقى التى يجب أن تذكر وتؤثر أنه لم يستمطر عارض خاطره فى تقيد شنعاء أو تخليد صلعاء، وما أجدره بقول نصيب الشاعر : ما قلت بيتاً

قط تستحى الفتاة الحيية من إنشاده فى ستر أبيها . كان شوقى عفاً طاهر اللفظ صافى النفس تنعكس على مرآة نفسه النقية المحاسن دون القبائح . وكان لا يسلم من الحسد والمنافسة ومثله من يحسد ويغص بمكانه ولكنه كان يمر باللغو كريماً وبالحسد عظيماً وكأنه كان يرى نفسه فوق أن يزاحم ويجد شوطه أبعد من أن يسابق فيعف عن قدرة ويتواضع عن أنفة وقد صدق حيث قال :

فلا حكمتى دعوى ولا منطقى هوى ... ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد

جعلت مديحى آية الود فى الورى ... تجاب به الدنيا وما انتقل الود

قواف لرب الشعر لا النظم طائل ... إذا هى سارت فى البلاد ولا النقد

يهذبها العلم الذى العلم بعضه ... وهذا البيان الوحى والفطنة الوقد

أوانس أحياناً شوارد تارةً ... لها لعب آناً وآناً لها جِدٌّ

وما قال هذه الأبيات إلا على أثر قالة بلغته وهذه كانت غاية ما ثار ثائره ويجوز أن يكون وقع له غيرها ولكنى لم أطلع على ذلك بمكانى من بر الشام والمصريون أدرى بهذا منى وأنت ترى أن فى تعريفه هذا بمن ينافسه أو يحاول الغض منه مالا يجد فيه قائل مقالاً

وقد كان يتجنب أيضاً المساجلات والمناقشات فى شعره فلا يهاجِم ولا يهاجَم. وربما نيل منه فى غيابه ولكنه كان يقابل بالسكوت ولعل سكوته هو لما تقدم من ثقته بنفسه وشعوره بأنه الصخرة التى ينحط عنها السيل . وربما لو ذهب فى المناقضات مذهب الغابرين لكان أتى ببدائع أبقاها عزوفه عن هذا الأمر ملفوفة فى غلافها مكنونة فى أصدافها . فقد قرأنا فعلمنا أن الشعراء المفلقين إنما يحلقون فى سماء الفصاحة عند ما يناقض بعضهم بعضاً . انظر على سبيل التمثيل قول رماح بن ميادة يمدح قيساً ويفتخر بها ويهجو تميماً وأسداً :

وأحقر محقور تميم أخوكمو ... وإن غضبت يربوعها وربابها

ألا ما أبالى ان تخندف خندف ... ولست أبالى أن يطنّ ذبابها

ولو أن قيساً قيس عيلان أقسمت ... على الشمس لم يطلع عليكم حجابها

اذا غضب قيس عليك تقاصرت ... يداك وفات الرجل منك ركابها
وان غضبت من ذا قريش فقل لها ... معاذ الاله أن أكون أهابها
وانى لقوّال الجواب واننى ... لمفتخرٌ اشياء يعيى جوابها

فأجابه عبد الرحمن بن جهيم الاسدى :

لقد كذب العبد بن ميادة الذى ... ربا وهو وسط الشول تدمى كعابها
ارمّاح ان تغضب صناديد خندف ... يهج لك حربا قصبها واعتيابها
ولو أغضبت قيس قريشا لجدعت ... مسامع قيس وهى خضع رقابها
لقد جر رماح بن واقصة الخصى ... على قومه حربا عظيما عذابها
وقد علم الملوح بالشؤم رأسه ... قتيبة إن لم تحم قيسا غضابها
ولو أن قيسا قيس عيلان أصحرت ... لانواء غنم أغرقتها شعابها
ولو أن قرن الشمس كان لمعشر ... لكان لنا اشراقها واحتجابها
ولكنها لله يملك أمرها ... بقدرته اصعادها وانصبابها
لعمرى لئن شابت حليلة نهبل ... لبئس شباب المرء كان شبابها
ولم تدر حمراء العجان أنهبلٌ ... أبوه أم المرى تب تبابها
ووالله لولا أن قيسا أذلة ... لئام فلا يرضى لحر سبابها
لألحقتها بالزنج ثم رميتها ... بشنعاء يعيى القائلين جوابها

لاجرم أن فى هذا الشعر سواء من المهاجم أو المدافع من جزالة اللفظ وبلاغة التأثير وعلو النفس وقوة الطبع ماينذر أن يكون فى شعر شاعر وقد كان يلذ للقارىء ويحلولى فى ذوق السامع ويستعاد مرارا لولا ما فى جواب الشاعر الأسدى من المقاذر ولو أنهم كانوا اقتصروا على المفاخرة والمعاتبة لكان بهم أحجى ولهم أنجى وبالافئدة أعلق وبزكاء شمائلهم أنطق . وعلى كل حال لم يعلم ماذا كان يكون من شوقى لو فاخره مفاخر أو كاثره مكاثر فانه لم يسلك هذه الطريقة ولا اختار هذا المركب ولو انه كان اختاره أو دفع اليه لوجد من يجاذبه الحبل ومن يقف فى وجهه وقوف الكفء للكفء فلا حافظ ابراهيم ولا خليل المطران ولا الكاظمى ولا الرصافى ولا من فى

درجتهم كان يعجز عن ان يقابل شوقى السجل بالسجل ولكن اما لرغبة منه عن الشحناء واما لترفع منه عن مباراة النظراء، ربأ بنفسه عن القال والقيل وتباعد بها عن كل نزاع من هذا القبيل وأصبح الفذ الذى لا يساجل والجواد الذى لايجارى حتى انى قلت فيه عند وفاته من جملة رثائى له :

ولقد رويت الشعر عن آحاده ... والِفت للسباق فى حَلباته
وقضيت فيه صبوتى وصبابتى ... وقطفت منه خير نوّاراته
وأثرتُ فى الميدان بُزل فحوله ... وأطرت فى الآفاق شُهب بزاته
فرأيت شوقى لم يدع فى عصره ... قِرنا يهزّ قناته لِقناته

شوقى فى بداية امره

ولما نشر شوقى الجزء الاول من ديوانه وذلك سنة ١٩٠٠ بعث الىّ بعدد لا اتذكر مقداره من النسخ فنشرتها فى بيروت ولبنان وسورية وأعلنت عن ذلك الديوان فى الجرائد السورية وقلت فى الاعلان : اذا كان الشعراء أربعة فان الشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه فى هذه الايام والذى احيى بشعره عهد أبى نواس وأبى تمام انما هو احمد شوقى بك شاعر مصر وصناجة العصر . الى اسطر لم تبق فى بالى . وكان شوقى قد اشتهر وسار شعره فى بر الشام ولكن هذا الديوان زاد فى لمعانه وجمعت أثمان النسخ وبعثت بها الى شوقى ولما كان الكثيرون لم يدفعوا أثمان النسخ التى خصصناهم بها كما هى عادة الشرقيين فى استهداء المطبوعات مجانا فقد أرسلت من جيبى بثمن مالم أقبض بدله الى شوقى ولم اخبره بان ذلك هو منى لئلا يردّه الىّ .

وكان شوقى الى ذلك العهد ضعيف الحال لم يحصل على الثروة التى جمعها فيما بعد والتى كان السبب فيها شعره بدون نزاع . ولما بعث الىّ بذلك العدد من نسخ ديوانه أهدانى نسخة خاصة بى بجلد مذهب لاتزال فى حوزتى وقد كتب عليها فى الصفحة الاولى : « الى أميرى وأخى شكيب ارسلان «شوقى» والتاريخ ٢٧ مارس ١٩٠٠» اما النسخة التى طبعت فى السنين الاخيرة فهى تشتمل على قصائد مثبتة فى الطبعة الاولى

وعلى قصائد جديدة . ولـكن مقدمة شوقى فى الطبعة الاولى محـذوفة من الطبعة الثانية . وهى المقدمة التى ترجم فيها نفسه فقال :

شوقى كما ترجم نفسه

« الآن أدخـل فى الحديث مع فريق طلبوا منى أن أجمل صورتى فى هذه المجموعة وآخرين رغبوا الىّ فى كلمة تقال عنها وعن صاحبها وأن لا يقولها سواى. معذرتى الى الفريق الاول أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم وأعوذ بالله وبالمحبين أن اكون ذلك الرجل . على أن صورتى ماعشت بينهم ينظرون اليها فاذا مت فليأخذوها من أهلى اذا جد بهم الحرص عليها . وللآخرين أقول : انى لا أزال فى أول النشأة وان حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلىء من الفوائد ولا المصائب حتى أحدث الناس باخبارها لـكنى لا أثق بيومى الآنى وأخاف بعدى رجوم الظن وضلات الاحاديث فلى العذر أن أجيب طلبهم على أن يكون الحديث بينى وبينهـم كما يكون بين الأحباب . سمعت ابى رحمه الله يرد اصلنا الى الاكراد فالعرب ، ويقول ان والده قدم هـذه الديار يافعا يحمل وصاة من احمد باشا الجزار الى والى مصر محمد على باشا وكان جدى وانا حامل اسمه ولقبه يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاء . فأدخله الوالى فى معيته ثم تداولت الايام وتعاقب الولاة الفخام وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب فى المناصب السامية الى ان أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية فكانت وفاته فى هذا العمل عن ثروة راضية بددها ابى فى سكرة الشباب ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم وعشت فى ظله وأنا واحدهُ اسمع بما كان من سعة رزقه ولا ارانى فى ضيق حتى اندب تلك السعة فـكأنه رأى لى كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقتات من فضلات الموتى

(إلى أن يقول) : « أما ولادتى فـكانت بمصر القاهرة وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين . حدثنى سيد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ على الليثى قال : لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد ، فقص علىّ حلما رآه فى نومه فقلت له وأنا أمازحه : ليولدن لك ولد يخرق ــ كما تقول العامة ــ خرقا فى الاسلام

« ثم اتفق أنى عدت الشيخ فى مرض الموت وكانت فى يده نسخة من جريدة الأهرام فابتدر خطابى يقول : هذا تأويل رؤيا أبيك يا شوقى ، فوالله ما قالها قبل فى الاسلام أحد . قلت وما تلك يا مولاى قال قصيدتك فى وصف (البال) التى تقول فى مطلعها :

حف كأسها الحبب فهى فضـة ذهب

وها هى فى يدى أقرأها . فاستعذت بالله وقلت له : الحمد لله الذى جعل هذه هى « الخرق » ولم يضر بالاسلام فتيلا اه

«أخذتنى جدتى لأمى من المهد وهى التى أرثيها فى هذه المجموعة وكانت منعمة موسرة فكفلتنى لوالدى وكانت تحنو علىّ فوق حنوهما وترى لى مخايل فى البر مرجوة حدثتنى أنها دخلت بى على الخديوى اسماعيل وأنا فى الثالثة من عمرى وكان بصرى لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه فطلب الخديوى بدرةً من الذهب ثم نثرها على البساط عند قدميه فوقعتُ على الذهب أشتغل بجمعه واللعب به فقال لجدتى : اصنعى معه مثل هذا فانه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض . قالت : هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك يا مولاى . قال : جيئى به إلىّ متى شئت إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر اه . ولا يزال هذا الارتجاج العصبى فى الإبصار يعاودنى وكان المرحوم الشيخ على الليثى كلما التقت عينه بعينى ينشد هذا المصراع للمتنبى «محاجر مسك ركبت فوق زئبق » انتهى إلى آخر ما ذكره من صفحات حياته إلى السنة التى طبع فيها الجزء الأول من شوقياته . فتعرض له ابراهيم بك المويلحى الكاتب المشهور ونشر مقالة فى المؤيد ليست محفوظة عندى وإنما الذى أتذكره أن المويلحى هزأ بشوقى فيما ذكره عن ارتجاج عينيه وفى قول الشيخ على الليثى له « محاجر مسك ركبت فوق زئبق » وخطأه فى ترجمته لنفسه زاعماً أن مثل هذا غير مألوف عند المؤلفين وأنه لم يعهد أن مؤلفاً ترجم نفسه فى مقدمة كتابه وغير ذلك من المزاعم المستغرب صدورها من أديب كبير مثل ابراهيم بك المويلحى . فلم أستطع على ذلك صبراً ورددت على المويلحى بمقالة فى جريدة المؤيد هى أيضاً غير محفوظة عندى وقد بعثت إلى مصر أبحث عنها فى مجموعة

المؤيد بخزانة الكتب الملوكية فأجابونى بأنهم بحثوا عنها فلم يعثروا عليها . ولذلك لا أقدر أن أروى منها طائلا يذكر لأن النثر لا يحفظ كما يحفظ الشعر . وقد وقع لى أن فقدت بعض قصائدى فأمليتها كلها عن ظهر قلبى وأمليت من قصائد أخرى مفقودة أبياتاً غير قليلة . ولكن لو فقدت مقالة من المقالات أو فصلا من الفصول لما تسنى لى أن أروى من ذلك سطرين متتابعين. فلهذا أكتفى بأن أقول انى رددت على المويلحى متعجباً من مكابرته فيما هو محسوس لا خلاف فيه ، فان كثيراً من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم فى كتبهم ولسان الدين بن الخطيب أعظم كتاب الأندلس ومن أعظم كتاب العرب قد ترجم نفسه فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وكذلك الإمام السيوطى شيخ المؤلفين لا فى العرب وحدهم بل فى العالم كله[1] وهو الذى صنف أربعمائة وستين كتابا قد ترجم نفسه أيضاً فى (حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة)

وعددت ذلك اليوم علماء آخرين ترجموا أنفسهم، فلم يجاوب المويلحى على ردى وقطع عن الكلام لعدم اتساع المجال للمماحكة، فكتب شوقى إلىّ على أثر هذه المناقشة كتابا يقول لى فيه : « دفعت اليازجى عنى بيد هدمت كيانه وألغت بيانه ، وتحامل علىّ المويلحى فرددت عنى الرد الذى قطع حجته ، فبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول ، فسبحان من جعلك جلادا لأعدائى وروبرتساً لحسادى الخ . . »—يريد بروبرتس القائد الانجليزى الذى دوخ الترانسفال وكان المهد يحرب الترنسفال قريبا .

نموذج من رسائل شوقى

واكثر كتب شوقى مفقود من عندى بكثرة اسفارى وضياع كثير من أوراقى ثم هناك سبب آخر لصعوبة العثور على الاوراق التى أنشدها فلا أجدها، وهو أن ما عندى من الاوراق والطروس المكتوبة يملأ صناديق عديدة، بل الظروف التى

---

(١) قال سيديو مؤلف كتاب مدنية العرب بالافرنسية: إن السيوطى ألف من الكتب مالم يقرأ كثير من الأوروبيين فى حياتهم بعدده

تشتمل على تلك الاوراق تحصى عندى بالمئات لا بالعشرات. وهذا كله عدا المطبوع الذى منه صناديق أخرى مفعمة لزاً. فاذا اردت أن ابحث عن مكتوب لزم لذلك أيام وليال وتعطيل أشغال. وبديهى انى لا أملك من الوقت ماأتفرغ فيه للبحث عن أوراق غائصة فى تلك اللجج الخضر ولا شك فى أن مكاتيب شوقى هى بين هذه الاوراق ولكن لا تصل اليد اليها . وقد عثرت اتفاقا على كتاب منه فى تاريخ ٢٦ اكتوبر سنة ١٩٠٧ يقول لى فيه مايأتى :

أميرى الحبيب الكريم

سلام الله العلى العظيم على ذلك الجناب الكريم وبعد فان اخى بيومى بك الذى يتقدم اليك برسالتى هذه هو رجل كله أدب وان لم يكن من رجال الأدب ، وقد عزم على أن يقيم ببيروت أياما معدودة وأبى الا أن أدله على علمها ومنارها والأثر الفخم الجليل من آثارها وهو أنت ، وها قد دللته واليك أرسلته ، وأنا أغبطه بهذه الوفادة واحسده على تلك السعادة .

المخلص

شوقى

شوقى فى سورية

وجاء شوقى مرة الى سورية لا اتذكر أية سنة فوصل الى عالية وكنت مصطافا فى صوفر فبعثوا الىّ يقولون : ان شوقى فى عالية وانه يريد مشاهدتك. وصادف أنى كنت ذلك اليوم ملتاثاً فبعثت اليه بأن ينتظرنى وانى اكون فى الغد عنده . وثانى يوم بكرت اليه وذكرت له سبب تأخرى فقال لى على سبيل المداعبة : رجوت ان تكون كاذبا ولا تكون مريضا . فقلت له: المرض أحب الى من الكذب. ثم دعوته الى صوفر فمكث عندى يومين لا غير وكان العهد قد طال علىّ بلقائه وكان اشتد بى الشوق اليه فوجدت عليه فى قصر مدة إقامته عندى ولكنه كان أشبه بالطير يريد أن يبقى حراً طليقاً. وكان شوقى قبل ذلك فى الآستانة فحصلت معارفة بينه وبين المرحوم عمى الأمير مصطفى أرسلان رئيس العائلة الأرسلانية فى وقته وكان ذهب يصطاف فى تلك العاصمة

فأحب العم شوقى كثيراً وكانا يتجالسان ساعات طوالا وكل منهما حريص على عشرة الآخر وكلما طالت مدة اجتماعهما طابت لهما .

ولما كان شوقى فى عالية سأله أحد أعيان لبنان قائلا : بلغنا أنك لقيت الأمير فى الآستانة . فأجابه شوقى : ذا أمير ؟ ذا ملك . قالها وهو ملآن إعجابا بالأمير مصطفى . فكان وداده لعمى إلى هذه الدرجة مما يزيدنى تعلقاً به .

زيارتى لمصر فى أيام الحرب الطرابلسية

ولما هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب سنة ١٩١١ كاتبت الجهات فى اعمال الرحلة الى تلك البلاد بجدة لاهلها وفى تسريب الامدادات المالية اليهم، وابرقت الى الاستانة ببرقيات فى ذلك المعنى جاءنى عليها الجواب من محمود شوكت باشا ناظر الحربية ببرقية طافحة بالشكر على ما كنت ابديه من الهمة فى أمر المدافعة عن الوطن وكان لى يد فى استجاشة المصريين لامداد اخوانهم الطرابلسيين سواء فيما كنت أكتبه من المقالات المؤثرة فى جريدة المؤيد أو بما كنت أكتبه فى رسائلى الخاصة الى بعض أصحابى بمصر . واخيرا كتبوا الى ومن جملتهم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد يقترحون علىّ قدومى الى مصر لاجل العمل معا فى انجاد طرابلس . وصادف هذا الاقتراح هوى فى فؤادى إذ كنت أحدث نفسى من أول يوم هوجمت فيه طرابلس بأن أذهب الى هناك عن طريق مصر . وخلاصة الأمر انى جئت الى مصر فى خبر ليس هنا موضع تفصيله وانما أتيت به لمناسبة اجتماعى هذه النوبة بشوقى وكيف كان ذلك ؟

استطراد

جئت الى مصر فعين لى الجناب الخديوى ثالث يوم وصولى موعداً للملاقاة وجلست فى حضرته أكثر من ساعة نتذاكر فى تلك الحوادث المهمة والخطوب المدلهمة ولقيت من سموه كل حفاوة وانعطاف . وما مضت أيام حتى أدب الخديوى مأدبة لكامل باشا وفريد باشا الصدرين السابقين فى الدولة فدعانى اليها وكان ممن دعى

أيضا شفيق باشا المؤيد من أعيان الشام، وبصرى بك من أعيان الارناؤوط ، والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد

وعاد الخديوى فاستدعانى مرة ثالثة وأرادنى على الاقامة بمصر وصرف النظر عن الذهاب الى برقة. أرادنى على ذلك بكل ريدة ؛ فلم اقتنع وقلت له : انى ماجئت من لبنان إلا قاصدا الجهاد فى طرابلس . فلما يئس من اقناعى بالبقاء فى مصر ، وودعته لاجل السفر ، أراد تكرما منه أن يساعدنى مساعدة مالية فاعتذرت له بانه لا يلزمنى شيء من ذلك وانه موجود فى جيبى ما يسد حاجتى فى هذه الرحلة فألح فى قبول المساعدة إلحاحا شديدا لم أقدر على صرفه عنه إلا بقولى : انى اذا أنفقت ما لدي ومست بى الحاجة الى شيء فلا أتأخر عن أن أستمد عاطفة سموكم . وكان هذا الحديث أمام احمد بك العريس ومحمد بك عثمان

فى طريقى الى بنغازى وعودتى

وودعت الجناب الخديوى وذهبت الى الاسكندرية ، ومنها ركبت السكة الحديدية الى مريوط ، ومن آخر محطة لها ركبنا الخيل أنا ومن معى من أتباعى الذين حضروا معى من جبل لبنان . وكانت جمعية الهلال الاحمر المصرى قد عهدت الىَّ بقيادة قافلة ستمائة جمل موقرة أرزاقا للمجاهدين فى برقة وخصصت منها لى ولجماعتى الذين معى محمول ثلاثين جملا موقرة من كل شيء من مأكول وملبوس . فعندما وصلت الى طبرق لقيت فى ذلك الموقع أدهم باشا الحلبى وتركت فى طبرق جانبا من الارزاق للمجاهدين . ولما وصلت الى معسكر عين منصور المشرف على درنه حيث كان القائد العام أنور بك سلمت البعثات المصرية من الهلال الاحمر ماخصت به من نقود وارزاق وحوائج . ولما وصلت الى معسكر بنغازى الذى كان أميره عزيز بك على المصرى سلمت الباقى للبعثات المصرية التى هناك وكان منها الدكتور حافظ عفيفى

أما محمول الثلاثين جملا الذى خصصه الهلال الاحمر ولجنة الاعانة بى أتصرف به كيف شئت فقد وزعته على مشايخ الزوايا السنوسية مثل سيدى العلمى الغمارى شيخ

زاوية البراعصة، وسيدى محمد الغزالى شيخ زاوية ترت، وسيدى الدردفى شيخ زاوية شحات وغيرهم. وأهديت جميع ما بقى الى أنور باشا ولم استأثر لنفسى بشىء. وكذلك كانت لجنة الاعانة خصصت لى مائتى جنيه لنفقتى الخاصة فوزعتها اعانات وهدايا لأجل تطييب خواطر المجاهدين وبقيت انفق على نفسى من صلب مالى الذى كان معى مذ برحت منزلى فى جبل لبنان

ولما رجعت الى مصر بعد قضاء سبعة أشهر فى موطن الجهاد كان قد نفد كل مامعى من النقود، فلم اراجع الجناب الخديوى حسبما وعدته بل راسلت الى أهلى بأن يبعثوا الى ما يقوم بأودى، لاننى كنت ذاهبا الى الاستانة لمذاكرة الدولة فى قضية طرابلس وكيف يجب أن لا تقطع امدادها لها بالطرق الممكنة حتى بعد عقد الصلح مع ايطاليا

استطراد آخر

ليس هذا من موضوع شوقى فى شىء ولكنه جاء استطراداً بسبب يعذرنى الناس فيه،وهو ان كثيرا من الحساد لا يزالون يتشدقون بأنى بقيت فى سويسرة عدة سنوات أقبض ثلاثين جنيها فى الشهر من الخديوى السابق ، ويجعلون هذه القضية مطعنا يحاولون به شفاء إحنة صدورهم . والحال أن الخديوى السابق نفسه يعترف بأنه هو الذى ارادنى على قبول هذ المرتب الذى كان يراه ضئيلا بالنسبة الى نفقاتى فى القضية العربية الاسلامية عامة واننى انا مع ذلك اعتذرت له بادىء ذى بدء عن قبول هذا الراتب وما وطنت النفس على قبوله الا بما شاهدت من الحاحه ومن إلحاح صديقى سليمان بك كنعان اللبنانى الذى كان يسفر بينى وبين سمو الخديوى السابق ويبين لى انه ليس من الطمع فى شىء أن يرضى مثلى بمكانه من قضايا عامة معلومة عند كل أحد وفى هذه الغربة المتمطية بصلبها بقبول مساعدة أمير كبير ذى ثروة طائلة جاس على كرسى إمارة مصر ٢٣ سنة

وكذلك لاينسى الخديوى السابق انى لما ودعته فى سراى القبة قاصدا موطن

الجهاد فى برقة اعتــذرت عن قبول أى رفد منــه رغم ما راودنيه على القبول ومع معرفتى أنه لا يعيب مجاهدا ذاهباً يقاتل عن قطر متصل بمصر أن يقبل مساعدة من عزيز مصر .

وليس هذا الحديث بذى صلة مع ما نحن بسبيله لولا ما لا يزال الحساد يثرثرون به فى هــذا الموضوع بكرة وأصيلاً وما لا يزالون يذيعونه لدى من لا يعرفنى فى بلادى من انى لا أملك شيئا ولا أقدر أن أعيش أنا وعائلتى من وارداتى الخاصة . وهذا هو أيضا بهتان صريح مخالف للمحسوس يعلمه جميع أهل وطنى ، فلست أدعى كونى من ذوى الثروة المعدودة ولــكن ليس بصحيح انى لا أقــدر أن أعيش أنا وعائلتى من ريع عقــاراتى وأمــلا كى . انه لمستهجن جــدا الخوض فى أحاديث كهذه ولكن تحامل الحساد وتتبعهم العورات يحملان المرء احيانا على تعقب اكاذيبهم ولو على كره منه. وأعود الى شوقى فأقول :

جفوة لا سبب لها

مضت عدة اسابيع على مقامى بمصر قبل أن ذهبت الى برقة ولم اشاهد شوقى . وقد كنا اخوين، ونحن على البعد، وكنت «جلادا لأعداء شوقى» وكنت أسترخص كل غال — ومن جملة هذا الغالى صداقة مثل اليازجى — فى سبيل مرضاته ، فما عدا ممــا بدا ؟

الجواب انى لا أعرف سبب تلك الجفــوة ولا موجب تلك النبــوة الى هذه الساعــة ؛ أغصّ شوقى بمكانى من الجناب الخديوى وكثرة ما رأى من احتفــال سيده بى ؟ أم جاء من ألقى فى أذنه أنى سأزاحمه فى محله من القرب للجناب العالى ؟ أم هو رجل له بدوات وغفلات بينما هو حفى بخلانه وفىّ مع اخوانه اذا هو معرض عنهم متهاون بحقوق المودة التى بينه وبينهم ؟ أم هو شاعر لا يتقيد بشىء ولا يريد أن يكون خاضعا لتكاليف الحياة حتى مع أعز أصحابه ؟ أم هناك عذر آخر لا أعرفه ولا يهمنى أن أعرفه ؟

كنت نازلا ضيفا على صديقي المرحوم احمد بك العريس من أعيان بيروت ومن مأموري المعية الخديوية، وكان منزله في العباسية، فلما وصلت الى القاهرة جاء الى الاوتيل الذي نزلت به وأبى أن يتركني فيه ليلة واحدة وسار بي الى منزله وأبقيت الرفاق الذين كانوا معي في أحد الفنادق. وكنت أختلف كل يوم الى ادارة المؤيد فأكتب مقالة افتتاحية . وهكذا كان دأبي مدة الاربعين يوما التي سبقت سفري الى برقة . وقال لي احمد بك العريس ذات يوم : إنني قابلت شوقي وقلت له أفلا تدري أن أخانا الامير هو هنا ؟ قال : نعم . قال العريس : فهل اجتمعت به ؟ قال شوقي كلا لم اشاهده حتى الآن ومرادي أن أقوم له بحفلة تكريم في منزلي ولما كان ناظر المعارف غائبا هذه الايام فقد أرجأت هذه الحفلة الى مابعد رجوعه . فقال له العريس: الرجل لاينتظر منك حفلة تكريم وليس ما بينكما من الاخاء مما يوجب هذه المراسيم ولكن الأشبه بك والاليق بوفائك أن تذهب وتسلم عليه . فقال له شوقي سأفعل . الا انه مضت مدة ولم يأت لزيارتي .

فأخذت القلم في أحد الايام وكتبت الى شوقي :

أحن إلى شوقي وأهوى لقاءه   وأصبو ولكن ما إليه وصول

ويخبرني قلبي بأن فؤاده   كما كان لكن يعتريه ذهول

ووالله ما يممت مصر وفوقها   يدانيه عندي صاحب وخليل

فشوقي إلى شوقي بقدر محبتي   وعندي حساب للعتاب طويل!

فما أجاب شوقي على هذا الخطاب لا بشعر ولا بنثر ولا بفعل . ولكنه بقي يقول لأحمد العريس انه يريد أن يعمل لي حفلة تكريم . وفي أحد الأيام زارني الأخ خليل بك المطران وهو من العقل وكرم الأخلاق ورعي الذمام بالمقام الذي يندر بين الاخوان وكان يزيدني حباً له ما كان بيني وبين عمه حبيب باشا المطران من عيون أعيان سورية وبيني وبين أولاده ولا سيما ندره بك المطران من ذمام قديم وود متين . وكنت أعلم ما بين خليل وشوقي من المودة فكاشفته بما في نفسي من أمر شوقي وقلت له : انه لا شيء يمكنه أن يكدر صفو ما بيني وبين شوقي من المودة ولكني أصبحت أستحي

من الناس أن يعلموا بأنى هنا من شهر وأن شوقى لم يتكرم بزيارتى والقادم يزار . فقال لى الخليل: لايكن في نفسك شيء من هذه النبوة فشوقى له من هذا القبيل الشيء الكثير ولكننا نحن لا ينبغى أن نحمل ذهوله هذا على محمل الهجران .

اجتماع بعد انقطاع

وذهب الخليل وجاءنى ثانى يوم وقال لى لنذهب إلى أوتيل كونتننتال . فسرنا إلى هناك فاذا بشوقى ينتظرنا فجلسنا نحن الثلاثة ساعتين من الزمن . وفى ذلك المساء كان تمثيل رواية صلاح الدين الأيوبى لأجل ضم ريعها إلى الاعانات الخاصة بجرحى طرابلس الغرب . وكانت أقيمت سوق خيرية للغرض نفسه وأقبل الناس يشترون منها . وكان الشيخ على يوسف سألنى : أتريد فى هذه الليلة أن تنشد شيئاً من الشعر فانه يحتمل أن تتقدم الرواية قصائد تتلى على الجمهور . فقلت للشيخ على : لا أرى نفسى هاتفة هذه الأيام بالشعر . وذلك أنى كنت فى كل صبيحة أكتب فى المؤيد مقالة افتتاحية خمسة أو ستة أعمدة أكتبها قطعة وراء قطعة ومرتب الحروف يصفها بينما أنا لم أنته منها. فرجحت فى هذه المدة كفة النثر وأشالت كفة الشعر وصرت أخشى أنى إذا حاولت الشعر لا أبلغ منه درجة الاجادة . فلما اجتمعنا الخليل وشوقى وكاتب هذه السطور قال لنا الخليل : دعانى أن اتلو عليكما القصيدة التى هيأتها لهذه الليلة . فقرأ لنا قصيدة رائية مطلعها :

كم بطلٍ مات ولم يسمر تحت هلال الرحمة الأحمر

وأتى عليها كلها وهى كسائر شعر الخليل، دقة معنى ورقة شعور وجزالة لفظ وعلو طبقة ، وما كان لقب الخليل بشاعر القطرين تجوزاً ولا تسامحاً . وأبديت له ملاحظة على بيت من تلك القصيدة فأسرع بتغييره . فأما أنا وشوقى فكنا لم ننظم شيئاً لتلك الحفلة، وسألنا الخليل عما إذا كنا سنقول شيئاً.فقال كل منا : ما هيأت شيئاً. إلا أننا بعد أن انصرفنا وجئت أنا إلى مركز الهلال الأحمر وجدت المكان خالياً وقلت لأستفيدن من هذا السكون وأنظم بضعة أبيات بالأقل . فلما بدأت بالنظم انبعث بى

الشعر وانثالت عليّ الأبيات كأنها تنحدر من صبب ، فما مضت ساعة إلا وهي في يدي قصيدة تامة . وأصاب شوقي ما أصابني كما حدثني فيما بعد ، وهو أنه انتبذ موضع مناجاة بعث به الشعر فنظم قصيدة كما نظمت أنا بدون أن تكون سبقت له نية . ولما جئنا ملهى الأوبرا جئنا نحن الثلاثة وكل منا قصيدته في جيبه . وكان الخليل قد علم منا أننا لم نهيء شيئاً فما راعه إلا وأنا أنشد قصيدتي وأحد الشعراء ينشد من بعدي قصيدة شوقي

حفلة السوق الخيرية

التي أقيمت لمعاونة مجاهدي طرابلس وقصائد شوقي والمطران والمؤلف

أما قصيدة المطران فليست تحت يدي لأثبتها في هـذا الـكتاب ، وأما شوقي فقال ما يلي :

جـبريل هلل في السماء وكبر	واكتب ثواب المحسنين وسطر
سـل للفقير على تـكرمه الغني	واطلب مزيداً في الرخاء لموسر
وادع الذي جعل الهلال شعاره	يفتح على أم الهـلال وينصر
وتولّ في الهيجاء جنـد محمـد	واقعـد بهم في ذلك المستمطر
يامهرجانـ البر أنت تحيـة	لله من ملأ كريم خـير
هم زينوك بكل أزهر في الدجى	والله زانك بالقبـول الأنور
حسنت وجوهك في العيون وأشرقت	من كل أبلج في الأكارم أزهر
كثرت عليك أكفهم في صونها	فـكأنها قطـع الغمام الممطـر
لو يعلمون (السوق) ما حسناته	بيع الحصى في السوق بيع الجوهر
جـبريل يعرض والملائك باعة	أين المساوم في الثواب المشترى؟
ومجاهدين هنـاك عنـد معسكر	ومن المهابة بين ألف معسكر
موفين للأوطان بين حياضها	لا يسمحون بها وبين الـكوثر

عرب على دين الأبوة فى الوغى ... لا يطعنون القرن ما لم ينذر
ألفوا مصاحبة السيوف وعودوا ... أخذ المعاقل بالقنا المتشجر
يمشون من تحت القذائف نحوها ... لا يسألون عن السعير الممطر
فى أعين البارى وفوق يمينه ... جرحى نجالهم كجرحى خيبر
من كل ميمون الضماد كأنما ... دم أهل بدر فيه أو دم حيدر
جذلان هينة عليه جراحه ... وجراحه فى قلب كل غضنفر
ضمدت بأهداب الجفون وطالما ... ضمدت بأعراف الجياد الضمر
عواده يتمسحون بردنه ... كالوفد مسح بالحطيم الأطهر
وتكاد من نور الاله حياله ... تبيض أثناء (الهلال الأحمر)

***

يا بنت (إلهامى) دعاء معظم ... لسماء عزك فى البرية مكبر
توفيق مصر وأنت أصل فى الندى ... وفتا كما الفرع الكريم العنصر
أنتم جمال الشرق زين ملوكه ... لا زال بيتكم جمال الأعصر
لكم الندى آثاره وحديثه ... شغل السميع ونور عين المبصر
النيل فجر مشرعين وعيلماً ... وتفجرت يمناك خمسة أبحر
أحييت فى فضل الملوك وعزهم ... ما مات من أم الخليفة جعفر
إن الذى قد ردها وأعادها ... فى بردتيك أعاد فىَّ البحترى
فنظمت ما نثرت يمينك شاكراً ... لا يحُسن الإحسان ما لم يُشكر
إنى رأيت على الرجال مظاهراً ... فعلمت أن الفضل كل المظهر
وعلمت أن من النساء ذخيرة ... غير الثناء لنفسها لم تذخر
لما توليت الهلال رفعته ... بين السها شرفا وبين المشترى
ولكم دعوت نساء مصر لصالح ... فنهضن فيه يقلن عائشة أؤمرى
فكأنهن عقائل من هاشم ... وكأنك الزهراء فوق المنبر

وأما قصيدتى فهى هذه :

سلا هل لديهم من حديث لقادم ... من الغرب يروى فيه غلة هائم
وهل وردتهم عن كريم مقامه ... سمان المعالى فى لطاف النسائم
وهل نظروا من نحو برقة موهناً ... فلاحت لهم منها بروق الصوارم
تألق فى ليلى ظلام وقسطل ... فتنشى سحب الدمع من طرف شائم
مواطن إخوان تملوا من الردى ... كؤوساً تساقوها بملء الحلاقم
دفاعا عن الأوطان إن دفاعها ... لدي كل قوم كان أولى المكارم
تهيبهم فيها العدو مهاجما ... فجاء دبيب اللص فى ليل قاتم
ولين فى إقباله من إهابه ... وهل يخدع الانسان لين الاراقم
فثاروا وما كانت أرانب رومة ... من الغرب أكفاء الليوث الضراغم
ونعم سقاة الموت هم كلما بت ... بروق المواضى فى رعود الغماغم
وحسبك منهم كل قوم نمتهمو ... أرومة قحطان ونبعة هاشم
وكم وقفوا يستنصفون عدوهم ... وهزوا من الأملاك جذع المراحم
فلما رأوا عجز الدليل تطلبوا ... لدى الصارم البتار صدق التراجم
فلم يك مثل السيف كاليوم قاضياً ... ولا المهد مثل الآن أحلام حالم
وما طال نوم السيف إلا تنبهت ... عيون الدواهى منه عن جفن نائم
أخلاى سوق المنايا مقامة ... تباع حفافيها غوالى الجماجم
فهل لكمو فى سوق بر ورحمة ... تنالون فيها باقيات المغانم
غياثاً لمظلوم ونصراً لصارخ ... وضمداً لمجروح وقوتاً لصائم
كفى بالهلال الأحمر اليوم هادياً ... لمن حار فى ليل من الشك داهم
وأكرم بأم المحسنين التى طمى ... جداها كلج العيلم المتلاطم
سليلة (إلهامى) فمن كل جانب ... لها نسب نحو البحور الخضارم
وأجدر بقوم أمطرتهم هباتها ... بأن يأملوا قرب انفراج المآزم
وحاشا بلاداً أنتمو عن يمينها ... يفت بأعضاد لها ومعاصم
لقد حوصروا براً وبحراً وأمطروا ... بحمر المنايا من سواد الغمائم

وقد طالما أرهفت حد يراعتى ... فلما تعالى الخطب عدت لصارمى
أجـل إننا من أمة عربيـة ... نـكافح عنها عاديات الأعاجم
ولوأنصف الأقوام فى حقهم رأوا ... مؤاساتهم فرضاً على كل آدمى

قال شوقى لأحد أصحابه بعـد الانصراف انه كان فى أثناء إنشاد المنشد لقصيدته لايفـكر إلا بى . وقلت أنا لأحد أصحابى : انى كنت متمثلا شوقى من أول انشادى الى آخره .

سفر المؤلف الى حرب طرابلس

وذهبت بعدها الى برقة وبقيت فى الجهاد زهاء ثمانية اشهر ورجعت فى رمضان فعيدت فى الاسكندرية وانا ضيف على الجناب الخديوى فى سراى رأس التين

مشاهدة لشوقى بعد رجوعه منها وذلك فى سراى رأس التين

وشاهدت شوقى نهار العيد عند ما اكتظت السراى بوفـود المهنئين وبعدها لم اشاهد شوقى الا فى الاستانة لأول نشوب الحرب الكبرى

فسنة اعلان الحرب الكبرى كان الخديوى السابق فى الاستانة كما لا يخفى فاطلق عليه الرصاص شاب مصرى من الوطنيين المتهوسين فجرحه عدة جراحات وذلك امام الباب العالى والحرس الأتراك الذين كانوا بجانب مركبة الخديـوى انحوا على ذلك الشاب المصرى بالسيوف فقرطبوه وقتـلوه فى الحال . وهى قصـة ليس موضعها هنـا ولكننا اشرنا اليها لمناسبتها مع اجتماعى بشوقى فى الاستانة فانه بعد هذه الحادثة قدم الى الاستانة عدد كبير من المصريين ليعودوا الجناب الخديوى ويظهروا للدولة اهتمامهم به وكان من هؤلاء احمد شوقى شاعره وربيب نعمتـه

التقاء الاخوين فى استانبول فى اول الحرب العامة

فبـينما انا مرة فى باخرة تسير فى البوسفور اذ صادفت اخى شـوقى فسررت بهذه

المصادفة وقال لى انه كان يريد ان يقابلنى لأجل مسألة ذات بال. قلت له : وما المسألة ؟ فقال لى : انت تدرى هذا الحادث الفظيع الذى وقع مع الخديوى وتدرى ايضاً انه ساء تأثيره فى مصر وان الذين لا يحبون الخديوى هم انفسهم امتعضوا من هذا الحادث وسواء كانت الدولة لا تعلم اسرار هذه الواقعة او كانت على علم بها فان الواجب عليها ان تتلافى هذا الأمر جمعا لكلمة الأمة وتفاديا من الفرقة بين الأستانة ومصر. فقلت له: كل هذا عندي مسلم فماذا تريد ان اصنع لك ؟

اقتراح شوقى على المؤلف عيادة السلطان للخديو

قال لى : ان الخديو لا يزال فى فراشه يعانى آلام جراحه وانه يليق بمولانا السلطان ان يجبر خاطره الكسير بعيادته له فى قصره بالشبوقلى ، وليس فى هذا ما يحط من قدر السلطان بل فيه ما يستنطق كل الافواه بالثناء عليه والدعاء له ، وما الخديوى الا امير من امرائه بل هو اكبر امرائه ، فزيادة تشريف السلطان للخديو تعود على السلطان نفسه . وابدى شوقى واعاد فى هذا الأمر وقال لى : كل من حادثتهم فى هذا الموضوع اجابونى انه ليس لهذه المسألة غيرك فان لم تقدر عليها انت فلن يقدر عليها احد . فاجبته بكل ايجاز : بعد يومين تعال الىّ فاخبرك بما عملت وانا معك فى هذه الفكرة

وفى اليوم التالى ذهبت الى طلعت وكان ناظراً للداخلية فاخبرته بالخبر وقلت له انى مؤيد لهذه الفكرة التى عرضها شوقى ولا ارى حلا لهذه المسألة احسن من هذا. فقال لى طلعت فى اول جوابه : أنجرّ هذا الشيخ الكبير (يعنى السلطان) الى محل بعيد مثل الشبوقلى ؟ (لأنه فى آخر البوسفور)

وقبل ان اجيبه على هذه الجملة قطع علىّ الكلام وقال لى : حسن انت صديق للامير سعيد حليم الصدر الأعظم فاذهب واعرض عليه هذا الاقتراح فانى لا اقدر ان ابت فى مسألة عائدة للعائلة الخديوية بدون علمه ولا يجئ هذا منى وانما انت تقدر ان تقنعه فاذا اقتنع فأنا موافق كل الموافقة . كن من هذا على ثقة . فذهبت الى الأمير

سعيد حليم فى منزله فى ينى كوى على شاطئ البوسفور فوجدت عنده ابراهيم بك صاحب زاده ناظر العدلية واسماعيل مشتاق بك رئيس كتاب مجلس الأعيان واشخاصاً آخرين وكلهم جلوس امام قصره على رصيف البحر . وكانوا ينتظرون الخبر من الدردنيل عن وصول الدارعتين غوبن وبرسلاو الألمانيتين اللتين طاردها الاسطول الانجليزى والأسطول الأفرنسى ببوارج عديدة فاضطرتا ان تقصدا مياه تركيا وعبرتا الدردنيل فلم يقدر أسطول الحلفاء على العبور وراءهما ولكن فرنسة وانجلترة احتجتا على تركيا بايوائها البارجتين الألمانيتين ولذلك اتفق الأتراك مع الألمان على أن يجيبوا دول الحلفاء بان تركيا اشترت الدارعتين بدلا من الدردنوت رشادية التى كانت تركيا أوصت عليها فى معامل انجلترة وانفقت عليها ملايين من الجنيهات وعند ما حان أوان تسليمها للدولة ضبطها الانجليز قائلين انهم على باب حرب فقد يحتاجون اليها. فدخلت غوبن وبرسلاو الى مياه البوسفور ولبس بحريتهما الطرابيش الحمر علامة على أنهم دخلوا فى خدمة الدولة العثمانية وما كان ذلك إلا بالتواطؤ بين تركيا والمانيا قطعاً لحجة الحلفاء

فساعة ذهابى لمواجهة الصدر الأعظم كانت الساعة التى كانوا ينتظرون فيها وصول غوبن وبرسلاو الى جناق قلعة . فجلست انتظر انصراف القوم من حضرة الصدر فطال جلوسهم وتبرمت بطول مكثهم لأنه كان عندى ذلك الكلام المهم الذى أريد أن أفضى به الى الصدر وهو قضية عيادة السلطان للخديوى. فلما غابت الشمس قلت للامير سعيد حليم همساً فى أذنه : ان لى كلاما خاصاً معك . فقام من فوره وتنحى جانباً وسألنى عما عندى. فحكيت له الحكاية وأبديت له ضرورة إجابة هذا الرجاء لأن فيه جبراً لخاطر المصريين وسداً لباب الشقاق واصماتاً للقال والقيل وتطييباً لنفس الخديوى الذى جرح أمام الباب العالى وكاد يموت لولا لطف البارى به وتأخر أجله فقال لى : ولماذا تدخل المصريين فى هذا الموضوع ؟ قلت له : لأن الرجل هو خديويهم ولا شك فى أنهم لا يرضون بالاستخفاف بامره حتى الذين منهم يكرهونه لا يهون عليهم ما حصل له لأسباب متعددة . فقال لى رحمه الله : انك انت تعرف هذا الرجل معرفة جيدة فقولك

هذا هو خلاف ضميرك . وبينا كنا نتكلم كنا نمشى غير متباعدين عن الجماعة الذين كانوا جالسين . فلما رأوا حديثنا قد طال انسلوا نجياً ونحن دخلنا حينئـذ الى القصر . فـكلمة الأمير سـعيد حليم لى : كلامك هذا خلاف ضميرك رددت عليها بشدة قائلا له : هذه مسألة غيرشخصية وأنا الآن لا أقترح هذا الاقتراح لأجل شخص الخديوى بل لأجل مقامه ولأجل أنه أمير مصر من قبـل السلطان الأعظم ومن العجب أنك تعاكس هذا الاقـتراح وأنت تعلم ما أعـلم أنا من ضرورته حوصاً لهذا الشق الذى وقع وبالتـالى فالخديوى هو ابن عمك وكل شرف يناله هو أنت قسيمه فيـه سواء كان لك عدواً أو صديقاً

وكان كلامى بشدة وحدة، وحضره على باشا جلال، بعـد أن دخلنا الى القصر ، واشمأز الصدر الأعظم من هذا الاقتراح ومن اصرارى عليه وبقى يجادل بقوله ان المؤيد جريدة الخديوى تزعم أننا نحن أرسـلنا نقتل الخديوى فان ارسلنا اليه السلطان يعوده فلا عجب أن يقولوا انه لما لم يمت عادوا الآن يحاولون استرضاءه.فقلت له وقد يئست منه : والله لا أعلم لماذا أغيظك واغيظ نفسى فى أمر كان الأخلق بك أنت أن تقترحه . ونهضت منصرفا وتركته واجماً وظننت بعد أن فصلت من عنـده أنى لن أتصافى بعدها معه

ولـكن ما مضى أيام حتى صادفتـه فى بيت خليـل بك رئيس مجلس النواب أو المبعوثين كما يقولون: فأراد خليل بك أن يقدمنى للاميرسعيد الصدر الأعظم بصفته رئيساً للمجلس وبصفتى أنا من أعضائه . فضحك الأمـير وقال له : أنا أعرفه قبـلك بكثير وهذا هو أرسلان اسم على مسمى . يشير إلى معنى هذا الأسم بالتركية والفارسية وهو الأسد. فان هذه اللفظة هى من جملة ألفاظ دخلت بين العرب من القديم وسموا بها أعلاماً . ولو لم يكن سعيد حليم صاحب أخلاق لما كان رضى عنى بعد ذلك الجدال العنيف ولـكنه كان عالى الهمة صحيح المبدأ حافظ الذمام، وكان يعلم نبالة مقصدى فى ذلك الاقتراح ولم يكن يسىء الظن بى، فتحمل منى ذلك الـكلام الذى كله تأنيب ولم يتغير فـكره من جهتى وبقيت بيننا الصداقة مثل ذى قبل لم يشبها شائبة .

ثم نعود إلى اقتراح شوقى فانه جاءنى بعد يومين يستطلع نتيجة المسعى . فأخبرته بأننى قابلت طلعت واقتنع بكلامى وأسعف فى المسألة ولكنه أرسلنى إلى الصدر الأعظم وربط المسألة به وهذا حتى هذه الساعة يبدى شيئاً من الصعوبة . ولم أزد على هذه الجملة . ولا أخبرت شوقى بما حصل بينى وبين الصدر من الجدال والحدة حتى لا أزيد الفتنة بينه وبين الخديوى، ونحن كنا نسعى فى رأب الصدع لا فى توسيعه. وكنت فى جوابى لشوقى آسفاً كاسفاً إذ كنت اؤمل تحقيق أمله وأملى فخاب أملنا نحن الاثنين. وكان الوقت رمضان فدعوت ثانى يوم المرحوم عبدالحميد بك عمار من أعيان المصريين للافطار معى فى « بك أوغلى » ورويت له القصة محتجناً منها ماوقع من معارضة الصدر الشديدة ومكتفيا بالقول ان هذه المسألة لا تزال قيد المذاكرة . فذهب عبدالحميد بك عمار الى الخديوى وأخبره بالقصة ولم أعلم كيف كان وقعها عنده ؟

ودخلنا بعد ذلك فى الحرب العامة وانقطع كل اتصال عادى بين الدولة وبين مصر وأصبحت لاأعلم عن أصحابى بمصر كثيراً ولا قليلا إلى أن مضى على هذا عام أو عامان فعلمنا أن الانكليز دفعوا الى مالطة جماً غفيراً وأزعجوا آخرين الى أوربة وكان فيمن أزعج عن بلاده الى أوربة أحمد شوقى فانتجع اسبانية وناح على الاندلس ولكنه خفض هناك فى عيشة راضية وبيئة هادية ولم يعد الى وطنه إلا بعد أن انطفأت نار الحرب

لقاء فى باريز بعد الحرب العامة

ولم يسعدنى القدر بعد ذلك بلقاء أخى شوقى الى سنة ١٩٢٦ وذلك فى باريز حيث كان شوقى جاء يقيظ فى أوربة وكنت أنا مع زميلى إحسان بك الجابرى نتذاكر مع الحكومة الافرنسية بدعوة منها فى القضية السورية . وكنا نازلين فى اوتل « ماجستيك » فما أنا ذات يوم إلا وشوقى قد طلع علىّ بدون ميعاد ولا سابق علم لى بوجوده فى باريز . فدخل على قلبى من السرور برؤيته مايدخل على الأخ الذى غاب عنه أخوه منذ بضع عشرة سنة ومن لاتسمح له دواعى السياسة أن يراه كلما أراد لانه

من قبل ذلك الحين كانت صدرت الاوامر بمنعى من دخول مصر وفشل كل سعى فى حل هـذه العقدة . فـكيف يمكننى بعد هـذا أن أشاهد شوقى إلا بقدر لايخطر فى الفـكر وفى بلاد الغربة . وقـد كان لايؤذن لى بدخول باريز ـ والآن لايؤذن لى فيه ـ إلا بدعوة خاصة من حكومة فرنسة

هيهات هيهات قد أمست مجاورة أهل العقيق وأمسينا على سرف
حىٌّ يمانون والبطحاء منزلنـا هذا لعمرك شمل غير مؤتلف

فذهبت أرد الزيارة لشوقى فى الفندق الذى كان فيه من الحى اللاتينى فلم أجـده وبينما أنا صادر إذا بمقهى جالس فيه شوقى مع محمد افندى عبد الوهاب وآخرين حسبما تقدم الـكلام على هذه النـكتة لان هذا المقهى هو المسمى بقهوة دار كور وكنا نجلس فيها منذ ست وثلاثين سنة ونحن شبان فعدنا نجلس فيها ونحن شيوخ

فى مقهى الجامع

وأخذنا مذ ذاك نجتمع فى مقهى الجامع حيث كان يوجد رجل أديب باهر الذكاء واسع الرواية فصيح اللهجة اسمـه السيد طاهر الصباغ، مكى الأصل تونسى الدار، كان وجوده فى ذلك المقهى باعث نشوة وسبب سـلوة لـكل من ينتاب المحل وكان يروى كثيراً من شعر شوقى وغيره من الشعراء المفلقين كما أنه كان يقرأ أكثر مقالاتى ويتتبعها . فـكان اذا جئت أنا وشوقى ومحمـد عبد الوهاب ومن معنا من الأصحاب وجلسنا للمنادمة وسماع الألحان الشجية على نقرات العود يأخـذ السيد طاهر الصباغ الطرب ولا يسعه المـكان من الفرح . وكان يتحير كيف يصنع ليوفر أسباب راحتنا وسرورنا، ولـكنه فى آخر الأمر عتب على أخى شوقى لـكونه وعده بنسخة من ديوانه وذهب من باريز ولم ينجز وعده هذا . فلما كاشفنى بهذه الموجدة أخبرته عن غرائب شوقى فى الذهول وقلت له : لو عرفت أمره فى هذا الشأن لعذرته .

وقد توفى الصباغ الى رحمة ربه قبل وفاة شوقى بقليل رحمهما الله تعالى .

شوقى الناثر

ولم يكن شوقى شاعراً فذاً فحسب ، بل كان ناثراً بليغاً مترسلا ضليعا ، متين العبارة سلسها ، يقل فى الكتاب والمترسلين من يصوغ صياغته . إلا أن شعره قتل نثره . فبينما هو فى الشعر الفذ الذى يجرى ولا يجرى معه اذا هو فى النثر أحد جماعة يجرى معه الناس مثنى وثلاث ورباع . ولا شك أن كفة نظمه رجحت بكفة نثره رجحانا بيناً حمل الناس على الظن بضعف منته فى صنعة الكتابة . وليس الأمر كذلك بل كان له نثر رائق وترسل مؤنق وفصول شائقة كانت تخلد فى عالم الأدب لو لم تفتك بها قصائده .

كلمة المنفلوطى فى شوقى والمؤلف

وقد كان السيد المنفلوطى رحمه الله، يوم ترجم شعراء العصر وكتابه المعدودين ، حكم لشوقى بالسبق فى ميدان الشعر وجعل لكل واحد من هؤلاء تعريفاً كان آية فى الايجاز، ولما وصل الى كاتب هذه السطور قال : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . ولكنهما كفتان كلما رجحت الواحدة أشالت الاخرى . ويظهر أنه راجع نفسه فيما بعد أو أن بعض الناس اعترضوا عليه فى قوله عن هذا العاجز : لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر . فعاد الى نفس العبارة وأنزلها الى قوله : لو لم يكن كاتباً فريدا لكان شاعرا مجيدا . فهما كفتان كما رجحت الواحدة أشالت الاخرى .

ولست أقصد بهذا النقل شيئاً من الاعتراض عليه ولا أنا ممن يسوقه الغرور الى أن يظن فى نفسه أنه أشعر شاعر أو أكتب كاتب ولا أنه كاتب فريد وشاعر مجيد ، وما حفلت فى حياتى بشىء من هذه الألقاب ولا احلولى فى صدرى ما ينحلنى الناس إياه منها كأمير البيان وما أشبه ذلك والجواد عينه فراره والشاعر لقبه شعره والكاتب سمته بيانه والإنسان حليته عمله ولكنى ذكرت عبارة المنفلوطى فى عرض الكلام عن كفتى النظم والنثر اللتين إن غلبت إحداهما على الأخرى سحقتها فى أعين الناس كما جرى لشوقى .

مثال من نثر شوقى

ومن أحسن ما رأيت لشوقى فى باب النثرمقدمته لشوقياته، الطبعة الأولى ، ولا أعلم لماذا حذفوا له تلك المقدمة فى الطبعة الثانية ؟وهو قد برع فيها على الكتاب فضلاً عما برع فى ديوانه على الشعراء . ولعل الذى علا فيه ذلك اليوم ذلك العلو هو كونه عالج موضوعاً كان أدرى به من غيره، وهو موضوع الشعر الذى كانت مهجته مصوغة منه ومحبوكة به ، فجاء كلامه فى هذا المقام بدعاً لا ينظر وفرى فريا يخلد ولا يقلد . انظر الى قوله :

« وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق فى شعره ويوعى تجارب الحياة فى منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :

فلا هطلت على ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظم البلادا

«وقابل بين هذا البيت وبين قول أبى فراس :

معللتى بالوصل والموت دونه   اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

«ثم انظر إلى الأول كيف شرع سنة الإيثار وبالغ فى إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس وإلى الثانى كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأى لها الاختصاص بالمنفعة فى هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية، علم أن شعراء العرب حكماء لم تعزب عنهم الحقائق الكبرى ولم يفتهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية وأنهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان واظهارها فى أجلى وأجمل صور البيان

«وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة، وحكمة بالغة موقظة ، وكان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يرجع اليه كذلك فى الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل والاغراء بالفضائل (الى أن يقول)

« اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعر جنوا وظلموا قرائحهم النادرة وحرموا الاقوام من بعدهم . فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال ودخل فى مضيق اللفظ

والصناعة . وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الابانة والسهولة . ووقف اخرون بالقريض عند القول المأثور « القديم على قدمه » فوصفوا النوق على غير ماعهدها العرب عليه، وأتوا المنازل من غير أبوابها ، ودخلوا البيداء على سراب . وانغمس فريق فى بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللجج ، خرجوا منها بالبلل، وزعمت عصبة أن أحسن الشعر ما كان بواد والحقيقة بواد فكلما كان بعيدا عن الواقع منحرفا عن المحسوس مجانبا للمحتمل كان ادنى فى اعتقادهم الى الخيال وأجمع للجلال والجمال ، حتى نشأ عن ذلك الاغراق الثقيل على النفس والغلو البغيض الى العقول السليمة

« على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة . واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة اذا شاء الملوك ربحت ، واذا شاءوا خسرت . ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذموه بكل لسان، فزعموه مجلبة الشقاء ، وقالوا انه محسوب على الشعراء يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لاراقة ماء الوجوه . ولقد والله زعموا صدقا وقالوا حقاً ، وان هذا الجزاء فئة يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج حرفتهم ، فاذا لم يخلقوا كسدت الحرفة ، وأخطأت الارزاق على أنه يستثنى من هؤلاء قليل لايذكر فى جنب الفائدة الضائعة بضياع الشعر مديحا فى الملوك والأمراء وثناء على الرؤساء والكبراء، وإلا فمن دواوينهم مايخلق أن يكون المثال المحتذى فى شعر الامم كابن الاحنف مرسل الشعر كتبا فى الهوى ورسائل ، ومتخذه رسلا فى الغرام ووسائل . وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها وكالبهاء زهير سيد من ضحك فى القول وبكى، وأفصح من عتب على الأحبة واشتكى وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا بنثر فى سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو .

«ولا أرى بدا من استثناء المتنبي مع علمي أنه المداح الهجاء لأن معجزه لا يزال يرفع الشعر ويعليه ويغرى الناس به فيجدده ويحييه . وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون الا الى غباره ، ولا يجدون الهدى الا على مناره . ويتمنى أحدهم لو انيح له ممدوح كممدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع

له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه . فمثل أبى الطيب فى تشبه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه فى المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الايام معروف بالحزم والاقدام ، قد أشربته قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه فلو قذف بهم فى مهاوى الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا. هذا مع اعترافهم بأن المتنبى صاحب اللواء. والسماء التى ماطاولتها فى البيان سماء . ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لاجللته اجلال الانبياء .

«والحاصل ان انزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره تجزئة يجل عنها ، ويتبرأ الشعراء منها . الا ان هناك ملكا كبيرا ما خلقوا الا ليتغنوا بمدحه ويتفننوا بوصفه، ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب، وهذا الملك هو الكون فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى . يقلب احدى عينيه فى الذر ويجعل اخرى فى الذرى . يأسر الطير ويطلقه ويكلم الجماد وينطقه . ويقف على النبات وقفة الطل ويمر بالعراء مرور الوبل . فهنالك ينفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهته علما لاتحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء. ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسليا فى الهم ومنجيا من الغم وشاغلا اذا أمل الفراغ ومؤنسا اذا تملكت الوحشة، ومن جهة ثالثة لايلبث أن يفتح الله عليه فاذا الخاطر أسرع والقول أسهل والقلم أجرى والمادة أغزر بحيث لاتمضى السنون حتى تتداول الايدى مؤلفاته . واذا مات أكبر الناس من بعده مخلفاته . أو لم يكن من الغبن على الشعر والامة العربية أن يحيا المتنبى مثلا حياته العالية التى بلغ فيها الى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتى صفحة من الشعر تسعة أعشارها لمدوحيه والشعر الباقى هو الحكمة والوصف للناس ؟

«هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلق وتأتى مثله؟ فأجيب انى قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم ولا أجد أمامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء . والقوم فى مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً فى مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوى

صاحب المقام الاسمى فى البلاد . فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو اليها على درج الاخلاص فى حب صناعتى وإتقانها بقدر الامكان وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله اليها ثم طلبت العلم فى اوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت انى مسئول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه وانى لا أؤدى شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التى لا تحد ولا تنفد واذ كنت أعتقد أن الاوهام اذا تمكنت من امة كانت لباغى ابادتها كالافعوان . لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف بأطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوربا مملوءة من جديد المعانى وحديث الاساليب بقدر الامكان. الى أن رفعت الى الخديوى السابق قصيدتى التى اقول فى مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

والتى غزلها فى أول هذا الديوان . وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ فى الجريدة الرسمية وكان يحرر هذه استاذى الشيخ عبد الكريم سلمان فدفعت القصيدة اليه وطلبت منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فود الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر فلما بلغنى الخبر لم يزدنى علما بان احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة انما كان فى محله وان الزلل محى اذا انا استعجلت»

اجتزأنا بهذا القسم من مقدمة (الشوقيات) لان فيه مايدل على غيره وهو ولا شك قد أجاد هنا ما لم يجد فى مكان آخر من نثره لأنه الموضوع الذى هو أملى به وأقوم عليه . وكلما كان الانسان علامة بأمر كان كلامه فيه أوضح وأبين وعنه أسلس واحسن. وقد حاول شوقى أن ينثر وينشر من نثره حتى لا يقال ان الشعر قعد به عن النثر قعودا لا يرضاه لنفسه . فلم يبال الناس نثره ولا تلقوه بالاحتفال اللائق بمثل شوقى، لا لأنه كان ركيكا بحد ذاته، بل لانه كان غثاً فى جانب سمن شعره .

شوقى واليازجى

ولما اطلع العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى على رسالة شوقى المسماة بـ «عذراء الهند» كتب عنها فصلا فى مجلته «البيان» أتذكر منه أنه قال مامعناه: «كيف يرضى انسان بعد أن يكون فى الشعر هو الاول أن يكون فى النثر هو الاخير.» ولقد بالغ اليازجى

فى الغض من نثر شوقى وحـدانا ذلك وقتئذ برغم صداقتنا الشخصية مع اليازجى ومدائح اليازجى الـكثيرة الاثـيرة للعائلة الارسلانية من قديم الزمان أن نهب للدفاع عن شوقى اذ من أظلم الظلم أن يقال ان شوقى كان المجلى فى النظم والسكيت[1] فى النثر بل كان شوقى من الـكتاب البلغاء المبرزين لولا أن شعره سبق نثره بكثير لأنه ما أراد الا أن يكون الشاعر المقدم كما تقدم

وأنحى اليازجى فى مجلته « البيان » على شوقى بنقد شديد فى روايته « عذراء الهند » تجاوز فيه الحـد وجار عن القصد . وتعقبه فى ألفـاظ وجـمـل زعم انها مما لا تجيزه قواعد العربية وكأنه اراد أن يسقط منزلة شوقى بين الادباء لأن الاديب لا يصح أن يسمى أديبا الا اذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيـان والا فانه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين مهما سمت معانيه وزهت تصوراته وأثر كلامه ونفذت طعناته ، وذلك أن الناس أجمعوا على أن الفصاحة واللحن لا يجتمعان وأن من نقص حظه من النحو نقص حظه من الادب. وليس هذا منحصراً فى العرب بل هو عنـد الافرنج أيضا فليس عنـدهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تذكر . وقال « أناطول فرانس » وهو من أعظم أدباء اوربا : « لا يقول الـكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغـة صحيحة » وقال بوالو : « أعلى الـكتاب كعباً اذا حرم الرسوخ فى اللغـة فليس بكاتب » فمهما نبغ شوقى فى الشعر وفاق أقرانه فى سعة التخيل ولطف التأثر فانه كان يكون منقوص البهاء لو آنس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية .

هـذا فى الحقيقة لا نزاع فيه لو كان شوقى ممن يصدق عليه مثل هذا الوصف . ولـكن شوقى كان شاعراً كامل الادوات وكان ريان من العربية الفصحى وكانت لغته متساوية مع فـكرته . فاذا سالت عليه شعاب الفـكر جاء بكل لفظ فحل ومعنى بكر وحاط كلامه من قرنه الى قدمه بنحو راسخ ولغة تبعد عنها الركاكة فراسخ . فاما أن يجد اليازجى متعلقا لانتقاد ومتسلقاً لانتقاص فاننا لو عرضنا كلام القوم باسره على علماء النحو وحفظة اللغة لما عز عليهم ان يجدوا فى كل قول مقالا ولما بعد أن يجدوا فى كل جملة مأخـذاً لاسيما اذا كان النحوى أو اللغوى يتقصد إظهار طوله وإثبات إحاطته .

---

(١) بضم ففتح مشدد، وقد يخفف ، وهو آخر الحلبة . ويقال له ايضا « الفسكل »

علم اليازجي وتعنته

وقـد كان اليازجي فى عصرنا من أبصر جهابذة اللغـة وأفرس فرسان الانشاء ولم يكن يؤتى من جهة كهذه وكان من أمتن من عرفنا تركيبا وأجودهم سبكا . ولكنه كان مولعا بالتعنت متهافتا على التنقص ضيق العطن لا يتردد عن تحجير الواسع مهما اتسع . وكان اذا لم يطلع على مسألة من المسائل نقاها عن العربية وان لم يجد فى المعاجم المعروفة بين أيدينا لفظا من الالفاظ أسجل بأنه ليس بعربي . ولم يتنبه الى ان اللغة بحر لاساحـل له وأن تحجير الواسع فى العربية ضرب من العبث وانه ما انتقدت عبارة الا ردّ عنها بتخريج . وانه ليطول بنا أن نصف غلوه فى هذا المذهب ونحصى الـكلمات التى كان يمنعها بحجة أنها لم ترد فى المعاجم، ولـكننا من قبيل التمثيل نذكر أنه كان يمنع لفظة «احتمى» الا بمعنى الحمية عن الطعام. فأما احتمى مطاوع حمى فـكان يراها خطأً فى اللغة . ولو اطلع على قول عون بن أيوب الانصارى الخزرجى :

حمت كل واد من تهامة واحتمت ... بصم القنا والمرهفات البـواتر

لعلم انه هو الذى أخطأ بتخطئته للوارد من كلام العرب . وكان يمنع أن يقال « نوال » بمعنى « نيل » ولا يرضى لها تخريجاً ولو قرأ ــ وأظنه من شعر الحماسة:

أرى الناس يرجون الربيع وانما ... ربيعى الذى أرجو نوال وصالك

لعلم انه لم يكن على صواب فيما ذهب اليه .

وعابنى مرة فى مجلته باسـتعمالى « النواقيس » بمعـنى الأجراس وذلك لأنه قرأ فى كتب اللغـة أن الناقوس إنما هو الخشـبة التى يضرب عليها القسيس يدعو بها النصارى للصـلاة . فتمسك بهـذه الخشبة تمسـك أعمى فى قرنة كما يقال ولم يشأ أن يجيز الناقوس للجرس الذى من نحاس وخطأ كل من اسـتعمل ذلك حتى من الـكتاب الأولين . واضطررنا أن نرد عليـه وأن نفهمه أنه إذا كان يتمسك بكل تحـديد نقله علماء اللغة ولا يقبـل فيـه توسعاً فانه ينتهى الأمر بأن يقاتـل نفسه بسلاحه فانه هو يستعمل البيت بمعنى هذا البناء المبنى من الحجر أو من الطين

والحال ان العرب عرفت البيت انه من الوبر ، وانه هو يستعمل الشباك للنافذة التى يكون فيها شباك من حديد ، والحال ان كتب اللغة تعرف الشباك بأنه ماشبك من القصب. فاذا كان التمسك بتعريفات المعاجم اللغوية حتما لا مناص منه فاستعمال الشباك إذا كان من حديد واستعمال البيت اذا كان من حجر أولبن يكون إذن غلطاً ! والحقيقة ان هذه الألفاظ ربما كانت فى الجاهلية موضوعة لتلك المعانى على الصورة التى كانت فيها ايام البداوة فلما دخل العرب فى طور الحضارة والترف استعملوا تلك الألفاظ لما ناسب درجة مدنيتهم . فالبيت الذى كان من شعر صار من حجر وربما من حجر منحوت وبقى يسمى بيتاً لانهم جعلوه بمعنى المأوى ولأن أصله من المبيت فسواء بات الانسان فى مأوى من الشعر أومن الحجر فيصح أن يقال لمأواه هذا « بيت ».وكذلك الشباك الذى كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبذولا، بقى يقال له الشباك بعد أن سخر الله الحديد للناطقين بالضاد وألانوا منه القضبان.وكذلك الناقوس كان خشبة فى أيام الجاهلية فصار فى أيام المدنية نحاساً وبقى يقال له « ناقوس » ونطق به الفصحاء .
وقلنا لليازجى: إنك تعيب كتاب هذا الزمان فى فصل تنشره تباعا تحت عنوان « لغة الجرائد » ومن قال لك ان الجريدة يعنى بها هذه الورقة المكتوبة التى تصدر فى أوقات معلومة ويقرأها الناس، فالجريدة بهذا المعنى انما هى من مواضعات المولدين . واذابحثت عن تحديد الجريدة فى كتب اللغة لم تجد سوى « سعفة النخل اليابسة » و « الخيل لا رجالة فيها » فهل أنت تريد أن تقول « لغة سعفات النخل اليابسة ؟ » أو « لغة الخيل لا رجالة فيها » . وتعقبناه ذلك اليوم فى الفاظ كثيرة وقد ضاع هذا الفصل من بين أوراقنا

نعم لو كنا نجارى الشيخ ابراهيم اليازجى فيما كان يحجر فيه من واسع اللغة لما كان فى لغات العالم أضيق من العربية . ولكن تحجيره هذا إنما كان فى انتقاداته لغيره فاذا رجعنا إلى مجلته « الطبيب » التى كان ينشئها فى بيروت مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة أو إلى مجلته «البيان» التى كان يصدرها فى مصر، وطالعنا مافيها من فصول شائقة لا سيما فى المواضيع الطبيعية والفلكية والكيماوية وما أشبه ذلك

فاننا نجد أن اليازجى وسع على نفسه ما حجر على غيره واستعمل الألفاظ العربيـــة للمعانى المصرية بأقل مابينها من ملابسة وسيأتيك فى اعتراضاته على شوقى مايجزيك فى معرفة مذهبه فى الانتقاد على غيره

رد المؤلف على اليازجى
فى الدفاع عن شوقى

ليس تحت يدى الآن العدد الذى فيه انتقاد اليازجى لرواية «عذراء الهند» ولوكان تحت يدى لأثبت هذا الانتقاد برمته وقابلته بردى انا عن شوقى . على أن القارئ قد يعلم من الرد أساس الاعتراض فجوابى فيه الأخذ والرد معه ولهذا ننشره نقلا عن جريدة الاهرام (عددها ٦٠٣٢) المؤرخ فى يوم الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ وفق ٣ رمضان سنة ١٣١٥ أى ان هذا الرد مضى عليه اكثر من سبع وثلاثين سنة:

لعل للعذراء عذرا

أجل العلماء عن أن يقال ليس لهم صداقة وانما يقال : ان ليس لهم صداقة على العلم ولا مشايعة على الحكمة ولا تسامح فى الحقائق، وانهم لايرعون فى الحق خليلا ولا يرضون من أمانة العلم بدلا قليلا ، ولا سيما فى هذا العصر الذى اذا انتسب الى خاصة تغلب عليه كانت الانتقاد أو اتصف بمزية تفضل سائر المزايا فهى التحقيق

ولذلك لا ينبغى أن يحمل انتقاد (البيان) رواية (عذراء الهند) للشاعر المفلق احمد بك شوقى إلا محمل البحث الأدبى الصرف وأن لا يحسب إلا من قبيل توفية النقـد حقه والقيام بواجب الخدمة العلمية ونعم الغرض هذا وحبذا القصد . وبناء على قاعدة البيان وتشبهاً به والتشبه بمثله فلاح أتطفـل بابداء بعض خواطر خطرت لى بين هذه المآخذ التى أخذها البيان على عذراء الهند، بقدر ما طال الفكر ووسع اللحظ، مائلا فى بعضها الى تصويب رأى البيان وفى البعض الاخر الى تأييد نص الرواية وتاركا الحكم فى ترجيـح الآراء الى أهل الفضل وأرباب الدراية فان كنت أصبت المرمى فى بعض ما رأيت فقد تصاب الرمايا ولولم تستد السواعد ،وان كنت واقعاً فى الوهم وظهر الحق

فى جانب سواى فليس بثقيل الاقرار لمثل شوقى بك وليس بمغلوب من غلبه الشيخ !

أما اعتراض البيان على الاهداء ، فى مقام تقديم الرواية الى الجناب الخديوى فهو من التعمية بحيث لم أفهم وجهه جليا، وانما استدللت على أن المقصود عدم مناسبة اتحاف الجناب العالى برواية موضوعة فيما هى موضوعة فيـه . وقد يعتذر ناسج الرواية بأن ليس ثمة ما يمنع تقديم كتاب يتصل بتاريخ مصر القديم الى عزيز مصر الآن فلـكل من المعترض والمعترض عليه وجهة

وأما أخذه على (الـكاتب وما كتب غراس نعمائك وجنى ظلك ومائك) بأنه لا يصح الا من تلميذ لأستاذه ولا يصح من مربوب لولى نعمته وأنه لا يمكن أن يكون ما كتبه من غراس الامير وأى علاقة بين النعماء والانشاء ؟

فقـد استغربته جداً من البيان على سعة اطلاع المعترض وطول باعه ورسوخه فى آداب العرب وكونه قـد طالع ولا شك من هذا المعنى شيئاً كثيراً

وان مثـله لا يخفى عليـه أن الكتاب والشعراء طالما تكلموا فى معنى أن انعام الممدوح هو مصدر فصاحة المادح ، وأن در القول مستنبط من بحر الجود

وقالوا أيضاً : ان اللهى تفتـح اللها ، وأظن انا نستغنى فى مقام كهذا عن التعزيز بالشواهد المستفيضة فى النظم والنثر خصوصا لمن كان يحفظ ديوان المتنبى وقد شرحه وهو غير خال من هذه المعانى. فكيف لا يجوز لعمرى لشاعر الخديوى أن يقول لمولاه وولى نعمته : اننى أنا وما أكتب غراس نعمائك وأى غرابة فيه ؟ بل أى غبار عليه ؟

وأما قوله : (وجنى ظلك ومائك) فلا أنكر أنها بالشعر أليق منها بالنثر لكنها قد تتمشى مع العبارة الأولى ولا لزوم لخرطها فيما لا يجوز والذهاب لأجل توجيه الاعتراض إلى بعيد من قبيل أن الظل لا يكون سببا للجنى وأن الغراس فى الظل لا يثمر وأنت تعلم أنه لا غراس بلا ظل وأن الظل غير مانع من الجنى

وليس من الضرورى فى سجعة كهذه استيفاء جميع العناصر التى تخرج الثمر وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين فضلاً عن كون الظل هنا مأخوذاً بالمعنى المجازى والعبارة كلها مجازية والمجاز هو أصل وضع البيان

وأين نذهب مع ظل الله وظل الأمن وظل العدل وظلال مجردة كثيرة ممتدة فى الكلام العربى ليس لما تضاف اليه أدنى حجم

وأما غموض قوله : (فاذا وفق ليرفع اليك عملا فقد أسند أفعالك فى الفضل إلى أسمائك) فلا أجادل فيه فان غموضه واضح لكنى أقول : ان شوقى بك غالب عليه الشعر فيحسب نفسه وهو فى النثر أنه فى النظم بل هو يحكى المتنبى أحيانا فى عدم وضوح معانيه لأول وهلة فلا يفهم القارئ بعض جملة إلا بعد التأمل بل التعمل

وأما اعتراض (البيان) على (أحب اخوته الكثيرين إلى الأمم) بأنه من التراكيب التى منعها أهل العربية حسبما نص على ذلك الحريرى فى درة الغواص وأن رد الخفاجى عليه لا يسلم من الرد فأقول فيه : ان الرد على الخفاجى لا يسلم من الرد أيضا . وهو قد أورد فى مقام الدفاع عن جواز هذا التركيب ما يستحق النظر وانه وان لم يكن هنا مقام استيفاء تعليلات كهذه فلا بأس بايراد بعضها كقولهم : ان أفعل التفضيل قد يخلع عنه ما امتاز عن الصفات ويتجرد للمعنى الوصفى .

وكقولهم : انه قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو قولهم : يوسف أحسن اخوته . وكما قالوا ان أفضل اخوته بمعنى أفضل الاخوة على حد قوله تعالى : (يتلونه حق تلاوته) أى حق التلاوة . وأنشدوا قول عبد الرحمن العتبى :

ياخير اخوانه وأعطفهم　　　عليهم راضيا وغضبانا

وناهيك ان نحويا كابن خالويه أجاز هذه العبارة ولا نظن أديباً مثل شوقى بك قد رأينا ما رأينا له من الآثار الدالة على سعة اطلاعه فى العربية يقدم على هذا الاستعمال الا وهو يرى رأى الذين أجازوه ويستحيل أن يكون مثله لم يمر بهذه الاعتراضات وردها .

وأخذ البيان على قوله : (وأمتنهم اعلاقا فى القلوب) وذلك بأن الاعلاق جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس وان حقها أن تكون علائق . وقد استغربنا وايم الله صدور ذلك عن لغوى ثقة مثل الشيخ . والاعلاق تأتى جمعا لغير العلق بالكسر فتأتى جمعا للعلق بالتحريك

والعلق يأتى بمعنى البكرة وأداتها
وبمعنى الحبل المعلق بالبكرة
وبمعنى الرشاء مطلقا وأنشد له فى لسان العرب : عيونها خزر لصوت الاعلاق
وأظن ان فى هذه الألفاظ كلها من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقى أن يقرنها بالمتانة فى معنى ارتباط القلوب .

وأما كون (أجذبهم بأزمة الرأى العام) من المواضعات الافرنجية درجت عليها الجرائد فى هذه الأيام وليس كل ما تأتى به يجوز اتباعه ، فلنشرح هذه الجملة :

أما (جذب الزمام) بنفسه فلا يجادلنا البيان بأنه عربى مبين

فلم يبق الا عبارة (الرأى العام) وهى مترجمة عن لغات الافرنج لشيوع هذه العبارة عندهم وعدم وجود ما يسد مسدها عندنا بالتمام ولننظر ماذا يوجد فيها من المخل بالفصاحة :

أما الرأى فهو الرأى لا ريب فيه .

وأما اتصافه بالعام فهو كاتصاف البلاء مثلا بالعام فيقال : بلاء عام وبلاء شامل

ويقال : أمر عمم ويفسره أهل اللغة بأنه تام عام .

ويقول شاعر الجاهلية :

يا ليت شعرى عنك والأمر عمم ما فعل اليوم أويس بالغنم

فان كان يقال : أمر عمم فلماذا لا يقال : رأى عام وأى اثم فيها ؟

وقولك بمعناها (أهواء النفوس) لا يؤدى حقيقة المقصود من قولهم (الرأى العام)

ومن العجب أن يعترض على مثلها البيان . وهو الذى يكتب فى (اللغة والعصر) ويدعو الى وجوب الوضع قضاء لحاجة العصر ووفاء بالمعانى الحديثة التى لم تكن عند العرب . على مخالفة رأيه هذا لما عليه جمهور أهل اللغة من أن اللغة سماعية لا قياسية فكيف يعترض بعدها على (الرأى العام) ؟ وليس فيها خروج عن المألوف ولا وضع جديد ولا صوغ ولا نحت .

وأنت لو طالعت الكتب العربية، خصوصا كتب العلم والحكمة، لم تجدها خالية من استعمالات كثيرة تساقطت ـ والله أعلم ـ الى العرب من لغة اليونان والفرس أيام ترجمة كتبهم لعهد العباسيين. فالعربى القديم لم يسلم من هذه المواضعات فما ظنك بالعربى الحديث وقد أغارت عليه المعانى الأعجمية من كل جهة حتى اختلط الحابل بالنابل .

حتى ان (البيان) نفسه على نقاء لغته لا يسلم منها حين يقول فى العدد الأخير الذى صدر فيه الانتقاد (رزئ العالم الأدبى) فهى عبارة عصرية محضة مترجمة بالحرف عن الافرنجية . وليست من أساليب امرئ القيس ولا الأعشى ولا من تراكيب الامام على ولا المخضرمين بل ليست من المولد وانما هى من أوضاع الجرائد السيارة

ومثلها استعمال (البيان) مثلا (تنازع البقاء) عصرية محضة . وتعابير كثيرة ليس هنا محل سردها

أما قول شوقى بك : (مدين لنصحها الثمين) فليس بمعذور فيه عذره فى (الرأى العام) التى جرت مجرى الأعلام

غير أنى عجبت جداً من أخى شوقى كيف لامنى على مثلها أيام اجتماعنا بباريز[١] ثم عاد هو إلى استعمالها حال كونى أنا تركتها بالمرة اكراما للعربية ولخاطره . فماذا طرأ عليه حتى صار يأتى الآن ما كان ينهى عنه ؟

وأما (باحوا بسر المأمورية) فلا يمكن لى أن أعد المأمورية مما لا يصح استعماله والنسبة الى الأسماء من صفة وموصوف اذا لحقتها التاء تفيد المصدرية فيقال : عجبت من حجرية هذا أى من صلابته

وقالوا كثيراً : الفاعلية والمفعولية والشاعرية وهلم جرا

وأما استعمال شوقى بك البرهة بمعنى هنيهة فهو استرسال الى اصطلاح العامة أو عدم تحقيق

ومثله الصدفة بمعنى المصادفة فقد غلب استعمال الناس لها وهم لا يعلمون أنها عامية

---

(١) كان ورد فى مقالة لى جملة « أنا مديون بهذا العمل له » أو نحوها وكنا في باريز يوم اجتمعنا سنة ١٨٩٢ فقال لى شوقى : هذا أسلوب افرنجى ينبغى تركه

أوما استعمال (العائلة) بمعنى الأسرة فهو وارد وتخطئة البيان له مع قوله : كأنها تصحيح قول العامة (عيلة) وكلتاهما لا تأتى بهذا المعنى انما يقال عيال الرجل وعيّله بالتشديد فهذا فيه نظر وهو من الحريرى فى درة الغواص وقد تعقبوه بما اظهر خطأه ، وروى من الحديث (أتخافين العيلة وانا وليهم) وفسروه بالعيال والأرجح ان يكون أطلق على أسرة الرجل العيلة التى هى الفقر لكونهم سبب الفقر كما قيل : قلة العيال احد اليسارين

هذا ويجوز ان تكون عائلة بمعنى معولة وليست هذه بأول مرة ورد فيها فاعل بمعنى مفعول فقد قالوا : ساحل بمعنى مسحول . سحله ماء البحر وهلم جرا

وأما (الهوادس) فالحق فيها مع البيان إلا أن تكون غلطة طبع

نصل الى قول شوقى بك فى التاريخ المصرى (ان الحقيقة معه لا يستقر بها خبر فهى عين تارة وأثر تموت بحجر وتحيى بحجر)

أقول : هذه عبارة شبيهة بالشعر لكنها من أبلغ ما قرأت فى الكلام العربى وأتأسف ان يكون البيان تعمد مثلها فى الانتقاد

ومعناها ظاهر اذ لا يخفى ان التاريخ المصري القديم مبنى على الآثار الحجرية والكتابات الهيروغليفية وان معظم معول المؤرخين لأعصر الفراعنة هو على هذه الحجارة لفقدهم القرطاس فيه فبينما يتقرر عند المؤرخين شيء يظنونه الحقيقة الأخيرة بما يطلعون على كتابة فى حجر أو نقش على عمود اذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفوناً جاء فيه مالا ينطبق على الأول أو ما فيه زيادة عليه فتغيرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ

ولهذا كان ينكشف منه كل يوم شيء جديد وصح أن يقال : ان حجراً من هذه الحجارة يحيي لقديم مصر تاريخاً وان حجراً يميته ولا أرى هذه الجملة فى شيء من الطلاسم والرقى كما قال البيان وأعتقد انها لا تشكل على أحد فاما ان كان أغاظ البيان حذفه احدى التارتين من قوله : (فهى عين تارة وأثر) فالخطب يسير ولا بأس به لأجل الايجاز ورشاقة الجملة مع قيام الدليل على التارة المحذوفة

وأما اعتراض (ما عساى ناولتك مما فات التفاتى قدره) فأوافق البيان فيه من جهة التعمية على أن قوله : عساى ناولتك يتضمن معنى لعلى ناولتك فقد حكى الأزهرى

عن الليث ان عسى تجري مجرى لعل

وأما قوله : (مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين) فهو غامض أيضا

وأما (تتلاشى متوارية وتتوارى متلاشية) فهو جائز

وأما عبارة (حوارالماء والتيار) فلم أعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها. ولكنها على كل حال مبهمة. وأما جملة (كان الفصل نيلا خفيفا ثقيلا جفيفا بليلا) الى آخر ما ذكر فهى بالشعر أليق منها بالنثر

وأما (فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشراب) فالمعنى فيه ظاهر . وهو أنه لا يفرغ من طلب الشرب . أما قوله (تركه شيئا ليس بالحى) فلا أعلم ماذا تقدمه وماذا تأخر عنه . لأنى لم أظفر بالرواية مجموعة وما هو منشور منها فى الجريدة لم يحفظ عندي وانما أقول : انه ان كان ما بعد ليس بالحى قوله: ولا الميت فهو مقبول وإلا فلا .

وأما (أجهد أذنيه) فان كانت بغير معنى أتعب سمعيه فلا تأتى

غير أن قوله (أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الاجفان) فضلا عن كونه ليس محلا للاعتراض فهو كلام شعرى بديع .

وأما (ارتجال النظر) فهو غريب ومثله ارتجال النور ولا مسوغ لذلك . فان كان بعض فحول البلاغة من كتاب الافرنج وشعرائهم مثل بوسويه وهوجو مثلا قيل عنهم انهم كانوا يرتجلون الالفاظ لمعانيهم ويسخرون اللغة لمقصودهم وكان الناس لا يكبرون عليهم هذا الأمر بما بهرهم من فصاحتهم وبلاغتهم فلم يكونوا يأتون ما أتى من هذا القبيل عند وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى . وأى مناسبة هنا ؟

أما (الفكاك) الذى أخذ على استعماله البيان فى قوله (مانع للفكاك) فيقصد به الحركة والانطلاق من قولهم كل شيء أطلقته فقد فككته ويؤيد ذلك تأكيده بقوله : (مفقد للحراك)

وأما (الشراك) فلا يأتى بمعنى حبائل الصائد وإنما هى الشرك حسبما قرر البيان

وأما (غير قادر المشيب) فلم أفهمه جيدا .

وأما قوله : (ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه) فأظن

أن المقصود توكل بدون ألف وأن الألف زائدة من غلط الطبع . وان أديبا راسخا مثل شوقى بك لا يخفى عليه مثل هذا. وغلط الطبع يقع كثيرا حتى فى نفس البيان مع كثرة مراجعات الشيخ فى تصحيح المسودات، ألا ترى أنه ورد فيه هذه المرة (بحيث كان كل منها ضاربا ومضروبا) بدل كل منهما.

ثم انتقد البيان بعض أبيات الرواية من جهة الوزن واستغرب وقوع الناظم فى مثله مع ماهو معروف به من طول الباع فى صناعة الشعر. ولا بد من تصويب قول البيان فى انتقاده هذا من الوجه العروضى إلا أنه لا ينكر أن مثل ذلك وقع أيضا للشعراء حتى الفحول منهم وانه مما لا يقدح فى شاعرية شوقى بك لان الشعر غير الوزن وكل منا يحفظ (وقل أنا وزان وما أنا شاعر) على أن الظاهر من شوقى بك أنه قليل الاحتفال بهذه الصور الظاهرة بل نراه قد يتحدى الافرنج فى شعره فلا يبالى مثلا بأمر القوافى التى يكررها كثيرا بالمعنى الواحد كما لاحظته فى همزيته الشهيرة ولا يعبأ بتجوزات أخرى أعرفها له وأخشى أن يتمادى به احتقار القيود الشعرية الى أن ينظم أخيرا بدون قافية نظير شعراء الانكليز

وانى لاعذره عند النظم حينما يكون خاليا به شيطان الشعر مستغرقا فى التأمل غائصا فى أبحر التخيل فى عدم اسفافه الى تفعيل المنسرح والسريع وتقطيع كل بيت بل كل شطر مما ينظم .

ولكنى أنصحه باجتناب هذه الابحر التى فى ركوبها خطر الوقوع وإزباد علماء فى العروض مثل الشيخ، والله يعلم أننى ما نظمت عليها شيئا أرويه ولى ندحة فى الطويل والكامل وأشباههما عن هذه الاوزان العرجاء وغنى بركوب تلك الابحر الواسعة عن هذه الخلج العوجاء.

هذا ما عن لى ايراده من محاكمة هذين الفاضلين لا أقصد به تهضم جانب أحد منهما ولا الاستطالة على أحد فاننى أول من أقر بعجزه ولى من مودة كل منهما ما يكفل لى تصحيح دعواى هذه .

وبالجملة فلا أبرئ البيان من التشديد فى مؤاخذة شوقى بك والتحجير فى الواسع كما لا أبرىء شاعرنا الشهير من النزوع الى أبعد مذاهب الشعر أحياناً فى كتاباته ومن تسلط التأمل على مخيلته الى حد الذهول الذى يجعله أن يقع فى فرطات منشؤها السهو وأن يقول مثلا فى بائية الحرب :

تنام خطوب الملك انظل ساهراً   وان هو نام استيقظت تتألب

اذ كيف يظل ساهراً والسهر انما يكون فى الليل ولا حاجة هنا للمجاز . اذ يمكننا أن نقول : بات ساهراً فلا جرم أن مثل هذا سهو صريح أدى اليه ذلك الذهول(١)

ومع هذا فلا يحزنن أخى شوقى انتقاد البيان ولاغيره فليس فى انتقاد مايكفر باهر حسناته ويخفض من مقامه المنفرد فى الشعر .

وليقل القائل ما شاء فلن يزال أحمد شوقى بلبل مصر وصناجة العصر .(شكيب)

أثر المقال فى نفس اليازجى

فلما اطلع الشيخ ابراهيم اليازجى على هذا الرد قامت قيامته لأنه كان بلغ به الأمر من الاعتقاد فى نفسه فى معرفة اللغة الى حد أنه كان لا يطيق لأحد من أبناء عصره عليه اعتراضاً أيا كان، وكان لا يتردد فى تجهيل أى عالم فى اللغـة حتى من المتقدمين الذين هم أئمة هذا الأمر ، وكثيرا ما كان يهزأ بهؤلاء الائمة ، وذكر له الشيخ سعيد الشرتونى كتاباً لأحد الأدباء المتقدمين ولم يكن هـذا المؤلف مشهورا فقال له الشيخ ابراهيم : ان الكبار ما جاءت عنهم أخبار فـكيف هـذا ؟ وكان يلتف حول الشيخ ناشئة ومتأدبون يوافقونه على جميع آرائه ولا يجرؤون على مجادلته فى كثير ولا قليل بل يتلقون كل ما يذهب اليه بالتسليم المطلق فانتهى الأمر الى أنه اعتقد فى نفسه العصمة

---

(١) كان شوقى بعد أن تفارقنا فى باريز يكاتبنى ويرد على كل كتبى الى أن انقطع أخيراً عن الاجابة من دون سبب فانقطعت أنا أيضاً عن مكاتبته وما زلت منقطعاً الى أن جاءنى منه ألوكة يقول لى فيها : ما قصرت فى جوابك لسبب وانما هو الذهول الذى لا تسلم منه نفسى . فأنا أعرض له هنا بالذهول الذى اعتذر به .

تقريباً . وعلى كل حال ظن أنه أعلم باللغة من أصحابها وأسبق فيهـا من فرسانها واعترض مرة على لفظة (ضوضاء) التي وردت فى معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى فقال انها جاءت فيها مؤنثة وان حقها أن تكون مذكرة.أى أن أحد أصحاب المعلقات السبع أصبح يخطىء فى اللغة وأن الشيخ ابراهيم اليازجى من أبناء عصرنا يصحح له خطأه ! وينسى أن النحو والصرف واللغة كل هذا مبنى على كلام العرب وليس كلام العرب مبنياً عليه

ولا ينكر أن اليازجى كان من علماء اللغة المعدودين ومن كبار الـكتاب وأمتنهم تركيباً وأحسنهم نسق عبارة كما قلنا . ولـكن كان بين ظنه فى نفسه والحقيقة ما بين المشرق والمغرب ، فانه كان يخطىء فى اللغة كما يخطئ غيره وان كان خطؤه أقل من خطأ غيره . فلما رأى شابا مثلى فى السابعة والعشرين من العمر وقتئذ يجرؤ على مراجعته فى قوله وعلى إظهار خطئه تارة وتعنته أخرى داخله من الامتعاض ما حاد به عن رشده فنشر فى مجلته (البيان) ردا شديد اللهجة فيه من بوادر الحدة وألفاظ الوقيعة ما لم يكن يليق بشيخ من أهل العلم مثله فضلا عن عدم مناسبة تلك المطاعن التى خاض فيها للبحث اللغوى المحض الذي كنا بسبيله . فقد خرج عن الموضوع وتعرض لامور هى أشبه بالمهاترة منها بالمناظرة . وتكلم عنا بجمل نفث فيهـا كل ما كان يحك فى صدره من مثل أننا « لم ندس عتبة التحقيق فى علم من العلوم » وان قصارى أمرنا أن نعمد الى مقالة افرنجية ونترجم عنها فتأتى مقالتنا « عربية الحروف كردية الألفاظ » وانه هو يعلم أن علماء اللغة لا يقيمون لاعتراضاتنا هـذه وزنا وأنه هو ليس فى شئ من الغالب والمغلوب الى غير ذلك من آثار العظمة والعنجهية . فلم يظن أحد أن الشيخ يستطار الى هـذا الحد من نقد كتب بأنزه ما يكون من الألفاظ وأحوط ما يكون من الأساليب لحفظ مقامه . وقد قسم رده الى قسمين أحدهما كان بتوقيعه ومن جملة مازعم فيه أننا سعينا لدى الحكومة العثمانية فى بيروت بمنع مجلته عن دخول سورية خيفة انتشار مافيها من الرد علينا وقد يجوز أن يكون جاء اليازجى من بعض المفسدين خبر كهذا ولـكنه كان بهتا لا أصل له . ومن الرد ما جعله باسم أحد مريديه

واسمه بدران فيما أتذكر ، وقد حاول أن يتستر وراء توقيع مريده هـذا خجلا من أن يوقع هو على مطاعن شخصية ليس بينها وبين الموضـوع الذى كنا فيـه أدنى صلة.

وقدعاب الناس عمله هذا حتى أقربهم اليه وأغيرهم عليه، وحسبك أن بشارة باشا تقلا صاحب الأهرام وهو واليازجى من بلدة واحدة (كفر شيمه من لبنان) ومن طائفة واحدة هى الروم الـكاثوليك ، قد كتب إلىّ أوانئذ أن الناس أنكروا انكارا شديدا على الشيخ ابراهيم خروجه عن الموضوع ونزوله الى ميدان المهاترة ونشره مقالة من قلمه بامضاء غيره .

وصادفت بعد ذلك أمين افندى أفرام البستانى اللبنانى وهو من فحول الـكتاب فعرض البحث عن هـذه المناقشة بيننا وبين الشيخ ابراهيم فقال لى : قد توفقت فى الشيخ . فتعنت اليازجى فى انتقاد شوقى لم يجن له أدنى فائدة بل جنى عليه وعجب الناس من أن تغرب عنه مسائل لا يجادل فيها أحد وعجبوا أكثر من ذلك لبلوغ الحدة منه مبلغا خرج به عن الحدود .

رد للمؤلف على اليازجى

والآن أعود فأنقل جوابى لليازجى على رده هذا :

كل ينفق مما عنده

قد ترددنا فى جواب (البيان) على ما أتى به فى جزئه الأخير مما لا خلاف فى كونه ليس بجواب على خطابنا ، وكنا نحب الامساك عن كل كلمـة فى الرد عليـه تاركين الحكم فى هذه القضيـة لأرباب العلم وأهل الذوق السليم ليفتحوا بيننا وبينـه بالحق معتقدين أن الحق ليس بضائع عندهم ، ولـكننا رأينا السكوت مطلقاً عن جميع ما أورده قـد يوهم بعض من لا تحقيق عنده أن قوله كان الفصل وان الرجل قد ألزم وأفحم وانه إنما يغرف من يم

فاخترنا نشر هذه السطور تعزيزاً لبعض ما حاول دفعه ودفعاً لما اعترض به علينا جديداً . فاما سائر ما أتى به مما هو خارج عن موضوع المناظرة فلو شئنا لـكان للاقلام

مجال طويل فى رده اليه وعكسه عليه ؛ ولكن ذلك ليس من شأننا فنقول :

أما (الكاتب وما كتب غراس نعمائك) فقد أصبحنا فى غنى عن تأييدها بما نتركه لمحفوظ القراء من هذا المعنى الذى لما لم يسع صاحب الرد هذه المرة الا التسليم بوروده عاد يقول : (لعلنا رأيناه مرة) وما رأيناه الا مراراً . بل لقد سمعنا فيه المثل . وناهيك بما أصبح مضربا للامثال يكون مطروقا

فاما قوله : كان يجب عليك أن تميز بين المادح وقصص المؤرخ ويا ليت شعرى هل كانت تلك الرواية خطبة أوقصيدة عدّدفيها المؤلف المناقب الخديوية حتى يقال ان نعمة الممدوح كانت على الكاتب عبارة المدح والشكر)

فجوابه . أن قول صاحب الرواية (الكاتب وما كتب) هكذا على اطلاقه لا يفيد (بما كتب) هذه الرواية وحدها

وقد (كتب) غيرها كثيراً وأسال من المداد جماً مستمداً من كتابته بنعمة مولاه الخديوى التى هو غذىّ درها وغارق فى أبحر آلاء هو ناظم درها .

وهو الذى ملأ الآفاق بالمدائح الخديوية وسير أوابد الشعر فى هذا البيت الكريم وحسبك أن صفته الملازمة له أنه شاعر الخديوى وقد امتلأ حوض العزيز من نظمه .

ولا نعلم بعد هذا من أين جاء الشيخ هذا الشرط الذى قاله وهو أنه يجب أن يكون كل ما يكتبه الكاتب خطبة أو قصيدة يعدد فيها مناقب سيد له منعم عليه حتى يجوز له التحدث بنعمة ذلك السيد . فاذا خرج من ذلك المعرض مرق من فضل مولاه عليه وانقطعت مادة إمداده له فصار محظوراً عليه التحدث بنعمته بين الناس وانقطع ما (بين النعماء والانشاء) كما هو مقتضى كلامه .

وأما (جنى ظلك ومائك) فبعد أن قلنا له ان الظل هنا مجازى لم يبق محل لاظهار معارفنا فى علم النبات والتشاغل بالظل والجنى وما يتعلق بهما .

فأما قوله : اننا أضفنا الظل الى الغراس لا للمهدى اليه فمن يرجع الى عبارتنا الاولى علم مقصودنا وقاس درجة هذه الدعوى من الصحة . كما ان قوله : اننا جعلنا الحرارة عنصراً فحسبنا لتفنيده اعادة عبارتنا بالحرف وهى هذه :

(ليس من الضرورى فى سجعة كهذه استيفاء جميع العناصر التى تخرج الثمر وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين) نعرضها على جميع علماء العربيـة . هل يستفاد منها أن الحرارة مجمولة فيها عنصراً من العناصر ؟ وهل يقول ذلك أحد ؟ الا اذا شاء تحريف الـكلم عن مواضعه .

وأما تركيب (زيد أفضل أخوته) فالله يعلم أننا لم نكن ممن يستعمل هذا التركيب وإنما قصدنا بالدفاع عنه أن مسألة خلافية كهذه قد حصل فيها من الأخذ والرد ما لا يمكن أن يكون غاب عن أديب راسخ مثل صاحب عذراء الهند وأن شوقى بك لم يعدل الى مثل هذا التركيب إلا وهو يرى رأى الذين أجازوه ولم يحجروا فيه وذلك مثل ابن خالويه وهو يحفظ منه قول المتنبي . وقول صاحب البيان : ان ليس هذا مقصود ابن خالويه لا يسلم به بلا دليل . والخفاجى قد نقل ذلك عنه وهو ممن يعلم ما ينقل ويفهم ماذا يقول .

ولما كان اعتراض البيان على هذه العبارة مأخوذاً كغيره عن درة الغواص وهى بين الايدى وكان الخفاجى قد تعقبه هناك فمن شاء مقابلة الاخذ بالرد فعليه بمراجعة ذلك فى محله ولا حاجة بنا الى اضاعة الوقت فى نقله ومنه يعلم أدلة الفريقين .

وأما (الاعلاق) فلا ينس البيان أنه منعها فى البداية قولا واحداً بمعنى العلاقات فقال مانصه : (يريد بالاعلاق العلائق وهى لا تأتى بهذا المعنى انما الاعلاق جمع علق بالـكسر وهو الشىء النفيس . فمقتضى كلامه الذى لا يحتمل أدنى مغالطة ان الاعلاق هى النفائس منحصرة فى هذا المعنى بدليل قوله : (انما) فقلنا له : بل الاعلاق تأتى بغير معنى النفائس فتأتى جمعاً للعلق محركة وهذا يأتى بمعنى البكرة والحبل المعلق بالبكرة وبمعنى الرشاء مطلقاً وأنشدناه هذا الشطر من اللسان

☆ عيونها خزر لصوت الاعلاق ☆

دليلا على عدم انحصار الاعلاق فى معنى النفائس كما ذهب اليه، فظاهر أن صوت الاعلاق فى هذا الشطر لم يقصد به صوت الاشياء النفيسة

ثم قلنا فى هذه الأدوات وهى البكرة والحبل من معنى التعليق والعلاقة ما يسدد

ارتباطها بالقلوب ، وذلك لأن المجاز يقع لاول ملابسة ، وهنا الملابسة شديدة .فكان من الشيخ أنه طوى كشحاً على كلامنا هذا ومال الى التهكم بتأويل الاعلاق بالحبال والبكرات وأخذ يترحم على عشاق العرب الذين لم يسبقونا الى هذا المعنى بزعمه ولا ذكروه فى أغزالهم الرقيقة وقال : (واذاً لكان لهم ما يصطادون به المحبوب قسراً اذا سمع صرير تلك البكرة فخزرت عيناه دهشاً) الى آخر ما ذكر .

ومقتضاه أنه يلزم تفسير اللفظ بمعناه الحقيقى ونفى المجاز من اللغة العربية حال كون المجاز هو فصاحتها وبيانها . وعليه فصار يلزم من الآن فصاعدا اذا أردنا تفسير (أذاقها الله لباس الجوع) أن نتخيل للجوع ثياباً ونتصور تلك الثياب فى الافواه وقد ألحت عليها الالسنة تلوكها

واذا قيل : حمى الوطيس . امتنع أن نفهم منه سوى مجرد حمى التنور واذا قيل : جناح الذل، تبادر الى الذهن جناح ذو قوادم وخواف فيه من الريش طائل وشكير . واذا قيل عن رجل : انه بحر العلم ، وجب أن تلتطم بين جوانحه الامواج وتمر فوق رأسه السفن وإذا قال البيان فى نفس عبارته التى تهكمنا بها (يصطادون المحبوب) بمعنى يجتذبونه تعين أن يكون المحبوب غزالا قد صيد بشرك نصب له أو سهم شك فؤاده فأخذ وسلخ وشوى على النار كما يفعل بالصيد ! وإلا فالمحبوب لا يصاد فى الحقيقة . وهكذا نمضى فى تفسير العربى كله على هذا النمط . وناهيك ما يتسع لدينا حينئذ من مجال الهزوء لا بأعلاق القلوب فقط بل بأكثر معانى هذه اللغة الشريفة ، مع أن الكلام كما لا يخفى على واسع علم المعترض ، منه حقيقة ومنه مجاز . والحقيقة هى اللفظ الدال على ما وضع له فى الاصل . والمجاز هو ما أريد به غير المعنى الموضوع فى الاصل ، وهو من جاز أى انتقل كأنما يريدون به الانتقال من مقصد الى آخر .

فاذا قيل : زيد أسد حال كون زيد إنسانا والأسد حيوان كأنه قد فصل المجاز من الانسانية الى الأسدية لوصلة بينهما هى الشجاعة .

أو قيل : زيد بحر فالوصلة هى الكرم وهذا هو أهم أبواب البيان بل قال بعضهم: إنه علم البيان بأجمعه .

ومن العجب أن المسمى بالبيان اليوم يوجب تفسير كل لفظ بمعناه الاصلى متخيراً ضرير البكر وذعر المحبوب من ذلك الضرير المنكر مما لا محل له إذ الملابسة بين الحبال والقلوب فى معنى الارتباط تدرك بأدنى تأمل .

وأما ترحمه على عشاق العرب الذين لم يسبقونا الى هذا المعنى فرحم الله من لم يتركوا معنى إلا وقد سبقونا اليه .

وهل لنا من عاشق أرق غزلا وأفصح لهجة من مجنون ليلى فهو الذى يقول :

فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا

ومجنون ليلى هذا حجة وقد استشهدوا بكلامه فى كتب النحو . وقال الشريف الرضى: وهو الذى يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه .

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم وأعلاق وجدى باقيات كما هيا

وأظن أننا أتينا من هذه النصوص بما فيه مقنع ولم يبق جدال فى كون (أمتهم اعلاقا فى القلوب) جائزة سائغة وان الاعلاق تأتى بمعنى العلائق أيضاً ، إلا إذا كان المعترض أعلم بلغة مضر من مجنون ليلى والشريف الموسوى وحينئذ لا كلام لنا !

نصل الى (الرأى العام) وقد أوردنا رأينا فيها ولا نزال نقول : ان قول الشيخ (اهواء النفوس) لا يؤدى حقيقة معناها وانه حيث كان لا يوجد فيها شىء يخالف القواعد فلا بأس بالتسامح فيها وتهوينا الامر قسناها على الامر العام وقلنا : قلوا أمر عمم وفسروه بأنه عام .

فأجابنا بأننا خلطنا بين العمم والعام فان نكن خلطنا فقد خلط لسان العرب والأصح أن ابن منظور كان يعلم ماذا يقول وهو الذى فسر أمر عمم بقوله : أى عام تام فلم نعلم ماوجه الخلط بينهما ؟

ثم انه هذه المرة لم يتعرض (للعائلة) وخصص نفيه بالعيلة ورد قول الخفاجى بجوازها بحجة أن كل مستند الخفاجى هوالحديث (أتخافين العيلة وأنا وليهم)

فقال : ان الذى فسره بالعيال هو ابن الاثير وحده ، وان قول ابن الاثير لا يسلم به حتى نعلم قرائن هذا الحديث . فقد كان صاحب البيان فى غنى عن تخطئة

مثل ابن الأثير فى علم الحديث والرجل من اكابر المحدثين وكتابه (النهاية فى غريب الحديث) أشهر من أن يذكر . وهب أن صاحب البيان قد طالع فى حواشى الكتب بعض الاحاديث فهو علم لا بد فيه من الاسانيد ولا يصح تلقيه بلا رواية . فتعرض المعترض لجرح قول ابن الاثير فى هذا المعنى واقع بغير محله كما لا يخفى

على أن الخفاجى لم يقتصر فى تأييد تلك اللفظة على إيراد هذا الحديث وحده بل قال : لعلهم أخذوها من قوله : عاله عيلة إذا قام برزقه . أو لعلها أطلقت على أسرة لكونهم سبب العيلة أى الفقر أى من باب تسمية الشى بما يؤول اليه . وفى توجيهه هذا مالا يخفى من الوجاهة . ولا يؤاخذنى قارئ بانى استعملت (العيلة) فى كلامى بمعنى الاسرة لانها من الالفاظ التى وقع فيها المراء والتى أغنانى الله عنها بأفصح منها

فان قيل : فلماذا تحريت الدفاع عن استعمالها مع أنها مما لا ترضاه لنفسك ؟

أجبت : على المنتقد الذى ينصب نفسه (لارشاد الخاصة) اذا شاء الانتقاد أن يرينا ورى زنده ولا يعمد الى ما قد نسج عليه العناكب من المآخذ التى صارت الى صغار الطلبة فضلا عن خاصة الكتاب ، فاظهار الطول فيما لا مزية فيه يحدو المرء الى المقابلة بالمثل ، خصوصاً فى علم العربية الذى لاعبث فيه اكثر من التحجير فى الواسع والقطع بعدم جواز هذا وعدم ورود ذاك ظنا بأن اللغة قد انتهت عند الذى طالعناه

وأما قول شوقى بك فى التاريخ المصرى : (ان الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهى عين تارة وأثر ، تموت بحجر وتحيا بحجر) فقد كان قول البيان فيه هكذا بالحرف : (انظر ماذا أراد بقوله تموت بحجر وماذا يفهم بالحجر هنا ؟ وهل هذا إلا ضرب من الرقى وشكل من أشكال الحروف ؟)

فلما أوضحنا لك أن العبارة ليست ضرباً من الرقى ولا شكلا مما ذكر ضرب عن الجملة صفحاً وجاء يجادلنا فى توجيه المعنى من جهة التاريخ المصرى محاولا أن يوقعنا فى التناقض حال كون كلامنا هناك نيراً

وملخصه أن حقائق التاريخ المصرى غير ثابتة لاختلاف ماينكشف كل يوم من الآثار الحجرية التى قد يناقض منها تال سابقا ثم يأتى ما يؤيد الذى كان قد نقض

فهى لذلك بين موت وحياة مما لايحتاج فهمه الى امعان.

هذا وقد بقيت هناك اعتراضات منها ما سكت البيان عنه علامة التسليم به مثل ما أوردناه على (المأمورية) وقوله : (أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الاجفان) ومنها ما لم يجاوبنا عليه بغير التهكم والازدراء وهو سبيل سهل لمن أراد سلوكه لكنه ليس سبيل المناظرة ولا يغنى صاحبه من الحجة شيئا .

الا أنه أخذ علينا قولنا : (يمكن لى) فى محل (يمكننى) بحجة أن هذا الفعل لا يتعدى باللام .

وفى الجواب لا نقول له : ان اللام تأتى لمجرد التوكيد ولتقوية المعنى دون العامل، كما قالوا (ملكا ـ أجار لمسلم ومعاهد) وربما نستغنى عن أن نقول له ان اللام تأتى للاختصاص كما فى قولهم (شكرت له) فى مكان (شكرته) وكما قرأت فى أحد التواريخ الكبيرة (بايعوا له) والاصل (بايعوه)

ولو شئنا لقلنا له انه لما كانت الافعال التى تعلقها بمفعولها ما بين الوضوح والخفاء قد تتعدى باللام كما نص على ذلك الفخر الرازى وكان يمكن اعتبار فعل (أمكن) من هذا القبيل فلا حرج فى مجيئه متعديا باللام

ولكننا نقول : ان (يمكن لى) بمعنى (يتيسر لى) وذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل مرادف له . فان الافعال قد يتضمن بعضها معنى بعض · الا ترى انه لما قال الكوفيون بتضمين الحروف بعضها معنى بعض أنكر عليهم البصريون ذلك وقالوا ان التضمين للافعال لا للحروف وأولوا شربت بماء البحر بمعنى رويت « فأمكن لى » متضمنة معنى تيسر لى، أو تهيأ لى ، كما أن لفظة (ممكنة) فى قول عنترة :

* والشاة ممكنة لمن هو مرتمى *

هى بمعنى متيسرة . وبعد هذا كله فهب ان الاولى أن يقال (يمكننى) فما على الشيخ إلا أن يقيسها ببعض تجوزاته كقوله مثلا : (زحف عليه) بدل (زحف اليه) وكقوله : (ينيف عن كذا) محل (ينيف على كذا) وكقوله : (كما أشار) والواجب

(كما أشار اليه) وهلم جرا .

ولـكن نحب أن يخبرنا الشيخ مامعنى (الصحافة) فى قوله فى تلك الجملة التى اعترض بها على ما يمكن لى (غلمان الصحافة)؟ فقد لاح لنا انه يقصد بها الـكتابة فى الصحف أو صنعة تحرير الجرائد كما مشى على ذلك بعض المعاصرين .

ومن كان يرد فى كلامه مثـل (الصحافة) بهذا المعنى، ومثل : (العالم الأدبى) فأى حق له فى تخطئة (الرأى العـام) وادعاء تخليص الـكلام من المواضعات الجديدة

ثم همزبنا لاجل همزة (أشكل) الواردة فى الاهرام بالضم من غلط مرتب الحروف ونسى أننا لسنا نظيره فى المطبعة وان بيننا وبينه أبحراً فلا يتيسر لنا تصحيح المسودات بذاتنا كما يتهيأ له رد المرتب ما شاء من المرات. والظاهر أن الشيخ لا يسلم بغلط الطبع الا اذا وقع فى كلامه .

وأما تهديده إيانا بالاسراع فى إيراد أغـلاط (آخر بنى سراج) فلا مانع من أن نـكون وقعنا فى الغلط فى ابن سراج وفى غير ابن سراج لانه ليس أحد بمعصوم من الخطأ ، ولـكن سبحان الذى أوقعنا ولم يستثن غيرنا . وان شاء أسرعنا اليـه من قوله بمثل ما أوعد به من قولنا .

على أننا لا نفر من وجه الحق ونحن نقر بكل ما يرد علينا منه وكان الأولى بمن يضع نفسه فى منازل أهل التحقيق أن يعترف بالخطأ . وقد أورد له النص والشاهد وأن يحتذى مثال السعد التفتازانى حينما ناظر السيد وأقر له وهو أحدث منه سناً فانه ما على الجواد أن لا يكبو ولا هفوة العالم مسقطة له من رتبة فضله خصوصا اذا عرف خطأه وتذكر قول القائل :

أيذهب يوم واحد ان أسأته　　بصالح أيامى وحسن بلائيا

بقى علينا شئ ليس من باب المناظرة فى اللغة ولـكنه من باب الحقيقة وهو أن صاحب البيان اتهمنا بالسعى فى منع الجزء الاخـير منه توهم أن فيـه رداً علينـا ففضلا عن كوننا علمنا من مصر فى نفس البريد الذى ورد فيه ذلك الجزء أن ليس

فيه شيء علينا وأصبحنــا فى أمن من ذلك الخطر يعلم الله وأولياء الامور اننــا براء من هـذه التهمة

هذا وأما الشخصيات فلا شغل لنا بهــا والله المسئول أن يبصرنا ذنوبنــا ورحم الله من أهدى الينا عيوبنا . اه

المؤلف يرثى اليازجى

وكانت هذه المناقشة سببا لانقطاع مابيننا من ود قديم موروث ومات اليازجى عفا الله عنه وليست بينى وبينه صلة . وانمــا رثيته عند وفاته ، رعيا لذمام أبيه الشيخ نصيف اليازجى شاعر سورية فى وقته الذى لو اجتمع ما قاله فى الأرسلانيين من الشعر لـكان ديوانا مستقلا، وتذكراً لما كان بينى وبينه من ود سابق وانحناءا أمام حادث الموت الذى تذهب عنده الأحقاد وقد قلت فى رثائه :

قصار كل فتى مستكمل الخطر ... أن ينحنى لقضاء الله والقدر
وأن يقابل صرف الدهر كيف جرى ... بالخلق فى عبرات العين والعبر
وأن يرى غيره مع عينه شرعا ... فليس بينهما فرق سوى الصور
فمــا أرى ناعيــا حبــا بمفرده ... إلا نعى لو عقلنا سائر البشر

الى أن أقول :

كفى بريب المنايا واعظا وجزى ... رشدا لمن كان من دنيــا على غرر
تخالف الناس فى الأهواء حين حيوا ... وجمّع الموت منهم كل منتثر
وقد يلج ببعض كيد شانئه ... ولو درى لصفا صفوا بلا كدر
وقد يحــاول فى أعـدائه ظفراً ... وانه بين ناب الموت والظفر
كم وترت قوس ضغن كف ذى ترة ... فأذهب الموت عزم الوِتر والوَتر
والدمع يغسل ما بالقلب من وضر ... كما يزول غبــار الأرض بالمطر
لو أنصف اليــازجى دمع لـكان له ... كعلمه بحر دمع غـير منحصر
أو لو درت نار ابراهيم مصرعه ... لأصبحت من جوى لفاحة الشرر

أودى الردى حينما أودى بمهجته ... بأكتب الوقت من بدو ومن حضر
بذى الضياء تكاد العمى تبصره ... وذى البيان الذى يشفى من الحصر
من بعد ما خمدت ريح البيان غدت ... له به دولة وضاحة الغرر
عبارة لا ترى فى رصفها قلقاً ... كالمدل لم يشك من طول ولا قصر
لا تلتقى موضعاً فيها له بدل ... كأنما جاءت المعنى على قدر
بكت له اللغة الفصحى وحق له ... بكاء كل كلام جاء من مضر
ياراحلا شكت الأقلام غربته ... وليس بعدك منها غير منكسر
نهجت فى بلغاء الأرض واردة ... بالحق لولاك لم تسفر ولم تنر
اليك حقك لا ظلم ولا سرف ... لا ينكر الشمس الا فاقد البصر
وان يؤاخذك نقاد ببادرة ... فليس يرجم الا مثمر الشجر
وقد يعاب الذى فى البدر من كلف ... وليس يسلب معنى الحسن فى القمر
اليك منى تحيات برقتها ... كسحر لفظك أو كالنفح فى السحر
فاذهب عليك سلام الله من رجل ... ماضى الحشاشة لكن خالد الأثر

. . . فهذا ما كان بينى وبين الشيخ اليازجى من الوحشة بعد الولاء ومن القطيعة بعد الاتصال ، بسبب شوقى .

عود الى شوقى

وبعد أن قفل شوقى الى مصر ورد عنه كلام فى جريدة الشورى للكاتب الوطنى المجاهد السيد محمد على الطاهر وذلك بمناسبة اجتماعنا فى المقهى العربى فى باريس .

فجاء شوقى وزار الاستاذ حافظ بك عوض صاحب جريدة كوكب الشرق وألقى اليه كلاما جاء بعده فى كوكب الشرق عدده المؤرخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ وفق ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ المقال الذى يلى :

احمد شوقي بك

بين الأمير والأستاذ

زارنا بالأمس سعادة أمير الشعراء شوقى بك ، فانتهزنا هذه الفرصة لنرى رأيه فيما ورد عنه فى (كوكب) أمس منقولا عن جريدة الشورى الغراء ؛ وما كدنا نتم السؤال حتى تبسم ضاحكا ثم قل : أنا شاكر لهم أن يضعونى بين بحاثتين ، سعادة الأمير شكيب وسعادة الأستاذ زكى باشا ، على أنى لا يفوتنى أن أتقبل مداعبات الأمير على العين والرأس ، فأقل حق الصداقة علينا أن نفتح صدورنا لدعابة الصديق القديم ، وأنا سعيد للفرصة التى مهدعوها لى لأشكر الأمير ، فهو أول من دعانى لزيارة المطعم التونسي وقهوته مع حضرات أعضاء الوفد السورى المحترمين بباريس

كان يومنا هناك أبهج من أن ينسى بفضل ما بذله أصحاب المطعم من همة جديرة بالثناء خصوصاً الأديب الفاضل طاهر افندى الصباغ ، وهو راوية من رواتى كان ينشد شعرى الحاضرين

واذا كان الشئ بالشئ يذكر ، فقد علمت وأنا هناك من أعيان التونسيين ، أنه على أثر اشاعة كانت قد شاعت عن عزمى على زيارة تونس فى الصيف الماضى ، استعد اخواننا التونسيون للقائى استعداداً أعده فوق قدرى . حتى بلغ من احد سراتهم الأدباء أن هيأ لى منزلا فخما أثثه كله بأثاث جديد

وأنا لا يسعنى إلا أن أحيي هذه الروح الشرقية الكريمة ، وأتمنى توثيق عراها بين أمم الشرق على الدوام

وأخص بشكرى الامة التونسية مثال النهضة والرقى فى شمال أفريقيا

* * *

فبعد ذلك نشرت فى « كوكب الشرق » فى العدد المؤرخ فى ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ وفق ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٦ مقالة هى هذه :

مداعبة بين شوقي والمؤلف

من دعابة الى اخرى

حيث ان أمير الشعراء قد فتح صدره لدعابة صديقه القديم هذا فلنترك الآن الأستاذ العلامة احمد زكى باشا ولنعد الى أميرنا احمد شوقى بك نجاذبه بقية الحبل

يقول شوقى بك أنى أنا الذى بدأ بدعوته الى المطعم التونسى وقهوته مع أعضاء الوفد السورى المحترمين ويشكر هذا الداعى

وأنا أتباهى بهذه الدعوة وأشكر لمجيبيها حسن التلبية فقد كنت أول من دعا وكان هو أول من لبى . وكان يوما مشرقا سروراً وأنسا ، وكما قال أبهج من أن ينسى. لا بل كان كيوم دارة جلجل . ويعلم الله أن ملاقاة اخى شوقى بغية تقصد ومنهل يورد وانى لأحج اليها من بلد الى بلد فكيف وهى على طرف الثمام وانى لأحن الى لقاء هذا الأخ الحميم ولو فى رمضان بعد العصر فكيف على كسكس وشكشوكة وما شاكلها من الطعام

ولست بأقل شكراً منه للأديب الفاضل السيد طاهر الصباغ الذى رأينا من حفاوته ونحافة ذوقه ، وسرعة لحظه ، وشدة حفظه ؛ ما يعد نادراً فى بابه . ويقول الأخ الأكبر — وشوقى بحسب تاريخ ولادته اكبر منى بسنة — ان طاهر افندى الموما اليه راوية من رواة شعره ، وانه كان ينشد شعره الحاضرين واقول كلنا رواة لشعر شوقى ننشده الحاضرين ونزهو به على الغابرين ونقول :

كم ترك الأولون للآخرين . ولعمرى ان الدهر من رواة شعر شوقى ، أفيكون الصباغ أصعب من الدهر ؟

قال أبو الطيب :

وما الدهر الا من رواة قصائدى   اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ومن يا ترى يصح أن يخلف المتنبى اليوم ؟ أولها أحمد وآخرها أحمد !

أفلم يسألنى سائل منذ عشرين سنة (ترانى لا أزال متمسكا بالتواريخ) عن رأيى

فى أشعر شعراء العصر فأجبته : وجوابى منشور فى مجلة سركيس ـ وقد تكرر نشره فى المؤيد ـ بأن المفلقين منهم كثيرون وذكرت الكاظمى والرصافى والمطران وغيرهم ولكنى قلت ان البارودى وشوقى وحافظ ابراهيم هم الثلاثة السابقون فى الحلبة ، وما زلت أقول أنهم ثالوث الشعر الأقدس ، وذلك كما كان أبو تمام والمتنبي وأبو عبادة البحترى فى الماضى لات الشعر وعزاه ومناته ، وهكذا لقبهم صاحب المثل السائر . وشبهت البارودى بحبيب لما بينهما من التناسب فى علو النفس وجزالة اللفظ وتدفع القول حتى كأنه العارض المنصب ، وشبهت أحمد شوقى بأحمد بن الحسين الكندى لما بينهما من التناسب فى دقة المعانى وكثرة الحكم والجرى مجرى الأمثال ورأيت فى حافظ كثيراً مما فى البحترى من حسن الصنعة وعذوبة الألفاظ وطلاوة النسج وملكة الانسجام.

فلا عجب ان روى الدهر لشوقى كما روى للمتنبي ، وكم من أبيات لشوقى يستشهد بها الكتاب بل العوام وهم لا يعلمون أصلها . ومن وجوه شبه أحمد شوقى بالمتنبى أن أبا الطيب استشهد الناس بشعره فى عصره ودارت أمثاله وأبياته اليتائم على عذبات الألسن ورؤوس الأقلام شرقاً وغرباً وهو بعد فى الحياة ، وان شوقى له شعر كثير لا يأخذه الاحصاء يستشهد به الخاص والعام ويدور على الألسن والأقلام وهو بعد فى الحياة لا بل فى الشباب ان جاز لنا أن نقول هذا .

الا أنى سمعت السيد طاهر الصباغ يروى لحافظ مثلما يروى لشوقى وربما أكثر فلا ينبغى أن أغفل ذلك لأن التحرى واجب فى الرواية حتى عن الرواية.

ولكن قد بالغ شوقى فى الاعتماد على ذاكرة صاحبنا طاهر الصباغ وفى الاعتقاد باحاطته بشعره الى أن ذهل عن إهدائه إياه ديوانه (الشوقيات) بعد أن وعده به وقال له :إنى كتبت اسمك على النسخة . وهو عقد عجل شوقى فسخه لذهابه ان بين صدغى الصباغ من ديوانه نسخة.

وذهب شوقى الى (ڤيشى) وقد ظن الصباغ أنه (فايش) فى وعده بالكتاب، وبقيت أنا وحدى عرضة للعتاب ، كأنى أنا وشوقى متكافلان متضامنان (ليسمح لنا

« الوحيد » بالتكافل والتضامن فقد صارتا من الاستعمالات الضرورية ولو لم يرد فى كتب اللغة تضامن فلان وفلان ولا ورد من الكفالة إلا قولهم فلان مكافل لفلان (بمعنى معاهد) ولا غرو فبين الادباء رحم وذمام ، ولا سيما اذا كانوا إخوانا من قديم الزمان . فصرت أسمع غمزة بعد غمزة ، وكثرت الحروف التى فيها همزة ، وخشيت أن يتذكر صاحبنا الآية الكريمة فى الشعراء وهى التى فيها (يتبعهم الغاوون) الى آخر ما وصفهم تعالى به مما ينتهى بالألف والنون .

وان شوقى سيدهم وحامل لوائهم يوم القيامة ، فكنت أؤكد للأديب الصباغ وهو عربى قح مولده الحجاز ، ان لابد لذلك الوعد من الانجاز ، وان عليه أن ينتظر وصول شوقى بك الى مصر ، فالأمور بخواتيمها ، والقصائد بقوافيها ، والنسخة الموعود بها آتية لاريب فيها .

كنا فى الغود الذى وعدنا به ولم نسممه ، فصرنا فى النسخة التى انتظرها الصباغ ولم يرها ، ولا شك عندى أن العود تعطل كما قال الأخ ، وأن النسخة أهديت الى أناس كانوا مستعجلين ، إلا أنى لست بتارك حقى فى هذا العود إن شاء الله فى كرمة ابن هانئ نفسها ، فقد كان أمير الشعراء وعد بليلة طرب من أجلى بأثناء ذهابى الى حرب طرابلس الغرب (١٥ عاما) والبدوى أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال انه بكر. أما السيد طاهر الصباغ فانه بدوى أكثر منى ، فان لم يعجل اليه بالنسخة فلا تغنى بعد ذلك المكتبة بأسرها

أما مارواه بعضهم من وجود الشرب والرقص فى ذلك المقهى العربى بباريس فلا نصيب له من الصحة ، بل مشرب الزائرين قهوة البن وهى التى قال فيها عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه :

قهوة البن حلال ماتهى الناهون عنها
كيف تدعى بحرام وأنا أشرب منها

والشاى بأنواعه لاسيما الأخضر وهو ماأدخله الى المغرب السادة السنوسية رضى الله عنهم وكفى بهم قدوة . وليس هناك سكر ولا رقص ولافى المقهى مكان للرقص

وانما قد تنشد أحيانا بعض الأبيات المرققة للقلوب وبعض الازجال المقبولة ، وليس في ذلك نـكير ، ولعمري ان مقهى بدون قهوة ولا شاى أشبه بقلب بلا وجـد أو (بغراموفون) فى نجد

شكيب أرسلان

لوزان فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦

الوداع الاخير

ومذ ذلك الوقت لم يتيسر لى الاجتماع بأخى شوقى لأنى كما لا يخفى لاأقدر أن أدخل مصر ولأن شوقى لم يأت فى هذه السنين الاخيرة الى سويسرة، وبقيت أرعاه ويرعانى عن بعد وأصحبه فؤادى كيفما جال وابتهج بنفثاته مهما قال، الى أن أتاح الدهر لى أن أنظره النظرة الاخيرة التى لم أنظره بعدها واحسرتاه، وهى انى فى منصرفى من الحج سنة ١٣٤٧ مررت على السويس حيث بعد لأى سمحت لى الحـكومة المصرية بالاقامة بضعة أيام أشاهد فيها سيدتى الوالدة التى كان أولاد عمى الامير أمين مصطفى أرسلان وشقيقته أتوا بها الى السويس لمشاهدتى فأقمت فى تلك البلدة أربعة أيام أقبل فيها علىّ الاخوان من مصر: الاستاذ الاكبر السيد رشيد رضا والمرحوم احمد زكى باشا وحافظ بك عوض وعبد الله بك البشرى ونسيم افندى صيبعة وأسعد افنـدى داغر والحاج أديب افندى خير والسيد محمد على الطاهر صاحب الشورى واحمد حلمى باشـا مدير البنك العربى فى فلسطين وغيرهم من اخوانى وخلانى، وأقبل أيضاً احمـد بك شوقى وسررت بلقاء الجميع سرور من بقى عشرات من السنين فى بلاد الغرب محـروما لقاء اخوانه الذين كان يذوب شوقا الى لقائهم لاسيما أخى شوقى الذى بينى وبينه من الاخاء والذمام مالا يكاد يوجد بين اثنين . ومما أتذكره أنى قلت له يومئذ : لاأقدر أن أدعوك الى سورية لأنى لاأقدر أن أطأها بقدمى ولا الى فلسطين ولا الى مصر التى لا أدخلها الا بعـد اللتيا والتى فأنا أدعوك الى سويسرة حيث يمكنك أن تقضى الصيف ونشاهدك مليا .

فقضى عندى سحابة يومه ثم ركب سيارته عائدا الى مصر وودعته فى السويس الوداع الذى كنت أرجو بعده اللقاء فكان هو الوداع الاخير وذلك ان لقاءنا هذا كان فى سنة ١٣٤٧ وان شوقى رحمه الله لقى ربه فى ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١ فيكون بين وداعى الاخير له ووفاته نحو من أربع سنوات قد كنت أمنى النفس فى أثنائها باللقيان لأنه مادام الانسان حيا ولو على بعد لم ينقطع الأمل من مشاهدته فأما اذا فات فهى الحسرة الكبرى

وما صبابة مشتاق على أمل   الى اللقاء كمشتاق بلا أمل

قصيدة المؤلف فى مهرجان شوقى

وكانت مصر قد قررت الاحتفال بعيد الخمسين سنة من حياة شوقى الادبية وهو ما اصطلح عليه الناس من تسميته يوبيلا « jubillée » تقليداً للافرنج الذين يحتفلون بمرور الخمسين عاما على حياة سياسية أو أدبية أو عسكرية أو اكليريكية للوزير أو الكاتب أو القائد أو الأسقف منهم . فالشرقيون أصبحوا يقلدونهم فى هذا الأمر كما قلدوهم فى كل شىء . ولا شك فى انه ان كانت هذه بدعة فانها بدعة حسنة . وقد صادف ورود الخبر بتأليف لجنة يوبيل شوقى كونى على أوفاز الى أميركا لحضور المؤتمر العربى الذى قررت الجالية السورية عقده فى (دتروت مشيجن) وأرسل حزب سورية الجديدة فدعانى اليه . فسرت من سويسرة الى انجلترة وركبت الباخرة من (سوث همتن) وذلك فى آخر سنة ١٩٢٦ وفكرت فى انه لامناص لى من ارسال قصيدة تتلى فى عرس شوقى الأدبى . فنظمت وأنا فى الباخرة بين أوروبا وأميركا القصيدة التالية. وعند وصولى الى نيويورك أسرعت بارسالها الى مصر حتى تدرك مهرجان شوقى . فكان الأمر كذلك وتلاها فى الحفل الأستاذ خليل بك المطران المعروف بشاعر القطرين ، وهى هذه :

الى الاخ القديم احمد شوقى بك

نادِ القريحة ما استطعت نداءها ... إن الحقوق لتقتضيك أداءها
مهما ينل منها الجمود فان من ... إعجاز أحمد ما يفجر ماءها
مهما تراكمت الغيوم بأفقها ... فاليوم عندك ما يعيد جلاءها
لا تعتذر عنها بكرّ نوائبٍ ... سدت عليها نهجها وسواءها
فأهم ما همّتِ السحاب اذا مرت ... هوج العواصف دَرّها وسخاءها
والحك يستورى الزناد وانما ... تربى الصوارم بالصقال مضاءها
والرمح يكسب بالثقاف متانة ... والخيل يُظهر عدْوُها خيلاءها
حاشا القرائح أن تضن بودقها ... ما دام شوقى كافلا أنواءها
الشاعر الفذ الذى كلماته ... ضمن النبوغُ على الزمان بقاءها
أنست فصاحته أوائل وائل ... وغدت هوازن مع ثقيف فداءها
فى كل كائنة يزف قصيدة ... تؤتى جميع الكائنات بهاءها
غدت المعانى كلها ملكا له ... فأصاب منها كل بكر شاءها
وكسا اللسان اليعربى مطارفا ... هيهات ينتظر الزمان فناءها
ستخلد الأوطان من تكريمه ... ذكرى تطبق أرضها وسماءها
لو أنصفت لغة الأعارب قدره ... صلت عليه صباحها ومساءها
من كل موضوع أصاب شواكلا ... بلغت بعقلتها الصدور شفاءها
يبكى «شكسبير» على أمثالها ... ويبيت (غوتة) حاسداً علياءها
ولو ان آلهة الفصاحة عندهم ... أدركن شوقى خففت غلواءها
صناجة الشرق الذى نبراته ... تجلو المشارق عندها غمّاءها
فى كل حرف من حروف يراعه ... وتر يثير سرورها وبكاءها
ما حل بالاسلام بأس ملمة ... الا ورجّع شعره أصداءها
يبدى فظاعتها ويوسع هولها ... وصفاً ويذكر داءها ودواءها

كانت قصائده لبعث بلاده ... صوراً أراد من البلى احياءها
وارى الليالى لا تعزز أمة ... ان لم يكن سواسها شعراءها
كم أثبت التاريخ فى صفحاته ... أمما غدا انشادُها انشاءها
ضاءت لعمرى فى الحياة قبيلة ... لم تصطحب أفعالها أسماءها
والعُرب لا تبدأ بجمع جموعها ... الا سمعت نشيدها وحداءها
أكرم بأحمد شاعراً وافى لنا ... فى روح أحمد حاملا سيماءها
أتلو قصائده فتملأ مهجتى ... فرحاً يزيل همومها وعناءها
وأظلُّ مفتخراً بها فكأن لى ... دون الأنام ثناءها وسناءها
نحلت له نفسى مودة وامق ... وفيٍّ عهاد عهودها إرعاءها
تعزو الى لخم متانة أصلها ... وتعزُّ من ماء السماء صفاءها(١)
لا ترتجى منها التمائم ثلمة ... كلا ولا توهى الهنات بناءها
ناشدت شعرى أن يفى عودتى ... وأراه يعجز أن يجيء كفاءها
قد صار عهدى بالقريض كأنه ... دمن تقاضتها الرياح عفاءها
أدعو فلا يأتى الذى أرضى به ... والشعر أن تجد النفوس رضاءها
والشعر ما رسم الضمائر ناثلاً ... منها الكنائن نافجاً أحناءها
والشعر ما ترك المعانى مثّلاً ... فتكاد تلمس بالأكف هباءها
وهناك نفس مرة ما تأتلى ... تملى علىّ من العلى أهواءها
ان لم تجدنى فى العجاجة أولا ... نكرت علىّ تُلاثَها وثناءها
وفّرت ياشوقى السباق على الورى ... برياسة بات السباق وراءها
تتقطّع الأعناق عن غاياتها ... حتى الأمانى لا تحوم حذاءها
تالله أعطيت الرياسة حقها ... وعقدت حبوتها ونلت حباءها
وبذذت أهل العبقرية كلهم ... وبززت جنة عبقر أشياءها
لما رأيتك قد نزحت قليبها ... ألقيت عنى دلوها ورشاءها

---

(٢) اشارة الى نسبة قائل هذا الشعر الى المناذرة بنى ماء السماء اللخميين ملوك الحيرة

فاسعد بعرش أمارة الشعر التى ألقت اليـك لواءها وولاءها
وتهنّ وابق لأمة عربيـة لا زلت قـرة عينها وضياءها

ابيات للمؤلف ايضا

ولما توفى الاستاذ فقيد الاسلام الشيخ عبد العزيز جاويش رثاه شوقى (رحم الله الرائى والمرثى) بقصيدة من قصائده التى كانت تشرق وتغرب ويعجب بها كل عربى ومستعرب فاذا بأحد الأدباء ينتقد تلك المرثية انتقاد متعنت واذا بأديب آخر ينافح عن شوقى . فأملى علىّ هذا الجدال فى تلك القصيدة القطعة الآتية المنشورة فى عدد ٢٨ ذى الحجة سنة ٤٨ من جريدة الشورى وهى :

بييتات كانت ضالة فوجدت

كنت فى أثناء سفرى الى الحجاز أقرأ على ظهر الباخرة مجلات وجرائد . فبينما أنا أقرأ إذ مر بى انتقاد لأحد الادباء يخطىء به « شوقى » فى أبيات من رثائه لفقيد الاسلام المرحوم الشيخ جاويش . ثم اطلعت على رد لأحد الفضلاء النـاخعين يدافع به عن شوقى ويبين صحة قوله. فأما القصيدة فهى كسائر شعر شوقى الذي لا يدرى أيه أحسن بل كلما قرأ الانسان منه شيئاً ظنه هو سيد شعره . فاذا انتقل الى غـيره ظن هذا هو السيد وهكذا الى أن ينتهى من شعره وهو لا يعلم أوله خير أم آخـره . ولا جدال فى أن مرثية أمير الشعراء للاستاذ جاويش نور الله ضريحـه كانت من عيـون قصائده.ولما انتهيت منها كتبت على حاشية مكتوب مايأتى بقلم رصاص على البديهة:

تفـوّق شـــوقى بأشعـاره جميعـاً فكل يتـيم فـريد
ومـا دمت تجتاز أرجاءها تعـود بـكل طـريف جـديد
تُوالى الهتافَ لدى كل بيت ألا ان ذلك بيت القصيد
اذا هو ابكى فزاد المعاد وان هـو غنىّ فأنس الوجود

ولكن قصائد شوقى اللواتى لهن سجل بلوح الخلود
فداء « لمرثية » قالها « بعبد العزيز » العزيز الشهيد
أعارَ الرثاءَ جلال الفقيد فأصبح هذا لهذا نديد
وقد كان من قبل هذا مبينا بشأو مجال عليه المزيد
تكاد لاحراز أقوال شوقى تكون المنايا أمانى الفقيد

وأتذكر أنى حررت كلمات أيضاً أبين فيها محاسن تلك المرثية . ثم بعد أن وصلت الى الحجاز غاصت هذه الابيات وهاتيك الكلمات فى لجج أوراقى الزاخرة فلم تقدر يدى أن تصل اليها وظننتها ذهبت أصلا . وبينما أنا أفرز أوراقى فى هذه الايام إذ عثرت على الابيات المرقومة بقلم رصاص وترددت ساعة فى نشرها قائلا لنفسى ان النظم والنثر بعد مضى مناسبته أشبه باللحم البائت أو الخبز الغاب الذى تذهب طراوته . ولكن فكرة النشر بعد تساؤل النفسين قد غلبت بحجة أن كلاما يتعلق بشوقى لا يزال غضاً طريا وأن مناسبة شوقى لا تخلق ديباجتها ابداً

أما الكلمات التى حررتها فى محاسن تلك المرثية التى كل من المرثى نضر الله وجهه والراثى أطال الله عمره كانا من أعز الناس علىّ وأحبهم الىّ من بين جميع البشر فبقيت ضالة لما تظفر يدى بها .

وأتذكر انى أشرت الى نكات بيت فيها لا سيا ذلك البيت الذى وصف الموت والنقل والدفن منذ وجد الخلق وشطره الثانى :

« قيام بتلك الصحارى قعود »

وأما البيت الذى فيه وصف أجساد الموتى وشطره الثانى :

« وكم من قروح وكم من صديد »

فلم أحبه على مافيه من صحة وقد ذكرت عنه أنه يليق بأن يتلى على مائدة رهبان فى دير . فان من عادة هؤلاء اذا جلسو الى طعام أن يجعلوا أحدهم يقرأ عليهم من الزهديات والمحزنات وذكرى الموت وأمامه جمجمة

☆☆☆

ومما لا يجوز أن أغفله من تاريخ علاقاتي مع شوقي أنه في سنة ١٣٢٨ سألني سليم افندي سركيس عن رأيي في شعراء العصر لينشر هـذا الرأي في مجلته فلم أجـد بداً من اجابته بمقال نشره في مجلة سركيس ثم أعاد نشره بعد ذلك بسنوات في جريدة المؤيد. وقد كان سبب اعادة هذا الفصل في المؤيد أنه بينما كنت في مصر قاصداً الجهاد في طرابلس الغرب ألقى عليّ أحد الأدباء في المؤيد سؤالا يستنطقني فيـه عما أراه من طبقات الشعراء المعاصرين. فاستعفيت تلك النوبة من الجواب حتى لا أقع في مشكل المفاضلة بينهم وأنا على سفر الى برقة وعندي من الهموم بمسألة طرابلس مايشغلني عن الشعراء والحكم أيهم أشعر. نعم أجبت السـائل بكليمات في المؤيد قلت له فيها: لماذا هذا السؤال؟ أفزامر الحي لايطرب؟

وكان مرادي بذلك من طرف خفي أنه ما دام شوقي في مصر فلماذا يسألون عن أشعر الشعراء.

إلا أن سركيس قام ونشر في المؤيد جملة أشار فيها الى مقالتي الاولى التي كان قد أثبتها في مجلته وأعاد نشرها في المؤيد وهي هـذه:

رأى المؤلف فى أشعر الشعراء

كلام عن المتنبي ووجـه الشبه بينـه وبين شـــــوقي

حضرة صاحب مجلة سركيس

سألتموني رأيي في الشعراء فأشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ثم شوقي ثم حافظ وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر الفائقون في إجادته بل هم أشبه بالثلاثة الماضين أبي تمام الشعر ومتنبيـه وأبي عبادته، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته، والذين رجحت لهم على غيرهم بيناته. واحب أن أشبه البارودي بأبي تمام في علو نفسه وقوة ملـكته ومتانة أسلوبه، وأن أشبه شوقياً بالمتنبي في دقة معانيه

وسمو حكمه وكثرة جوامع كلمه، كما أن حافظا يشبه البحترى فى سلاسة لفظه وحسن سبكه وتأثيره فى النفس وهـو وان لم يعل علو شوقى فى بعض أبيـاته فان عامة شعره أطلى من عامة شعر شوقى، وغاية ما يقال فيهما أن جيد شوقى أحسن من جيده وأن هذا أعلى وذاك أطلى .

وأما كون أسلوب شوقى ركيكا فهو غير صحيح . وهذا القول فى حق شوقى هو أشبه بالقول الآخر فى حق حافظ بأنه صانع ماهر وأن حيلته أكثر من شعره وعندى ألف شاهد لولا خوف الاطالة لأوردتها على متانة أسلوب شوقى وتسنمه غارب العربية كما أن لى بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجية لا تلحوق وأن مثل حافظ فى الشعراء قليل . نعم ان شعر شوقى ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارئ نسجاً واحدا وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً وربما أتى فى كلامه بالتعقيد وهذا من وجوه الشبه بينـه وبين المتنبي الذى كان كأنه يعمد الى الاغراب فى بعض المواضع فيأتى بالغث كما يأتى بالسمين

وانما استحق أبو الطيب هـذه الشهرة مع هـذه الهنـات لأنه كان متى أراد بذ الاولين والآخرين وأنه متى علا لم يزاحمه أحد بمنكب ، وأن الذى يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة فضلا عن الخاصة . وهذا ما أراه فى شـوقى اليوم فان عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره وقد يحلق فى سمـاء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودى نفسه وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع

ولا يمكننـا أن نسلم بركاكة أسلوب شوقى إلا على مذهب مـن يرى المذاهب الجديدة فى الشعر ولا يريد الشعر إلا كاظمياً ، ومذهب من يرى فى موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية . وهذا الرأى ليس بجديد بل هو قبل صاحب المنار . وقد كان بعضهم يعيب على المتنبي نفسه الحيدَ عن جادة العرب فى شعرهم وفى مقدمة ابن خلدون أن المتنبي والمعرى لم ينسجا على أساليب العرب ولـكن لا يمكننا أن نقول ان هـذا هو الرأى كله وانه جف القلم بعد هذا القول بل لكل رأى ولـكل وجهة

وأحسن ماقيل فى شوقى أنه فى الشعر كأبى مسلم فى القواد أقام دولة وأقعد دولة،

فانه نسج على منوال جديد وانتهج خطة حديثة تلائم روح الوقت الحاضر لكن مع الوفاء بحق اللغة والأمانة مع العربية . ولولا متانة لغة شوقى لما عد شاعراً أصلا لان نقاوة اللغة هى الشرط الأول للشاعر والكاتب والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم .

ومما أعجبنى جداً فى نعت شوقى أن شعره لوح الصبى فى مكتبه وسبحة الناسك فى صومعته وكأس الشارب ودمعة الباكى الخ. فكل هذا القول فى شعره حق لانك تجد شعره بستاناً فيه من كل الرياحين أو على رأى أهل العصر معرضاً فيه من كل البضائع .

ومما يطيب سماعه عن شوقى وهو يتعلق بالأخلاق لكنه من رشح اناء الفضل قول القائل : انه صفت نفسه فلم يستشعر فى نفسه عيباً يحتاج إلى ستره بتنقص غيره وعلت همته فوقف بين حساده وقفة رابط الجأش يناضلهم بسكوته وإغضائه . ولعمرى انها عبارة شعرية لو نظمت لكانت من أحسن الشعر . وأحسن مافيها مطابقتها الواقع . فلا ينكر أحد هذه الحال على شوقى وأنه لا يقابل حساده والطاعنين عليه إلا بالسكوت وهو أحياناً أقتل من الكلام. على أنه فى الواقع غير ساكت فاذا لم يجاوب منتقده رأساً جاوبه من جهة ثانية بقصائده إلى الجمهور . فترى بازاء كل « همزة من تلك الهمزات وحرف من هاتيك الحروف » كل قصيدة يقام لها ويقعد وكل بيت أذن الله أن يرفع ويشيد

أما القول بأن محمود سامى هو مقلد شأنه معارضة الأولين وهيهات أن يلحق واحداً منهم فهو شبيه بالقولين الأولين فى الظلم . وانما اختار المعارضة فى بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع من تقدمه . وليست المعارضة بشأن جديد بل كانت عند الماضين وقد استحسنوها ولم يحسبوها تقليداً ولا عدوها نسخة محررة ولاصورة مطبقة. وانما كان ينظم الواحد قصيدة ترن فى الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنانة أخرى من البحر والقافية كما يجارى الفارس فارساً فى مضمار. وهذه قصيدة أبى نواس الرائية فى الخصيب عارضها ذلك الأندلسى قبل محمود سامى ، وكل منهما أجاد، ولم يقل أحد ان الأندلسى مقلد لا مزية

له ، وانه انما صور صورة كانت أمامه . فمحمود سامى قد عارض وفاق من تقدمه وقال فى غير معارضة فأتى بالشعر الفحل الذى يعيى على الأوائل فضلا عن الأواخر . وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد . ولا يجب أن يؤخذ من كلامى هذا فى تفضيل الثالوث الشعرى الاستخفاف بقدر الباقين فان الذين فضلوا حبيباً والمتنبي والبحترى لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين جمة   وما قصبات السبق الا لمعبد

ولا بد فى الميادين من مجل ومصل وتال ومرتاح الى السكيت. وانى أرى الكاظمى وصبرى وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشئ والنامى والزاهى والمعرى وأمثالهم فليست شاعرية أبى تمام والمتنبى والبحترى بنافية براعة هؤلاء بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك

بقى شئ استحسنته من كلام فاتح الباب وهو أن الشهرة لا تصح أن تكون بحال من الاحوال ميزانا للفضل ولن يجرى الفضل والذكر فى ميدان واحد لان فى الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه . بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه فلا يترنم بقصائده فى النوادى ولا يبتاع من الصحف الالقاب ولا يستخدم الكتاب لاطرائه ولا يتمم نقصه بالغض من مقام غيره . وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة وفلذات منقطعة من كبد الصواب فان الشهرة مزلقة ولا يصح اتخاذها معياراً . وقد يقبع فى كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام (١) . ولا أريد من ذلك الطعن فى حب الشهرة وتضعيف هذا المشرب وهو مبعث الهمم ومثار كوامن الفضائل ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة . ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هى درجة الفضل ، فكم فى الزوايا من خبايا . كذلك لم أعزز رأيى فى الشعراء بالشواهد من أقوالهم ولعلى أرجع الى البحث وأختار من

---

(١) ومن هؤلاء أخى نسيب رحمه الله الذى كان من فحول الشعراء ولا يكاد يعرفه الا الذين أتيح لهم أن يعرفوه اتفاقا وذلك لفراره من الشهرة . وقريبا سيصدر ديوانه فيعلم الناس علو منزلته فى الشعر وندور أمثال ملكته فى العربية . ولعله لو عاش الى اليوم ماطبع ديوانه

دواوينهم على مهل فقد وجدت الشواهد التى أوردها غيرى غير وافية وقد أهمل ماهو أحسن منها . وانما استحسنت ما أطيل من شواهد شعر الكاظمى لأنه كان غنى صوتاً واحدا فى وادى النيل فلم نتحقق فضله على طوله فاذا به بعد هذه الأصوات كلها مغن على أصول . والله تعالى ذو الفضل العظيم (يزيد فى الخلق (١) ما يشاء)

قد كان هذا كلامى فى شوقى منذ خمس وعشرين سنة وفى هذه المدة كان قد انطوى البارودى فأصبح شوقى نسيج وحده لايجد الناس عنه عوضا ولا يبتغون به بدلا وأصبح آثر فى النفوس من كل شاعر سواه . ولم ينحصر المجد فى نفسه بل تناول وطنه مصر فصارت تزهو به على غيرها، ولما كان لها المكان الأول فى الشرق وكان خليقا بها أن تكون ذات المركز الأول فى كل فن جاء شوقى فحقق لها مكانها الأول فى الشعر برغم أن كلا من الشام والعراق واليمن والسودان وتونس الخضراء فيها الشعراء المفلقون الذين لايشق لهم غبار . وقد صدق شيخ الأدباء فى هذا العصر مصطفى صادق الرافعى فى قوله : ان اسم «شوقى» «كان فى الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت فى موضع فقد طلعت فى كل موضع ومتى ذكر فى بلد من بلاد العالم العربى اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة »

وقال الرافعى فى مكان آخر : «انفلت شوقى من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر فى الجو فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر وهى لم تذكر قديما فى الادب الا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم »

ولست متفقا كل الاتفاق فى هذا القطع مع أبى السامى . فالبلد الذى نبغ فيه مثل ابن الفارض والبهاء زهير وظافر الحداد والابوصيرى صاحب البردة الشريفة فى القديم ، ومحمود سامى البارودى ومحمود صفوت واحمد شوقى وحافظ ابراهيم واحمد

(١) وقرئ « فى الحلق» بالحاء المهملة

محرم واسماعيل صبري وغيرهم فى الحديث لايقال انه منقوص الحظ من الشعر ، وان كان لم ينبغ فى مصر أمثال بشار وأبى العتاهية وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبي والمعرى ممن أنجبتهم الشام والعراق . على أن الرافعى مصطفى صادق ، صادق فى قوله : ان جميع شعراء مصر فى القديم والحديث «لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقى وحده» وما أحسن قوله كذلك : «ولم يترك شاعر فى مصر قديما وحديثا ماترك شوقى وقد اجتمع له مالم يجتمع لسواه وذلك من الادلة على أنه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمور كثيرة هى رزق تاريخه من القوة المدبرة التى لاحيلة لأحد أن يأخذ منها مالا تعطيه أو يزيد ماتنقص أو ينقص ماتزيد . وقد حاولوا اسقاط شوقى مرارا فأراهم غباره [1] ومضى متقدما ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ويرى بهما أن شوقى من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها فى التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره» الى أن قال : « ثم تولاه الخديوى عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

واذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه فى ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مرهف معانٍ بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسية فى الشعب المصرى تعمل لاحياء التاريخ فى النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها وإقحامها فى معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة» وأحسن من قوله هذا قوله الآخر : «ان السياسة التى ارتاض بها شوقى ولابسها من أول عهده واتجه شعره فى مذاهبها من الوطنية المصرية الى النزعة الفرعونية الى الجامعة الاسلامية كانت سبب نبوغه ومادة مجده الشعرى وكانت هى بعينها مادة نقائصه فقد ابتلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس فى ذلك بما وسعته قوته الى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعر كل شعرة منها اذا جاءها الحسن بثانية . وهى غيرة وان كانت مذمومة فى صلته بالأدباء الذين لذعوه بالجمر ونحن منهم غير

---

(١) قال المتنبي :

اذا رام أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

أنها ممدوحة فى موضعها من طبيعته هو اذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقى أشعر من شوقى »

(شكيب أرسلان)

قبيل وفاة شوقى

هـذا ولما اجتمعت بشوقى فى السويس آتيا من القاهرة اليها لزيارتى وكانت وا أسفاه الملاقاة الأخيرة بيننا لحظت عليه آثار الضعف بادية وكأنما كان أكبر من سنه بعشر سنوات على الأقل . وعجبت من أن تنال الشيخوخة منه هذا النيل وبين الاخوان الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من هم أعلى سنا بكثير ولم يتقوس لهم ظهر ولم يتغضن لهم جبين ولم يأخذ منهم الدهر ما أخذ من شوقى ، فشعرت فى نفسى بالخوف على صحته ورأيته قد سبق سنه بمسافة طويلة . فبعد أن تفارقنا كنت لا أزال أترقب أخبار صحته وأتمنى لو يأتى الى سويسرة فأشاهده ، وما زلت أتحسر على تلك الفرقة وأنشد قول العباس بن الأحنف :

سبحان رب العلا ما كان أغفلنى   عما رمتنى به الأيام والزمن
من لم يذق فرقة الأحباب ثم يرى   آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن

خبر وفاته

وبينما أنا فى أحد أيام اكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية أقرأ جريدة الطان اذ وقعت عينى على خبر وفاة كبير الشعراء فى مصر ووقع فى اسم «شوقى» خطأ فهلعت لهذا الخبر واضطربت أعصابى وقلت لا يكون هذا الفقيد غير شوقى. وثانى يوم تحققنا الخبر وكان يوما له هوله. ولما جاءت جريدة « الجهاد » علمت منها أن أمير الشعراء فصل من هذه الدنيا الى رحمة ربه فى منتصف الساعة الرابعة من صباح الجمعة ١٤ جمادى الآخرة سنة

١٣٥١ وفى ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٢ وفد أبنه الأستاذ البليغ توفيق دياب بعبارات متناسبة مع علو مقامه فى الأدب لكنى استنشقت منها رائحة مؤاخذة بعضهم للفقيد فى السياسة فانه يقول : « ان الذى سيهم الوارثين لآثار شوقى من عشاق الادب فى الأمم العربيـة هو نفاسة ماترك من كنوز عبقريتـه وذخائر أدبه فهذه هى الباقية أما ما عداها مما كان لشوقى أو عليه فى أيام العمر الفانية فقد انقضى أمره بانقضاء الأجل فليقل من يشاء فى دنيويات شوقى ما يشاء ولـكن للأدب دولة عالية العروش سينادى منادى الخلود من فوق منارتها العليا : لقـد مات أمير الشعراء غير منازع . لقد مات شوقى. فليبكه المصريون وليبكه العرب فى كل بلد عربى أو يقطنه عربى ويبكه المسلمون فى أنحاء المعمور فقـد كان شوقى شاعر العربية وشاعر الاسلام وكان أثمن درة فى تاج الأدب »

وكان حافظ رحمه الله قد قضى نحبـه قبل ذلك بأشهر ورثاه شـوقى رثاء موجع القلب وكانما كان ينعى نفسه . ولم يكن حافظ فى حياته شـديد الخلطة بشوقى بل ربما غلبت المنافسة على العلاقات بينهما، إلا أن حافظاً بايع شوقى فى يوم عيده واذا كان حافظ ابراهيم وهو طريد شوقى فى الشعر والمزاحم له بالمنكب ومن الناس من يفضله على شوقى قد بايع لخصمه فلا مشاحة أنها قد تقطعت عن منافسة شوقى أنفاس النظراء وأنه قد انتهت اليه رآسة الشعراء

قصيدة المؤلف فى رثاء شوقى

ولما تحققت خبر شوقى رثيته بالقصيدة التالية :

قـد أعجز الشعراء طول حياته	واليـوم يعجزهم بنـدب مماته
هيهات يوجد فى البرية منهم	كفؤ ليرثيه بمثل لغاتـه
كان الأمير لجيشهم مستنة	فرسانهم فى الظل من راياته
ما عاب أهل العبـقرية أنهـم	قد قصروا فى الخب عن غاياتـه

هـذا أمـير الشعر غير مدافـع ... في الشرق أجمع منـذ فتق لهاته
لو كان وحي بعد وحي « محمد » ... لا نشق ذاك الوحي عن آياته
السـحر في نفثـاته والزهر في ... نفحاته والدهر بعض رواتـه
رقت لنغمتـه القلوب فـكيفما ... غنى بها رقصت على نـبراته
تغدو المعاني وهي شُـمْس مقادة ... فيقودها قـود الغلام لشاته
واذا أراد الصخرة الصماء من ... أغراضه رقت نظير سحاته
ما رام شارد حكمة في نظمه ... إلا أصاب صميمها بحصاته
جلّى الاله له الأمور كأنما ... يلقي عليها الشمس من نظراته
فـكسا الطبيعة من نسيج بيانه ... حللا خلت من غير طرز دواته
فـترى الطبيعة قبل نظرته لها ... غيرَ الطبيعة وهي في مرآتـه
والحسن يشرق في العيون بذاته ... وهنا يضيء بذاته وصفاته
من كل بيت في رفيع عماده ... تتقاصر الأقدام عن عتباته
كالدر في لمعاته والبـدر في ... قسماته والصـبح في نسماته
ولقـد رويت الشـعر عن آحاده ... وألفت للسباق في جلساته
وقضيت فيـه صبوتي وصبابتي ... وقطفت منه خـير نوّاراته
وأثرتُ في البيـداء بُزلَ فحوله ... وأطرت في الآفاق شهب بزاته
فرأيت شوقي لم يدع في عصره ... قرناً يهز قنـاته لقنـاته
الفرد في امـداحه ونواحـــه ... والفذ في أمثـاله وعظاته
واذا تعرض للغرام فهل درت ... لغـة الغرام نظير شوقياته ؟
ما في الهيـام كوجده وحنينـه ... أو في النسيب كظبيه ومهاته
واذا تحـدث بالربيع وروضـه ... أنسـاك بالتحبير وشي نباته
أوبات يبعث بالشراب أضاف من ... كاسـاته حبباً الى كاساته
أوخاض في ذكرى العذيب تشابهت ... أعطاف مستمميه مع باناته
أو سلّ في وصف الوقائع صارما ... خلت العدى سالت على شفراته

قد بذ آلهة القريض بأسرهم ... ومحا عبادة لاته ومناته
نحت القوافي السائرات أوابداً ... ماذا يفيد النحت من أثلاته
ولكم مررت بحاسدين لفضله ... رغم القلى يروون من أبياته
لا ند يعدله وكم من مجلس ... أشعار شوقي الند في سمراته
يتمثل العصر الحديث بشعره ... حق التمثل من جميع جهاته
ولرب بيت يستقل بجملة ... تغني عن التاريخ في صفحاته
لم يفتتن من عصره بمساوئ ... كلا ولم يغمطه من حسناته
قد لازم الانصاف في أحكامه ... لافرق بين صحابه وعداته
واذا سألت عن الجهاد فانه ... منذ الحداثة كان في سرواته
كالسيف في أوضائه ومضائه ... والليث في وثباته وثباته
ماحل بالإسلام حيف مصيبة ... إلا وكان بها لسان شكاته
يحمي حقائقه ويوضح سبله ... ويقيل طول الوقت من عثراته
يلقي على غمرات كل ملمة ... قولا يزيل اجاجها بفراته
ويظل يرسلها قصائد شردا ... غررا تشق الفجر عن ليلاته
كانت قصائده هي الصوت الذي ... سرى عن الاسلام ثقل سباته
بعثت به روح الحياة كأنها ... هي صور إسرافيل في زعقاته
قد كان أدرى الناس بالداء الذي ... قدحط هذا الشرق عن صهواته
داء هو الأخلاق في اضمحلالها ... فلذا يرى الاخلاق رأس وصاته
وفي عن الشرق القديم نضاله ... من يوم نشأته ليوم وفاته
قد ذاد عنه بقلبه وبلبه ... شأن الابي يذود عن تركاته
ماض يحذره استلاب تراثه ... منه ويحفزه لاخذ تراته
أعلى منار الشرق في أوصافه ... وأجاد وصف الغرب في آفاته
أوحى الى الشرقي بالطرق التي ... يمشي النجاء بها لأجل نجاته
أملى مكافحة الذئاب عواديا ... في الواد قد حلوا مكان رعاته

الجائسين ببره وببحره   والجائشين بنجده ووطاته

والغاصبين لزرعه ولضرعه   والآكلين لثمره بنواته

أشعاره تحيي وتحيي أمة   تجد الحياة الحق فى كلماته

يا راحلا ملأ الزمان بدائعا   من قبل أن نزل القضا بسكاته

أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن   ترعى جيادُ الفكر فى تلعاته ؟

يبكى بك الاسلام خير جنوده   أبدا ويرثى الشرق رب حماته

وكأن وادى النيل من أحزانه   يلقى على الشطين من زفراته

ونوادب العربية الفصحى لها   ندب عليك يذيب فى رناته

أنظرإلى الاخوان كيف تركتهم   من كل مضطجع على جمراته

أنظر لحال أخ فداك بروحه   لو كان يحيي الميت عزم فداته

قد كنت طول العمر قرة عينه   والآن تجرى السخن من عبراته

مضت السنون الأربعون ونحن فى   هذا الاخاء نعز من قهواته

أرعاك عن بعد وترعانى على   عهد نهز الرطب من عذباته

قد كنت أطمع أن تُرى لى راثيا   يا من غدوتُ اليوم بين رثاته

كنا نخاف رداك قبل وقوعه   فلنا الأمان اليوم من دهشاته

تبا لعيش قد يكون مساؤه   ترحا وكان سروره بغداته

والمرء إن ينظر لما يبلى به   لا فرق بين بقائه وفواته

فالميت وهو يذوب فى حشراته   كالحى وهو يذوب فى حسراته

ترجو لك الدار التى عمارها   هم كل من صنع الجميل لذاته

يضفى عليك الله من آلائه   والله لا تحصى ضروب هباته

قد كنت فى الدنيا هزاراً صادحا   يشجى ويسلى الناس فى نغماته

فاليوم كن بجلال ربك ساجعا   والطائر المحكى فى جناته

من الذى راضه شوقى وحافظاً

فى الشعر

الوسيلة الادبية ومأخذها من القلوب بما تضمنته من شعر محمود سامى

مراسلات المؤلف مع محمود سامى

يقول الاستاذ الرافعى: « ان الكتاب الاول الذى راض خيال شوقى وصقل طبعه وصحح نشأته الادبية هو بعينه الذى كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه فى مقالنا عنـه أى كتاب الوسيلة الادبيـة للمرصفى . وليس السر فى هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة فهذا كله كان فى مصر قديماً ولم يغن شيئاً ولم يخرج لها شاعراً كشوقى ولكن السر ما فى الكتاب من شعر البارودى لانه معاصر والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب ان كان الصواب وعلى خطأ ان كان الخطأ . وقد تصرمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون ديوان المتنبى وغيره ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يخلد الجيل منهم إلا لما رأى فى عصره ولا يستفتح غير الباب الذى فتح له . الى أن كان البارودي وكان جاهلا بفنون العربية وعلوم البلاغة لا يحسن منها شيئا وجهله هذا هو كل العلم الذى حول الشعر من بعد فيالها عجيبة من الحكمة وهى دليـل على ان اعمال الناس ليست إلا خضوعا لقوانين نافذة على الناس. واكب البارودى على ما اطاقه وهو الحفظ من شعر الفحول إذ لا يحتاج الحفظ الى غير القراءة ثم المعاناة والمزاولة وكانت فيه سليقة فخرجت مخرج مثلها فى شعراء الجاهلية والصدر الاول من الحفظ والرواية وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفى بالهام من الله تعالى ليخرج به للعربية حافظ وشوقى وغيرهما. فكل ما فى الكتاب انه ينقل روح المعاصرة الى روح الاديب الناشئ فتبعثه هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فاذا هو على ميزة وبصيرة واذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما فى قوة نفسه ما دام

فيه ذكاء وطبع وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد وانتهى كلاهما الى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معا غير طريقة البارودى » اه .

قلت : والظاهر ان الوسيلة الادبية للمرصفى بما فيها من شعر البارودى قد انشأت اكثر من شوقى وحافظ وبعثت الشعر العالى من مرقده وأحيت للادب العربى دولة جديدة بعد أن كان الناس يظنون ان الشعر هو عبارة عن النكتة، وكان جهادى الشاعر من المتأخرين أن يضمن كل بيت نكتة من أدب أو تاريخ أو مثل سائر أو تورية أو استخدام بديعى او طباق أو مقابلة أو لف ونشر أو جناس لفظى أو معنوى أو غير ذلك مما استقصاه علماء البديع .

فأما أسلوب الجاهلية والمخضرمين والطبقة التى جاءت بعدهم ممن عاشوا فى أوائل الدور العباسي ولم يكن طرأ الوهن على ملكاتهم فقد كان محفوظا فى الكتب حفظ النفائس فى الخزائن وكان يرى الناس بدعا أن ينسجوا على منواله ولا يزالون يرون ان البيت اذا خلا من النكتة فلا يعد شعراً ولو كان منحوتا من أحسن مقاطع البلاغة .

وبقى الامر كذلك حتى نبغ البارودى بانطباعه على شعر الاولين وارساله تلك القصائد التى عارض فيها آياتهم الكبر فلم يقصر عنهم وصار الناظر فى شعرهم وشعره لا يفرق بين النسجين. وسواء عرف البارودى شيئا من قواعد النحو والصرف أو لم يعرف فقد كان المثل الاعلى فى نقاء اللغة وبداعة الاسلوب ومتانة التركيب وكنت إذا قرأت شعره ملك عليك مشاعرك وهزك هزة لا تجدها إلا فى شعر الفحول المفلقين مثل زهير وعنترة والاعشى والنابغة الذبيانى وبشار وأبى تمام ومن فى ضربهم . كانما قميصه زُرَّ على واحد من هؤلاء

فالذين اهتدوا من ناشئة العصر الى الوسيلة الادبية للمرصفى وجدوا فيها ضالتهم التى طالما نشدوها فلم يجدوها إلا فى شعر محمود سامى . رأوا نسبة معاصريه له نسبة البغاث الى الباز. ولا أعلم هل كانت الوسيلة الادبية هى التى بعثت الشعر فى شوقى وحافظ أم كانت لهما وسائل غيرها لانى لم أشاهد حافظاً فى

حياتى ، وعند ما كنت أذاكر شوقى وأنشده من شعر محمود سامى لم يقل لى شيئاً يتعلق بكونه إنما نسج على طرازه أو ان شعر محمود سامى هو الذى أرهف قريحته . وقصارى مالحظته من شوقى هو اجلال البارودى كشاعر وما عرفت ان محمود سامى كان صيقل حافظ وشوقى فى الشعر إلا من رواية الرافعى هذه وهذا القول جدير بان يكون صحيحاً لأنى أعرف ذلك من نفسى . فقد كان اطلاعنا على شعر محمود سامى بواسطة الاستاذ الامام حجة الاسلام الشيخ محمدعبده يوم كان منفياً فى بيروت وكنا نلازمه استفادة من واسع علمه واستفاضة من عارض فضله ، فهو الذى عرفنا بالوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى وكنا أنا وأخى نسيب رحمه الله نصبو من صبانا الى طريقة الأولين فى الشعر ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطن الأول من المولدين على شعر أهل الأعصر الأخيرة مهما حلت نكاتهم وكثرت الأنواع البديعية فى أشعارهم ولم نكن نجهل علم البديع ولا كان يفوتنا شئ مما فى خزانة ابن حجة ولكن ذلك كله كان عندنا لعبا ولهواً بالقياس الى المعلقات السبع وشعر النابغة والأعشى ثم شعر الأخطل وجرير والفرزدق وعمر بن ابى ربيعة ثم شعر ابى العتاهية وأبى نواس وبشار ومسلم بن الوليد ومروان بن ابى حفصة وأبى تمام والبحترى وطبقتهم . وكان المتنبى كله لا يروقنا إلا من جهة الأمثال والحكم وكنا نرى شعره فى الأحايين نازلاً عما يجب أن يكون . فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ورقصنا على قصبه وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه وعلمنا ان فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين وأن يسامى بنفسه أنفاسهم .

وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لا تدرك وأنهم إذا قرن بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض . وبقى فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامى وحفظنا جميع قصائده التى فى الوسيلة الأدبية فلم نكن لشدة اعجابنا بها نخرم منها بيتا واحداً . وكان حفظنا لها من أعمل عوامل الشعر فينا ، بل كنا نشعر إذ ذاك بحماسة طرب تهتز لها جوارحنا كلما روينا شعر البارودى فى أنفسنا أو أمام الناس . وكما قال كارليل عن شكسبير

« اننا نحن معاشر الانجليز نرى شكسبير أثمن لنا من الهند » فقد كنت أقول في نفسي إن محمود سامي هو بذاته مملكة عربية . وكان الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده بمكانه من رئاسة الدولة الفكرية يذهب إلى ما يقوى فينا هذه العقيدة ولذلك كنت أنا أراني خريجا في الشعر لمحمود سامي البارودي وإلى هذا أشرت في أول قصيدة أجبته بها يوم بدأ بمراسلتي من منفاه في سيلان فقال لي :

أشدت بذكري بادئا ومعقبا ... وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم
وما ذاك ضنا بالوداد على امرئ ... حباني به لكن تهيبت مقدمي
فأما وقد حق الجزاء فلم أكن ... لأنطق إلا بالثناء المنمنم
وكيف اذود الشكر عن مستقره ... وأنكر ضوء الشمس بعد توسم
وأنت الذي نوهت باسمي ورشتني ... بقول سرى عني قناع التوهم
لك السبق دوني في الفضيلة فاشتمل ... بحلتها فالفضل للمتقدم
ودونكها يا ابن الكرام حبيرة ... من النظم سداها بمدح العلى فمي

فأجبته بقصيدة أقول له فيها :

لك الله من عان بشكر منمنم ... لتقدير حق من علاك محتم
وشهم ابي النفس أضحى يرى يداً ... تذكر فضل أو جميل لمنعم
رأى كرماً مني تذكر قوله ... فدل على أعلى خلال وأكرم
ولو كان يدري فاضل قدر نفسه ... رأى ذكره فرضاً على كل مسلم
أيعجب من تنويه مثلي بمثله ... لعمري الذي قد شق في شعره فمي
ومهما يكن من أعجم فبفضله ... يرى ثقفيا في الورى كل أعجم
إذا أمطر الغيث الرياض بوابل ... فأي يد للطائر المترنم
إذا ماتصبت بالعميد صباحة ... بوجه فما فضل العميد المتيم
وهل ينكر الاحسان إلا لآمة ... وينكر حسنا غير من طرفه عمي
وهل في شهود الشمس أدنى مزية ... وقد جاء ضوء الشمس لم يتكتم
رويدك لا تكثر لدهرك تهمة ... ولا تيأسن من أهله بالتوهم

فما زال من يدرى الجميل ولم يكن لتـأخذه فى الحق لومـة لوم
وأنت الذى لو أنصف الدهر لم يكن لغيرك فى العلياء صـدر التقـدم
جمعت العلى من تلدها وطريفها فجاءت كعقد فى ثنـاك منظم
غدت خطتى إما يراع ومخـذم وانك قطب فى يراع ومخـذم
ولم أر كفاً مثل كفك أحسنت الى المجـد إرعاف المداد مع الدم
جمتهما جمع القـدير بكفه الى محتد سام الى المجد ينتمى
ولو كان يرقى المرء ما يستحقه اذن لبلغت النيرات بسلم
وأنت الذى ياابن الكرام أعدتها لأفصح من عهد النواسي ومسلم
وأنشرت ميت الشعر بعد مصيره لأعظم نثراً من رفات وأعظم
وأشهد مافى الناس من متأخر يدانيك فيه لا ولا متقدم
ولو شعراء الدهر تعرض جملة بمنجدهم من كل حى ومتهم
لأبصرت شخص البحترى معْك بحتراً وخلق ابى تمـام غـير متمم
لك الآبدات الآنسات التى ثأت وأنست عكاظ الشعر بل كل موسم
لـكم أسهرت جفن الرواة وخالفت حظوظك منها شرد غير نوم
شغفت بها طفلا فأروى بديعها ولم أرو من وجدى بها نار مضرم
ولا عجب انى أحن صبابة فيسرى الهوى بالقول للمتكلم
أفى كل يوم فيك وجد كأنه طوى جا نحا منى على نار ميسم
أحمـل ريح الهنـد كل تحية فـكم من صبا منها عليك مسلِم
وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى ترددهـا ما بين اقـدم وأحجم
حلفت بمـا بين الحطيم وزمزم وبالروضة الزهرا أليـة مقسم
لألفيت عندى دوس مشتجر القنا وخوضى فى حوض من الدم مفعم
أقلّ بقلبى فى المواقف هيبـة واهـون من ذاك المقـام المعظم
وهب انى باز قد انقض أشهب فهل يطمع البازى بلقيان ضيغم
ولـكن لى من عفو مولاى ساتراً فهـا أنذا منه به بت أحتمى

أمحمود سامى ان يك الدهر خائناً وطال عليك الزجر طائر أشأم
فما زالت الايام بؤسى وأنعما وحظ الشقا بالمكث حظ التنعم
ولولا الصدى ماطاب وردو لاحلا لك الشهد إلا من مرارة علقم
عسى تعتب الاقدار والهم ينجلى وينصاح صبح السعد فى جنح مظلم
وأهديك فى ذاك المقام تهانئا حبيرة مسدٍ فى ثناك وملحم

فانت ترى من كل حرف من حروف قصيدتى هذه حالتى النفسية التى تتلخص فى هذه الجملة : ان البارودى هو إمامى فى الشعر . ولا انكر اننى قبل أن قرأت شعر البارودى بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لى نظم غير قليل وكان اطلع عليه الشيخ محمد عبده نفسه فقال لى فى اجتماع فى الجامعة الاميركية فى بيروت وقد عرفوه بى : أنت ستكون من أحسن الشعراء. وكذلك قال العلامة الشيخ ابراهيم الأحدب الذى كان الصدر المقدم فى الأدب وقد قرأ لى أبياتا فى احدى الجرائد وأنا بعد فى المدرسة ان هذا الولد سيكون شاعراً . إذن لم يكن نظمى للشعر موقوفاً على حفظى لشعر البارودى ولكن هزنى من شعر هذا الرجل مالم يهزنى شعر شاعر من أول وآخر فكنت أرى منتهى السعادة فى أن تكون لى معه مراسلة وان امت اليه بصلة كما كنت أحن الى مثل هذه العلاقة مع السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده بما اسمع عنهما وأقرأ لهما الى أن ظفرت بذلك . وجميع الشبان المتأدبين كما لا يخفى لهم ولوع شديد بل هوس بتقليد كبار علماء عصرهم ووجد مبرح للاتصال بهم والاخذ عنهم . وهو ما قد عبرت عنه من جهة محمود سامى فى قولى :

أفى كل يوم فيك وجد كأنه طوى جانحا منى على نار ميسم
أحمل ريح الهند كل تحية فكم من صبا منها عليك مسلم

وكنت كثيراً ما احدث نفسي بنشدان وسيلة اتحكك بها بهذا الشاعر الكبير فأحصل منها على جواب منه فأكون سعيداً ولكننى كنت أتهيب الاقدام وأخشى أن تتزلزل منى الأقدام فأعود فأنكص عن اجراء فكرتى هذه ، والى هذا أشرت بقولى بعد أن بدأ هو بالمراسلة :

وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى ترددها ما بين أقدم وأحجم
حلفت بما بين الحطيم وزمزم وبالروضة الزهرا ألية مقسم
لألفيت عندى دوس مشتجر القنا وخوضى فى حوض من الدم مفعم
أقل بقلبى فى المواقف هيبة وأهون من ذاك المقام المعظم

ولكن كما كان الاقدام على ذاك المقام أشق من خوض المعارك واقتحام المهالك كان الشوق أيضا الى صاحب تلك القصائد التى كنت أتلوها كل يوم من بعد تلاوة كتاب الله واترنم بها فى نجواى وأجعلها نقل أسمارى وغبوق ليلى وصبوح نهارى من نوع البرحاء التى لاتدافع ومن نمط النزعات التى لا تنازع ، فعدت الى طريقة ثانية أبلغ بها مرامى وأروى أوامى وهى أن أستشهد بشعر البارودى فى مقالاتى التى كنت أنشرها إذ ذاك فى جريدة الاهرام فاستشهدت له احدى المرار ببيتين بدون تصريح باسمه ، وهما قوله :

فياقلب صبراً إن أضر بك الهوى فكل فراق أو تلاق له حد
فقد يشعب الالفان أدناهما الهوى ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد

واستشهدت مرة اخرى ببيت له عن أهل كريت وذلك مع التصريح باسمه ومع نعته بلقب « أمير الشعراء » وقد كانوا ثاروا على الدولة :

قوم أبى الشيطان إلا خسرهم فتسللوا من طاعة السلطان

ولما كان من التجاذب بين الارواح مهما تباعدت الاماكن وتراخت المساكن ما لا يقل عن انتقال الاصوات بتموجات الهواء ونفوذ الكهرباء كان حنينى هذا الى معرفة محمود سامى قد لاقى مثله الىَّ وقد كان يقرأ مقالاتى فى الاهرام فيشعر لكاتبها بعاطفة لايعرف لها سببا خاصا وما زال كذلك حتى رآنى أستشهد بشعره أولا وثانياً فعلم أن مابه من جهتى هو بى من جهته وان بين الروحين رسائل من غير كتب ووسائل بلا أسلاك فعندها جاءنى منه الابيات التى يبتدئ فيها بقوله :

أشدت بذكرى بادئا ومعقبا وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم
وما ذاك ضنا بالوداد على امرئ حبانى به لكن تهيبت مقدمى

ثم بعد أن أجبته على أبياته هذه بالقصيدة التى تقدمت جاءنى منه هذا الكتاب الذى أنا أنقله الآن بحروفه :

عن كندى فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣١٥

تقبل ياشكيب ثناء حر   أمين الغيب محمود السلوك
سرت نزوات ودك فى عروقى   مسير الكهرباءة فى السلوك

سيدى الأمير :

لولا حنين النفس وهو علاقة الحب لصبرت على المكاتبة هنيهة مخافة الاملال ولكنى راجعت النفس فأبت على زاعمة ان الأغباب يكون فى الزيارة لافى الكتابة . وبعد فقد تلقيت اليوم ماتفضلتم به علىّ بيد ترعد فرحا وفؤاد يهتز مرحا وما عساى أن أقول فى نظم لو وصفته لقلت سحرا ، ونثر لو وردت شرعته لكان بحرا ، انها وايم الله منة لايقوم بها الشكر ولا يتدرج الى معروفها النكر ، كيف لا وقد أضاءت على غيابة الوحشة وسرت على ضبابة الحسرة ، فالحمد لله الذى صدق ظنى وحقق أملى ،فانى منذ طالعت آثار قلمكم فى جريدة الاهرام شعرت بميل فى النفس اليكم ونزاع منها الى التعارف بكم ثم لم ألبث ان رأيت بها تعريضاً خفياً سمعت منه هاتفاً روحانياً يدعونى اليكم فحدثت نفسى بمد أسلاك المراسلة لتبادل كهرباءة المودة معكم ولكنى راعيت الحال فأمسكت على مضض حتى سمعت هاتفاً آخر يدعونى باسمى صراحا فلم أتمالك ان لبيت دعوته فتم الأمل بتعارف الارواح قبل تقارب الاشباح هذا ما كنت أجده فى نفسى أذكره لكم على سبيل الغرابة وسأ كتب بعد هذا ان شاء الله فاقبلوا تحية فؤادى وخالص ودادى ودمتم

الداعى محمود سامى

ان هذه الحالة التى وقعت بينى وبين محمود سامى هى تصداق الحديث «الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنا كر منها اختلف »

وبالجملة فبينما أنا كنت أروى قصائده ولا أروى ظمأ فؤادى إلا بالتعارف معه كان هو يشعر بميل خاص الى كاتب تلك المقالات فى الاهرام قبل أن يعرفه بل بمجرد

التجاذب الروحى والتعارف الغيبى وبسائق تلاؤم الاشكال الذى قرر الحكماء انه منشأ الحب بين الخلق ثم انه رآنى أستشهد بشعره ولكن بغير تصريح باسمه فكاد يجاذبنى حبل المراسلة الا أنه توقف قليلا ثم رآنى أصرح باسمه وأقول انه أمير الشعراء فلم يملك نفسه بعد ذلك عن البديئة بالخطاب والاسراف فى الثناء فأرسل الى بتلك الابيات الميمية والى هذا المعنى الاخير أشار بقوله :

فأما وقد حق الجزاء فلم أكن لأنطق إلا بالثناء المنمنم

ويوم وصفت محمود سامى بقولى : انه «أمير الشعراء» لم يكن شوقى قد طارت شهرته الى أن صار يزاحمه على هذا الاسم ولا كنت أنا أجمجم عن شوقى انى أعد محمود سامى أبا الشعراء فى وقته ولا كان قد جاء الدور الذى أصبح شوقى يرى نفسه فيه الجواد المبر على الجميع والفذ الذى تأخذه النخوة على نظرائه ولا يرى فيه أحدا من اكفائه بل كنت مادام البارودى حياً أول من بايعه بالامامة ولم يضع أحدا أمامه الى أن مضى لسبيله فكان من جملة مارثيته به قولى :

كان الأوائل فى الانظار معجزة حتى أتى فشأى من جدَّ من قدما
لو كان فى الزمن الماضى وعاصره حكيم كندة لم يزعم بما زعما
لو كان أدرك عصراً قد تقدمه عيي حبيب عن الانشاد معتصما
فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبة معه وقولوا لشوقى انه يتما

ولكن من يدرى فقد يكون شوقى غص برئاسة البارودى من ذلك العهد وقد تكون الفترة التى ظهرت لى منه عندما جئت الى مصر قاصدا طرابلس الغرب وما رأيت من تدلله ولحظت من تسحبه أثراً من آثار المقالة التى أجبت فيها سليم سركيس عمن أراهم أشعر الشعراء فى هذا العصر وأسجلت فيها ان الاول فيهم هو محمود سامى والثانى هو شوقى والثالث هو حافظ ابراهيم فجاءت مقالتى هذه قرعا على كبده رحمه الله. ولعل الأخ شاعر القطرين خليل مطران يدرى من هذا الأمر مالا أدريه أنا لانه قد كان بينه وبين شوقى من الخلطة والمودة والتبذل فى الحديث مالم يكن بين اثنين . وكيف كان الامر فقد صدق مصطفى صادق الرافعى فى قوله : ان شوقى أصبح بعد أن صار شاعر الامير

كالجواد العتيق ينافس حتى ظله . وقد صدق الرافعى أيضا فى قوله : ان طريقة شوقى فى الشعر لم تكن طريقة البارودى لان شوقى كان يضعف عن طريقة البارودى ولم تكن تتهيأ فى أسبابه وخاصة فى أول عهده . وهذا شىء لايختلف فيه اثنان فلكل من هذين طريقة خاصة به والغالب على البارودى هو علو النفس والجزالة والغالب على شوقى هو الرقة والحكمة والتأثير فى النفس

أماثيل من شعر شوقى

وقد حان الآن أن نذكر أماثيل مما يعجبنا من شعر شوقى وقد سبق للادباء حتى فى حياته أن تكلموا فى هذا الموضوع واشاروا الى المختار من شعره والاثير من قوله واتفق الجميع على أن القصيدة التى أولها :

خدعوها بقولهم حسناء

هى من عيون قصائده التى رزق فيها من التوفيق مالم يقع فيه جدال مع أنها مما نظمه فى أول شبابه . وقدنشر الاديب الضليع أنطون بك الجميل رسالة بعد وفاة أمير الشعراء ضمنها مارآه الاحسن فى نظره وهو لايخرج عما كان يؤثره له الناس فى حياته ويأثرونه دائما عنه . وسانقل انا أيضاً من جملة الناس مايعجبنى من شعر شوقى غير ذاهب مذهب الاطالة فى التحليل ولا مقتصر على مجرد السرد بدون تذييل فأقول :

ينقسم شعرشوقى الى ثلاثة أقسام أحدها الشعر الشخصى وهو مااصطلح الافرنج على تسميته بالشعر المطرب Lyrique والشعر التاريخى أو شعر الوقائع وهو مايقولون له épique والشعر الروائى وهو القصص المنظوم شعراً ولشوقى عدة روايات منظومة لم أكن اطلعت عليها الا بعد وفاته . فالشعر الشخصى هو الجانب الاوفر من شعر شوقى واذا اراد الناقد أن يعتام جيده لاينتهى منه الا بديوان كبير لان شعر شوقى نسج واحد لايكاد ينزل ولو وضع كلامه فى أتفه المواضيع ، فالغثاثة وشوقى على طرفى نقيض .

من أحسن مايعجبنى من شعره الشخصى مـا افتتح به ديوانه المطبوع أول مرة وذلك تحت عنوان « الى مولانا امير المؤمنين عبد الحميد الثانى أيده الله »

سلام الله لا أرضى سـلامى فـكل تحيـة دون المقام
وعـين من رسـول الله ترعى وتحرس حامـل الامر الجسام
وتنجـد مقـلة فى الله يقظى وتخلفهـــا عـلى أمم نيـام
تقلب فى ليـال من خطوب تركن المسلمـين بلا سـلام
ومن عجب قيامك فى الليالى وانت الشمس فى نظر الانام
أحب خليفة الرحمن جهدى وحب الله فى حب الامـام
وأجعل عصره عنوان شعرى وحسن العقد يظهر فى النظام
فان تفت الموانع منه حظى فليس بفائت حـظ الـكلام
وقد يرعى الغمام الارض اذناً وأين الارض من سمع الغمام

وبعد أن قدم هذه التحية الى الخليفة عاد فشفعها بتقدمة الى الخديوى فقال :

الى ابن محمد أهدى كتابى وقد يهدى القليل الى الـكريم
وما أهـدى له الا فؤادى وما بين الفـؤاد من الصميم
وغرس طفولتى وجنى شبابى وما أوعيت من وحى قديم
وما حاولت من عصر عظيم من الآداب للوطـن العظيم
وكان محمد أوفى وأرعى لهذا الدر من راعى اليتيم
فـكنه ياابن توفيـق فانى فخيم الظن فى الجـاه الفخيم
وان الشعر ريحان الموالى وراحة كل ذى ذوق سليم
وما شرب الملوك ولااستعادوا كهذى الـكأس من هذا النديم

والبيت الاخير هو بيت القصيد وفى قوله : وكان محمد أرعى لهذا الدر من راعى اليتيم تورية لطيفة ولـكنه استعمل لفظة «فخيم» ولا يوجد فى العربى «فخيم» وانما هو «الفخم» وقد انسابت هذه اللفظة الى كلام شوقى من كلام الدواوين ومن المعلوم ان لغة الدواوين فى القرون الاخيرة كانت عليها مسحة تركية

ومن شعره الذى شرق وغرب وذهب كل مذهب ولم يبق أحد إلا رواه قوله :

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

وهى أبيات معدودات أحسن فيها غاية الاحسان ولا سيما عند قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فلو قال أحد انه ماقيل فى هذا العصر شعر أشعر من هذا فى الغزل ما أبعد . وله أبيات لو لم أقرأها فى ديوانه لظننت أنها من شعر أبى العتاهية الذى استولى على الامد فى نظم الزهد بالسهل الممتنع الذى يقرأ منه الانسان ويعيد ولا يمل ولا تخلق طلاوته ولا تذهب حلاوته . قيل لابى نواس وقد عظم أبا العتاهية كثيراً : لأنت أشعر منه. فأجاب : ما رأيته قط إلا ظننت انه سماء وأنا أرض . وأبو العتاهية هذا نسيج وحده فى الممتنع السهل والمهلهل الجزل لو نسبت اليه هذه الابيات الخفيفة اللطيفة التالية لكانت به جديرة وهى :

كم لنا من عجيبة طى هذى البسيطة

أمم قد تغيرت وبلاد تولت

وبحار تحولت من مكان لبقعة

ثم نابت جزيرة عندها عن جزيرة

أيها الأرض خبرى عن شباب البسيطة

دول قد تصرمت دولة إثر دولة

وقرون تلاحقت وعصور تقضت

ذهب الدهر كله بين يوم وليلة

نعم على هذا الشعر مسحة عصرية جيولوجية لا توجد فى شعر أبى العتاهية .

ومن شعر شوقى فى انكار رفع الصوت أمام الجنائز:

أرى زُمراً مشيعة وأسمع أيما صوت

ولو عقلوا لما فعلوا جلال الموت فى الموت

ومن قوله فى الرضى بما قسم الله :

أعاذلتى فى اختيار الرضى ولا تُمتى فى اعتقاد القدر

تجىء النفوس الرضى مرة اذا هى لم تنتفع بالضجر

ومن حكم شوقى السائرة وأبياته النادرة ماقاله فى مداراة العدو وما ذهب اليه من أن أشد الناس على العدو آخذهم له بالحيلة فهو يقول :

قد أتعب الاعداء من داراهمو فاقم عدوك باللبان وأقعد

ان الاراقم لايطاق لقاؤها وتنال من خاف باطراف اليد

ومن حكمه :

ان الوفاء سياج أخلاق الفتى من حازه حاز المحامد أجمعا

كم من لبيب كان يرجى نفعه لكن أبى عدم الوفا أن ينفعا

ومن لطائفه :

رمينا بابليس من حالق ولم نرم بالتاجر الفاسق

وكم فى الحوانيت شيخ أحق بقطع اليمين من السارق

ومن أقواله المأثورة :

جهول الناس للنصحاء قال وعند أخى النهى لهمو ملال

عليك النصح انصادفت أهلا وليس عليك فى النصح الجدال

وقد كرر هذا المعنى فى مكان آخر فقال :

لك نصحى وما عليك جدالى آفة النصح أن يكون جدالا

وكرره ثالث مرة فقال :

آفة النصح أن يكون جدالاً وأذى النصح أن يكون جهارا

وقد ذهب السيد مصطفى صادق الرافعى الى أن شوقى أخذ هذا من قول ابن الرومى :

وفى النصح خير من نصيح موادع ولا خير فيه من نصيح مواثب

ولا حاجة الى الابعاد كل هذا فأقرب اليك من قول ابن الرومى المثل المشهور :
لا تبالغ فى النصيحة فتهجم بك على الفضيحة .
ومن حكم شوقى :

كم ساهر خائف والدهر فى سنة   وراقد آمن والدهر فى سهر
فلا تبيتن محتالا ولا ضجرا   ان التدابير لا تغنى عن القدر

ومن مرقصات شعر شوقى القصيدة المشهورة فى وصف ليلة راقصة بسراى عابدين مطلعها :

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

ومما يعجبنى فيها :

أشرقت نوافذه   فهى منظر عجب
واستنار رفرفه   والسجوف والحجب
تعجب العيون له   كيف تسكن الشهب
أقبلت شموس ضحى   ما لهن منتقب
الظلام رايتها   وهى جيشه اللجب
فى هوادج عجلا   بالجياد تنسحب

فقد كان هذا قبل اختراع السيارات الكهربائية ثم قال :

قام دونها سبب   واستحثها سبب
فهى تارة مهل   وهى تارة خبب
يرتمى بهن حمى   لا يجوزه رغب
بابه لداخله   جنة هى الأرب
قامت السراة به   والعلية النجب
وانبرى النساء له   عجمهن والعرب
العفاف زينتها   والجمال والحسب
أنجم مطالعها   عابدين والرحب

الى أن يقول :

الليوث مائلة والظباء تنسرب
الحرير ملبسها واللجين والذهب
والقصور مسرحها لا الرمال والعشب
يستفزها نغم لاصدى ولا لجب
يستعاد مرقصه تارة ويقتضب
فالقدود بان ربى بيد أنها تثب
يلعب العناق بها وهو مشفق حدب
فهى آنة صعد وهى آنة صبب
وهى ها هنا وهنا تلتقى وتصطحب
مثلما التقت أسل أو تعانقت قضب
الرؤوس مائلة فى الصدور تحتجب
والنهود هامدة والخدود تلتهب
و الخصور واهية بالبنان تنجذب

إلى أن يقول :

هكذا الكرام كرا م وإن همو طربوا
ليلة علت وغلت ليت فجرها كذب
يكفل الأمير لنا أن تعيدها الحقب

وله فى وصف متنزه الخديوى :

متنزه العباس للمجتلى آمنت بالله وجناته
العيش فيه ليس فى غيره يا طالب العيش ولذاته
قصور عز باذخات الذرى يودها كسرى مشيداته
دارت على البحر سلاليمه فبتن أطواقا للباته
من عمل الانس سوى انها تنسى سليمان وجناته

الى أن يقول:

ومن ظباء فى كناساتها   تهيج للعاشق لوعاته
يرتعن والآساد فى ألفة   من عدل حلمى ومساواته

وله فى وصف الشروق والغروب وهو فى سفينة :

ويا للمصور آثارها   بكل بحار وفى كل بيد
وازراؤها كل جم السنا   وازواؤها كل عال مشيد
من النار لكن أطرافها   تدور بياقوتة لن تبيد
من النار لكن لألاءها   الٓهية زينت للعبيد
هى الشمس كانت كما شاءها   ممات القديم حياة الجديد
ترد المياه الى حدها   وتبقى جبال الصفا والحديد
وتطلع بالعيش أو بالردى   على الزرع فائمه والحصيد
وتسعى لذا الناس مهما سعت   بخير الوعود وشر الوعيد
وقد تتجلى اذا أقبلت   بنعمى الشقى وبؤس السعيد
وقد تتولى اذا أدبرت   وليست بمأمونة أن تعود
فما للغروب يهيج الأسى   وكان الشروق لنا أى عيد
كذا المرء ساعة ميلاده   وساعة يدعو الحمام العنيد
وليس بجار ولا واقع   سوى الحق مما قضاه المريد

على هذه الأبيات الاخيرة مسحة من شعر المعرى الذى يختلط الشعر فيه بالفلسفة.

وله وصف طلوع البدر وهو فى السفينة أيضاً :

وزهت لناظرها السماء وقرما   فى البحر من عبب ومن تيار
وأهلّ لله السراة وأزلفوا   لك فى الكمال تحية الاكبار
وتأملوك فكل جارحة لهم   عين تسامر نورها وتسارى
والبدر منك على العوالم يجتلى   بشر الوجوه وزحمة الابصار

انظر الى قوله «زحمة الابصار» هنا كم فيه من البلاغة اذا تأملت تطلع الناس

الى البدر فى الليلة البلجاء .

ثم يقول :

متقـدم فى النور محجوب به ... موف على الآفاق بالأسـفار

يادرة الغواص اخرج ظافراً ... يمنـاه يجـلوها على النظـار

متهللا فى المـاء أبدى نصفـه ... يسمو بها والنصف كاس عار

وافى بك الأفق السماء فأسفرت ... عن قفل ماس فى سوار نضـار

ونهضت يزهو الـكون منك بمنظر ... ضاح ويحمل منك تاج فخار

المــاء والآفاق حولك فضـة ... والشهب دينار لدى دينار

والفلك مشرقة الجوانب فى الدجى ... يبدو لهـا ذيل من الانوار

و كأنها والموج منتظم وقـــد ... أوفيت ثم دنوت كالمحتار

وقد استعمل شوقى لفظة «المحتار» ولا يوجد فعل مطاوعة من «حار» ولـكن استعمل ذلك بعض الاعلام متابعة للعامة وقال الشيخ عبد الغنى النابلسى :

حكم حارت البرية فيها ... وجـدير بأنهـا تحتار

وسمى فقيه عصره السيد محمد بن عابدين حاشيته على الدر المختار باسم « رد المحتار» ولم يسلم من الاعتراض

وله فى البحر المتوسط الابيض :

أى المهالك أيهـــا ... فى . الدهر ما رفعت شراعك

يا أبيض الآثار والصـ ... ـفحات ضيع من أضاعك

ان البيان وان حسـ ... ـن العقل ما زالا متاعك

يشير بذلك الى أن الأمم التى عاشت على ضفاف هذا البحر هى التى فرطت الى حوض المدنية مثل مصر وفينيقية واليونان ورومة وانهـا هى التى اشتهرت بذلاقة اللسان وسداد المنطق ، ثم يقول :

أبداً تذكرنا الذيـ ... ـن جلوا على الدنيا شعـاعك

وبنــوا منــارك عاليــاً ... متلالياً وبنـوا قـلاعـك

وتحكموا بك فى الوجو د تحكما كان ابتداعك

أى ان البحر المتوسط هو الذى سهل الفتوحات للذين ملكوا على شواطئه.

وله فى وصف سويسرا :

ناجيت من أهوى وناجانى بها بين الرياض وبين ماء سويسرا

حيث الجبال صغارها وكبارها من كل أبيض فى الفضاء وأخضرا

تخذ الغمام بها بيوتاً فانجلت مشبوبة الاجرام شائبة الذرى

والصخر عال قام يحكى قاعدا وأناف مكشوف الجوانب منذرا

بين الكواكب والسحاب ترى له اذناً من الحجر الأصم ومشفرا

والسفح من أى الجهات أتيته ألفيته درجاً يموج مدورا

نثر الفضاء عليه عقد نجومه فبدا زبرجده بهن مجوهرا

الى أن يقول :

والماء من فوق الديار وتحتها وخلالها يجرى ومن حول القرى

متصوباً متصعداً متمهلا متسرعاً متسلسلا متعثرا

والأرض جسر حيث درت ومعبر يصلان جسراً فى المياه ومعبرا

والفلك فى ظل البيوت مواخرا تطوى البحائر نحوها والأنهرا

ان هذا الاسلوب فى وصف الطبيعة هو الذى جرى عليه الشعراء من قديم الزمان يأتون بالتشابيه المرقصة والكنايات المطربة فى نظم كأنه يمشى الخبب وشعر كأنه يتحدر من صبب فتعرف القافية قبل أن تصل اليها وتستدل على اللفظة بما حواليها ، وتظن نفسك على ضفة نهر مطرد يتدفق ، أو أمام غمام منسجم يتبجس ، وقد تكثر المترادفات فى مثل هذا الوصف فلا تزعج، وتتوالى المتجانسات فتعجب وتبهج ، وكأن الموصوف يخلع على الوصف حلاه، وكأن الشاعر يأخذ من الطبيعة لفظه كما يأخذ معناه .

وقلما قرأت شعراً من الزهريات أو الطرديات أو غير ذلك مما وصفوا به الطبيعة إلا رأيته مسحوباً هذا السحب مسكوباً هذا السكب كأن لكل مقام لغة تناسبه ولكل موضوع أسلوباً خاصاً لا يجيد فيه من يجانبه . واما لفظة « البحائر » التى أتى

بها شوقى هنا بمعنى الأبحرة أو البحيرات فليست من اللغة وإنما البحيرة هى الناقةالتى شقت أذنها من فعل بحر بمعنى شق . قال الله تعالى : (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة) وقال أبو اسحق النحوى : أثبت ما روينا عن أهل اللغة فى البحيرة أنها الناقة كانت اذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكراً بحروا اذنها أى شقوها وأعفوا ظهرهامن الركوب والحمل والذبيح ولا تحلأ عن ماء ترده ولا تمنع عن مرعى ، واذا لقيها المعيي المنقطع به لم يركبها . قالوا وجمع البحيرة على بُحر وهو جمع غريب فى المؤنث إلا ن يكون قد حمل على المذكر نحو نذير ونذُر. وليس لهذه اللفظة وجه هنا، إلا أن يقال ان البحار جمع بحيرة وهذه فعيلة من فعل بحر أى شق . وقد قيل ان البحر انما سمى بحراً لأنه شق فى الأرض فهل يصل تسامح علماء اللغة الى إجازة هذا القياس ؟ إنهم إن أجازوا مثله فقد فتحوا باباً يتعذر سده . ثم يقول شوقى من هذه القصيدة :

وخرجت من بين الجسور لعلنى ... استقبل العرف الحبيب اذا سرى
آوى الى الشجرات وهى تهزنى ... وقد اطمأن الطير فيها بالكرى
ويشوق منى الماء فى لمعانه ... فأميل أنظر فيه أطمع أن أرى
وهنالك ازدهت السماء وكان أن ... آنست نوراً ما أجل وأبهرا
فسريت فى لألائه واذا به ... بدرى تسايره الكواكب معشرا
حلم اعارتنى العناية سمعها ... فيه فما استتممت حتى فسرا
فرأيت صفوى جهرة وأخذت أنسى بقظة ومناى لبّت حضّرا

ثم يذكر شروق الشمس فيقول:

تبدو هنالك للوجود وليدة ... تهنا بها الدنيا ويغتبط الثرى
وتضىء أثناء الفضاء بغرة ... لاحت برأس الطود تاجاً ازهرا
فسمت فكانت نصف طار مابدا ... حتى أناف فلاح طارا أكبرا

لا أعلم ماذا يريد بقوله « طار » إلا أن يكون يريد الاطار بالألف فطار الألف لضرورة الوزن وليس هذا بجائز لأنه لم يرد إطار بمعنى طار فى فصيح اللغة

ثم يقول .

سالت به الآفاق لكن عسجدا ... وتفشّت الاشباح لكن جوهرا
واهتز فالدنيا به مهتزة ... وأنار فانكشف الوجود منورا
حتى اذا بلغ السمو كماله ... أذنت لداعى النقص تهوى القهقرى
فدنت لناظرها ودان عنانها ... وتبدل المستعظم المستصغرا
واصفر أبيض كل شيء حولها ... واحمر بُرقعها وكان الاصفرا
وسما اليها الطود يأخذها وقد ... جملت أعاليه شريطاً أحمرا
مسته فاشتعلت بها جنباته ... وبدت ذراه الشم تحمل مجمرا
فكأنما مدت به نيرانها ... شركا لتصطاد النهار المدبرا
حرقته واحترقت به فتوليا ... وأتى طلولهما الظلام فعسكرا
فشروقها الأمل الحبيب لمن رأى ... وغروبها الاجل البغيض لمن درى
خطبان قاما بالفناء على الصفا ... ما كان بينهما الصفاء ليعمرا
تتغير الاشياء مهما عاودا ... والله عز وجل لن يتغيرا

ثم انه يصف جبل الساليف الذى فوق جنيف فيقول :

انهارتا تحت السليف وفوقه ... ولدى جوانبه وما بين الذرى
مشياً وركاباً وزحلقة على ... عجل هنالك كهربائى السرا

هنا محل نظر فانه اذا أراد مشياً وركاباً وزحلقة على أنها مصادر وبلا تشديد لفظة ركاب لم يستقم الوزن واذا كان يشدد ركاب بمعنى جمع راكب أو كانت غلطة مطبعية وأصلها ركبان فهى فى قلق زائد فى هذا المحل لأنها تكون جمع اسم فاعل بين مصدرين المشى والزحلقة . وربما قاسها شوقى على كذب كذّاباً بالتشديد ولكن ليس القياس فى اللغة بالمذهب الراجح . والركاب بالتشديد هو الكابوس وليس هذا هو المراد هنا . وقد حاولت أن أجعلها مشيا وتركابا وزحلقة الخ ولكنى لم أجد مساغا لتكثير المصدر من كل فعل إلا إذا أخذنا القياس. فاما متون اللغة فانك تجد فيها أفعالا تأتى مصادرها على تفعال فيقولون مثلا سكب الماء والدمع سكبا وتسكابا وهتن الغيث هتنا

وهتوتا وتهتانا وعليه قلت من قصيدة فى هذه الأيام الأخيرة :

نار تأجج فى قلبى فهل لكما   أن تطفئاها بتسكاب وتهتان

ولكن هذا غير مطرد وان كان المتنبى قال :

وان تكن محكمات الشكل تمنعنى   ظهور جرى فلى فيهن تصهال

فانك لاتجد تصهال فى كتب اللغة وانما قاسها المتنبى على غيرها والقياس فى اللغة مذهب ضعيف . وقد نظرت فى كتاب سيبويه فرأيته يقول : (هذا باب ماتكثر فيه المصدر من فعلت فتلحق الزوائد وتبنيه بناء آخر كما أنك قلت فى فعلت فعّلت (بالتشديد) حين كثرت الفعل وذلك قولك فى الهدر التهدار وفى اللعب التلعاب وفى الصفق التصفاق وفى الرد الترداد وفى الجولان التجوال والتقتال والتسيار وليس من هذا مصدر فعلت (بالتشديد) ولكن لما أردت التكثير بنيت المصدر على هذا كما بنيت فعلت على فعلت (الثانية بالتشديد) انتهى . قلت ولا يستفاد من هذا أنه يجوز اطراد مصدر تفعال من كل الافعال لانه لوكان ذلك كذلك لما كان جامعو اللغة قالوا هتن يهتن هتونا وتهتانا ولم يقولوا ركب يركب ركوبا وتركابا . ولنترك ركابا هذه على حالها ونكمل وصف شوقى لجبل السليف فيقول :

فى مركب مستأنس سالت به   قضب الحديد تعرجا وتحدرا

ينساب ما بين الصخور تمهلا   ويخف بين الهوّتين تخطرا

ولو جاء شوقى جنيف كما دعوته يوم تلاقينا فى السويس لرأى الآن شيئاً أعجب وأغرب وهو أنهم وضعوا من حذاء السليف الى رأس الجبل مركبة سلكية كهربائية يقال لها «تلفريك» يظنها الرائى طيارة طائرة فى الجو ويقطع فيها الراكب هذه المسافة من ذيل الجبل الى رأسه فى ثمانى دقائق بسرعة برقية وهذه المركبة من بعيد تلوح كالزنبيل معلقا فى الهواء . ثم قال :

لما نزلنا عنه فى أم الذرى   قمنا على فرع السليف لننظرا

أرض تموج بها المناظر جمة   وعوالم نعم الكتاب لمن قرا

قد صغر البعد الوجود لنا فيا   لله ما أحلى الوجود مصغرا

ولشوقى قصيدة، عن رومة فيها أبيات جديرة بأن تحفظ :

وجرت ههنا أمور كبار ··· واصل الدهر بعدها جريانه
راح دين وجاء دين وولى ··· ملك قوم وحل ملك مكانه
والذى حصل المجدون اهرا ··· ق دماء خليقة بالصيانه
ليت شعرى إلام يقتتل النا ··· س على ذى الدنية الفتانه
بلد كان للنصارى قتادا ··· صار ملك القسوس عرش الديانه
وشعوب يمحون آية عيسى ··· ثم يعلون فى البرية شانه
ويهينون صاحب الروح ميتا ··· ويعزون بعده أكفانه
عالم قلب وأحلام خلق ··· تتبارى غباوة وفطانه
رومة الزهو فى الشرائع والحكـ ··· ـمة فى الحكم والهوى والمجانه
والتناهى فما تعدى عزيزا ··· فيك عز ولا مهيناً مهانه
يصبح الناس فيك مولى وعبدا ··· ويرى عبدك الورى غلمانه
أين ملك فى الشرق والغرب عال ··· تحسد الشمس فى الضحى سلطانه

وله على قبر نابليون أبيات منها :

مرمر أضجع فى مسنونه ··· حجر الارض وضرغام العرين
هل درى المرمر ماذا تحته ··· من قوى نفس ومن خاق متين
ينمحى الميت ويبلى رمسه ··· ويغول الربع ما غال القطين
حصنوا ما شئتم موتا كم ··· هل وراء الموت من حصن حصين؟
ليس فى قبر وإن نال السهى ··· ما يزيد الميت وزنا ويزين
فانزل التاريخ قبراً أو فنم ··· فى الثرى غفلا كبعض الهامدين

وله فى توت عنخ آمون قصيدة يقول فيها :

ملوك الدهر بالوادى أقاموا ··· على وادى الملوك محجبينا
فرب مصفد منهم وكانت ··· تساق له الملوك مصفدينا
تقيد فى التراب بغير قيد ··· وحل على جوانبه رهينا

تعالى الله كان السحر فيهم أليسوا للحجارة منطقينا

ويخاطب اللورد كارنارفون الذى اهتدى سنة ١٩٢٢ الى ما اهتدى اليه من الكنوز تحت مدفن رعمسيس السادس فقال :

أبوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا

ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة للناهبينا

سكتّ فخام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا

يقول الناس فى سر وجهر ومالك حيلة فى المرجفينا

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفنينا ؟

يريد أن يقول ان الناس اتهموا اللورد الذى كشف الكنوز بانه استأثر لنفسه بها والحال انها حق مصر وقد حامت الظنون حول هذه القصة وقال الناس : أفالذين سرقوا الخليفة وهو حى لا يسرقون كنوز الملوك وهم أموات ؟ إشارة إلى ان الانجليز نقلوا الخليفة وحيدالدين من قصره فىالاستانة إلى مالطة بعد أن انتهت حرب اليونان وتركيا واتسق الامر لحكومة أنقرة، والسبب فى فرار الخليفة حينئذ ما بلغه عن نية حكومة أنقرة محاكمته والحكم عليه بالقتل بحجة انه خان الوطن

وكان السلطان وحيد الدين فى بدء احتلال الانجليز للاستانة بعد الحرب العامة قد اعتقد ان الانجليز يقدرون على كل شئ فأطاعهم خوفاً لا خيانة ولم يشأ أن يذهب إلى الأناضول وينضم إلى رجال الحركة الوطنية اعتقاداً بانه إن خرج من الاستانة لن يعود ملك آل عثمان اليها أبداً وان الانجليز وغيرهم من الاجانب يريدون فرصة لاعادة القسطنطينية الى الروم، وقد كانت فى أوروبا ـ ولا سيما فى انجلترة ـ حركة شديدة لهذا الغرض فتضافرت الاسباب كلها لبقاء السلطان فىالاستانة حتى لا تخرج هذهالعاصمة المنقطعة النظير من يد الاسلام ، ولما كان الانجليز هم المحتلين وهم أصحاب الكلمة العليا بعد الحرب الكبرى لم يجد وحيد الدين بداً من مطاوعتهم فانتهز أعداؤه الفرصة لاتهامه بالخيانة وبالخروج عن رأى أمته ، ولما كان بين الاتراك حركة قديمة ترمى الى ثل العرش العثمانى وتأسيس حكومة جمهورية وهذه الحركة لا يقدر أصحابها على

التظاهر بها خوفاً من الشعب التركى المتمسك بآل عثمان فقد استغل هذه المرة رجال تلك الحركة طاعة وحيد الدين لانجلترة الناشئة عن الخوف وجعلوها من باب الخيانة ونشروها بين الشعب التركى وفى الآفاق وبنوا عليها فيما بعد اسقاط سلطنة آل عثمان واسقاط الخليفة والخلافة مع ان مجلس أنقرة الكبير كان قد قرر ان الحركة التركية الاستقلالية انما كان القصد منها انقاذ الخليفة الذى هو أسير بين أيدى الانجليز، وقد اضطر السلطان الخليفة وحيد الدين أن يفر من الاستانة حتى لا يصلب على جسر الخليج فقصد مالطة على باخرة انكليزية ثم جاء منها الى الحجاز، وبعد أن أقام أياما فى مكة وأياما فى الطائف ذهب إلى أوروبة وأقام فى سان ريمو من ايطاليا ولم يعش بعد سقوطه مدة طويلة وعند ما مات كان يعانى من جهة أمر معيشته مع حاشيته أزمة شديدة ، وكانت عليه ديون لاصحاب الدكاكين الذين كانوا يبيعونه بالنسيئة ويصبرون عليه. فلما مات قاموا يطالبون بحساباتهم وطلبوا تأخير نقل الجثة من سان ريمو حتى يكونوا استأدوا أموالهم فبقيت الجثة فى سان ريمو أسبوعين أو ثلاثة رهناً حتى يأتى من آل عثمان من يؤدى الحسابات التى كانت على السلطان المتوفى ! ! وفى ذلك الوقت قال لى سمو الخديوى السابق : ان هذا عار على الاسلام وكان من الواجب أن يتبرع ذوو الحمية من المسلمين بالمبلغ الباقى على السلطان المرحوم حتى يتيسر نقل جثمانه الى الشام لدفنه فيها كما أوصى بذلك. فقلت له : ومن أولى منك بهذا الأمر؟ فذكر لى محذوراً سياسياً يمنعه من التظاهر بهذه القضية وأشار بان اكتب الى سمو الامير عمر طوسون الذى هو المفزع للاسلام عند كل حادثة . فكتبت الى الامير المشار اليه ولا شك انه لم يكن ليتأخر عن الواجب ولكن فى أثناء ذلك جاء الخليفة عبد المجيد ابن عم السلطان وحيد الدين من بلدة نيس التى يقيم بها وأدى المبلغ الباقى لاصحاب الحسابات وهكذا تمكن من شحن جثة السلطان الى دمشق حيث دفنت فى التكية السليمانية

ومن هنا يعلم القارئ ان السلطان وحيد الدين كان خالى الوفاض وانه لو كان خائناً لامته كما يتشدق بعض الناس الذين يهرفون بما لا يعرفون وكان خادما لاغراض انجلترة كما يزعمون لكانت انجلترة تقوم بنفقاته وتكفى أهله تلك الاهانة

التى وقعت بابقاء جثته رهينة مدة ثلاثة أسابيع على حسابات دكاكين سان ريمو .

ومما تحققته والحال تؤيده انه لما برح السلطان وحيد الدين الاستانة وكان الذى فى يده من المال نزراً لا يكفيه أن يعيش سلطانا بل لا يكفيه أن يعيش كسائر الناس مدة طويلة مكفياً قوت يومه أشار عليه بعض أعوانه بقوله : انك تقدر أن تأخذ بعض قطع من جواهر التاج المحفوظة فى خزانة سراى طوبقبو والتى فيها من النفائس ما يقوم بعدة ملايين من الجنيهات وانت معذور فى ذلك حتى تتمكن من معيشتك فى الغربة بالمقدار الضرورى . فقال له السلطان وحيد الدين : « بن بويله خرسزلق يايمم » أى لست أنا من يرتكب هذه السرقة ، وهذه الرواية مؤيدة بواقع الحال إذ لو شاء السلطان وقتئذ أن يأخذ شيئا من تلك النفائس ما كان أحد يقدر ان يمنعه ولكنه أبى لنفسه أن يلوثها بفعلة كهذه « والحر حر ولو مسه الضر » وكل يذكر ان احدى نسائه جاءت الى مصر وبلغ منها الفقر مبلغا انقذفت بنفسها فى النيل لتخلص من هذه الحياة، وان اناسا أدركوها فانتشلوها ووضعت فى المستشفى

ومن قصائد شوقى البديعة ما خاطب به ام الخديوى السابق التى كان يقال لها أم المحسنين بعد نهضتها تلك فى حرب طرابلس الغرب :

ارفعى الستر وحيي بالجبين ... وأرينا فلق الصبح المبين

وقفى الهودج فينا ساعة ... نقتبس من نور أم المحسنين

واتركى فضل زماميه لنا ... نتناوب نحن والروح الأمين

قد سقينا بمحياك الحيا ... ولقينا حول يمناك اليمين

ثم يقول :

يامثالا للعقيلات العلى ... وكمالا لنساء العالمين

جارة الاسلام فى محنته ... على الجارات مما تعلمين

ذكريهن فروقاً وصفى ... طلعة الخيل عليها والسفين

ووليا للطواغيت بها ... كان يدعى بأمير المؤمنين

يقول لها وهى راجعة من الاستانة الى مصر لتتحدث عن حال الاستانة وهنا تكلم

فى السلطان وحيد الدين بما كان وقتئذ شائعاً ورائجاً من انه خان امته ومالأ الانجليز عليها وما أشبه ذلك من الاقاويل التى كان يذيعها الـكماليون وكانت تنشر فى الخلق وتجد هوى فى نفوسهم لشدة ماعانى أهل مصر وأهل الشرق أجمع من ظلم الانجليز وما وقر فى قلوب الناس من بغضهم

وحقيقة الحال هى ما ذكرناه من كون السلطان محمد السادس انما غلب عليه الخوف واعتقاد انه ان خالف الانجليز لم ينفعه نصير فى العالم وقد يخرجونه من الاستانة ويعيدونها الى الاروام. ومن كان فى ذلك الوقت يعتقد أن الانجليز سيبرحون الاستانة أو أن الحركة الوطنية فى الاناضول ستؤول الى نجاح ؟ بل رجال تلك الحركة أنفسهم كانوا يقولون أنهم لا يريدون أن يسلموا تركيا بثمن بخس أى أنهم لا يأملون الفوز لكنهم يريدون ألا تذهب بلادهم رخيصة . وهناك امور نحب أن تبقى مطوية على غرها واسماء اشخاص هم على رأس تركيا اليوم كانوا قطعوا الأمل من استقلالها الى حد أنهم أجمعوا على وجوب جعلها تحت انتداب احدى الدول العظام لكنهم اختلفوا فى الدولة التى يجب أن تكون منتدبة عليها فبعضهم أشار بانجلترة والآخرون أشاروا باميركا ، وتوجد وثائق خطية تثبت كون هؤلاء الذين يديرون تركيا اليوم لا غيرهم قد وصل بهم اليأس الى أن أشاروا بجعل تركيا تحت انتداب احدى الدول العظام وهى تلك المملكة التى كانت بالامس احدى الدول السبع العظام اللواتى اليها الحل والعقد فى العالم. فلا نعلم بعد هذا وجه التشدق والتنطق فى حق السلطان وحيد الدين وتخصيصه باليأس دون سواه وقد كانوا باجمعهم يائسين .

يرى القارئ اننا فى التعليق على قصائد شوقى التاريخية لم نستنكف أن نعرج على التاريخ ولو بصورة مجملة أو باشارات خفيفة وذلك لان الشعر التاريخى يحتاج أحياناً الى تفسير يقويه ويجلى بداعة نكته . ومع هذا فلو شئنا أن نتوسع فى هذه المواضع التى طرقها شوقى فى شعره لاستهدف لنا غرض لاينتهى وعرضت تفاصيل لاتنقضى، ونحن كل ما أردناه انما هو الاتيان بالمختار والسائر على ألسن الناس من شعر شوقى وما نراه نحن من شعره منيفاً على غيره فان للناس أذواقا مختلفة وقد يرى الواحد مالا يرى

الآخر ، وفى عرض هذه الشواهد قد تعن لنا ملاحظة فنبديها على غير اطراد وبدون أن نتخذ ذلك قاعدة وبدون أن نخوض فى نحو ولغة وبيان وبديع وعروض الا ما عرض اتفاقاً فليس ما علقناه على هذه الشواهد من شعر أمير الشعراء شرحاً ولا تفسيراً إذ لو توخينا ذلك لطال بنا الأمر وخرجنا عن الخطة التى ترسمناها فى عملنا هذا الذى هو عبارة عن عهد بين صديقين وذمة بين أخوين .

وانى لأخجل من نفسى اذا رأيتنى قصرت فيما يجب علىَّ نحو شوقى بعد وفاته وانى لأتخيل شوقى ــ وهو الذى يقول كما جاء فى جريدة كوكب الشرق : انى أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعز أحداً عليهم ــ قد نظر الى من برزخه وأطل على من نافذة الغيب وحدق بى بعيونه تلك التى كان يقول فيها صديقنا الشيخ على الليثى (محاجر مسك ركبت فوق زئبق) وقال لى : أهكذا ضمنتنى يا أخى بعد وفاتى ؟ وانه فى تلك الساعة قد ينشدنى قول أبى العتاهية :

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى ... ويحدث بعدى للخليل خليل

اذا ما انقضت عنى من الدهر ليلة ... فان بكاء الباكيات قليل

فأبداً أجيبه قائلا : لو نسى عهدك الاولون والآخرون لما خفرت لك عهداً ولا مذقت لك وداً وانك فى الغيب عندى لكما فى المشهد وانت تعلم أنها صداقة أربعين سنة تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى

فان أظمأ عهدك النسيان فلى مدامع ترويه ، وان شطت بشعرك النوى فان الدهر كله يرويه ، وانه وإن بكاك الناس حباً بالأدب ورحمة للسان العرب فانى لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البر بلغته الغيور على صناعته ، وصفة الأخ الضنين باخوته الحريص على مروءته ، فأنا فى مقدمة من لك من الاخوان والاتراب الذين يبكون فضلك ويذكرون عهدك الى أن يواروا فى التراب

نقلنا هذه الشواهد من الطبعة الأولى من الشوقيات وهى التى فيها المقدمة التى بقلم شوقى ومن الطبعة الثانية التى مقدمتها وأظن تفسيرها بقلم الدكتور محمد حسين هيكل وكما أهدانى شوقى الطبعة الاولى بخط يده فقد أهدانى الطبعة الثانية أيضاً بخط يده

وكتب عليها هذه العبارة : (الى مولاى وصديقى الكريم الأمير شكيب أرسلان) .

المخلص شوقى

٣٠ ابريل سنة ١٩٢٦

فسلاماً يا أخى ومولاى ونور عيونى وتحية طيبة والله أسأل أن يجعلنا أخوين فى عالم الغيب كما كنا فى عالم الشهادة ولا يجعلها بيننا آخر معهد

ومن رقيق شعر شوقى :

لا السر يطويه ولا الاغضاء ... ليل عداد نجومه رقباء

داجى عباب اليم فوضى فلكه ... ما للهموم وما لها ارساء

أغزالة الاشراق أنت من الدجى ... ومن السهاد لو التفت شفاء

رفقا بجفن كلما أبكيته ... سال العقيق به وقام الماء

ما مد اهدابا ليصطاد الكرى ... إلا وطيفك فى الكرى العنقاء

كان القرير وكنت زهو عروشه ... فخلون منك ونابت الاقذاء

وخسرتهن لياليا نهل الصبا ... مما أفضن وعات الاهواء

وله من قصيدة الى الجناب الخديوى :

وشمس تعالت أن تنار وان ترى ... وان تدعى شرقا وان تدعى غربا

وما جات الاضواء عنها وانما ... بهرن بها من حيث كن لها حجبا

أغرن بها الدنيا هوى فتغيرت ... وما زالت الدنيا لضراتها حربا

رمى بى القوافى من رمى السحر قبلها ... بموسى وأعيي بابن مريم الطبا

فأسمعت عباس الندى كل آية ... من الشكر لم تترك لذى منطق ريبا

فتى الملك ماهذا السمو ببيته ... تركت السهى حيران فى بابه صبا

لك العرش والتاجان والمطرف الذى ... تسير على التيجان تسحبه سحبا

وملك عريق فى الوجود ودولة ... أظل بها آباؤك العجم والعربا

ولما أتيت القيصرين ويوسفا ... وأسكار والمختار فى قومه الندبا

تخذت اليهم عالى الذكر مركبا ... وجم الثنا زادا وشم العلى صحبا

وقيل ابن رب النيل فافترت القرى ... وناجى الثرى نعليك يستوهب الخصبا

وطالت عروش المالكين تشرفا ... فلو خيرت لاخترن أذيالك القشبا
ولكن عرشا تحته النيل جاريا ... أحق بها والمهد أولى بمن ربى

ومن شعره فى الخديوى :

صحوت واستدركتنى شيمتى الأدب ... وبت تذكرنى اللذات والطرب
وما رشادى الا لمع بارقة ... يرام فيه ويقضى للعلا أرب
دعت فأسمع داعيها ولو سكتت ... دعوت أسمعها والحر ينتدب
وهكذا أنا فى همى وفى هممى ... ان الرجال اذا ما حاولوا دأبوا
ولى همامة نفس حيث أجملها ... لا حيث تجملها الأحداث والنوب

كل من يقرأ هذه الأبيات يلحظ أن شوقى أراد بها معارضة محمود سامى فى قصيدته البائية التى يقول فيها :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيرى باللذات يلهى ويعجب
وما كنت ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخو همّ اذا ما ترجحت ... به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية ... لها بين أطراف الأسنة مطلب
بعيد مناط الهمّ فالغرب مشرق ... اذا ما رمى عينيه والشرق مغرب
له غدوات يتبع الوحش ظلها ... وتغدو على آثارها الطير تنعب
همامة نفس صغرت كل مأرب ... فكلفت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذى يلقاه فيها محبب
اذا أنا لم أعط المكارم حقها ... فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حملت درعى كميت طمرة ... ولا دار فى كفى سنان مذرب
أسير على نهج يرى الناس غيره ... لكل امرئ فيما يحاول مذهب
فلست لامر لم يحن متوقعا ... ولست على شىء مضى أتعتب
خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة ... لدىّ يداً أغضى لها حين يغضب
وإنى اذا ما الشك أظلم ليله ... وأمست به الأحلام حيرى تشعب

صدعت حفافى طرتيه بكوكب ... من الرأى لا يخفى عليه المغيب
ونقع من الميجاء خضت عبابه ... ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها ... حواسر فى ألوانها تتقلب

وقد عارض محمود سامى بقصيدته هذه قصيدة الشريف الرضى التى أولها :

لغير العلى منى القلى والتجنب ... ولولا العلى ما كنت فى الحب أرغب

ومع جلالة قدر الشريف الرضى وعلو كعبه فى الشعر وفحولة لغته التى ينزع بها عرق الهاشمية الكريم ومجدها الصميم لا يقدر أحد أن يقول ان البارودى قصر عن الرضى فى شىء بل ربما أناف عليه، ولمثل قصيدة البارودى هذه وأشباهها صرحت بأنه سيد الشعراء فى وقته وقلت فى رثائه :

كان الأوائل فى الأنظار معجزة ... حتى أتى فشأى من جد من قدما

ولا شك أن شوقى لا يرقى فى الجزالة وعلو النفس الى هذه السماء ولكن له أسلوب آخر كما تقدم الكلام عليه طابعه السلاسة ومزيته الرقة وانظر الآن الى قوله :

أوشكت أتلف أقلامى وتتلفنى ... وما أنلت بنى مصر الذى طلبوا
همو رأوا أن تظل القضب مغمدة ... فان تذيب سوى اغمادها القضب
رضيت لو أن نفسي بالرضى انتفعت ... وكم غضبت فما أدنانى الغضب
نالت منابر وادى النيل حصتها ... منى ومن قبل نال اللهو والطرب
وملعب كمعانى الحلم لو صدقت ... وكالأمانىّ لولا أنها كذب
تدفق الدهر باللذات فيه فلا ... عنها انصراف ولا من دونها حجب
وجاملت عصبة يحيا الوفاء بهم ... فهم جمال الليالى أوهم الشهب
باتوا الفراقد لألاء وما سفروا ... عليه والبان أعطافا وما شربوا
وأسمدت مشرفات من مكامنها ... حمر المناقير فى لباتها ذهب
مستأنسات قريرات بأخبية ... من سندس الروض لم يمدد بها طنب
ما بين حام يهاب الجار ساحته ... وناشئ يزدهيه الطوق والزغب
وغادة من بنات الايك ساهية ... ما تستفيق وأخرى همها اللعب

قريرة العين بالدنيا مروعة بالاسر تضحك أحياناً وتنتحب
وتبرح الفرع نحو الفرع جاذبة بالغصن فالفرع نحو الفرع منجذب

وهنا أراد شوقى أيضاً أن يعارض محمود سامى فيما بقى من قصيدته البائية التى أوردنا ماأوردنا منها وفى قصيدة رائية يتكلم بها عن الحمام.

واليك ماقال محمود سامى فى قصيدته البائية هذه مما تعلمته أن شوقيا أراد أن يجرى مجراه ولكنه جرى ضمن أسلوبه وعلى شاكلة لغته . قال محمود سامى :

كذلك دأبى فى المراس واننى لأمرح فى غى التصابى وألعب
وفتيان لهو قددعوت وللكرى خباء بأهداب الجفون مطنب

مامررت فى حياتى بجملة أعلى فى درجة البلاغة وأبدع فى التصوير من قوله (وللكرى خباء بأهداب الجفون مطنب) وكيف لا يكون شاعر الأولين والآخرين من يغزى هذا الغزى ؟ ثم يقول :

الى مربع يجرى النسيم خلاله بنشر الخزامى و الندى يتصبب
فلم يمض ان جاءوا ملبين دعوتى سراعا كما وافى على الماء ربرب
بخيل كآرام الصريم وراءها ضوارى سلوق عاطل وملبب
من اللاء لا يأ كان زاد أسوى الذى يضرسنه والصيد أشهى و أعذب
نرى كل محمر الحماليق فاغر الى الوحش لا يألو ولا يتنصب
يكاد يفوت البرق شداً إذا انبرت له بنت ماء أو تعرض ثعلب
فملن إلى واد كأن تلاعه من العصب موشى الحبائك مذهب
تراح به الآمال بعد كلالها ويصبو اليه ذو الحجا وهو أشيب
فبينا نرود الارض بالعين إذ رأى ربيئتنا سرباً فقال ألا اركبوا
فقمنا الى خيل كأن متونها من الضمر خوط الصيمران المشذب
فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت بزاة وجالت فى المقاود أكلب
فما كان إلا لفتة الجيد أن غلت قدور وفار اللحم وانفض مأرب
وقلنا لساقينا أدرها فانما قصارى بنى الايام أن يتشعبوا

فقـام الى راقود خمر كأنه | اذا استقبلته العين اسود مغضب
يمج سـلافا فى اناء كأنه | اذا ما استقلته الانامل كوكب
فلم نأل ان دارت بنا الارض دورة | وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب
الى أن تولى اليوم الا أقـله | وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
فرحنـا نجر الذيل تيها لمنزل | به لأخى اللذات واللهو ملعب
مسـارح سكير ومربض فاتك | ومخدع أكواب به الخمر تسكب
فلمـا رآنا صاحب الدار أشرقت | أساريرُه زهواً وجاء يرحب
وقال : انزلوا يابارك الله فيكمو | فعندى لـكم ما تشتهون وأطيب
فمـا زال حتى استل منه سبيكة | من الخمر تطفو فى الاناء وترسب
فياحسن ذاك اليوم لو كان باقياً | وياطيب هذا الليل لو دام طيب

لاجرم ان هذه هى الفصاحة التى تأخذ بمجامع اللب وتفك أغلال القلب والتى من أجلها قال مصطفى صـادق الرافعى ان شعر محمود سامى هو الذى بعث الشـعر فى الناس وأنجب لمصر مثل حافظ وشوقى

فأما ما عارض به شوقى محمود سامى من وصف الحمام فهو يشير الى رائية محمود سامى التى عارض بها أبا نواس عندما مدح الخصيب أمير مصر، قال أبو نواس :

اجارة بيتينا أبوك غيـور | وميسور ما يرجى لديك عسير

فقال محمود سامى :

أبى الشوق الا أن يحن ضمير | وكل مشوق بالحنـين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة | ينم عليهـا مدمع وزفـير
خضعت لأحكام الهوى ولطالما | أبيت فـلم يحكم على أمير
أفلّ شباة الليث وهو مناجز | وأرهب لحظ الريم وهو غرير
ويجزع قلبى للصـدور وإننى | لدى البأس إن طاش الكمىّ صبور
وما كل من خاف العيون يراعة | ولا كل من خاض الحتوف جسور

إلى أن يقول :

ويارب حيّ قد صبحت بغارة   تكاد لها شم الجبال تمور

وقد كان أبو نواس خرج من بغداد قاصداً مصر ليمدح أبا نصر الخصيب ابن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج بها فأنشده القصيدة وذكر المنازل التى مر عليها فى طريقه وهى من أزكى ماأثمر الشعر العربى ومن مشهور أبياتها :

تقول التى من بيتها خف محملى   عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب   بلى ان أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر   جرت فجرى من جريهن غدير
ذرينى أكثر حاسديك برحلة   الى بلدة فيها الخصيب أمير
اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا   فأى فتى بعد الخصيب تزور
فما جازه جود ولا حل دونه   ولكن يصير الجود حيث يصير
فتى يشترى حسن الثناء بماله   ويعلم أن الدائرات تدور

ومنها :

فمن كان أمسى جاهلا بمقالتى   فان أمير المؤمنين خبير
وما زلت توليه النصيحة يافعا   الى أن بدا فى العارضين قتير
اذا غاله أمر فإما كفيته   وإما عليه بالكفّ تشير

ثم يقول :

زها بالخصيب السيف والرمح فى الورى   وفى السلم يزهو منبر وسرير
جواد اذا الايدى قبضن عن الندى   ومن دون عورات النساء غيور
فانى جدير أن بلغتك للغنى   وأنت لما أملت منك جدير
فان تولنى منك الجميل فأهله   وإلا فانى عاذر وشكور

ويقال ان أبا نواس لما عاد الى بغداد مدح الخليفة فقال له : وأى شىء تقول فينا وقد قلت فى بعض نوابنا :

اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا   فأى فتى بعد الخصيب تزور

فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وأنشد :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذى نثني
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى تعني

هكذا روى ابن خلكان فى وفيات الأعيان وقد روى ابن خلكان أيضا معارضة لهذه القصيدة النواسية لأبي عمرو بن محمد بن دراج القسطلي الأندلسى كاتب المنصور ابن أبي عامر وشاعره ، وهذه المعارضة هى من غرر الشعر ومن أبدع أمثلة الأدب العربى قال ابن دراج :

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفني طول السفار وانه لتقبيل كف العامرى سفير
دعينى أرد ماء المفاوز آجنا الى حيث ماء المكرمات نمير
فان خطيرات المهالك ضمَّنٌ لراكبها ان الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجته وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبرى منها أنّة وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى وفى المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفداة الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بى وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورا فاننى على عزمتى من شجوها لغيور
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى علىّ ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات اذا سطا على حُرّ وجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لواقح واستوطئ الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون وللذعر فى سمع الجرىء صفير
لبان لها أنى من البين جازع وانى على مض الخطوب صبور

امير على غول التنـائف ماله　　اذا ريع الا المشرفىّ وزير
ولو بصرت بى والسرى جل عزمتى　　وجرسى لجنّان الفلاة سمير
واعتسف الموماة فى غسق الدجى　　وللأسد فى غيل الغياض زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها　　كواكب فى خضر الحدائق حور
وقد خيلت طرق المجرة انهـا　　على مفرق الليـل البهيم قتـير
وثاقب عزمى والظلام مروع　　وقد غض أجفان النجوم فتور
اذاً أيقنت أن المنى طوع همتى　　وانى بعطف العامرى جـدير

وأحسن مافى هذه القصيدة قوله فى علو الهمة :

دعينى أرد ماء المفاوز آجنا　　الى حيث ماء المكرمات نمير
فان خطيرات المهالك ضمنٌ　　لراكبها ان الجزاء خطير

وقوله فى وصـف الطفل وقد فارقه أبوه وهو فى سريره وكأنـا قد عرف لوعه هذا الفراق :

عيىّ بمرجوع الخطاب ولحظه　　بموقع أهواء النفوس خبير الخ

ومما استولى فيه على الامد وصفه مشاق السفر وقطع الفيافى فى حر الهواجر وذلك عند قوله :

ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى　　علىّ ورقراق السراب يمور　الخ

فقصيدة ابن دراج القسطلى تصح أن تـكون ضرة لقصـيدة أبى نواس وان كان فى شعر ابن دراج شىء من الصنعة وكان شعر أبى نواس أقرب الى الطبيعة وكل منهما فى نظرى ليست أبرع ولا آنق ولا ألعب بالألباب من قصيدة البارودى التى فيهـا من النسيب واللهو والشراب ووصف الحمائم الى الفخر الى الحماسـة ماليس وراءه لمتطلع ·

ولمحمود سـامى جولة أخرى فى وصف الحمام فى القصيدة الـتى بعث بها الىّ من سيلان اذ فيها يقول :

وترنمت فوق الأراك حمامة | تصف الهوى بلسان صب مولع
تدعو الهديل وما رأته وتلك من | شيم الحمائم بدعة لم تسمع
ريا المسالك حيث أمت صادفت | ما تشتهى من مجثم أو مرتع
فاذا علت سكنت مظلة أيكة | واذا هوت وردت قرارة منبع
أملت على قصيدة فجملتها | لشكيب تحفة صادق لم يدع

فأنت ترى اذا أنعمت النظر فى ابيات محمود سامى التى يصف بها الحمام ثم كررت بنظرك على أبيات شوقى من عند قوله :

وأسعدت مشرفات من مكامنها | حمر المناقير فى لباتها ذهب

ان شوقى أراد أن يعارض شيخ الشعراء فى وقته وان كلامهما قد بلغ شأو الاجادة ضمن دائرة ديباجته

وهذه القصيدة البائية لشوقى هى من عيون قصائده وهى التى فيها يقول :

والصدق أرفع ما اهتز الملوك له | وخير ما عود ابناً فى الحياة أب
وانما الامم الاخلاق ما بقيت | فان هموذهبت أخلاقهم ذهبوا

أليس هذا هو البيت الذى سار مسير القمر وصار حديث السمر وأصبح مثلا مضروباً يستشهد به كل يوم ويدور على ألسن العوام فضلا عن الخواص فلو لم يكن لشوقى غيره لاخلده . ومن أرق أغزال شوقى :

لى الله ما أغرى الغرام بمهجتى | وأهدى لاقمار المنازل مقلتى
بدور أتانى من مطالعها الهوى | فما أوقعتنى فيه حتى استسرت
فبت يرينى الوهم فى الجو سلما | ومن لى فى سكنى السماء بحيلتى
خليلى مالى بالديار موكلا | أروح لاتلافى وأغدو لفتنتى
طرقت فتاة الغرب والليل مقبل | طروق ابن آوى من حذار ورقبة
فقالت عجوز يا أخا الشوق انها | تخاف أباها فأتها بعد هجعة
سيسأل عنها الساهرون على الحمى | ويسمع عنها نسوة فى المدينة
فقلت هبيها مريما أنا يوسف | تعالى ضميرى أن يهم بريبة

أبت لى الدنايا عزة عربيـة ودين يرى الفحشاء شر ذريعة
فـلا رحم الرحمن بعد كـثير محبـا ولا صلى على غير عزة

وأيضاً

يود من الأرواح مالا توده ويفتنك فيها مسرفاوهى جنـده
غير تواليـه المحاسـن وّردا وتنهل منه النفس لو راق ورده
مروع بالمـام النسيم مروع بماض خفيف ينزع اللب حده
اذا استلّـه فى أنسه أو نفاره فـكل فؤاد فى البرية غمده
وان هز أعطافـاً فما مركز القنا بأشقى من الاكباد فيهن قـده
خذوه بنفسى انه هو قاتـلى ولا تقتـلوه اننى أنا عبـده
ولا تسألوه ما ذنوبى واسألوا قبول متابى قبـل ذنب أعده
ولا تذكرونى عنـده بشفاعة فان شفيع الواجدالصب وجدهُ
فان يك فـيما يزعم الناس قد سلا فما بال قلـبى عنـده لا يردّه
لجافى الذى لم يعرف السهد جفنه ولم تدر تقليب المضاجع كبـده
وقاطعنى من كنت أرجو وفاءه وأين أخو الود الذى دام وده

دفع اعتراض

ربما يعترض بعض القراء على سردى هذه الأماثيل من شعر شوقى من دون أن أعلق عليها مايعن لى فيها وما أجد من محل اعتراض أو من مكان اعجاب والجواب انى لو شئت أن أردف كل بيت بما يبدو لى فيه لاستغرق ذلك أجلادا. والحال اننا من البدء ماقصدنا شرح شعر شوقى ولا التعليق عليه بما يبدو لنا فى كل بيت منه وانما هى رسالة توخينا فيها تجديد ذكرى شاعر كبير وتسجيل علاقاتنا مع أخ قـديم انجازا لوعد قطعناه على نفسنا يوم فجعنـا به والأخاء اخاء فى الحياة وبعد الممات وعلى اللاّحق أن يحفظ عهد

السابق . وأرانى قد أشفقت على عهد شوقى أن ينسى وتخيلت روحه من وراء الغيب تنشدنى :

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى   ويحدث بعدى للخليل خليل

اذا ما انقضت عنى من الدهر ليلة   فان بكاء الباكيات قليل

ولما كانت ذكرى شاعر كبير لا بد من أن تسدى وتلحم بالشعر فقد أوردنا ما أوردناه من الشواهد لا على سبيل شرح ولا على نية تفسير ولكن ان خطرت فى بالنا جملة أرسلناها عفواً أو عدّت ملاحظة يروق الادباء قيدها لم نجمجم بها. وسنتبع هذه الطريقة الى الآخر

رأى للمؤلف

فأما اسلوب التحليل الذى درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الاخيرة من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الافرنج لا فى المعنى فقط بل باللفظ تقريباً ويورد الواحد منهم البيت فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه ويشير الى ما هنا من عاطفة جريئة وما هناك من ابتسامة بريئة ويستعمل فى الوصف تلك الألفاظ الأوروبية التى ليس فيها من العربى الا الحروف بحيث ان كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلا ولا كثيراً فلسنا من هذا الأمر فى قبيل ولا دبير . واننا لا نحب أن نخلط العربى بالاعجمى ولا أن نخاطب العرب الا بما يعقلون ويشعرون وما تسيغه أذواقهم فان لكل أمة أدبا ولكل قوم مشربا وان الخلط بين شعبان ورمضان اظهارا لسمة العلم وتزيدا بما ليس من مقتضى الواقع ليس بطريقتنا واننا نؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوروبية رأساً كما يفعل المستشرقون الاوروبيون اذا أخذوا كتابا عربياً فشرعوا فى تحليله ، نعم نؤثر الكتابة بلغة أوروبية فى هذا الموضوع على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوروبية فى حروف عربية يمشى فيها القارئ مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الالفاظ المترجمة وبهذه الاعلام التى هى غريبة عن قومه

فالذى يحمل نفسه على قراءة هذه التحليلات التى نحاول أن نجرى فيها مجرى كتاب الاوروبيين تراه أبدا يشرب ولا يرتوى . ومن الناس من يظن عدم عقله لها ناشئاً عن مجرد جهله والحقيقة ليست كذلك بل انها من باب وضع الشئ فى غير محله . لا بأس فى الاحايين فى أن يورد الكاتب فى تحليله لبيت من شاعر عربى معنى قد توارد عليه مع شاعر اجنبى او ملاحظة ظهر فيها شىء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وادبهم ، فأما اتخاذ هذا الاسلوب دأبا وديدناً كلما اردنا ان نصف بيتاً لطرفة بن العبد أو قصيدة للاعشى لزمنا ان نقحم فيها فيكتور هوغو والفرد ديموسيه ولامارتين وغوته وشكسبير وان نكثر على قراء العرب من سرد اعلام لايعلمون عنها شيئاً تقريباً فهذا تنطع بالفارغ وتحذلق غير سائغ والأولى بنا أن نراعى قبل كل شئ الذوق العربى وان نستشهد بادباء العرب ونعلم انه كما كان العربى يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم فانه لا يتسوغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم وليس الشعر والأدب ميكانيكيات ومواد ، يستوى فيها العربى والعجمى . وقد فات الناس ان الشعر هو شئ والعلم شئ آخر فلو فكروا ملياً فى هذا الأمر لأراحوا أنفسهم مما يعانونه هم ويعانيه قراؤهم معهم

عود الى غزل شوقى

ومن غزل شوقى عفا الله عنه :

عرضوا الأمان على الخواطر ... واستعرضوا السمر الخواطر

فوقفت أحذرهم وبأ ... بى القلب إلا أن يخاطر

يا قلب شأنك والهوى ... هذى الغصون وانت طائر

ان التى صادتك تر ... عى بالقلوب لها النواظر

ياثغرها انا فيك كالـ ... ـغواص أحلم بالجواهر

يا لحظها من امها ... أم من أبوها فى الجآذر

يا خصرها لى منك فى ... ليل الهوى وهم مسامر

يا ردفها بالله كن بمريض جاهك لى مؤازر
يا شعرها لا تسع فى هتكى فشأن الليل ساتر
يا قدها حتام تغدو عادلا وتروح جائر
مولاى عبدك ما غوى لكنها خطرات شاعر
عفواً فلست بأول فى ذا المقام ولا بآخر

ومن مرقص أشعار شوقى قصيدة فى الخديوى منها ·

نفدى المسافر والسفر والأقربين من النفر
وركابهم لما مشى وقطارهم لما صفر
ومسيرهم بين السلا مة والكرامة والظفر
وقدومهم اسكندري ة والاياب المنتظر
وطلوعهم والصبح في ها بالحجول وبالغرر
قل للعباد هو الهلا ل وللبلاد هو المطر
فى ذمة الآيات رحـ لته وفى حفظ السور
ملك أبوه محمد لا غرو أن يقفو الأثر
من فى السراة سواك تجـ لوه المنازل كالقمر
وتحله فى ثغرها يوماً . ويوماً فى البصر
ولقد أقول اذا بلغـ ت بلثم راحتك الوطر
ياروض هل لك فى الشذى يابحر هل لك فى الدرر

ومن قصائده فيه :

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا وقلنا فباتت مصر فى مجدها مصرا

ومنها :

سندعو بنى الدنيا الى النيل دعوة تلوّن منها الجاه والنائل الغمرا
وملكاً كما تهوى الأحاديث عالياً كأن الخديوى فيه قيصر أو كسرى
فتمرح فى أيامه النفس حرة تناولها قشباً وتلبسها خضرا

استطراد ورأى فى المديح

ولقائل أن يقول : ما هذه إلا أمداح فارغة ، ومنازع قديمة أشبه بمنازع الشعراء الذين كانوا ينتجعون الملوك طمعـا فى الجائزة . وقد كان الأليق أن يضع براعته حيث يضع الناس عقيدتهم لا حيث يرجو هو منزلة سامية ونعمة هامية فان هذه محاولات شخصية لاتفيد وطنا ولا تؤيد قوماً الى غير ذلك مما طالما أخذوه على شوقى وعلى غيره من شعراء الملوك ، ولقد قدمنا فى هذا الباب مافيه مقنع وهو أن شعراءنا لم يفارقوا الطريقة القديمة التى معناها أن الشاعر يجود على الملك بنفائس أدبه ليجود عليه الملك بنفائس نشبه أو ليحله محـل القرب والتقديم ويبلغ به آمالا ويرفه حالا . وسواء كانت هذه الطريقة قديمة أو حديثة فالشاعر فى هـذا الوطن لا يفترق عن غيره من البشر الذين كل منهم يرتاد لمعيشته وينتجع لسد مفاقره وما زالت أعمال الناس أجمع شباكا تلقى فى بحر الوجود ليصطاد بهـا الانسان ما يقسم له حظه وان القول هـو من جملة الشباك التى تنال بهـا الحظوظ. وقد قال أبو بكر الخوارزمى : لاصيد أعظم من انسان ولا شبكة أصيـد من لسان وشتان بين من اقتنص وحشيا بحبـالته وبين من اقتنص إنسياً بمقالته

ولعمرى لا غضاضة على من حاول مثل هـذا الاقتناص اذا لم يشب ذلك بالسعادة والوشاية والاضرار بالناس وجعل الباطل حقاً والحق باطلا فما نهى الله الانسان عن الكدح لأجل معيشته ولـكنه نهى عن إتيانه هذا الباب عن طريق الباطل وبالوسائل غير المشروعة

وأيضا فان الشاعر لايزال يلتمس موضعا يشحذ فيـه غرار قريحته ومجالا يركض فيـه جواد ملـكته فلا يجد لذلك خـيرا من خطاب المـلوك الذين ان لم يستحق الواحد منهم كل هذه المدائح بمحاسن خلاله وجلائل أعماله فقد استحقها بالمقام الذى يشغله على رأس الأمة ، فتعظيم الملك هو تعظيم الأمة التى هو ملك عليها وتعزيز المقام انما يكون بتعزيز المقيم .

ولقد ذكرنا فيما تقـدم أن استيلاء الأجانب على اكثر بلاد الاسلام واستئثارهم

بالامر والنهى والقطع والوصل وتركهم ملوك المسلمين عبارة عن أشباح مائلة حمل كثيراً من مفكرى الاسلام شفاقا على ملكهم وضنا بدولهم أن يتقربوا من ملوكهم وأمرائهم الذين يرون فيهم رمز السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق وأن يشيدوا بذكرهم ويهتفوا بمبايعتهم فى وجه الأجانب وانهم لما فاتهم الفعل فزعوا الى القول يذكرون به أقوامهم وكأنهم يقولون لهم ان هذا هو سلطانكم الشرعى الذى يجب أن تجتمعوا حوله وتستردوا به الحقوق المغصوبة وأن الحق حق لا يذهب باعتداء الأجانب ولا بما يطرأ من الغير فهم يحاولون إحياء فكرة الاستقلال فى صدور الامة وتلقينها أن ما هى عليه من الخنوع للاجنبى إنما هى حالة موقتة وأن الأمر لا بد أن يعود الى نصابه . وبالجملة فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد .

من معارضات شوقى

ولشوقى قصيدة فى الخديوى يعارض فيها قصيدة البحترى الرائية فى المتوكل على الله العباسى . قال شوقى :

أشكو هواك لمن يلوم فيعذر ... وأجادل العذال فيك وأكثر
وأبيت أجتنب الرقيب وأتقى ... وأخاف ألسنة الوشاة وأحذر
وأصون ذكر هواك عن هذا الورى ... وأجل سرك أن يذاع وأكبر
وأردد الزفرات فيك وأشتكى ... وأعلل القلب الشقى وأصبر
الله فى صب قضى إنسانه ... سهرا عليك ومن يحبك يسهر
وجوانح بليت وما بلى الأسى ... وحشى تموج به الضلوع وتظهر

فشوقى عندما كان يقول هذه القصيدة الرائية كان كأنه ينظر الى قول أبى عبادة :

اخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر ... وألام فى كمد عليك وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن ... عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
وطلبت منك مودة لم أعطها ... ان المعنّى طالب لا يظفر
هل دين علوة يستطاع فيقتضى ... أو ظلم علوة يستفيق فيقصر

ثم تخلص شوقى من النسيب الى المديح اقتضاباً على طريقة البحترى فانه بينما كان ينسب ويقول : وحشى تموج به الضلوع ويظهر . اذا به خاطب الممدوح فقال :

هجر الكرام اليك يا ابن محمد ورحابك الدنيا التى لاتهجر
تهتز من كرم وترتجل الندى وتنيل من فوق الظنون وتغمر
وتعيد عهد الجود بالنعم التى يحيا الزمان ببعضها والأعصر

ثم يقول :

وكذا الأصيل إذا سما لخليقة شرعت مناسبه وسن العنصر
لولا دماء فى العروق كريمة ماعف كسرى أو تواضع قيصر

ثم يقول :

وأعدت للنيل العلوم وعهدها والعلم تاج للبلاد ومظهر
ماجل عيب أو تناهت سوأة الا وعيب أخى الجهالة اكبر
واذا الفتى لم يحله عرفانه فالحسن أول شائن والمنظر
أيدت أعلام الامارة بعد ما طوت الخطوب وأقسمت لاتنشر

وكذلك البحترى بينما يقول :

إنى وان جانفت بعض بطانتى وتوهم الواشون انى مقصر
ليشوقنى سحر العيون المجتلى ويروقنى ورد الخدود الاحمر

إذا به انتقل الى المديح اقتضابا فقال :

الله مكن للخليفة جعفر ملكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها والله يرزق من يشاء ويقدر
فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى فيها المقل على الغنى والمكثر

وكان شوقى يهنئ الخديوى بعيد مولده فقال :

شرفا جمادى نلت بالعباس ما لا ترتجيه من البدور الأشهر
أو كلما جددت للدنيا سنا ذكرت ولاد السعد فيما تذكر

في المهد يرعاه الرجاء ويرتجى · وتعد آمال البلاد وتذخر
وتطول أعناق السراة بربها · طوراً ويدركها الخشوع فتقصر
يوم هو الأعياد إلا أنه · حسب الزمان به يتيه ويفخر

والبحترى كان يهنئ المتوكل بعيد الفطر فهو يقول:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم · وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا إنه · يوم أغر من الزمان مشهر

ووصف البحترى موكب الخليفة وكان هذا من الاوصاف التى لاتزال تعد من غرر الشعر وتحصى فى منتخبات الشعراء قال :

أظهرت عز الملك فيه بجحفل · لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت · عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل والفوارس تدعى · والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها · والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة توقد بالضحى · طوراً ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت · تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتنّ فيك الناظرون فاصبع · يومى اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها · من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبىّ فهللوا · لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً · نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع · لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقا تكلف غير ما · فى وسعه لسعى اليك المنبر
أبدت من فصل الخطاب بحكمة · تنبى عن الحق المبين وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا · بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى · يعتادها وشفاؤها متعذر
صلوا وراء الآخذين بعصمة · من ربهم وبذمة لا تخفر

فاسلم بمغفرة الاله فلم يزل   يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر

فعارض شوقي أبا عبادة البحتري فى وصف الموكب فقال :

باكرت دار الملك فيه بموكب   قام السراة به وحف العسكر

راعت روائعه النهار جلالة   فالشمس تجفل والضحى تستأخر

كُسِيَ الخميس به جمالك رونقا   وأعير غرتك اللواء الأحمر

فالأرض مائجة المذاهب بالقنا   والافق حالٍ بالسيوف مجوهر

والخيل تعجب بالكماة وتنثنى   وتشير تيهاً بالوجوه وتخطر

ومن السلامة فى ركابك هاتف   ومن الدعاء مهلل ومكبر

من قرأ القصيدتين البحترية والشوقية لم يتردد فى أن يقول ان القديم طبع والجديد تطبع وان الاول توليد وان الآخر تقليد . ولكن لو تأمل المتأمل وكان بصيراً بشعر الجاهلية والمخضرمين والمولدين لعلم ان البحتري والمتنبي وأبا تمام واولئك الفحول لم ينطبعوا إلا على غرار من تقدمهم فان القراءة تستقر فى الذهن وان القوالب ترسخ فى الطبع فتهتف بمثالها سليقة الشاعر وقد يكون لا يتذكرها ولا يتعمد محاكاتها ولا يحسب انها من محفوظه فيظن من لا بصيرة له أن هذا الشاعر قد سرق من ذلك الشاعر الذى تقدمه . وهو فى هذا الحكم ظالم متعسف أو جاهل لا يعرف لأنه ليس كل من جاء فى كلامه شيء متوارد مع كلام آخر يجب أن نعده سارقا . وقد كنت أروى مرة قصيدة محمود سامي التى سبق ايرادنا منها وهى التى يعارض فيها رائية أبى نواس فى الخصيب ، وذلك أمام رجل من الادباء رواة الشعر الجيد ، فلما وصلت الى قول محمود سامى :

ولى شيمة تأبى الدنايا وعزمة   تفل شباة الخطب وهو عسير

معودة أن لا تكف عنانها   عن الجد إلا أن تتم أمور

قال لى ذلك الأديب : ان هذا لمن قوله :

معودة أن لا تسل نصالها   فتغمد حتى يستباح قتيل

فقلت له : اذا كنت تلتزم هذا المذهب فلا يبقى شاعر إلا وهو سارق ولا يلبث

فوق الغربال لا متنبي ولا بحتري ولا غيرهما فان هذه المشابهات قد وجدناها بين كلامهم وكلام الجاهليين والمتقدمين فى مواضع كثيرة. وماذا تقول فى قول امرىء القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم   يقولون لاتهلك أسى وتجمل

ثم قول طرفة بن العبد :

وقوفا بها صحبي علىَّ مطيهم   يقولون لا تهلك أسى وتجلد

فالبيتان بيت واحد لا يختلفان الا فى لفظتى (تجمل) و (تجلد) وكلتاهما بمعنى واحد والحال ان الشاعرين كل منهما فحل لا يحتاج أن يستعير من الآخر وكلاهما بحر لا تنزحه الدلاء .

ولشوقى من جيد الغزل أبيات تخلص منها الى مديح الخديوى وهى هذه :

دع عنك ماصاغ الوشاة وزخرفوا   واسمع لحسنك انه بى أعرف
أيكون عندك فى يديك وجوده   ويكون للعذال فيه تصرف
ماذا أقول وكيف وصفى مهجة   فعلت بها عيناك مالا يوصف
يا من حوى روحى وضن بنظرة   لا أنت ذو بخل ولا أنا مسرف
مابت فيك معاديا طيب الكرى   إلا وأنت على عدوى أعطف
رفعت لناظرك المحاسن دولة   القول فيها ما يقول المرهف
وحبتك من بين الملاح بوجنة   كالنار لا تلوى على ما تتلف
أما عذولى فى هواك فطاعنى   لم يلق ما القى فكيف يعنف
أنا لا أميل الى الملامة فهى من   بدع الهوى ولكل شرع زخرف
حاشا المروءة منذ سن خلالها   عباس حلمى فى الكرام ليقتفوا

ومن الغزل الذي تخلص به الى المديح قوله .

حلو الوعود متى وفاك   أتراك منجزها تراك
من كل لفظ لو قبلت   لأجله قبلت فاك
يروى الحلاوة عن ثنايا   ك العذاب وعن لماك
رخصت به الدنيا فكيف   إذا أنالته يداك

ظلماً أقول جنى الهوى لم يجن إلا مقلتاك
غدتا منيـة من رأيـ ـت ورحت منية من رآك
والنفس تهلك مـرة والنفس يشفيهـا الهلاك
من عـلم الاجفان فى أهدابهـا مـد الشبـاك
وتصيـد الآسـاد بالـ آجام تسلبهـا الحـراك
يا قاسى القلب اتئـد وأقل صدك فى جفـاك
مـاذا انتفـاعى فيك بالـ حماء من باك وشاك
نفس قضت فى الحب من أولى برحمتهـا سـواك
عباس عش للآل عش للملك عش لبـنى ولاك
قابلت بالتـاج الهـلا ل وجزت بالعرش السماك
ونهضت تبعث من ثنـا ئك للنجوم ومن سناك

ومن القصائد المرقصة ما قاله فى المرحوم الخديوى مهنئاً له بعيد الأضحى :

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها ولك البلاد عريضها وطويلهـا

ومنها :

يسمو بك الآباء أو تسمو بهم فى دولة عليـا ء أنت سليلهـا
فمحمد فى الترك كان عليّها يمتز معشرها به وقبيلهـا
ولئن غدا للعرب بيتك كعبة يسعى لها فأبوك اسماعيلهـا
واذا تسابقت الفوارس تصطلى نار الوغى فأبو أبيك خليلهـا
مولاى مصرك لاتزال عزيزة بين الممالك زاهرا بك جيلها
ألقت مفاتحها اليك فأصبحت يزن الزمان كنوزها ويكيلها
دانت لأمرك فى الامور عظائم مازال مأمونا عليك سبيلهـا
وتهيأت لملاك مملكة سما نحو السهى بك وازدهى اكليلها
واخضرّ من غرس المحامد ريقها وابيض من صفو الموارد نيلهـا

فالأرض مشرقة بنور عزيزها   يتلو ضحاها فى الشروق أصيلها
والنيل منفجر العيون خلالها   تحليه من نعمى يديك سيولها
سمت الوفود الى رحابك سعيها   للبيت شوقا والرجاء دليلها
وكأنما علمت بمقصدك القرى   فغدا يصفق زرعها ونخيلها
حسدت أهاليها عليك فلو مشت   لسعت اليك حزونها وسهولها
حتى اذا بلغت حماك أظلها   لك من ظلال المكرمات ظليلها
فرأيتها مثلا ببابك عالياً   تكبيرها متواصلا تهليلها
وتجلت الذات الموفقة التى   ملك القلوب جمالها وجميلها
يا مكرم الشعراء كم من آية   لى فيك ليس لشاعر تبديلها
ألبستنى حلل القلوب فنلت شأ   واً فى القوافى لم ينله فحولها
وإليكها عذراء لا يرجى لها   وصل ولا باعُ الشيوخ يطولها
تهتز أعطاف الملوك لمثلها   لو كان يوجد فى القريض مثيلها
أما وقد رفعت اليك فانها   جرّت على هام السماك ذيولها

من تأمل فى شعر شوقى فى اقتباله لا يجده نازلا عن شعره بعد اكتهاله بل تجد الشاعرية فيه أقوى وأظهر فى مبدأ أمره وريعان شبابه وتأمل فى هذه القصيدة فهى من المرقص المطرب المؤنق المعجب، وما أنس لا أنس انى عندما قرأتها ترنح لها عطفى طربا وقلت : قد نال شوقى شأو القوافى وبذّ الفحول . وقد مضى على هذه القصيدة أربع وأربعون سنة وما برحت أتذكر وقعها فى نفسى كأن ذلك من حوادث أمس . ولا جرم أن الذكرى التى تمضى عليها هذه المدة الطويلة ولا تزال غضة طريئة لا تكون إلا على أثر وقع عظيم فى النفس

وله مهنئاً الخديوى بالوسام العثمانى المرصع :

لمن الباب عاليا ومؤمل   يمثل الدهر فى ثراه المقبل

ومنها :

ولمن راية هنالك وافى   ظلها النصر ثم لم يتحول

يمنع الدين أن يميل وتحمى   ركنه الشامخ الذرى أن يزلزل

ومنها :

يامليكى عباس صدرك صدر   فى المعالى وذا المرصع أول
هو مثل السماء صفوا ورحبا   وهى ذى أنجم العلى تتنزل
عرف المالكون قدرك لكن   ما رآه فيك الخليفة أفضل
فتهنأ علياء وافتك منه   يذكر النجم من حباها فيخجل
ووساما مرصعا ما رأينا   قبله جوهرا الى البحر يحمل

وبمناسبة قوله «جوهرا الى البحر يحمل» تذكرت بيتاً انتقدته على الشاعر الاديب الشيخ خليل اليازجى ، فقد كان نظم رواية اسمها «المروءة والوفاء» وجعلها تقدمة لأخيه الأستاذ الكبير اللغوى الشهير الشيخ ابراهيم اليازجى ولكنه استهل التقدمة بهذا البيت :

لما رأيتك مثل بحر زاخر   ألقيت بين يديك بعض جواهرى

وكنت أنا لذلك العهد فى المدرسة لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر ولكنى كنت بدأت بالنظم وكانت جرائد بيروت تنشر من شعرى وهذا مصدق وهذا مكذب ومن الناس من يقول : لايمكن ان ناشئاً فى هذه السن الحديثة يفرى هذا الفرى ومازالت الشبهة تعترض حتى كثر النظم وتواترت الادلة فزالت الريبة وانقلعت الشبهة ولم يمض مدة ثلاث سنوات حتى كان لى ديوان اسمه «الباكورة» جعلته تقدمة للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وكان إذ ذاك فى بيروت وجعلت قصيدة التقدمة من ذلك البحر وتلك القافية

وهذا نصها وكانت بعنوان :

اهداء الباكورة

لحضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل واسطة عقد الحكماء ودرة تاج البلغاء
الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى

لو هاج مثل الفضل خاطر شاعر ألقيت بين يدى سواك بواكرى
أو لو وجدت بمثل فضلك عادلا كان الكمال اذا سلوتك عاذرى
لكن سطوت على القريض باسره وغدوت أعذب منهل للخاطر
فزهوت بين مدارك ومشاهد وسموت بين بصائر وبواصر
أو كيف لا تسمو ومثلك من حوى بأعز نفس كل خلق باهر
علم على عمل على قلم غدا فى الخطب يهزأ بالحسام الباتر
وفضائل تستنطق الأفواه من كل البرية بالثناء العاطر
علامة العلماء والبحر الذى لا ينتهى مثل البحار لآخر
يا أيها العلم الذى أوصافه أضحت رياض قرائح وضمائر
شهد الزمان لنا بانك فرده من كل باد فى الأنام وحاضر
يا أوحد العصر الذى عقدت على تقديمه فى الفضل خير خناصر
لا غرو أن أهدى اليك رقائقى وانا رقيق فضائل ومآثر
ليس القريض سوى تأثر خاطر مما به للمرء قرة ناظر
تمسي المحاسن وهى فيه بواعث للشعر بين مسبب ومباشر
غرر على الايام لولاها لما لاحت وجوه الدهر غير بواسر
لم تبرح الشعراء صرعى نشوة برحيقها من سالف ومعاصر
فاذا انجلت فى مثل ذاتك مرة كنت الأحقّ بكل مقول شاعر
يا من غدا بعوارف ومعارف يزرى على لجج العباب الزاخر
اهديك بعضاً من عقيق قريحتى يا بحر لكن لا أقول جواهرى

أبيات احسان وليس جميعها … من كل بيت بالمحاسن عامر
قـدجادها صوب الصبا وبنشرها … نمّ الصبا عن كل عرف ذافـر
درجت معى اطوار عمر واصل … ما جاش من يوم بليل ساهر
قد باكرتنى قبل صادق فجره … مذ كنت من أعوامه فى العاشر
أوحت الى قلبى الهوى فشعرت اذ … غصن الصبابة لا يميل لهاصر
فمضيت بين كمائل ومفـاخر … ومشيت بين خمائل وأزاهر
ما قلت ذا فخراً ولا عجباً وما … من معجب فى نظمها أو فاخر
لكن لترفق غير مأمور بها … فلكم خطت طوراً لنيل الحاضر
ان تأتنى عفواً فكم هذبتها … من سخف لفظ أو روى نائر
مكنتها بعد النزاع وكم حكت … قلق القداح بدت بكفى ياسر
حتى أتت من بعد تربيتى لها … حسبى وان لم تغد ملء محاجرى
عوضت ما خسرته من حسن بما … رفعت اليك فلم اكن بالخاسر
فكن الوصىّ على يتامى ناظم … وبنات فكر فى ثناك قواصر
أهديتها لا كى تليق وطالما … قبل الكبير هدية من صاغر
هى دون ما يهدى اليك وانما … مثلى على ما فاق ليس بقادر

عود الى شوقى

وقد كنت يوم نظمت هذه القصيدة فى السادسة عشرة من العمر

ونعود الى شوقى فنرى فى هذه القصيدة اللامية ما يدل على انه لم يمدح الخديو مجاناً وانه ما أصاب تلك النعماء الوارفـة الا بمآسير من المدائح فى الجناب الخديوى وانه حام فـورد وغنى فأطرب ورقح معيشته بفيض قريحته . وكان اذا أغضى الخديو على خلته (بفتـح الخاء) ولم يجدها قذى عينيه لم يهمل أن استرعاه النظر اليها على طريقة المتنبى فى هذه القصيدة يقول شوقى :

يا عزيز الزمان سمعاً لنـاء   قد دعاكم على النوى وتوكل

أتجدّ الأيام فى هدم بيـتى   ونداكم بكل بيت موكل

أى عذر للدهر عندى وركنى   أنت مهما تكلف الدهر يفعل

نظـرة نظرة وعذرا لعبـد   عهده فيك منعماً ليس يسأل

ومن قصائد شوقى الخديوية قصيدة يقول فيها :

أيها المنـكر الغرام علينـا   حسبك الله قد جحدت الجمالا

آية الحسن للقـلوب تجلت   كيف لا تعشق العيون امتثالا

لك نصحى وما عليك جدالى   آفـة النـصح أن يكون جدالا

هب من العقل اننى أنا أسلو   ما من العقـل أن تروم محالا

ان تجد من مثال لقمان جيشاً   ما غلبت الأهواء والأميـالا

سيعيب علماء اللغة قـوله « الأميال » فالأميال هى جمع ميل بكسر الميم لا جمع ميل بفتحها وذلك لأن المصادر على فعل بالفتح لا تجمع على أفعال ولذلك تجد الكتاب عدلوا الى لفظة « ميـول » تخلصاً من هذا المحظور . وما وجدت فى الـكلام العربى القديم لفظة « ميول » ولكن القياس يوجبها

ومن هذه القصيدة قوله :

ليت شعرى هل يبتلى مصر بالأجـ   يال أم يبتـلى بهـا الأجيالا

هيكل تعقـل الممالك فيـه   وتضحى معالما ورجالا

قوضت كل بنية وهو باق   تبصر الدهر دونه أطلالا

يا ابن توفيق أى أصليك نسلو   جدك الجود أم أباك النوالا

أم عليـّا ومصر لولا علىّ   لم تذق نعمةً ولا استقلالا

ويظهر انه لما نظم هذه القصيدة كان الممدوح فى المقيم المقعد مع بعض الأحزاب فى مصر فانه يقول :

انت روح ومصر جسم وهل تر   جو لجسم من غير روح مآلا

والذى بالـبلاد غيرك داء   صيرته بنـو البلاد عضالا

واذا عاكس الزمان بلادا   جعل الأهل حربها والنكالا
نام قومى عن المعالى وراموها   فكان النصيب منها خيالا
حسبوا العيش غيبة واضطغانا   وسكونا الى المنى واحتمالا
واذا كانت النفوس صغارا   علقت بالصغائر الآمالا

وله فى الخديوى قصيدة ميمية من بحر السريع أراه يعارض بها محمود سامى فى قصيدة من البحر والقافية ومطلع قصيدة شوقى:

هل تيم البان فؤاد الحمام   فناح فاستبكى جفون الغمام

ومنها :

ياخير من سن خلال الوفا   وخير من زكى وصلى وصام
يهزك الاسلام مهما دعا   مؤيداً منك بعضب حسام
أنت لهذا الدين ما يشتهى   ظل له ضاف وركن جسام
مولاى ذا شهر الصيام انقضى   أحياكم الله الى كل عام

فأما قصيدة محمود سامى فليست فى ديوانه المطبوع لأن الجزء الثانى انتهى بحرف اللام ولم أعلم أنهم طبعوا جزءا ثالثاً . وانما يجد الانسان هذه القصيدة فى « الوسيلة الأدبية » للمرصفى ، وهى ليست تحت يدى فى هذه الساعة ، ولا أزال أتذكر من قصيدة البارودى هذه بيتين فى منتهى البداعة

ياليتنى فى السلك حرف سرى   أو ريشة بين خوافى الحمام
حتى أوافى مصر فى ليلة   أقضى بها فى الله حق الذمام

ولشوقى فى الجناب الخديوى :

أمغتنم الفرصات بشراك بالغنم   فما دانت الاوطان إلا لذى هم
وقل لدخيل فى المعالى يريدها   بلا بدل أملت صيداً ولم ترم

ومنها ما رمى به شوقى أبعد شأو المرتمى فى الفخر والبأو وقد جاز هنا الحد الذى اقتنع به فى قصيدته الدالية التى سبق الاستشهاد ببعض أبياتها

فلا حكمتى دعوى ولا منطقى هوى   ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد

فانه فى هذه القصيدة الميمية يقول :

اذا أنا لم تكفل لى الخلد حكمتى ولم ألتمسه فى بيانى وفى علمى
فلا استرجعت بى الضاد بنيان مجدها ولا لقيت بى العصر فى البذخ الجم

(البذخ محركة هو المجد) ثم يقول :

ولا جاز شعرى النيرات ولا اعتلى لسدة عباس الفتى العلم النجم

جعل شعره فوق النيرات ومع هذا فهى من دون سدة الممدوح ثم يقول :

ومهلا رويدا فى الكمالات والحجى فما أعطى الناس النبوة بالحلم
وخف لعباد الله أن يتوهموا فرب يقين للعقول من الوهم
تحاول من دنياك ما أنت عارف وتصحب أحوال الزمان على علم
وتظهر فى عز من الصدق باهر اذا التمست أعداؤك العز فى الاثم
يدارى أناس بالجراءة طيشهم ويتعب قراء العواقب بالحزم

ثم يقول :

وعرشيكما ما خنتما الحق مرة ولا حدتما عن حكمة الله فى الحكم
ولكن تهيج الحاسدين علاكما وهيهات يبقى الفرقدان بلا خصم

ولا شك أنه يشير الى ما كان يقع بين الممدوح وبين الأحزاب فى مصر من التضاد والتشاد وأى بلاد لا تصاب بمثل هذه الفتن؟ وشوقى على كل حال شاعر الأمير لا يفتأ ينضح عنه بشعره وربما كان لسانه أرد عن ممدوحه من جيش وأمضى من سيف فان يكن الخديو قد أغرق شوقى بالانعام والاحسان فقد أثنى شوقى عليه ثناء حسان على غسان ففاز كل منهما بطلبته . فلم يكن شوقى اذن على مذهب محمود سامى الذى يقول :

الشعر زين المرء مالم يكن وسيلة للمدح والذام
قد طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله إما شئت فى حكمة أو عظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب الى الرامى

نعم لم يكن محمود سامى لينظم الا فى الغزل والنسيب والفخر والحماسة ووصف الوقائع والحكم والمواعظ والرثاء والاخوانيات والزهديات والطرديات وغير ذلك من مقامات الشعر المختلفة حاشا المديح فقد كان يتجنبه ما أمكن واذا مدح فانما يمتدح من كان من أقرانه أو اخوانه . ولم أجد له مديحا لكبير الا الخديو اسماعيل يوم جلس على أريكة مصر وكان ذلك سنة ١٢٧٩ أى أيام كان محمود سامى فى ريعان شبابه ورأيت له فى ديوانه أبياتا امتدح بها الخديو السابق بعد رجوعه من سرنديب . وكذلك قصيدة فى تهنئة الخديو توفيق بالجلوس على الاريكة الخديوية سنة ١٢٩٧ فشعر البارودى فى المديح لا يكاد يذكر وهو فى جانب ديوانه ثمد فى جانب بحر . وقد وصف البارودى الشعر فى احدى قصائده فقال:—

للشعر فى الدهر حكم لا يغيره ... ما بالحوادث من نقص وتغيير
يسمو بقوم ويهوى آخرون به ... كالدهر يجرى بميسور ومعسور
له أوابد لاتنفك سائرة ... فى الارض مابين ادلاج وتهجير
من كل عائرة تستن فى طلق ... يغتال بالبهر أنفاس المحاضير
تجرى مع الشمس فى تيار كهربة ... على إطار من الاضواء مسعور
تطارد البرق ان مرت وتتركه ... فى جوشن من حبيك المزن مزرور
صحائف لم تزل تتلى بألسنة ... للدهر فى كل ناد منه معمور
يزهى بها كل سام فى أرومته ... ويتقى اليأس منها كل مغمور
فكم بها رسخت أركان مملكة ... وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ... ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً وكم اودى بمنقبة ... رفعاً وخفضاً بمرجو ومحذور
أبقى زهير به ما شاده هرم ... من الفخار حديثاً جد مأثور
وفل جرول غرب الزبرقان به ... فبآء منه بصدع غير مجبور
أخزى جرير به حىّ النمير فما ... عادوا بغير حديث منه مشهور
لولا أبو الطيب المأثور منطقه ... ماسار فى الدهر يوما ذكر كافور

فأنت ترى أن البارودى وان لم يكن مداحاً بنفسه ولم يقع منه مديح إلا فى الندرة وغير متكسب مالا ولا جاها كان فى غنى عنهما فانه يعترف بكون الشعر يرفع ويضع ويسم ويصم ويخلد المآثر ويقيد المآثم ويقول كم وطد الشعر أركان ملك وذلل أعراف مجد ، ولين أعطاف سعد ، وقرب غايات جد ، وأخرت كلمة منه قوماً وهزت عرشاً وحسبك أنه وقع زلزال عظيم بمصر فى أيام كافور الاخشيدى فدخل أحد الشعراء على كافور والناس تفر من كل حدب الى الصحراء فأنشده قصيدة قال له فيها :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها   لكنها رقصت من عدله طربا

فكان لذلك من حسن حظ الوقع على كافور ما أجازه لأجله بصلة ولا كالصلات وقيل ان المتنبى لم ينتجع كافوراً إلا بعد سماعه بهذا الخبر . فالبارودى وان لم يذهب هو هـذا المذهب ولا كان له فيـه مأرب لم يقدر أن ينكر مكان الشعر من الاجتماع ولا تأثيره فى الاتضاع والارتفاع ولا تخليده للذكر ولا تسجيله للفتكة البكر .

ونعود الى شوقى فنقول: من جملة قصائده فى الخديو قصيدة يقول فى مطلعها :

صريع جفنيك ينفى عنهما التهما   فما رميت ولكن القضاء رمى

الله فى روح صب يغشيان بها   موارد الحتف لم ينقل لها قدما

ومنها خطابا للممدوح :

وابغ الاحاديث واستعصم برايتها   سيان قدت خميسا أم ملكت فما

ان الزمان لعال فى مقالتـه   فلن يعظم حيا أو يرى عظما

أعطيت مصر أمن العرفان حصتها   ومن كمصر مكاناً لامرىء علما

شاد الزمان وأبناء الزمان لها   فلم يزيدوا الى أهرامها هرما

يخلد العلم للبلدان منزلة   فى العالمين ويحيي الحكمةُ الأمما

ان من وجوه الشبه بين شوقى والمتنبي انك لاتكاد تقرأ قصيدة لكل منهما مهما ضربت فى واد من أودية قولها إلا وجدت بها حكما جارية مجرى الامثال ومن انطوى على شيء فاض على لسانه فى كل موقف

ولشوقى فى الخديوى تهنئة شهر الصيام وإهداء السلطان عبد الحميد له قصر بيك فى الاستانة وهى قصيدة استهلها بقوله :

الله فى الخلق من صب ومن عان　　تفنى القلوب ويبقى قلبك الجانى

صونى جمالك عنا اننا بشر　　من التراب وهذا الحسن روحانى

ومنها :

أمن هجرت الى الاوطان رؤيتها　　فرحت أشوق مشتاق لأوطان

تعهدين حنينى فى الزمان لها　　وسكبى الدمع من تذكارها قانى

وغبطى الطير آتيه أصيح به　　ليت الكريم الذى أعطاك أعطانى

مُرِي عصى الكرى يغشى مجاملة　　وسامحى فى عناق الطيف أجفانى

لئن ضننت فمالى ما أضن به　　على الفناء سوى آثار وجدانى

ومنطق يرث التاريخ جوهره　　عن الزمان وعن عباسه الثانى

ومنها :

وان حلمى لتستكفى البلاد به　　كالمين تمت معانيها بانسان

لما بدا الشهر واستقبلت غرته　　لاح الهلال ولاح البدر فى آن

وقمت تسطع بالأنوار من أفق　　بالمسلمين وبالاسلام مزدان

كأنك البدر فى غايات رفعته　　لو كان للبدر كرسى وتاجان

فاهنأ مكانك واهنأ مايلوح به　　لرب يلدز من آثار احسان

أهدى الخليفة ما أهدى يبشرنا　　ان الوداد بآساس وأركان

قصرا على اللج لولا أن مهديه　　عبد الحميد لقانا القصر نعمانى

يشير الى الخورنق والسدير من قصور النعمان بن المنذر ثم يقول :

يبيت من عزة البوسفور صاحبه　　على مكان من الدنيا وإمكان

اذا الا كارم سنوا للندى سبلا　　سننت أجملها يا فرع عثمان

يظل يسجع فى الاسلام شاعركم　　كأن أيامه أيام حسان

ويشتهى الدولة العليا معززة　　من الوئام بأنصار وأعوان

لا يجهل شوقى مكان شـعره من الخليفة والخديو واحتياج العروش الى الشعراء يحمون حوزة الملك بأقلامهم احتياجهم الى القواد يحمونها بسيوفهم أفلا تراه يقول فى أبيات سبقت :

وابغ الاحاديث واستعصم برايتها سيان قدت خميسا أم ملـكت فما

كأنه يقول للخديو : انك وقدملـكت فمى فقد قدت جحفلا جرارا، ثم يقول انه قائم فى جانب الخلافة مقام حسان بن ثابت فى جانب الرسالة . فشـوقى يشعر بغناء الشعر فى جانب الملك وكأنه يخشى أن يغفل ممدوحه عن هذه الحقيقة فهو يذكره بها وله من قصيدة فى الخديوى تتضمن أبياتاً رشيقة فى وصـف استقباله وقد عاد من الاسكندرية الى مصر :

حتى نرى الدر وقد زينت وزين الميـدان والسلمان
وازدحم الباب وساحاته وسدة الركن وماج المـكان
وقامت الراية خفاقـة للمجتلى من بعد طول اكتنان
حمراء فوق الحصن ممدودة تومى الى القصر بشبه البنان
قد بشر الناقوس بالمسلم الـ عادل من قبل أن يشير الأذان

شعر شوقى فى الرثاء

ولنختم بهذا الذى أوردناه باب المديح من الشوقيات ولنأت ببعض الأمثلة من المراثى وأولها مرثية شوقى للمرحوم الخديو توفيق التى تتضمن أيضاً تهنئة الخديو السابق على توليه منصب أبيه قال :

بين ماضى الاسى وآتى الهناء قام عذر النعاة والبشراء
نبأ معذر نفى بعضه بعـ ضاً فـكان السفيه فى الأنباء
سر من حيث ساء كل مصاف ساء من حيث سر كل مرائى
ما نظرنا محمداً فى فتاه أن غفرنا الضراء للسراء
ها بنا الدهر فيه حياً وميتاً فأتانا من دائنا بالدواء

وعزاء البلاد أن يخلد الملـ ـك ويحيا الآباء فى الأبناء

ومنها خطابا للمرحوم :

يا أميرى أبا أميرى الفـدى من لشعرى بذاك بالاصغاء
اسهرتنى المنون فيك ونامت لاخابَ عينها من الاقذاء
وأطارت عن المضاجع قلبى أسكن الله جنبها كل داء

ومنها :

جاء والعصر فخره ببنيه وفخار المصرى بالقدماء
فبنى فى البلاد للعلم دورا تتباهى بالفتية النجباء
وأبى أن يقال عن مصر والاه رام فيها تضن بالبناء
وأبى الدهر سرعة فيه إلا أن يتم ابنه نظام البناء
يا مليـكى عباس هنئتها علـ ـياء جاءت تمشى على استحياء
هو ذا الدهر عند بابك ألقى عذره فاعف لايعد للرياء
وتجلد لأجل مصر فلولا ك لما هم قلبها بالعزاء
واحمل السيف والبس التاج وارق الـعرش وانهض بالدولة العلياء
وزد الملك من شبابك حسناً وأنر عصره بذاك الذكاء

ثم يقول :

وتعزز برب يلدز حامى حوزة الدين قدوة الخلفاء
ان عبد الحميد سيف نضته آل عثمان هاشمى المضاء
صدق الوعد مصر فيك ومازا ل حفيا بآلك الكرماء

وهنا الدليل من أدلة لاتحصى على استمساك شوقى من الاول الى الآخر بالجامعة الاسلامية تجد هذه الروح فائضة من شعره منبثة فى جميع جوارحه بحيث قد قيل بحق انه شاعر الاسلام والمسلمين وقد مضى الى ربه وهذه الخدمة التى لم يتخلف عنها دقيقة واحدة من عمره نور يسعى بين يديه

ومن مراثى شوقى الشهيرة قصيدته فى اسماعيل باشا الخديو الاسبق وهى التى

يقول فيها :

حلم مده الكرى لك مدا ... وسدى ترتجى لحلمك ردا
وحياة ما غادرت لك فى الاحـ ... ـياء قبلا ولم تذر لك بعدا

ومنها :

ياأجل الكرام جاهاً ووجها ... وأبر الورى حفيداً وجدا
وكبير الحياة فى العصر والما ... لى فيه فما أرى لك ندا
أين كسرى وأين قيصر مما ... نلت بالمجد أو بلغت مجدا

ومنها :

وغزاة فى البيض والسود تبغى ... مصر فيها مجدداً مستردا
وبريد لها تسيل به القضـ ... ـب وثان بالبرق أجرى وأهدى
وخطوط بها التنائى تدان ... وبخار به الأقاليم تندى

ثم يقول :

فتركت السرير مضطرب الأحـ ... ـوال من نأى ربه ليس يهدا
لم تكن من جنى عليه ولكن ... عودته الأيام ان يستبدا
منعت مصر أن تتوج مصر ... وأبى النيل أن يجرر وردا

وفيها يصف وفد الملوك يوم فتح ترعة السويس :

نهضت مصر بالزمان نزيلا ... وبأهليه يوم ذلك وفدا
خطروا بين زاخرين ولاقوا ... ثالثاً من نداك أحلى وأندى
بين فلك يجرى وآخر راسٍ ... ولواء يحدو وآخر يُحدى
وملوك « صيد » يراح بهم فى ... واسع الريف والصعيد ويُغدى
صور لم تكنّ حقاً وحلم ... لجع الصبح فيه لما تبدّى

يظهر أن شوقى هو ممن يجيز استعمال « تبدى » بمعنى بدا أى ظهر إذ لايخفى وقوع الاختلاف فيه ومن الناس من يذهب الى أن تبدى لا تفيد الا معنى الدخول فى البداوة . ثم يقول :

وقناطير يحفل الحصر عنها   كل يوم تمدها مصر عدا
وملكت السودان فى الطول والعر   ض وفى شأنه المعظم عبدا
نلت بالمال والدما منه أرضا   بجبال الياقوت والدر تفدى
ثم نظمته ممالك كانت   نار تنظيمها سلاماً وبردا

ثم يشير الى الواقعة التى وقعت بين مصر والحبشة والى تمحيص الجيش المصرى فيها فيقول :

ليت لم تمش بعده فى حماها   حبش المكر والخديعة أسدا
سلبوا مصر أىّ جيش كريم   كان للمجد والفخار أعدا
أنت أنشأته فلم تر مصر   جحفلا بعده ولم تر جندا
وتوليته بعطفك والـ   ـبر وللمكرمات لم تأل جهدا
فهوى جيشك العظيم ومالت   راية كان حقها أن تسدّا
ونفضت اليدين يأساً على الرغـ   ـم كأن لم تجد من الصبر بدّا
واذا لم يكن من الله عون   فاطراح الآمال بالنفس أبدى
يالمصر رآك فى العز لا ير   سل دمعاً ولا يبلل خدا
أين ود عهدت منه وعطف   وولاء مؤكد كان أبدى
وملوك له أتتك وسادا   ت حداها اليك وفداً فوفدا
أبت الناس فيك للناس الا   أن يجاروا الزمان وصلا وصدا
فرأيت الحميم أول جاف   ووجدت الولى فى البؤس ضدا
ورجالا لولاك لم يعرفوا العيـ   ـش أبوا أن يقدموا لك حمدا

نعم هذا حال الناس مع الزمان يدورون حيث دار ثم يقول :

بان مجد البلاد إذ بنت والصفـ   ـو وكان الرجاء حياً فأودى
فبكى البائسون منك حساما   طالما قد هامة الخطب قدا

ان تأكيد المفعول المطلق يصح فى الحقيقة لا فى المجاز كما هى القاعدة أى يقال

سال السحاب سيلا لأنه حقيق ولا يجوز أن يقال سال كرم حاتم سيلا لأنه مجاز .
غير أنى لا أرى هذه القاعدة مرعية عند الشعراء من القديم

ثم يقول :

عد الى مصرك الوفية وانزل ... فى ثراها واسكن من المهد لحدا
لا تقل أعرضت بلادى وصدت ... مصر خير هوى وأكرم عهدا
وقبيح بالدار أن تعرف البغض ... وبالمهد أن يباشر حقدا
غفرت مصر ما مضى لعلىّ ... وبنيه وللحفيد المفدى

فشوقى كان لا ينسى (الحفيد المفدى) كيفما انقلب اذ هو شاعره والذى يريد شوقى أن يدير الكلام كله عليه وان انحرف عنه يمنة أو يسرة فلكى يرجعه اليه

ومن أحسن ما نظم شوقى فى الرثاء وفى غير الرثاء قوله عند وفاة والده على بك شوقى :

سألونى لِمَ لمْ أرثِ أبى ... ورثاء الأب دينٌ أى دين
أيها اللوام ما أظلمكم ... أين لى العقل الذى يسعد اين
يا أبى ما أنت فى ذا أول ... كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى ... ونعى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وان طال المدى ... آخذ يأخذه بالاصغرين
وطبيب يتولى عاجزاً ... نافضاً من طبه خفى حنين
أنا من مات ومن مات أنا ... لقى الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة فى بدن ... ثم صرنا مهجة فى بدنين
ثم عدنا مهجة فى بدن ... ثم نلقى جثة فى كفنين

وهذا من أعلى الفلسفة . وقد يقال ان هذا معروف ليس فيه معنى مبتكر والجواب على ذلك ان أفصح الكلام هو ما تضمن المعنى المعروف لا المعنى الغامض ولكن العبرة فى القوالب . وأنى نجد هذه الحقائق فى مثل هذه الرقائق . وبعد ان ذكر كيف كان هو وأبوه واحدا ثم صارا اثنين عاد فقال ان هذين الاثنين سيصيران الى واحد هو ابنه على :

ثم نحيا فى علىّ بعدنا   وبه نبعث أولى البعثتين
انظر الكون وقل فى وصفه   كل هذا أصله من أبوين

وهذا أيضاً من أعلى الفلسفة ومما جاء فى كتاب الله قال تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين) وقال تعالى (وأنبتت من كل زوج بهيج) وقال تعالى : (وأنه خلق الزوجين) وقال تعالى (وخلقناكم أزواجاً) وقال تعالى : (والذى خلق الأزواج) وغير ذلك من الآى العظام فى هذا المعنى وقد فسر العلامة الرياضى الفريد الغازى مختار باشا رحمه الله فى كتابه (سرائر القرآن) هذه الآيات وغيرها بقوله : ان جميع الكون مبنى على الزوجية فالعالم الحيوانى كله أزواج كما هو ظاهر والعالم النباتى أيضاً لايختلف عن العالم الحيوانى فى الزوجية . والجمادات فيها القوتان السلبية والايجابيه من الكهربائية أى فيها الزوج كالحيوانات والنباتات فالكون كله أب وأم . ثم قال شوقى :

ما أبى الا أخ فارقته   وده الصدق وود الناس مين
طالما قمنا الى مائدة   كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من اناء واحد   وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدى فى يده   من رآنا قال عنا أخوين
نظر الدهر الينا نظرة   سوّت الشر فكانت نظرتين
يا أبى والموت كأس مرة   لا تذوق النفس منها مرتين
كيف كانت ساعة قضيتها   كل صعب قبلها أو بعد هين
أشربت الموت فيها جرعة   أم شربت الموت فيها جرعتين

كأن شوقى يسأل أباه رحمهما الله كيف تجرع تلك الكأس ؟ هل تجرعها نفساً واحداً أم تجرعها أنفاساً ؟ فقد صار الآن يدرى ما دراه أبوه وكل حى فهو داريها فى يوم من الأيام . ثم قال :

لا تخف بعدك حزناً أو بكا   جمدت منى ومنك اليوم عين

أى جمدت عين أبيه بالموت وجمدت عينه بكونه أصبح لايبكى لمصيبة بعد موت

أبيه اذ المصائب كلها تهون بعد هذا المصاب . وهذا معنى طرقه الشعراء فليس بجديد ولى أنا فى رثاء صديقى محمود سامى باشا :

هانت بمصرعك الأرزاء أجمعها فليس يعظم من رزء ولو عظما

وقد كررته فى قصيدة حديثة هى رثاء لصديقى الحاج عبد السلام بنونة عميدبلاد الريف بالمغرب :

يقل بعدك مدفوناً فجعتُ به أن استطارَ على ضمنى لِحدْثان

ثم يقول شوقى :

ليت شعرى هل لنا أن نلتقى مرة أم ذا افتراق الملوين

واذا متُّ وأودعت الثرى أتلقى حفرة أم حفرتين

لعمرى هذا هو المشكل الذى أعيي على الثقلين عرفانه ولم يضئ من طريق العقل برهانه وانما هو مما أوحى به الدين وحياً لا يخالف العقل بل هو يؤيده وقد قال أحد السادة الصوفية : ما رأته العيون ينسب الى العلم وما رأته القلوب ينسب الى اليقين . وهذا مما تراه القلوب لا العيون

ثم يتساءل شوقى :هل بعد هـذه الدنيا اجتماع حتى يجتمع بأبيـه ؟ وهل هذه هى الحفرة الأخيرة أم يعود فيـلد مرة أخرى ويسـتقبل حفرة ثانية وهلم جراً . وقد ذهب الناس من كبير وصغير ودرج الخلائق من أول وأخير وهم فى حسرة أن يعرفوا من طريق الفكر هذا السر فى هذه الحياة الدنيا قبل أن يموتوا فماتوا والحسرة فى قلوبهم.

ثم رثى جدته :

خلقنا للحيـاة وللممات ومن هـذين كل الحادثات

ومن يولد يعش ويمت كأن لم يمرَّ خيـاله بالكائنات

هى الدنيا قتال نحن فيه مقاصد للحسام وللقنـاة

وكل الناس مدفوع اليه كما دفع الجبان الى الثبات

نروّع ما نروّع ثم نرمى بسهم من يد المقدور آت

ومراد الشاعر هنا ان الانسان يروع طول حياته ويقضيها كلها فى آلام وأهوال

ثم ينتهى منها الى أعظم البلاء الذى هو الموت .

ولى فى هذا المعنى فى رثائى للمرحوم احمد باشا تيمور وهو توارد خواطر :

لعمرك ما بالعيش إرب لعاقل توغل فى علم الحقيقة خاطره
تسلسلُ آلام وتردادُ محنةٍ تراوحه فى كربها وتباكره
وخيبة آمال وفقد أعزة وبعد طوال السجن فالموت آخره

ثم أهنئ الفقيد بأنه جاز هذه الدنيا الى حياة لا يروع فيها دائماً باستقبال الموت فأقول :

ليهنك يا تيمور أنك جزتها الى ملأ لا يعرف الموت زائره
وفارقت داراً لا يزال قطينها يفكر فى الهول الذى هو غامره
فان تك عقبى الدار قسمةَ فاضل فأقصى أمانيك الذى أنت صائره

ثم يقول شوقى لجدته :

تبناك الملوك وكنت منهم بمنزلة البنين أو البنات
يظلون المناقب منك شتى ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك فى سوق ولكن لدى ظل القنا والمرهفات

أى انها لم تكن أمة اشتراها النخاس فى سوق ولكن كانت من جملة السبى فى الحرب ثم يفصل ذلك :

عَنت لهم بمورةَ بنت عشر وسيف الموت فى هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيداً وواسطة لعقد المسلمات
تبعت محمداً من بعد عيسى لخيرك فى سنيك الأوليات

وتحرير الخبر انها كانت من جملة سبى حرب المورة فهى رومية الجنس نشأت فى الاسلام وهى بنت عشر سنوات ولم يشأ شوقى أن يجعل للمتنبى وحده حصة الفخر بجدته ويجعل لجدته حق الفخر به فالمتنبى يقول فى رثاء المرحومة جدته :

ولو لم تكونى بيت اكرم والد لكان أباك الضخم كونك لى أما

أى انها تقدر أن تفتخر بنسب ابنها ولكن لو فرضنا انها لم تكن بنت أب كريم لكان يجزيها فى مقام الفخر كونها جدة أبى الطيب.

وهنا شوقى يقول :

ولو لم تظهرى فى العرب إلا لأحمد كنت خير الوالدات
تجاوزت الولائد فاخرات الى فخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم فى يراع وأبلغ من تبلغ من دواة
وأبرأ من تبرأ من عداء وأنزه من تنزه عن شنات
وأصون صائن لأخيه عرضاً وأحفظ حافظ عهد اللدات
وأقتل قاتل للدهر جرءا وأصبر صابر للغاشيات

والحاصل انه أفضى بجميع ما عنده من حسن الظن بنفسه رحمه الله فلولا قليل لبلغ من الفخر مبلغ ابن سناء الملك ولكن الذى حفزه الى ركوب هذا المركب فى رثاء جدته هو ان والده الروحى أبا الطيب قد ركب هذا المركب من قبل فى مثل هذا المقام ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده .

ولما كنا فى باريس انا وشوقى لأول معارفتنا وكلانا فى الثالثة والعشرين من العمر كان يذكر لى دائماً محبة عبد الرحمن باشا رشدى له ويطلعنى على كتب من هذا الوزير اليه. ولما كنا نمرح ونعبث ويقول كل منا للآخر كل شىء يخطر بباله قال لى مرة : انه يحب عبد الرحمن باشا رشدى مثل والده وانه متى مات سيبادر برثائه فكانت نكتة ضحكنا لها كثيرا وقلت له : ما احسن وفاءك . وقدحصل ذلك فعلا فان عبد الرحمن باشا رشدى بعد هذا الكلام بسنوات قد مضى الى رحمة ربه وقد أنجز شوقى وعده برثائه وقال فيه ما يدل على شدة تعلقه به ، فقال :

يقولون رشدى مات قلت صدقتمو ومات صوابى يوم ذاك وآمالى
وركنى الذى للنائبات أعده وذخرى فى الماضى وعونى على الحال
أرشدى لقد عشت الذى عشت سيداً ولم تك عبد الجاه والأمر والمال
ولم تأل كتب العلم درساً ومطلباً ولم تك عنها فى الثمانين بالسالى

وكنت تحل الفضل اسمى محلة   وتنزل أهل الفضل فى المنزل العالى
ولم تتخير الف خل وصاحب   ولكنَّ من تختاره الواحد الغالى

فشوقى فى رثاء عبد الرحمن باشا رشدى لم ينس أن يمدح نفسه أيضاً ثم يقول :

حببتك والدنيا تحبك كلها   وزدتك حباً عند ما كثر القالى
وقست بك الأعيان حياً وميتاً   فوالله ما جاء القياس بأمثال
ولو أن إنساناً من الموت يفتدى   فديتك بالنفس النفيسة والآل

ورثى فقيدى العلم الوزير على باشا مبارك والطبيب سالم باشا سالم ، فقال :

ما لذا الدهر ماله والدعائم   أعلىٌّ بالأمس واليوم سالم ؟
نقص الله مصر من طرفيها   بالفقيدين من طبيب وعالم
الذى كان مظهر العلم فيها   والذى كان طبها والمراهم
واذا قدَّر الالهٓ شقاء   لبلاد أصاب فيها الأعاظم

وله رثاء فى غاية السلاسة للمرحوم سليمان باشا أباظة قال فيه :

من ظن بعدك أن يقول رثاء   فليرث من هذا الورى من شاء

ومنها :

أأبا محمد اتئد فى ذا النوى   وارفق بآلك وارحم الأبناء
واستبق عزهم بطهراء التى   كانوا النجوم بها وكنت سماء
أدجى بها ليل الخطوب وطالما   ملئت منازلها سنى وسناء
وإذا سليمان استقل محلة   كانت بساطاً للندى ورخاء

لاشك أن شوقى عندما لفظ اسم سليمان خطر بباله سليمان بن داود فتذكر معه بساط الريح والريح الرخاء فجاء بهما فى البيت وحولها الى معنى آخر وهكذا هو الشعر كثرة شجون وانتقال أفكار، وأحسن الناس شعراً اسرعهم انتقالا . ثم يقول :

سارت جنازة كل فضل فى الورى   لما ركبت الآلة الحدباء
وتيتم الأيتام أول مرة   ورمى الزمان بصرفه الفقراء
ولقد عهدتك لا تضيع راجياً   واليوم ضاع الكل فيك رجاء

وعلمت أنك من تود ومن يفى　　فقف الغداة لو استطعت وفاء
أبنيـه كونوا للمدى من بعده　　كيداً وكونوا للولىّ عزاء

وكان سليمان باشا أباظة من أفاضل مصر لائقا بهذا الرثاء وقد تعرفت اليه بواسطة استاذنا الشيخ محمد عبده وسمرنا عنده ليلة فى سنة ١٨٩٠ فرأيت كثيراً من نبله وسمعت جزيلا من فضله ولشوقى رثاء رثى به سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام فقال :

ضن الزمان به وكان كريما　　واعتل بعـد أن استقام سليما
فقدت يداه منه أسمر حانياً　　لدنا كما تهوى الأمور قويما
بكت القلوب عليه قبل عيونها　　فجرين حبات وسلن صميما
أمودع الأوطان تارك عهدها　　حِكما وآداباً به وعلوما
ماذا رحيلك إنها كانت ترى　　لك أن تدوم لمجدها فيدوما
لله أهرام الزمان وما جلا　　فيها لسان الصدق منك كريما
أودعتها لمح الهـدى وبدائعاً　　لو كن للجوزاء كن نجوما
فارحل حبيباً ما يطاق رحيله　　واقدم مرجى ما يطاق قدوما
واستحفظ الاهرام قومك انهم　　سم الاعادى حادثاً وقديما

وله رثاء لعلى حيدر باشا يكن :

قلت لما لقيت حيدر يوما　　هكذا هكذا الدم العلوىّ
هكذا البر والندى والأيادى　　والمعالى والسؤدد اليكنى
أنت لو كان فى الغنى لك ثان　　لم يبغض الى الفقير الغنى
شرفت بالوزير أسرة مجد　　مثل ما شرفت بحاتم طى
كان ركنا لبيتهم وعمـاداً　　فتولى فانهد ركن قوى
وأصيبت وزارة وبلاد　　لعـلى فيها المقام العـلى

ثم عزى فيها ولده صفر بك فقال :

العزاء العزاء يا صفر الخيـ　　ـر فأنت الفتى اللبيب التقى
حكم الله فى أبيك وحكم اللـــه فى الخلق سابق مقضىّ

كلنا من بكى أباه وكل | بعد حين مودع مبكى

ورثى المرحوم أمين باشا فكرى وكان أمين باشا صديقاً للمرحوم اسماعيل باشا صبرى فقال يرثى الأول ويعزى الثانى :

يا أقرب الناس من امين | وأفقد الناس للثمين
خطبك هذا أجل خطب | فخذ له الصبر باليمين
أسليك فيه ولى فؤاد | يذوب للميت والحزين
فقم بنا نندب المعالى | فجرحها اليوم فى الوتين
أمثل فكرى أباحسين | يموت فى نضرة السنين
والناس فى حاجة اليه | والقطر يرجوه للشؤون
مؤمل الكل فى شباب | ومرتجى الأهل والبنين
كذلك الموت كل يوم | يبدى فنونا من الجنون
فلو علمت المنون شخصاً | لقلت لا عقل للمنون

وكان اسماعيل باشا صبرى كما لايخفى من كبار الشعراء ومن حسنات مصر الكبرى وقد رثى صديقه أمين باشا فكرى بقصيدة أثبتها شوقى فى ديوانه تعظيما لمقام الراثى والمرثى فها أنذا أيضاً أقفو أثر شوقى فأنشر رثاء شوقى ورثاء صبرى وأعززهما بثالث هو رثائى لأمين باشا . فقد كان صديقى وكان من شبان مصر المشار اليهم بالبنان والذين يجدر بمصر وبغيرها من بلاد العرب أن ترثيهم وتبكيهم على طول الزمان . قال اسماعيل باشا صبرى :

وهبتك يا دهر من تطلب | أبعد أمين أخ يصحب
طويت المودة فى شخصه | فأىّ وداد امرئٍ أخطب
وأىّ بديل له أرتضى | وأى شمائله أندب
أمين اتئد فى النوى وارعنى | فبينى وبينك ما يوجب
أتذكر إذ أنت منى النياط | من القلب أو أنت لى أقرب
وإذ نحن هذا لهذا أخ | وهذا لذا ابن وهذا أب

ومن قال عنا من الناظرين   نديمي جذيمة لا يكذب
حسبت بأنك لى خالد   فكان الذى لم أكن أحسب

كم تتوارد الخواطر بين الشعراء فانى عندما قرأت هذا البيت تذكرت قولى منذ شهر من الزمن لا غير فى رثاء صديقى الحاج عبد السلام بنونة :

قد كنت آمل ان نحيي معاصرة   مديد عمر والقاهُ ويلقانى
أدعو له فى جنانى كلما انفردت   نفسى بنجوى وأرعاه ويرعانى
فخيَّب البين ما قد كنت آمله   وكم أرتنى الليالى ضد حسبانى

ثم يقول اسماعيل صبرى :

أفى ذا الشباب وهذا الاهاب   يموت الفتى الطاهر الطيب
عجيب من الموت أفعاله   وعتبى على فعله أعجب
بذا حكم الله فى خلقه   لكل امرئ أجل يكتب
وجدت الحياة طريق الممات   وكلٌ الى حتفه يسرب
ويعثر فيه الفتى بالشباب   ويدلف بالعلة الأشيب
ويتعب بالزاد فيه الفقير   وأهل الغنى بالغنى أتعب
ويشقى أخو الجهل فى جهله   ويخرج بالعالم المذهب
موارد مشروعة للحياة   فأيُّ مواردها الأعذب
أتعلم عين الردى من تصيب   وتدرى يد الموت من تضرب
الما تكامل نور الأمين   وتاه به الشرق والمغرب
وأوفى المكارم ما أملت   وأعطى الفضائل ما تطلب
طواه الردى علماً فانطوى   به امل مقبل نرقب
فيا نائياً والهوى ما نأى   وذكراه فى البال لا تغرب
هنيئاً لدار تيممتها   لقد زارها الملك الاطيب

ومنها :

حسبت على رحمات الرحيم   وجادك رضوانه الصيب

ولا زالت السحب منهلة　　وأنت لاذيالها تسحب
وروتك منا دموع تسيل　　تخامرها مهج تسكب

وأما رثاء كاتب هذه السطور للمرحوم أمين باشا فكرى فهو هذا :

بقية مجد ودعت يوم ودعا　　وآمال عز آن أن تتقطعا
ولم تنعه الأيام الا وأدمجت　　من الشرق شطرا فى منيته معا
لقد جاءنا نوء الزمان مصائباً　　يلوح لنا أن مزنها ليس مقلعا
وسبحان من ساق الردى بوجوهه　　فلقى لعمرى الجمع والفرد مصرعا
اذا شن جيش النحس فى القوم غارة　　فما أجدر الارزاء أن تتنوعا

وقد وقع مصاب أمين باشا فكرى فى أيام كانت كلها مصائب سياسية على مصر من جملتها استيلاء الانجليز على السودان :

وما كنت حتى اليوم أحسب دهرنا　　اذا ساء لا يرتاد للعذر موضعا
ألم يكفه ما غال من كل غاية　　وأفسد من معنى وعطل مرجعا
وضيق أرجاء الرجاء فسدها　　وراخى مجالات المرائى وأوسعا
كذا فليجل الخطب وليفدح الامى　　وتنقلب العليا بمارن أجدعا
حلفت فلا تمرى النوادب عبرتى　　على فائت وليمنع دهرك من نعى
فهيهات ما ان أستثار لفاجع　　اذا كان من أودى الأمين المشيعا
أحبتنا ان قيل فى الصبر رجلة　　فانى فتى أبغى أنوح وأجزعا
تركت لكم فضل التصبر صبرة　　وقلت لطرفى اليوم لا تألُ مدمعا
وشعشع كؤوس الدمع بالدم ساقياً　　فكل شراب زينه أن يشعشعا
واعتدها نحو الأمين خيانة　　اذا أنا لم أستفّ ذا الكأس مترعا
فما كان ودى للاعزة ضائماً　　ولا كان قلبى من أخى الود بلقعا
حملت له بين الضلوع أمانة　　لو احتملتها الشم مالت تصدعا
وأصفيته منى إخاء لو انه　　أعار الليالى صفوه رقن مشرعا
وما زلت أرعاه على البعد صاحباً　　وقبلى نجوم الافق مثلى من رعى

فان يك هذا الترب غرب بدره فلا زهرت تلك الكواكب مطلعا
ولا لمعت تلك البروق وقد خبت بروق أمانٍ كن بالأمس لمعا
قضى اليوم من راع البرية رزؤه وليس يراع الناس إلا لأروعا
ولم يأت فيه الموت مصرع واحد ولكنه كان المصارع أجمعا
أصاب الحجى والعلم والحزم والمضا وصدق المبادى والذمام الممنعا
وما بقيت فى المكرمات سجية ولا خطة الا ثوت معْه مضجعا
فلو نفعت عند المنون شفاعة كفته فريدات الخصال مشفعا
ودافع عن حوبائه طيب الثنا وخلده لو أن فى الخلد مطمعا
ولكن داعى الموت لايقبل الرشى ولم يلق أسرى منه نفسا وأرفعا
مصاب له الأقطار إذ شاع زلزلت فلا ركن للعلياء إلا تزعزعا
أذل إباء الدمع من كل جامد فلم يبق عاص منه حتى تطوعا
ولم أر فى الارزاء أبعد غارة ولا من قلوب الخلق أقرب موقعا
عشية مافى الناس مالك عبرة ولا زفرات الصدر إلا تصنعا
عشية لم تبق الفجيعة مسكة ولا حزم للمحزون إلا مضيعا
عشية وارى الناس شمساً وأظلمت لها الشمس حتى لا ترد بيوشعا
فكم من يد أضحت تدق بأختها وكم شفة باتت تجاور إصبعا
فان يك وادى النيل أشعر فقده فلا جبل فى الشام الا تضعضعا
كريم به لفظ الكريم مقصر اذا قيل عن قوم كرام توسعا
توخى طريق الخير محضا كأنه من المهد حتى اللحد جاء لينفعا
له خلق سهل ونفس أبية وحسن خلال دونها الروض ممرعا
وأقلام صدق راجع فى ولائها لأكتب من أوتى الكتاب وأبرعا
فمن بعد عبد الله كان مؤملا بأن لم يغب ذا الأصل إلا وفرعا

هذه ثلاث مراث فى أمين باشا فكرى لثلاثة أصحاب من أعز الناس عليه وأعزهم له . ولو فسح المقام لا ستوفيت له ثلاثين مرثية وكانها قمناً . وقد تأملت الآن كيف

كنا أربعة أصحاب كل يحب اخوانه الآخرين ويجلهم ، فقد كنت أحب أمين باشا وأجله وكانت بيننا مراسلة بعدمراسلة مع أبيه عبد الله باشا فكرى الأديب المشهور وكنت أحب اسماعيل باشا صبرى وأجله اجلالى لأخيه أمين باشا . ولما كان صبرى محافظا للأسكندرية وقدمها من أبناء عمى الامير عارف أرسلان احتفى به اسماعيل باشا جد الاحتفاء فلما عاد ابن عمى الى سورية رغب الى فى أن أرسل قصيدة بامضائه الى اسماعيل باشا شكراً له على حفاوته فنظمت قصيدة سيقرأها قراء ديوانى الذى تحت الطبع . وكنت أحب شوقى وأجله وأقدسه كما يدل عليه كتابى هذا وكان شوقى يحب صبرى وفكرى ويجلهما كما ترى من شعره . فهؤلا ثلاثة اخوان فى نسق قد طوتهم المنون من دونى وبقيت فى حياة موحشة بفقد أصحابى مقفرة من أنس أترابى أتسلى عنهم بالآثار والذكريات وأرسل وراءهم الحسرات والزفرات الكبريات قائلا :

لا حياة بعد صدع ذلك الشمل، وبى منهم فوق الرمل مابهم فى الرمل، كما قال ابو الطيب من قبل .

ولما أصاب اسماعيل باشا صبرى حادث فى القطار الحديدى بعث شوقى اليه بهذه الابيات التى يصح أن تكون من جملة مختاراته :

أتدنى الصحف عنك مخبرات ... بحادثة ولا كالحادثات
بخطبك فى القطار أبا حسين ... وليس من الخطوب الهينات
أصيب المجد يوم أصبت فيه ... ولم تخل الفضيلة من شكاة
وساء الناس ان كبت المعالى ... وأزعجهم عثار المكرمات
ولست بناسٍ الآداب لما ... تراءت ربها متلهفات
وكان الشعر أجزعها فؤادا ... وأحرصها لديك على حياة
هجرت القول أياماً قصارا ... فكانت فترة للمعجزات

فما أبدع قوله: فكانت فترة للمعجزات

شعره العائلى

ولشوقى من الشعر العائلى لاسيما فى خطاب أولاده ما يرويه الناس ويستلطفونه ،

وانى لأختار منه قوله لولده على بك يوم ولادته :

رزقت صاحب عهدى وتم لى النسل بعدى
هم يحسدونى عليه ويغبطونى بسعدى
ولا أرانى ونجلي سنلتقى عند مجد
وسوف يعلم بيتى أنى أنا النسل وحدى
فيا على لا تلمنى فما احتقارك قصدى
وأنت منى كروحى وأنت من أنتَ عندى
فان أساءك قولى كذّبْ أباك بوعد

قيل لنابليون الأول : نريد أن نكتب تاريخ عائلتك وقد تحيرنا من أين نبدأ ؟ فقال : ابدأوا بى فانى أنا عائلتى . وشوقى يريد أن يقول ان ولده لن يبلغ عبقريته فلذلك سيكون شوقى وحده هو نسل شوقى وليس فى ذلك تصغير لابنه أى لا غضاضة على ابنه ان قصر عن شأو أبيه فليس كأبيه كثير من الخلق، فشوقى يعرف من نفسه أنه سينفرد وأن ابنه لن يدركه وهذا يشير الى المعنى الذى قلته أنا من رثاء شوقى :

هذا أمير الشعر غير مدافع فى الشرق أجمع منذ فتق لهاته
ما عاب أهل العبقرية انهم قد قصروا فى الجرى عن غاياته

ومثله قولى فى الافرنج يوم هزمهم صلاح الدين فى وقعة حطين :

لم يجبنوا ساعة وان فشلوا وانما الليث دونه النمر

وكان لى صاحب لابأس به وكان تام الرجولية فارسا مغوارا قاريا للضيف وانما كان له أب أعلى منه بدرجات فكان الناس يرونه صغيراً فى جانب أبيه ويقولون لى : ولد النجيب لاينجب فكان يقول لى : انى والله لم أكن مقصراً فى وغى ولا فى ندى ولا ممن يجد الناس فيه منتقداً ولكن أبى فضحنى وأظهر قصورى ولو كنت ابن رجل آخر لكان أظهر لنجابتى فانما الناس تصغر وتكبر بالقياس

الحكايات فى شعر شوقى

ولم يجتزئ شوقى من الشعر بالامداح والمراثى والامثال الحكمية والمراسلات الاخوانية بل هام فى جميع أودية الخيال وضرب من عالم الانشاد فى كل منكب وأبى إلا أن يكون شاعراً كامل الأدوات مستوفياً الشروط قابضاً على ناصية الفصاحة فى كل موضوع، فنظم شعراً كثيراً من الحكايات على نسق لافونتين، ونظم على ألسن الطير والحيوانات والحشرات. وله فى الجزء الأول من الشوقيات أربعون أو خمسون صفحة ملأى بهذه الخرافات جعل كلامه فيها مناسبا لموضوعها، فهو كما يعلو فى المقامات العالية ويختار لها فخم الكلام وشريف اللفظ يسف فى المقامات الساذجة ويلبسها القوالب الخفيفة السهلة اللائقة بها فتراه مثلا يقول فى حكايته عن الخفاش ومليكة الفراش:

مرت على الخفاش   مليكة الفراش
تطير بالجموع   سعيا الى الشموع
فعطفت ومالت   واستضحكت فقالت:
أزريت بالغرام   يا عاشق الظلام
صف لى الصديق الأسودا   الخامل المجردا
قالت سألت فيه   أصدقَ واصفيه
هو الصديق الوافى   الكامل الاوصاف
جواره أمان   وسره كتمان
وطرفه كليل   اذا هفا الخليل
يحنو على العشاق   يسمح المشتاق
وجملة المقال   هو الحبيب الغالى
فقالت الحمقاء   وقولها استهزاء
أين ابو المسك الخصى   ذو الثمن المسترخص
من صاحب الأمير   الظاهر المنير
إن عد فيمن أعرف   أسمو به وأشرف

وإن سئلت عنه   وعن مكانى منه
أفاخر الأترابا   وأنثنى إعجابا
فقال يا مليكه   وربة الاريكه
ان من الغرور   ملامة المغرور
فأعطى قفاك   وامضى الى الهلاك
فتركته ساخره   وذهبت مفاخره
وبعد ساعة مضت   من الزمان فانقضت
مرت على الخفاش   مليكة الفراش
ناقصة الاعضاء   تشكو من الفناء
فجاءها منهمكا   يضحكه منها البكا
قال ألم أقل لك   هلكت أولم تهلك
رب صديق عبد   ابيض وجه الود
يفديك كالرئيس   بالنفس والنفيس
وصاحب كالنور   فى الحسن والظهور
معتكر الفؤاد   مضيع الوداد
حباله اشراك   وقربه هلاك

نعم كم من شخص حسن الوجه سيء الفعل هذا الذى يريد شوقى أن يستفصه من هذه الحكاية كما أراد أن يستخرج من هذه الحكايات كلها العبر التى استخرجها أمثاله من الشعراء أو من الكتاب الذين تكلموا على ألسن الحيوان والطير ورموا مرامى حكيمة بعيدة من هذه الحكايات الصغيرة، وهم مثل صاحب كليله ودمنة وغيره.

ومن أقوال شوقى فى هذا الباب حكاية عن الأسد عندما استوزر الحمار:

لليث ملك القفار   وما تضم الصحارى
سعت اليه الرعايا   يوما بكل انكسار
قالت تعيش وتبقى   يا دامى الاظفار

مات الوزير فمن ذا　　يسوس امر الضوارى
قال الحمار وزيرى　　قضى بهذا اختيارى
فاستضحكت ثم قالت　　ما ذا رأى فى الحمار
وخلفته وطارت　　بضحك الاخبار
حتى اذا الشهر ولى　　كليلة أو نهار
لم يشعر الليث الا　　وملكه فى دمار
القرد عند اليمين　　والكلب عند اليسار
والقط بين يديه　　يلهو بعظمة فار
فقال من فى جدودى　　مثلى عديم الوقار
اين اقتدارى وبطشى　　وهيبتى واعتبارى
فجاءه القرد سرا　　وقال بعد اعتذار
يا عالى الجاه فينا　　كن عالى الانظار
رأى الرعية فيكم　　من رأيكم فى الحمار

وقال فى القبرة وابنها :

رأيت فى بعض الرياض قبره　　تطيّر ابنها بأعلى الشجره
وهى تقول ياجمال العش　　لاتعتمد على الجناح الهش
وقف على عود بجنب عود　　وافعل كما أفعل فى الصعود
فانتقلت من فنن الى فنن　　وجعلت لكل نقلة ثمن
كى يستريح الفرخ فى الاثناء　　فلا يمل ثقل الهواء
لكنه قد خالف الاشاره　　لما أراد يظهر الشطاره
وطار فى الفضاء حتى ارتفعا　　فخانه جناحه فوقعا
فانكسرت فى الحال ركبتاه　　ولم ينل من العلا مناه
ولو تأنى نال ما تمنى　　وعاش طول عمره مهنا
لكل شىء فى الحياة وقته　　وغاية المستعجلين فوته

وقال فى الثعاب وهو فى السفينة :

أبو الحصين جالَ فى السفينه　　فعرف السمين والسمينه
يقول إن حاله استحالا　　وان ما كان قديما زالا
لكون ما حل من المصائب　　من غضب الله على الثعالب
ويغلظ الايمان للديوك　　لما عسي يبقى من الشكوك
بأنهم إن نزلوا فى الارض　　يرون منه كل شيء يرضى
قيل فلما تركوا السفينه　　مشى مع السمين والسمينه
حتى اذا ما نصفوا الطريقا　　لم يبق منهم حوله رفيقا
وقال إذ قلوا عديم الدين　　لا عجب ان حنثت يمينى
فانما نحن بنو الدهاء　　نعمل فى الشدة للرخاء
ومن تخاف أن يبيع دينه　　تكفيك منه صحبة السفينه

وخلاصة القول أن شوقى لم يهمل هذا الباب أيضاً وأنه دنا فى اللفظ الى الغاية التى تدركها الأطفال ويحفظها الجهال ولكل مقام مقال . وكان مثله فى هذا مثل بشار فقد حدث ابن مهرويه عن أبيه قال :

قلت لبشار يا أبا معاذ إنك لتأتى بالأمر المتفارق فمرة تثير بشعرك العجاج فتقول:

اذا ما ضربنا ضربة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
اذا ما أعرنا سيداً من قبيلة　　ذرى منبر صلى علينا وسلما

ثم تقول :

رباب ربة البيت　　تصب الخل فى الزيت
لها سبع دجاجات　　وديك حسن الصوت

فقال بشار :

« انما اكلم كل انسان على قدر معرفته فأنت وعلية الناس يستحسنون ذلك، وأما رباب فهى جارية تربى دجاجا وتجمع بيضهن فاذا أنشدتها هذا حرصت على جمع

البيض وهو أحسن عندها وأنفق من شعرى كله . فاذا أنشدتها فى النمط الأول ما فهمته ولا انتفعت بها »

قلنا : وهذه قضية لا جدال فيها فالثوب ينبغى أن يفصل على قدر القامة، والقول يجب أن يتناسب مع الحالة، وقد أورد أبو العلاء المعرى قصة بشار هذه فى عرض الكلام على قصيدة المتنبى السخيفة فى ضبة وهى التى أولها :

ما انصف القـوم ضبـة وأمـه الطرطبـة

فقال :

ان أبا الطيب اجتاز يوما بالطف فنزل بأصدقاء له وصادف هناك ولدا اسمه ضبة يغدر بكل أحد وسارت الخيل الى هذا العبد واستركبوه فلزمه السير معهم فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه وليس سـلاحه لهم الا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم ويسمى أبا الطيب بشتمه وأراد القوم أن يجيبه أبو الطيب بمثل الفـاظه القبيحة وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة وعلم أنه لو سبه لهم معرضا لم يفهم ولم يعمل فيـه عمل التصريح فخاطبه على ألسنتهـم من حيث هو فقال تلك الابيات :
ما أنصف القوم ضبة الخ

وروى المعرى عن ابن جنى انه قال : ورأيته (أى رأى المتنبى) وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر انشادها .

قلت : وهذا دليل على ان المتنبى كان خجل من نفســه وندم على ارسال تلك الكلمة المشئومة التى صارت السبب فى قتـله وحرمان الناس من ذلك اللسان وذلك الجنان اللذين بخل بمثلهما الزمان . فأما المعرى فلشدة اعجابه بالمتنبى وما اشتهر من حبـه له فقد حاول أن يتمحل له عذراً وأن يدمج هذه القصيدة تحت حكم « لكل مقام مقال » وهـذا التشبيه محال . ثم حاول من جهـة أخرى عذراً ثانيا وهو أن يحمل هـذه القصيدة على ألسن اولئك الجماعـة الذين كان يشتمهم ضبة وهو أيضاً عذر ضعيف أرق من خيط باطل إذ المتنبى يعـلم انه مهما قال فقوله لا بد أن يسـير وان الكلمة الفاردة من مثـله تحفظ وتبقى وتعلق فى الاذهان فـكيف المنظوم الذى

تسير به الركبان . والحقيقة أنها كانت سويعة نحس غفل فيها المتنبى عن نفسه وغاب عن حسه فأرسل هاتيك الابيات وهو يظن أنها لن تتجاوز ذلك المكان وانه انما يشفى بها غليل جماعته أو انه يضحكهم على ضبة ونسى انه بهذا العمل قد وضع نفسه فى صف ذلك السفيه الذى وصفوا ما وصفوا من سفاهته وحمقه ومن ذا يعض الكلب اذا الكلب عضه ؟ فكانت من أبى الطيب هذه النبوة القبيحة سبباً فى إتلافه ومصيبة الأدب العربى بفقد رجل كان من أرجح ادباء الدنيا ميزانا وأقواهم برهانا وأذلقهم لساناً . ومن هذه القصة يجب أن تؤخذ العبرة اللازمة والعظة التى لا يجوز أن تفارق الخاطر، وهى ان الرجل الكبير يجب أن يبقى كبيراً فى جميع أطواره وأن يعلم أن كل ما يقوله سيسير ويحفظ عليه،وانه سيبقى وينسب اليه. والقول لقائله كالولد لناجله. ومن أحسن مزايا شوقى انه لم يتلوث بشىء من هذه القاذورات وان أدب النفس كان أثيره، فنزه عن المرافثة قليل نظمه وكثيره،فلا أثار بقوله حفائظ ولا هاج أحقاداً وقد مضت جميع معاركه الادبية على سلامة

شعر الملاحم

وقد آن لنا الآن أن نصف من شعر شوقى القسم الذى هو فيه الشاعر الفرد والأسد الورد وهو شعر الملاحم épique أو الشعر التاريخى الذى بذّ فيه الأولين والآخرين وسما وحلق فى عيون جميع الناظرين وإنى برغم عصبيتى لصديقى محمود سامى باشا البارودى أقول انه قد فاته هذا الفرض ولم يقيض له الله هذه الفتوحات التى قيضها لشوقى والتى ضارع فيها شعراء الافرنج وكفر عن سيئاته فى المديح ومبالغاته إن كان لا بد أن يحسب ذلك عليه من السيئات

وقد فرط شوقى الى هذا الحوض من أول مرة وتنبه له فى مقتبل عمره ، ففى سنة ١٨٩٤ أى بعد اجتماعنا فى باريز بسنتين لا غير كانت له تلك الهمزية التى قالها عن وادى النيل وأنشدها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف وهى التى يقول فيها :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

ضرب البحر ذو العباب حواليـ ـها سماءً قد أكبرتها السماء
ورأى المارقون من شرك الأر ض شباكا تمدها الدأماء
وجبالا موائجاً فى جبال تتدجى كأنها الظلماء
ودويا كما تأهبت الخيـ ـل وهاجت حماتها الهيجاء

هذا البيت الأخير ينظر الى قول المتنبي عن بحيرة طبرية :

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قَطَمُ
كأنها والرياح تضربها جيشا وغى هازم ومنهزم

ثم يقول :

لجة عند لجة عند اخرى كهضاب ماجت بها البيداء
وسفين طورا تلوح وحينا يتولى أشباحهن الخفاء
نازلات فى سيرها صاعدات كالهوادي يهزهن الحداء

هذا من الوصف الذى يصح أن يكون مثلا فى الابداع وصحة التصوير فتأمل عندما تكون فى عرض البحر الخضم تنظر السفين عن بعد تارة تلوح لك أشرعتها من بعيد وطوراً تحدق فلا تراها من سعة اليم وارتفاع أمواج الخضم وتأمل أيضاً تشبيهه للسفن فى صعودها ونزولها على ظهر الموج التى تتقاذفها بالابل السائرة فى البيداء فراكب السفينة كراكب البعير لا يفتأ يشعر بنفسه صاعدا نازلا . ثم يقول وهو من أبدع ما قيل :

رب ان شئت فالفضاء مضيق واذا شئت فالمضيق فضاء
فاجعل البحر عصمة وابعث الرحـ ـمة فيها الرياح والأنواء
أنت أنسٌ لنا إذا بعد الانـ ـس وأنت الحياة والاحياء
يتولى البحار مهما ادلهمت منك فى كل جانب لألاء
واذا ما علت فذاك قيام واذا ما رغت فذاك دعاء
فاذا راعها جلالك خرت هيبة فهى والبساط سواء
والعريض الطويل منها كتاب لك فيه تحية وثناء

لا تظهر عبقرية شوقى ظهوراً باهرا مثلما تظهر فى هذا النوع من الشعر فلو قلت ان كل ماقاله شوقى فى باب المديح وباب الرثاء وباب الحكايات لايوازى هذه الابيات لم أكن مبالغاً . فكأن شوقى كلما علا الموضوع علا هو معه فلما رأى أمامه جلالة هذا الخلق العظيم وتأمل جلالة خالقه تعالى ارتفع به البيان الى الدرجات العلى وتعلق بسدرةالمنتهى التى تليق بوصف تلك الجلالة.وأما الكتاب الذى يتكلم عنه وهو عبارة عن العريض الطويل من هذا الخلق العظيم الذى هوالبحر فان لى حكاية هى من هذا الموضوع بسبيل .

كنت أيام الحرب مبعوثاً لسورية فى الاستانة دار الخلافة العثمانية تولاها الله برحمته وكانت بينى وبين عبد الحق حامد بك الذى يقال له أديب الاتراك الاعظم مودة أكيدة ولم تنحصر فى لحمة الأدب بل تجاوزت الى لحمة النسب لأن أديب الاتراك الاعظم عربى الأصل ينتمى الى عبد الحق السنباطى وقد جاء سلفه الى استانبول فاستتركوا وكانت لى معه — فسح الله فى أجله لانه لايزال حياً — مجالس نتناشد فيها الأشعار ونتناقل الآثار وفى ذات يوم صادفته ذاهبا الى اسماعيل حقى بك — من أدباء الترك،كان واليا لبيروت يوم انتهت الحرب — وهو من مريدى عبد الحق حامد فأخذ بيدى وقال لى تعال معى حتى نقرأ عليك شيئاً من آثارى الجديدة فمضيت معه حتى وافينا منزل اسماعيل حقى . وما استقر بنا الجلوس حتى بدأ اسماعيل حقى يتلو علينا رواية « طارق » التى منها ماهو نظم ومنها ما هو نثر وكل ذلك بالتركى فوصلنا الى مكان يسميه عبد الحق حامد (مناجاة) وهو أن طارقاً يولى وجهه شطر السماء ويناجى ربه بأقوال يضرع بها اليه ولست متذكراً منها الآن الا قوله : يارب ألم تقل لنا كذا وكذا فى كتبك المنزلة ؟ ألم تقل كذا وكذا بلسان الطبيعة التى هى أيضاً من كتبك المنزلة؟ الى آخر مايقول . فلما وصل الى هذه الجملة وهى أن الطبيعة هى من الكتب المنزلة قلت أنا فوراً : وربما كانت أقدمها . فاهتز لذلك عبد الحق حامد وقال لاسماعيل حقى :« أمان أمان بونى يازيكز » أى بالله عليك اكتب هذه . وبقى يردد هذه النكتة وهى أن الطبيعة هى أقدم الكتب الالهية . وبعد ذلك بمدة وجدت رسالة طارق

مطبوعة وفى حاشية الفصل الذى اسمه « مناجاة » مكتوبة هذه الجملة : « وربما كانت هى أقدم الكتب المنزلة » وبجانبها يقول: «هذه الجملة هى من الأمير شكيب أرسلان» فقضيت العجب من أمانة هذا الشاعر الكبير الذى أبى أن ينسب هذا المعنى لنفسه وأصر على نسبته إلىّ بالصراحة بينما كثير من الشعراء والادباء ينتحلون أقوالا لم يكونوا هم قائليها ويتبنون معانى قد يكون نجلها غيرهم . ولكن عبد الحق حامد أغنى من أن يسرق .

والشاهد هنا أن الخواطر تواردت وأن شوقى يرى البحر كتاباً من كتب الله له فيه تعالى تحية وثناء وأن عبد الحق حامد الذى هو فى الترك كشوقى فى العرب يرى فى الطبيعة كتاباً إلهياً انزله الله ليقرأه عباده وأن هذا العاجز يرى هذا الكتاب أقدم الكتب الالهية لأن الله خلق الطبيعة قبل أن بعث الانبياء وانزل عليهم الوحى. ثم يقول شوقى :

يازمان البخار لولاك لم نفـ ـجع بنعمى زمانها الوجناء
فقديماً عن وخدها ضاق وجه الـ ـأرض وانقاد بالشراع الماء
وانتهت إمرة البحار الى الشر ق وقام الوجود فيما يشاء
وبنينا فلم يخلّ لبانٍ وعلونا فلم يجزنا علاء
وملكنا فالمالكون عبيد والبرايا بأسرها أسراء
قل لبان بنى فشاد فغالى لم يجز مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات ان تنقل الاجـ ـبال شماً وان تنال السماء
اجفل الجن عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الآباء

يريد أن يقول ان الأولين كلما رأوا عجباً عدوه من صنعة الجن وان فرعون مع ذلك جاء بالاهرام التى لم ينسبها أحد الى الجن وهى أعجب وأصعب من كل ما نسب الى الجن من بناء البشر . ثم يقول :

وقبور تحط فيها الليالى ويوارى الاصباح والامساء
تشفق الشمس والكواكب منها والجديدان والبلى والفناء

فاعذر الحاسدين فيها اذا لا   موا فصعب على الحسود الثناء
زعموا انها دعائم شيدت   بيد البغى ملؤها ظلماء
دُمر الناس والرعية فى تشـ   ـييدها والخلائق الأسراء
أين كان القضاء والعدل والحكـ   ـمة والرأى والنهى والذكاء
وبنو الشمس من أعزة مصر   والعلوم التى بها يستضاء
فادعى ما ادعى أصاغر آثيـ   ـنا ودعواهمُ خنى وافتراء

يريد أن يقول ان يونان التى زعمت كون هذه الاهرام بنيت بالظلم والقسر على أيدى العبيد وأنفقت عليها أموال الرعية انماقالت ذلك حسدا ونفاسة لعجزهم عن مثلها وان قولها لحش وافتراء. ثم أثنى على الفراعنة الذين شيدوا تلك الأبنية الخالدة على الدهر تتحدى الزمان وتبارز الحدثان. وقال : ان تلك الدولة قد انتقلت الى أناس خالفوا سنن من قبلهم وهم ملوك الرعاة فساموا مصر العذاب فتراه يقول فى هؤلاء :

واذا مصر شاة خير لراعى السـ   ـوء تؤذى فى نسلها وتساء
قد أذل الرجال فهى عبيد   ونفوس الرجال فهى إماء
ولقوم نواله ورضاهم   ولاقوام القلى والجفاء
ففريق ممتَّعون بمصر   وفريق فى أرضهم غرباء
إن مَلكْت النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ   ـر فكيف الخلائق العقلاء

يعنى براعى السوء أحد الملوك الرعاة الذين يقال لهم الهكسوس والذين شوقى يقول فيهم :

أعلنت امرها الذئاب وكانوا   فى ثياب الرعاة من قبل جاءوا

وبعد أن وصف هذه الدولة بما وصفها به من استعباد مصر التفت فنصح الانجليز الذين يحتلونها اليوم مستبدين فقال لهم : ان كنتم ترون أنفسكم قد تغلبتم على أهل مصر فلا ينبغى أن تأمنوا انتقاضهم بعد خضوعهم لكم بالقوة فان للنفوس ثورة ومضاء. وان الوحش تتحرك لتتفلت من القيود فكيف لا تتحرك البشر لتحطيم القيود ؟ وليس لى

اعتراض هنا إلا على قوله يسكن الوحش للوثوب من الأسر الخ فان السكون والوثوب لا يقترنان ولو أنه قال ينزع الوحش للوثوب من الأسر لكان أقعد

ثم أتى شوقى على تاريخ رمسيس وسيزوستريس وأشاد بذكرهما إشادة تجدر بعظمة مصر فى تلك الأعصر الخوالى ، وما زال الى أن وصل الى قمبيز ملك الفرس الذى استولى على مصر وجعل أعزة أهلها أذلة ، ووصف ما حل بملوك مصر فقال:

بنت فرعون بالسلاسل تمشى	أزعج الدهر عريها والحفاء
فكأن لم ينهض بهودجها الده	ر ولا سار خلفها الأمراء
أعطيت جرة وقيل اليك الن	هر قومى كما تقوم النساء
فمشت تظهر الإباء وتحمى الد	مع ان تسترقه الضراء
والأعادى شواخص وأبوها	بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو	ن وفرعون دمعه العنقاء
فأروه الصديق فى ثوب فقر	يسأل الجمع والسؤال بلاء
فبكى رحمة وما كان من يب	كى ولكن ما أراد الوفاء

يريد أن يقول، ان فرعون لم تبدر له دمعة لما رأى ابنته تحمل الجرة وتذهب الى النهر لتستق كاحدى الإماء ، ولكنه لما رأى أحد أصدقائه يسأل الناس من فقره أجهش ولم يملك دمعه. وما كان سريع الدمعة ، ولكن الوفاء غلب عليه

ثم ذكر كيف ان الاسكندر غلب على مصر وأزال منها حكم الفرس فقال :

طلبة للعباد كانت لاسكن	در فى نيلها اليد البيضاء
شاد اسكندر لمصر بناء	لم تشده الملوك والامراء
بلداً يرحل الأنام اليه	ويحج الطلاب والحكماء
والجوارى فى البحر يظهرن عز ا	لملك والبحر صولة وثراء
والرعايا فى نعمة ولبطلي	موس فى الارض دولة علياء

يقول ان مصر فى عهد البطالسة صارت دار علم وحكمة واستراحت فيها الرعايا وغلظ أمرها ، وكان لها أسطول حربى وأسطول آخر تجارى عبر عنهما بقوله (والبحر

صولة وثراء) ثم ذكر خراب دولة البطالسة بمجىء كليوباترة فقال :

ضيعت قيصر البرية أنثى ... يالربى مما تجر النساء
فتنت منه كهف روما المرجى ... والحسام الذى به الاتقاء
فأتاها من ليس تملكه أنـ ... ـثى ولا تسترقه هيفاء

أشار كيف لعبت كليوباترة بقلب قيصر ثم بقلب انطونيوس حتى جاءها أوكتافيوس الذى لم يؤثر فيه جمالها فغلب عليها وانتحرت بان وضعت حية على صدرها وهو ما أشار اليه بقوله :

سلبتها الحياة فاعجب لرقطا ... ء أراحت منها الورى رقطاء

ثم جاء هنا بالمقطع الذى هو بيت القصيد والذى لم أزل أبحث فى شعر المعاصرين فلا أجد ما يدانيه ولو كان شوقى لم يقل غيره لكان كافياً لمجده وأجره ولجزاه دنيا وآخرة تأمل فى هذا المفصل المدهش فى جلالة معناه وجزالة مبناه قال :

رب شقت العباد أزمان لا كتـ ... ـب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى ... جمعتها الحقيقة الزهراء
فاذا لقبوا قويا إلها ... فله بالقوى اليك انتهاء
وإذا آثروا جمالا بتنزيـ ... ـه فان الجمال منك حباء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا ... فاليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا ... با فمنك السنا ومنك السناء
وإذا ألهوا النبات فمن آ ... ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يمموا الجبال سجودا ... فالمراد الجلالة الشماء
وإذا تعبد الملوك فان الـ ... ـملك فضل تحبو به من تشاء
وإذا تعبد البحار مع الأسـ ... ـماك والعاصفات والأنواء
وسباع السماء والأرض والأر ... حام والأمهات والآباء
لعلاك المذكرات عبيد ... خضع والمؤنثات إماء

أراد شوقى أن يسرد تاريخ ديانات أهل مصر فقال : انهم قبل أن تنزل الكتب

السماوية كالتوراة والانجيل والقرآن تحيروا فى العبادة وذهبوا مذاهب شتى يجمعها حقيقة واحدة هى الاعتقاد بالله ، ولكنهم نشدوه من طرق مختلفة فهذا يعبد القوى وذاك يعبد الجميل وذلك ينحت التماثيل ومنهم من عبدوا الكواكب ومنهم من قدسوا الأشجار ومنهم من انحنوا للجبال ومنهم من ألهوا الملوك ومنهم من سجدوا للبحار والأسماك والعواصف والطير والوحش وغيرذلك،وكل المرادالمقصود المنشود هوالحقيقة الالهية . كأنما شوقى يعتذر عن تنوع عباداتهم هذه وتسفل بعضها حتى صارت الى الحيوانات بجهل الناس هناك الطريق القويم لعدم وجود الدليل فكانت عقول الخلق فى طفوليتها وكانوا يخشون ويرجون ويفزعون ويضرعون ولا ينزل عليهم وحى يعرفون انه الحق فيعولون عليه، وما زالوا فى هذه الحيرة حتى جاءت الرسل فأنارت الطريق وحصحص الحق.وقد قدم شوقى هذا الاعتذار عن تخبط البشر فى عقائدهم بقوله : يا رب إننا عشقناك وهمنا وراءك فى كل مكان فلا عجب ان كنا ضللنا السبل

رب هذى عقولنا فى صباها نالها الخوف واستباها الرجاء
فعشقناك قبل أن تأتى الرسـ ـل وقامت بحبك الاعضاء
واتخذنا الاسماء شتى فلما جاء موسى انتهت لك الاسماء

ثم ذكر كيف أن فرعون ربى موسى واعتمد على وفائه فخانه موسى لأجل ربه لأنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق فقال :

ظن فرعون أن موسى له وا ف وعند الكرام يرجى الوفاء
لم يكن فى حسابه يوم ربى ان سيأتى ضد الجزاء الجزاء
فرأى الله أن يعق وللـه تنى لا لغيره الانبياء
مصر موسى عند انتماء وموسى مصر ان كان نسبة وانتماء
فبه فخرها المؤيد مهما هز بالسيد الكليم اللواء

فقد خرجنا هنا بالمصريين من عهد الرموز والتماثيل والعبادات المتنوعة والآلهة أشكالا وألوانا الى عبادة الواحد الأحد الذى دل عليه موسى عليه السلام فوضع أساس الشريعة الالهية . ثم تلاه عيسى عليه السلام أيضا فوصف شوقى مولد عيسى عليه

السلام بما لا أظن عيسويا على وجه الارض قال أحسن منه ولا مثله ألا ترى انه ليس فيمن ينطق بالضاد من مسلم ومسيحى تقريباً من يجهل هذه الأبيات :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليدوضاءت بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يس ري من الفجر فى الوجود الضياء
تملأ الأرض والعوالم نورا فالثرى مائج بها وضاء
لا وعيد لا صولة لا انتقام لا حسام لا غزوة لا دماء
ملك جاور التراب فلما مل نابت عن التراب السماء
واطاعته فى الاله شيوخ خشع خضع له ضعفاء
أذعن الناس والملوك الى ما رسموا والعقول والعقلاء
فلهم وقفة على كل أرض وعلى كل شاطئ إرساء
دخلوا ثيبة فأحسن لقيا هم رجال بثيبة حكماء
فهموا السر حين ذاقوا وسهل أن ينال الحقائق الفهماء
فاذا الهيكل المقدس دير وإذا الدير رونق وبهاء
واذا ثيبة لعيسى ومنفيـ س ونيل الثراء والبطحاء
انما الأرض والفضاء لربى وملوك الحقيقة الأنبياء
لهم الحب خالصاً من رعايا هم وكل الهوى لهم والولاء
انما ينكر الديانات قوم هم بما ينكرونه أشقياء

بعد أن ذكر مجيء موسي بالشريعة الالهية جاء الدور الى عيسى فقال انه بمولده ولد الرفق والحياء والمروءة وانتشر النور فى الأرض وكانت شريعة ليس فيها شيء غير اللين والعطف واللطف وتحمل الاذى وحب الاعداء والعفو عن الذنب وعدم مقابلة الشر بالشر وقد عاش عيسى عليه السلام ماعاش الى أن رفعه ربه الى السماء فناب عنه فى الأرض الحواريون وهم قوم ضعفاء مساكين صيادو سمك أطاعوه فصاروا بطاعتهم له سادة الارض وخضعت لهم الملوك والقياصرة فضربوا فى البلاد وقطعوا البحار ونزلوا

بكل شاطئ وجاء أحدهم (مرقص) فدخل ثيبة احدى عواصم مصر فتلقاه أهلها وكانوا حكماء فذاقوا الكلام الذى جاء به مرقص واتبعوا ذلك النور الذى معه ، وليس بعجب أن يفهم الحكمة الحكماء ، فردوا هيا كلهم كنائس وصارت مصر لعيسى ، وحقيقة الأمر أن ملوك العالم هم الأنبياء فالناس تطيعهم من دون الملوك لأن طاعة الأنبياء تخالط القلب وطاعة الملوك لاتخالط الا الجسم ، والأنبياء لهم الباطن والملوك لهم الظاهر وما أنكر الأديان قوم الا شقوا بما أنكروه. ثم قال :

هرمت دولة القياصر والدو   لات كالناس داؤهن الفناء
ليس تغنى عنها البلاد ولا ما   ل الاقاليم ان أتاها النداء
نال روما مانال من قبل آثيـ   ـنا وسيمته ثيبة العصماء
سنة الله فى الممالك من قبـ   ـل ومن بعد مالنعمى بقاء

أراد شوقى هنا أن يذكر هرم الدولة الرومانية وأن الدول تهرم كما يهرم الرجال حسبما قال ابن خلدون وانها لايغنى عنها كثرة الملك والمال اذا أتاها أمر ربها (فاذاجاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . فرومة نالها مانال من قبلها آثينا عاصمة يونان وثيبة عاصمة مصر ولم تكن دولة تبقى الى الابد . ولما هرمت الدولة الرومانية انتشرت فى نواحيها الضلالة ففتك بها الجهل وتشبعت المذاهب وأخذ الناس يقتتلون على العقائد وعادوا الى مثل الوثنية الاولى وقطعوا ماأمر الله به أن يوصل فرأى الله أن لابد من القوة لاقامتهم على الحق وأنه لابأس بالسيف اذا لم ينجح الوعظ ولم تغن النذر وقد يقطع الطبيب عضواً من الجسم لسلامة سائر الاعضاء فقال شوقى وقد جعل هذه الحالة توطئة لظهور محمد عليه الصلاة والسلام :

وتولى على النفوس هوى الأو   ثان حتى انتهت له الاهواء
فرأى الله أن تطهر بالسيـ   ـف وان تغسل الخطايا الدماء
وكذاك النفوس وهى مراض   بعض أعضائها لبعض فداء
لم يعاد الله العبيد ولكن   شقيت بالغباوة الاغبياء
واذا جلت الذنوب وهالت   فمن العدل أن يهول الجزاء

أشرق النور فى العوالم لما بشرتها بأحمد الأنبياء
باليتيم الأمىّ والبشر المو حى اليه العلوم والأسماء

فهو يقول: ان الله لا يريد لعباده الا الخير ولكن بعض عباده أصروا على المعاصى ومردوا على النفاق . واذا كانت الذنوب عظيمة وأعظمها هو الشرك فمن العدل أن تقمع بالسيف إذ لا حيلة فيمن كانت قلوبهم غلفاً وآذانهم صما ولذلك أرسل الله الرسول العربى اليتيم الامى الذى أنزل عليه الفرقان فمحا الشرك وشدخ يافوخ الكفر، وقد كنت أحب أن يستعمل شوقى محل قوله : فمن العدل أن يهول الجزاء . قوله : فمن العدل أن يجل الجزاء . لأن جزاء تلك الذنوب التى عددها لم يكن قاسيا هائلا بالنسبة اليها . وكان ينبغى لشوقى أن يذكر مبدأ الرسالة المحمدية بالنصح والقول الحسن ودعوة الناس الى الحق مدة مديدة من الزمن ليس فيها بأس ولا شدة ولا شئ يختلف عن دعوة عيسى لقومه الى أن أصر المشركون على عنادهم وحاولوا قتل الرسول الأمين لأجل بلاغه المبين فهاجر الى قوم نصروه وآزروه حتى لا تموت الدعوة ولا تذهب الحقيقة ضحية أهواء ذوى السلطة وأنصار الضلالة فلم يقع الجزاء إلا بعد ان انقطع الرجاء وما كان إلا جزاء وفاقا .

ثم قال :

قوة الله ان تولت ضعيفا تعبت فى مراسه الاقوياء
شرف المرسلين آيته النط ق مبيناً وقومه الفصحاء
لم يفه بالنوابغ الغر حتى سبق الخلق نحوه البلغاء
وأتته العقول منقادة اللب ولبى الاعوان والنصراء
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع الله والحق والصواب وراء
فلجبريل جيئة ورواح وهبوط الى الثرى وارتقاء
يحسب الافق فى جناحيه نورا سكنته النجوم والجوزاء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياء يهدى بها من يشاء

نسخت سنة النبيين والرسـ ـل كما ينسخ الضياء الضياء

وحماها غر كرام أشـدا ء على الخصم بينهم رحماء

قال: ان الله اذا تولى ضعيفا لم تقدر على مقاومته الأقوياء ومن ينصره الله فلا غالب له وهو يشير الى قوله تعالى: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) وقال: ان محمدا هو أشرف المرسلين وان الله بعث كل رسول بآية وان آية محمد عليه السلام كانت النطق المبين لأنه بعث فى قوم فصحاء، لسانهم أفصح الألسنة وقرائحهم أصفى القرائح فهم أقرب أن يتأثروا بالفصاحة من كل قبيل، ولذلك لم يفه الرسول بتلك الكلمات النوابغ حتى أقبل البلغاء عليه قبل غيرهم وانقادوا له وقد كان الناس أوائذ فى شقاق بعيد وفى ارتكاب محارم يئدون بناتهم ولا يعلمون حلالا ولا حراماً وكان يتسلط قويهم على ضعيفهم ويجعلون الحق دبر آذانهم فنزل جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بالشريعة التى ألفت بين قلوبهم وجعلتهم اخواناً وطهرت خلائقهم من تلك الآثام التى كانوا منغمسين فيها ونقلتهم من عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن وذلك كله بآيات القرآن الذى نسخ ما قبله لا نسخ ضياء لظلام بل نسخ ضياء لضياء لأن شريعة موسى كانت حقاً فجاءت شريعة عيسى فأكملتها ولأن شريعة عيسى كانت حقاً فطرأت عليها طوارئ فجاءت شريعة محمد فقومتها وأعادتها الى أصلها.

قال: وقد تولى حماية هذه الشريعة الجديدة صحابة للرسول كرام (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ثم قال:

أمة ينتهى البيان اليها وتؤول العلوم والعلماء

كلما حثت الركاب لأرض جاور الرشد أهلها والذكاء

وعلا الحق بينهم وسما الفضـ ـل ونالت حقوقها الضعفاء

تحمل النجم والوسيلة والميـ ـزان من دينها الى من تشاء

وتنيل الوجود منه نظاما هو طيب الوجود وهو الدواء

يرجع الناس والعصور الى ما سن والجاحدون والأعداء

فيه ما تشتهى العزائم إن همْ ذووها وتشتهى الاذكياء
فلمن حاول النعيم نعيم ولمن آثر الشقاء شقاء
أيري العجم من بنى الظل والمـ ـاء عجيبا أن تنجب البيداء
وتثير الخيام آساد هيجا ء مراها آسادها الهيجاء
ما أنافت على السواعد حتى الـ أرض طراً فى أسرها والفضاء
تشهد الصين والبحار وبغدا د ومصر والغرب والحمراء

يقول: ان الامة العربية أمة ينتهى اليها البيان وتجد فيها العلوم صدوراً منشرحة فهى تقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزنا للعلماء حيث كانوا فكانت كلما استولت على قطر اهتز العلم فيها وربا ونشأ فيه العلماء الفحول وعلت راية الحق ونال كل انسان مايستحقه بعمله واضمحلت الطبقات وارتفعت الفروق وعلم الناس أنهم شرع فى نظر الشرع وان أكرمهم عند الله أتقاهم وان الملك والسوقة سواء وان جبلة الا يهم اذا لطم الاعرابى يقاد منه فى الحال وان الحد الشرعى يقام على الجميع من دون مراعاة وعلى ابن الخليفة، وأن الرسول يهتف قائلا :(لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لأمرت بقطع يدها) وأن عمر يقول :(والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فان من قصر به عمله لايسرع به نسبه) وأن الرسول كان يقيد من نفسه وأن عمر كان يقيد من نفسه وأن علياً كان يساوى اليهودى فى القضاء فكانوا يصدعون بمبادئ القرآن ويطبقونها على الكبير والصغير، وصادف أن الدولة الفارسية والدولة الرومانية كانتا قد أسرع اليهما الفساد وضاعت فيهما الحقوق وعلاالقوى فوق الضعيف فماظهر الاسلام حتى انهارت الاولى لديه انهياراً تاما وتقلصت الثانية أمامه تقلصاً أورث الاسلام ثلثى ممالكها .

فالعرب حملوا العدل الذى فى دينهم الى الامم التى استولوا عليها وأثاروا فيها حب العمران والسعى فى منا كب الارض وصار هذا الدين نظاماً للوجود يرجع الناس اليه فى أمور الدنيا والعقبى ولم يكن بدين آخرة فحسب بل كان ناظما للدنيا والاخرى معا ، أحل الله فيه الطيبات ويسر ما تشتهى نفوس الاذكياء وانما حرم الاسراف

والخيلاء والاثم والاعتداء والمشى فى الارض مرحاً فهو دين بر بمن بره صارم على من عقه . ثم قال :

ولم يكن عجباً أن أبناء الصحراء يفوقون أبناء الظل والماء ويبتزون منهم ممالكهم فطالما كانت الصحارى مواطن الآساد فما ثارت هذه الآساد من بادية العرب حتى رأينا الأقطار تنتظم فى ملـكهم من الصين شرقاً الى المغرب والأندلس غربا . ثم قال :

من كعمرو البـلاد والضاد مما   شاد فيها والملة الغراء
شاد للمسلمين ركنا جساماً   ضافى الظـل دأبه الايواء
طالما قامت الخـلافة فيه   فاطمأنت وقامت الخلفاء
فابك عمراً ان كنت منصف عمرو   ان عمراً لنير وضاء
جاد للمسلمين بالنيل والنيـ   ـل لمن يقتنيـه أفريقاء
فهى تعلو شأنا اذا حرر النيـ   ـل وفى رقه لها إزراء

لم يكن لشوقى بد من ذكر عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو فاتح وادى النيل للاسلام وممتعه بتلك النعم الجسام . قـال شوقى : ان العروبة والاسلام كانا فى مصر من غرس يدى عمرو وانه جعـل من مصر ركنـاً للملة الاسلامية تأوى اليه وتدر خيراتها عليه فاذا مست المجاعة أهل المدينة (دار الخلافة وقتئذ) أغاثها عمرو بالأرزاق المتصلة من وادى النيل . قال : ففضل عمرو على الاسلام لاحد له لأنه ملك المسلمين النيل والنيل هو افريقيا وكنى بذلك وصفاً لعظمة العمل الذى قام به عمرو بن العاص.

ويظهر أن شوقى استطال تاريخ مصر فى الاسلام فلم يشأ أن يعرج منه إلا بالحادثات الكبر وطوى دور الأمويين فى مصر ودور بنى العباس فلم يقل شيئاً عن آل طولون ولم يعرج على الفاطميين مع أنه كانت لهم دولة زاهرة لمعت ردحاً من الدهر ولعله تجانف عن ذكرهم بحيدهم عن طريق السنة والجماعة. وبالجملة فقد قفز شوقى من زمن عمرو بن العاص طفرة واحدة الى زمن صلاح الدين الأيوبى ، فقال :

واذكر الغر آل أيوب وامدح   فمن المدح للرجال جـزاء
هم حمـاة الاسلام والنفر البيـ   ـضُ الملوك الأعزة الصلحـاء

كل يوم بالصالحيـة حصن ... وبيلبيس قلعـــة شمـاء
وبمصر للعـلم دار وللضـيفا ... ن نار عظيمـة حمـراء
ولأعـداء آل أيوب قتـل ... ولأسراهمُ قـرى وثواء
يعرف الدين من صلاح ويدرى ... من هو المسجدان والاسراء
إنـه حصنه الذى كان حصناً ... وحماه الذى به الاحتمـاء

أشار الى ما كان عليه بنو أيوب من الحمية وعزة النفس الاسلامية والصلاح والجهاد وأنهم كانوا يبنون الحصون ويشيدون دور العلم ويقرون الضيوف ويوقدون نار الوغى للاعداء ونار القرى للقصاد ويكرمون اسراهم شأن الابطال الكرماء وان الدين الاسلامى يعرف مقام صلاح الدين من حمايته وان الحُرم الثلاثة تعرف خدمته العظيمة . أشار بقوله المسجدان الى مكة والمدينة وبقوله الاسراء الى القدس الشريف وقال انه كان حصنا للقدس وحمى لذلك الحمى .. ثم اتى على ذكر الحرب الصليبية لأنها من الملاحم الكبرى فقال :

يوم سار الصليب والحـاملوه ... ومشى الغرب قومه والنسـاء
بنفـوس تجول فيهـا الأمـانى ... وقلوب تثور فيهـا الدمـاء
يضمرون الدمار للحق والنا ... س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدون بالتلاوة والصلـ ... ـبان ما شـاد بالقنـا البنـاء
فتلقتهم عـــزائم صـدق ... نص للدين بينهن خبـــاء
مزقت جمعهم على كل أرض ... مثلمـا مزق الظلام الضيـاء
وسبت أمرد الملوك فرد ... ه وما فيــه للرعـايا رجاء
ولو ان المليك هيب أذاه ... لم يخلصه من أذاها الفداء
هكذا المسلمون والعرب الخا ... لون لا ما تقوله الاعـداء
فبهم فى الزمان نلنـا الليـالى ... وبهم فى الورى لنا أنبـاء
ليس للذل حيـلة فى نفوس ... يستوى الموت عندها والبقاء

من أحسن مزايا شوقى رسوخه فى اللغة فهو يقول (قومه والنساء) وذلك لان

القوم هم جماعة الرجال خاصة لأنهم يقومون بعظائم الامور

وقد قابل القوم بالنساء كأنه يقول : ومشى الغرب رجاله والنساء وقد كانوا فى حرب الصليب جاءوا بالفعل رجالا و نساء .

أما النساء فمنهن من كن قد جئن مع أزواجهن ومنهن من كن قد استجلبن للرفث وكان هذا الجيش من النساء كثيراً فى جيش الافرنج وقد وصفهن العماد الاصفهانى الكاتب فى الفتح القدسي بأسجاعه المعهودة وجناساته المعروفة وصفاً يلذ المجان ولكنه ينبئ بحقيقة تاريخية تدل على أن هذا الأمر قديم العهد فى جيوش الافرنج

ثم ان شوقى يشير كيف جاء الصليبيون بنفوس ملأى بالأمانى وصدور مفعمة بالأحقاد يريدون أن يقضوا على الاسلام ويخنقوا كل من دان به وأن يهدموا الحق وأن يدمروا من جاء بالحق .

وقال: انهم لما هاجموا بلاد الاسلام تلقتهم من المسلمين عزائم صادقة نهض بها الدين فنثرت جموعهم على كل أرض واسرت فى بعض هذه الحروب لويس التاسع ملك فرنسا الذى يقال له القديس لويس وانقطع أمل قومه منه ولكنه فدى نفسه بالمال بعد مدة من أسره ولو كان المسلمون خافوا عاقبة اطلاقه ما قبلوا منه الفدية ولكنهم كانوا أوثق بانفسهم واعظم اتكالا على الله من أن يخافوا عاقبة تسريح ملك من ملوك أوربة .

قال : وكان هكذا المسلمون من العز والمنعة. وعطف على قوله : (المسلمون) بقوله : (والعرب الخالون) من باب التخصيص على حد (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى) وانهم لم يكونوا كما يصورهم الافرنج للناس، واننا بهم سدنا فى العالم زمناً طويلا وورثنا ما ورثناه من تاريخ مجيد. وقال : إذا استوى عند أمة الموت والحياة فلا حيلة فيها للعدو وهو من قبيل :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد　　لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ولا بد لى هنا من الوقوف بعض الشئ بل من الاعتراض على شوقى رحمه الله فقد قصر المسافة بين زحف الصليبيين وبين تلقى المسلمين لهم بعزائم الصدق . والحال

ان بين العهدين حقبة يصح أن تسمى دهراً، وذلك ان أول وقعة أصلتها الجموع الصليبية الجيش الاسلامى كانت واقعة نيقية فى الأناضول التى وقعت بين الصليبيين والترك وفاز بها الصليبيون واسترجعوا نيقية وتاريخها ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧ ومنذ ذلك اليوم الى واقعة «حطين» التى قضت على دول الصليبيين فى الشرق تسعون سنة كان فيها الصليبيون يسرحون ويمرحون فى ظل فوضى الاسلام ومشاقة بنيه بعضهم لبعض فانه ما رأى الراءون ولا روى الراوون ولا يمكن أن يتصور العقل مهما كان واسعاً ولا الخيال مهما كان خصباً درجة الفوضى التى كانت عليها الدول الاسلامية وقتما زحف الصليبيون الى الشرق. ففى كل بلدة أمير ثائر على سلطانه وفى كل قصبة شيخ ثائر على أميره وفى كل قطر دولة تناوئ أختها وفى كل مملكة وزراء يمدون أيديهم فى الخفاء إلى أعداء دولتهم والفاطميون فى مصر حرب على العباسيين فى بغداد والسلاجقة حرب بعضهم على بعض بين فرع ألب أرسلان أصحاب فارس وفرع قطولش أصحاب قونية والأناضول وجميع السلاجقة أعداء للدانشمنديين أصحاب شرقى الأناضول. وهذا كله سهل لا يعد شيئاً بالقياس الى فوضى سورية التى كان كل من فيها تقريباً يريد أن يكون مستقلا

فالشام فى يد دقاق السلجوقى، وحلب فى يد رضوان أخيه وهما يقتتلان برغم أنهما أخوان، وحماة فى يد أمير. وحمص فى يد أمير آخر. وطرابلس لها أمراء وفلسطين يتقاسمها الفاطميون والسلاجقة ولا يقيم العامل فى عمله أكثر من أشهر معدودة حتى يثور على دولته طمعاً فى الاستقلال. ولا يوجد قائد حصن إلا وهو يأبى أن تكون فوق يده يد، وقد جاء الصليبيون فارتكبوا من الذبح والفتك والقتل العام وحصد الرءوس بلا استثناء واستئصال الأهالى المسالمين كالمحاربين واتلاف النساء والأطفال والشيوخ والأسرى والتجاوز على الأعراض وانزال المعرات ببيوت الصون والستر مالا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على بال، وأسالوا من الدماء فى انطاكية ومعرة النعمان وحارم وتل باشر وعزاز والرها وسروج وشيزر وحماة واللاذقية وطرابلس وبيروت ويافا وعسقلان وعكا ما لا تصف هوله الألفاظ ولا تبلغ كنهه العبارات. والطامة الكبرى فى القدس حيث تعترف تواريخهم نفسها بأن الخيل غاصت فى الدماء

الى صدورها وتواريخ العرب تقول ان الذين ذبحهم الصليبيون فى المسجد الاقصى كانوا سبعين ألفا بينهم النساء والاطفال .

وكل هذا لم يكن كافياً فى نظر المسلمين مدة تسعين سنة أن يتحدوا فى وجه العدو، وأن يتركوا الشقاق والعداء فيما بينهم ، ويتخلصوا من هـذه المجازر المستمرة التى كان الافرنج يرتكبونها فيهم ويفتنونهم ـ لا فى كل عام بل فى كل يوم ـ مرة أو مرتين وهم لايدركون ، بل كانوا يمدون أيديهم لمعاهدة الافرنج وقد يجتمعون معهم على إخوانهم وجيرانهم ويكون الافرنج قد قفلوا من بلدة للمسلمين فتحوها واستأصلوا جميع من فيها فيأتى اليهم أمير من أمراء المسلمين وهم غائصون فى دماء المسلمين يعاهدهم ويمشى معهم على أمير آخر من قومه كأنه لم يفعل شيئاً .

ولما فتح الصليبيون انطاكية وذبحوا تلك الالوف المؤلفة من مسلمى انطاكية وما يجاورها كانت الدولة الفاطمية ترسل وفداً من القاهرة لتهنئة الصليبيين بهـذا الفتح العظيم وتعرض عليهم الحلف، وكان الصليبيون قد ظفروا بالمسلمين فى إحدى الوقائع يوم كان الوفد الفاطمى ضيوفاً عنـدهم فأرسل أمراء الصليبيين الى الوفد الفاطمى ثلاثمائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين ينفحون الوفد بها ويكرمونه بمشاهدتها كما لو قدموا لهم شيئاً من الفاكهة مثلا . وكان الفاطميون يظهرون سرورهم بذلك الفوز الصليبى وكان الأمراء بنو عمار أصحاب طرابلس ينصحون الخـدمة للصليبيين ولولاهم لانكسر بودوين الأول عند ما كان فى شمالى سورية . ومن أمثال هذه النوادر أشياء لا تدخل تحت الاحصاء قد استقصيتها كلها من كتب العرب وكتب الافرنج معاً ومحصتها تمحيصاً لا يدع إمكاناً لعارض شك ينقدح فى صحتها

ولم تكن هذه الحوادث عبارة عن فلتات جاءت على خلاف القياس أو وقعت فى الأحايين من غير انتباه بل استمرت هذه الفوضى الاسلامية بشكل لايمكن عقل عاقل أن يدرك مداه مدة ستين الى سبعين سنة. وما كفى تمزيق المسلمين بعضهم لبعض حتى نجمت منهم فرقة الاسماعيلية الحشاشين وتمالأوا مع الافرنج وصار هؤلاء كلما خشوا عادية أمير مسلم يرون فيه خطراً عليهم أو يبدو لهم منه أنه يسعى فى جمع شمل

الاسلام رموه بهؤلاء الحشاشين فذهب هؤلاء واغتالوه. وقد يكونون فى هذه المؤامرة فى اتفاق مع أناس من ملوك المسلمين وذلك كما اغتيل مودود قائد الجيش السلجوقى الذى جاء لاستنقاذ مسلمى سورية فخاف طغطكين أمير دمشق من مغبة الأمر وأرسل من اغتاله فى الجامع الأموى وهو يصلى وكان ذلك بتواطؤ بين طغطكين والصليبيين، وكما اغتيل برسق صاحب حلب والموصل وهو يصلى فى جامع الموصل وكان من كبار المجاهدين. وكثيراً ما جاءت جيوش جرارة من آل سلجوق مجتمعة من فارس والعراق والجزيرة لاجل استخلاص سورية من أيدى الافرنج فلم تكن تصل هذه الجيوش الى سورية حتى تجد كثيراً من أمراء المسلمين فى سورية قد انحازوا الى الافرنج ووقفوا صفاً واحداً معهم فى وجه تلك الجيوش الآتية لاستنقاذهم وقاتلوها أشد قتال . ثم ترجع هذه الجيوش الى بلادها وتترك المسلمين فى سورية بازاء الافرنج فيعود الافرنج ويكرون على المسلمين وينقضون العهد الذى كانوا عاهدوهم إياه ويذبحون الرجال والنساء والاطفال ثم لا تجد المسلمين يتوبون ولا يذكرون ، ولا تجد مع ذلك أمراء الاسلام فى سورية مستفيدين أىّ عبرة من نكث الافرنج المتكرر ولا متناهين عن غيهم وغرامهم بالشقاق وقتال بعضهم بعضا .

وانى لأجد هذا الشقاق فى كل أمة ولا يخلو منه مكان وقد وقع بين الصيلبيين أنفسهم ، ولكن ان كان الشقاق عاما فلا شك فى أن تسعة أعشاره هى عند المسلمين والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها . وان فسح لى الوقت لأكتبن كتابا وأسميه (الفوضى الاسلامية وما جنته على المسلمين ، والوحدة الاسلامية وما جنته للمسلمين) وحسبك أن الصليبيين بعد فتحهم للقدس رجع أكثر المقاتلة منهم الى بلادهم . قيل انه رجع منهم عشرون ألف مقاتل فلم يبق فى القدس الا عدة مئات لا غير أى كان بيت المقدس بقى بلا حامية وكانوا أوانئذ لو جمعوا جميع جند الصليبيين فى سورية لما زادوا على أربعة أو خمسة آلاف وهم مع ذلك أشتات فى كل بلدة منهم شرذمة يسيرة . ومع هذا فان فوضى المسلمين قد كفلت الصليبيين البقاء والاطمئنان ولم تحدثهم أنفسهم بأن يتحدوا على هذه الشراذم المشتتة ويخلصوا بلادهم من العبودية لها

ومازال هذا الامر على هذه الصفة التى ليس لها مثال فى التاريخ حتى ظهر عماد الدين زنكى وهو عامل من عمال السلاجقة، فكان أول واضع لأساس الوحدة السورية فى وجه الصليبيين بعد أن أدّب ملوك الطوائف من المسلمين ، وتلاه ابنه نور الدين العادل الشهير الذى وطد تلك الوحدة فتمكن من الايقاع بالصليبيين وأراهم أن فى السويداء رجالا ، ثم تلاه صلاح الدين يوسف فكان ما كان مما لايحتاج الى بيان .

وقد حذف شوقى هـذا القسم المؤلم المخجل المدمى للقلوب من تاريخ الاسلام فى قصيدته هذه وطوى هاتيك الحقبة التاعسة التى وصمت الإسلام بالعار وأدهشت الافرنج أنفسهم مما رأوا من تخاذل المسلمين ، وجاء رأساً ينـوه بعزائم صـلاح الدين ورهطه التى بدلت الأرض غير الأرض ورأى فيها الافرنج من الاسلام غير الاسلام الذى عرفوه من قبل

ولراقم هذه السطور قصيدة فى صلاح الدين هى من شعر الملاحم نظمتها إذ أنا فى طبرية سنة ١٩٠٢ ومطلعها :

أحسن ما فيه يسرح النظر وادٍ بحيث الأردن ينفجر

وقد كانت مجلة المقتطف نشرتها فى حينها ثم أعادت جريدة الفتح نشرها فى العام الماضي وهى ستظهر فى ديوانى الذى هو الآن تحت الطبع فلذلك لا أجد داعيا لاعادتها هنا برمتها ولـكنى أذكر منها بعض أبيات :

أمس عيسى هنا شريعته وقوم موسى توراتهم فسروا
وفى حروب الصليب قد رفعت رايات دين الذى نمت مضر

وقبل أن دخلت فى تاريخ صلاح الدين وجدت فرضاً ذكر المقدمة التى مهدت له طريق الوحدة الإسلامية بإزاء الافرنج بدلا من تلك الفوضى وهى دولة آل زنـكى عماد الدين بن آق سنقر ثم ولده نور الدين العادل المشهور بالعدل والزهد وحب الجهاد فقلت فيه :

فاتحة النصر فى ولاية نور الد ين ملك بالعدل يأتزر
تقر عين النبى سـيرته ويرتضى مثل هديه عمر

مجاهد ماهد بغرّته زال البلا واستحالت الغير

ثم ذكرت تربية نور الدين لصلاح الدين وكيف أصلح صلاح الدين يوسف أحوال المملكة المصرية فقلت :

أصلح شعث الامور فانقلبت بيوسف مصر وهى تفتخر

وأما يوم حطين فقلت فيه :

يا يوم حطين كم حططت من الـ أفرنج شأنا ما كان ينكسر
عدوا على الشرق بالجيوش فلم يعص عليه بدو ولا حضر
وكل جيش أرلد صدهمو عادوا به وهو للقنا جزر

ومنها فى وصف الواقعة :

الشرق والغرب بعد طول وغى تبارزا والبراز مختصر
ثلاثة والنزال بينهما نزال من بعد يومه العُصر
فمن هنا آل احمد دلف والذكر يتلى فى الصف والسور
ومن هنا معشر المسيح مشي والصلبوت الشهير والصور
كأنما قومنا وقد وثبوا زعازع للغصون تهتصر
كأنما قومنا وقد ثبتوا شمٌّ حصون لها القنا جُدُر
كم من بغى طَيره بأجنحة اذ قصرت عن ضميره الضمر
ذاق العدى من سلاف طعنهم خمراً بغير العنقود تعتصر

ثم ذكرت كيف دارت الدائرة عليهم وفر منهم امبراطور طرابلس مع خيله ووقع جيشهم كله فى الاسر :

لما رأوا الأمر غير ما حسبوا والناس من فوق صبرهم صبروا
ولوا ظبى يوسفٍ ظهورهمو تأخذ منها فوق الذى تذر
وأدبر القُمص مع فوارسه ما غره مثل غيره الغرر
والهيكليون مع قساورهم لم يبق الا هياكل دُثُر
لم يجبنوا ساعة وان فشلوا وانما الليث دونه النمر

أوثق بالأسر كل جيشهم وأصبح الملك ضمن من أسروا
قاصمة الظهر للفرنج غدت وقمة قرنى حطين مذ ظهروا
بها جدود الاسلام قد صعدت من بعد ما كان أهله عثروا
حظ ابن أيوب أن يفوز بها والله فى خلقه له أثر
وحظ قوم بغوا الجهاد فلم يشغلهمو عن جهادهم وطر

ومنها فى كيفية استحياء صلاح الدين للافرنج بعد أن صاروا جميعاً فى قبضة يده قيل كان عددهم ذلك اليوم ثلاثين الف مقاتل وقيل خمسين الفاً :

أبى عليه الإباء مصرعهم وعفوه والخلائق الزُهر
أراد أن يشهدوا باعينهم عفة أهل الاسلام إذ قدروا
ان ذويه الأعلون فضلهمو فى الحرب والسلم ليس ينحصر
وانه فى السلام غالبهم وغالب والحروب تستعر
عومل بالاسر موقن بردى وجلّ ملكا مع العمى العور

ومنها فى كيفية قتله للبرنس ارناط أمير الكرك وهو من امراء فرنسا . يقال له reinaud de chatillon وكان هذا الامير من أخبث امراء الافرنج خلقاً وأسوأهم عهداً وأكثرهم نكاية بالمسلمين، ومراراً أراد صلاح الدين أن يصمد اليه فى الكرك ويريح الاسلام منه فكان يستشفع لديه ويتعهد باصلاح نفسه، وكان صلاح الدين رحمه الله يصفح عنه لما هو معروف به من سعة الصدر والميل الى العفو . ولكن ارناط كان غداراً لا حيلة فيه

وأخيراً قبض أرناط على قافلة من الحجاج قاصدة الى الحجاز فألقى بهم فى سجن قلعة الكرك ونهبهم وجردهم من كل ما معهم وقال لهم : ادعوا محمدكم يخلصكم ووصل خبر هذه الواقعة الى صلاح الدين وكان وقتئذ فى الديار الجزرية يفتقد ملكه هناك ، فأنحى الناس على السلطان صلاح الدين باللائمة وقالوا له : انك مازلت تعفو عن هذا الرجل الذى لا يستحق العفو فتأمل الآن ماذا صنع بعد عفوك . وكان صلاح الدين ذلك اليوم مريضاً قد اشتدت به العلة. وما زالوا به حتى أقسم لهم بأنه اذا وقع

ارناط فى يده ليقتلنه بيده فكان وقوع ارناط فى يوم حطين مع ملك القدس وسائر امراء الافرنج وجلس السلطان بعد انتهاء الواقعة وجلس أمامه الامراء الافرنج ومن شدة الحر جيء بماء مثلوج فشرب منه السلطان وأعوانه وشرب أمراء الصليبيين ، ولما وصل الدور الى ارناط قال السلطان للساقى : أنت سقيته أما أنا فلم أسقه . قال القاضى بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المسماة بالمحاسن اليوسفية وكان ملازما للسطان يقيد كل مايراه ويسمعه : ان صلاح الدين كان على جميل عادة العرب لا يجوّز قتل من نزل وأكل من الزاد وشرب من الماء، فأراد أن يقول ان الساقى هو الذى سقى ارناط من نفسه .

ففهم الناس من هذا أن السلطان لا يريد أن يعفو هذه المرة عن برنس الكرك بعد أن نذر بقتله . ثم قام السلطان وانتهر ارناط وضربه بالسيف فرماه وأجهز عليه الاعوان وعند ما رماه فى الأرض قال له : أنا اقتص منك لمحمد . فأخذ ملك الافرنج يرتجف ظناً بان السلطان قاتله فى تلك الساعة كما قتل ارناط فقال له صلاح الدين : ليسكن روعك فان الملوك لا يقتل بعضهم بعضاً وانما نذرت قتل هذا الرجل لكثرة ما أفحش من النكاية بالمسلمين وكل مرة كنت أصفح عنه وهو يعود الى غدره ثم انه قذف علناً نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلهذه الامور قد استثنيته من العفو .

ولقد أوردت هذه الحادثة فى الابيات الآتية :

عفواً به عمَّهم وأخرج من بنكثه السهل ضاق والوعر
وَفَى بأرناط نذره بيد إذ طالما لم تحكْ به النذُر
وقال إذ تلّه بصارمه ها أنذا للنبىّ انتصر
أزوج تحت التهليل مهجته مخضوبة صارما هو الذكر
فأصبح الملك وهو مرتجف يملأه بعد ما رأى الذعر
أبصر جسم البرنس منعفراً فقال إثر البرنس أقتفر
فأفرخ الرّوع منه ساعة إذ أبلغ ان لن يصيبه ضرر

ومنها فى ذكر حب صلاح الدين للعفو وشدة تحرجه من سفك الدماء حتى عابه

بعض المؤرخين وقالوا: انه بعفوه عن الافرنج وتركه اياهم بعد حطين وبعد فتح القدس مكتفياً بتجريدهم من السلاح قد جر على الاسلام مصيبة عظيمة فانهم ذهبوا الى صور واعتصموا بها ولما توافر جمعهم زحفوا منها وقاتلوه اشد قتال :

ان عيب بالحلم والوفا رجل فانه خيرُ ما هفا البشر

وقلت عن شدة تعظيم الافرنج الى الآن لقدر صلاح الدين بسبب هذه الاخلاق العالية :

وكان من حرمة العدو له أن ذكره فى بلادهم عطر

وذكرت زيارة الامبراطور غليوم الثانى عاهل المانيا لضريح صلاح الدين فى دمشق وما أظهره من الخشوع فى ذلك المقام :

تغدو عظام الملوك واقفة ببابه وهو أعظم نخر
وينحنى حاسراً بتربته رأسٌ بأعلى التيجان معتجر

وقد ذكر هذه الزيارة شوقى بعد وقوعها بقليل أى سنة ١٨٩٨ فقال تحت عنوان تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر :

عظيم الناس من يبكى العظاما ويندبهم ولو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل فتى يحيي بمدحته الكراما
وما عذر المقصر عن جزاء وما يجزيهمو إلا كلاما
فهل من مبلغ غليوم عنى مقالا مرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام تعهد فى الثرى ملكا هماما
أرى النسيان اظمأه فلما وقفت بقبره كنت الغماما
تقرب عهده للناس حتى تركت الجيل فى التاريخ عاما
أتدرى أىَّ سلطان تحيي وأىّ مملك تهدى السلاما
دعوت أجلّ اهل الأرض حربا واشرفهم اذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا تعوَّد ان يلاقوه قياما
وكم جمعتهم حرب فكانوا حدائدها وكان هو الحساما

كلام للبرية داميات وانت اليوم من ضمد الكلاما
فلما قلت ما قد قلت عنه واسمعت الممالك والأناما
تساءلت البرية وهى كلمى أحباً كان ذاك ام انتقاما ؟
وأنت أجلّ أن تزرى بميت وأنت أبرّ ان تؤذى عظاما
فلو كان الدوام نصيب ملك لنال بحد صارمه الدواما

وقد ترجمتُ من عهد غير بعيد هذه الأبيات لجلالة الامبراطور غليوم الثانى وذكرت له من شوقى فى العالم العربى وانه كان اشعر شعرائنا، فارتاح جداً لهذه الابيات وترحم على قائلها. و اما البيت الاخير فقد وقع بينى وبين شوقى توارد خواطر على معناه لانى لما زرت مقام سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه فى حمص كتبت هذين البيتين على الجدار :

مغيبك سيف الله فى غمدك الثرى دليل بأن الله لا شك واحد
فلو أن فرداً خلدته فتوحه لما كان فى الاقوام إلاك خالد

وتاريخ هذين البيتين اقدم من تاريخ ابيات شوقى .

ولو لم يكن لشوقى الا ما قاله فى هذه القصيدة عن الحرب الصليبية لكان ذلك كافياً له حتى يلقب بالشاعر الاسلامى وهى الصفة التى استمالت له قلوب المسلمين شرقا وغربا فكيف وله فى هذا الباب يتائم تقلد بها جيد الدهر، وقد ذكر منها الكاتب البليغ الاستاذ محب الدين الخطيب مطلع قصيدته فى حرب الدولة العثمانية مع اليونان :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب
وما السيف إلا آية الملك فى الورى وما الأمر إلا للذى يتغلب
فأدّب به القوم الطغاة فانه لنعم المربى للطغاة المؤدب

وقوله عند سقوط ادرنة :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام
بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغيب الصمصام

وقوله يوم أسقط الكماليون فى تركيا منصب الخلافة :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواحى
يا للرجال لحرة موءودة قتلت بغير جريرة وجناح
ان الذين أست جراحك حربهم قتلتك سلمهمو بغير جراح
هتكوا بأيديهم ملاءة نحرهم موشية بمواهب الفتاح
إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك فى صريع الراح

وذكر له ماقاله فى الحج عندما دعاه الخديوى أن يكون معه وهو فى الدرجة القصوى من التأثير لا يقرأه قارئ الا ويستعبر

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم لبيت طهور الساح والعرصات
دعانى اليك الصالح ابن محمد فكان جوابى صالح الدعوات
وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى وجئت بضعفى شافعا وشكاتى
وفى راحتى ماض اذا ماهززته تركت عدو الله فى السكرات
أتيت به يارب نورا وحكمة ونزهته عن ريبة وأذاة
وتشهد ما آذيت نفساً ولم أضر ولم أبغ فى جهرى ولا خطراتى
ولا غلبتنى شقوة أو سعادة على حكمة آتيتنى وأناة
ولا جال الا الخير بين سرائرى لدى سدة خيرية الرغبات
ولا بت إلا كابن مريم مشفقا على حسدى مستغفراً لعداتى
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسى فى فعلى وفى نفثاتى
وانى ولا من عليك بطاعة أُجِلُّ وأغلى فى الفروض زكاتى
أبالغ فيها وهى عدل ورحمة ويتركها النساك فى الخلوات
وأنت ولى العفو فامح بناصع من الصفح ماسودت من صفحاتى
ومن تضحك الدنيا اليه فيغترر يمت كقتيل الغيد بالبسمات

ولعمرى من عرف شوقى معرفة تامة واختلط به لم يجده مبالغاً فيما ناجى به ربه ولشوقى عدا هذا قصائد نبوية مشهورة منها هذه الهمزية :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والسدرة العصماء
وحديقة الفرقان ضاحكة الربى ... بالترجمان شذية غناء
والوحى يقطر سلسلا من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواء
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة ... فى اللوح واسم محمد طغراء
اسم الجلالة فى بديع حروفه ... ألف هنالك واسم طه الباء
يا خير من جاء الوجود تحية ... من مرسلين الى الهدى بك جاءوا
بيت النبيين الذى لا يلتقى ... الا الحنائف فيه والحنفاء
خير الأبوة خارهم لك آدم ... دون الأنام وأحرزت حواء
هم أدركوا عز النبوة وانتهت ... فيها اليك العزة القعساء
خلقت لبيتك وهو مخلوق لها ... ان العظائم كفؤها العظماء

ومنها :

بسوى الأمانة فى الصبا والصدق لم ... يعرفه أهل الصدق والأمناء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلى ... منها وما يتعشق الكبراء
لو لم تقم ديناً لقامت وحدها ... ديناً تضىء بنوره الآناء
أما الجمال فأنت شمس سمائه ... وملاحة الصديق منك إباء
والحسن من كرم الوجوه وخيره ... ما أوتى القواد والزعماء
واذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت مالا تفعل الأنواء
واذا عفوت فقادراً ومقدراً ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
واذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء
واذا غضبت فانما هى غضبة ... فى الحق لا ضِغنٌ ولا بغضاء
واذا رضيت فذاك فى مرضاته ... ورضى الكثير تحلم ورياء
واذا خطبت فالمنابر هزة ... تعرو النَدِىّ وللقلوب بكاء

واذا قضيت فلا ارتياب كأنما ... جاء الخصومَ من السماء قضاء
واذا حميت الماء لم يورَد ولو ... أن القياصر والملوك ظِماء
واذا أجرت فأنت بيت الله لم ... يدخل عليه المستجير عداء
واذا ملكت النفس قمت ببرها ... ولو ان ما ملكت يداك الشاء
واذا بنيت فخير زوج عشرةً ... واذا ابتنيت فدونك الآباء
واذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء
يا أيها الأمىّ حسبك رتبة ... فى العلم ان دانت بك العلماء
الذكر آية ربك الكبرى التى ... فيها لباغى المعجزات غناء
صدر البيان له اذا التقت اللغى ... وتقدم البلغاء والفصحاء
نسخت به التوراة وهى وضيئة ... وتخلف الانجيل وهو ذكاء
بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهو حقيقة ... نادى بها سقراط والقدماء
لما دعوت الناس لبى عاقل ... وأصمّ منك الجاهلين نداء
أبوا الخروج اليك من أوهامهم ... والناس فى أوهامهم سجناء
ومن العقول جداول وجلامد ... ومن النفوس حرائر وإماء
داء الجماعة من ارسطاليس لم ... يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ... والامر شورى والحقوق قضاء

قد ذكر شوقى هنا مالم يكن أتى به فى همزية وادى النيل وما أشرت اليه فى تعليق على قصيدته تلك فأنت ترى انه لا يفوته شىء إن نقص كلامه فى محل كمل فى محل آخر ثم يقول :

الاشتراكيون أنتَ امامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء

أى ان الزكاة المشروعة فى الاسلام والتى هى والصلاة توأمان تضمن من سد الفقر وتقريب الطبقات بعضها من بعض ماتضمن المبادئ الاشتراكيه التى قاموا بها فى العصر الحاضر ولكن الاشتراكيين غلوا وأرادوا الطفرة فكان عملهم أبلغ فى الضرر من الحالة الأولى التى أرادوا الخلاص منها . ثم يقول :

الحرب فى حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء
والبر عندك ذمة وفريضة لامنة ممنونة وحباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان انساناً تخير ملة ما اختار الا دينك الفقراء

هو يقول ان الحرب فى تأييد الحق مشروعة فى الاسلام لاغبار عليها وهى دواء لسموم الضلال الناقعة وان البر ليس بفضيلة اختيارية فى الاسلام ولا ايثار بل هو فرض كفرض الصلاة لايجوز قطعه وان الزكاة يجب على المسلم اخراجها اذا أراد أن يكون مسلماً . فلا تعود الى ارادته والى خلقه من كرم أو لؤم وليس هذا فرضا فى سائر الأديان كماهو فى الاسلام . يقول ان الفقراء قدكفاهم الاسلام مؤونة الاحتياج وذلك بالزكاة التى انتصف منها الفقراء من الأغنياء . ومن قوله فى الاسراء :

يا أيها المسرى به شرفاً الى مالا تنال الشمس والجوزاء
الله هيأ من حظيرة قدسه نزلا لذاتك لم يجزه علاء
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم حاشا لغيرك موعد ولقاء

ومن قوله فى شجاعة النبى صلى الله عليه وسلم :

الخيل تأبى غير أحمد حاميا وبها اذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس يعلمون مكانه ان هيجت آسادها الهيجاء
واذا تصدى للظبى فمهند أو للرماح فصعدة سمراء
ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن أمنت سنابك خيله الاشلاء
ان الشجاعة فى الرجال غلاظة مالم تزنها رأفة وسخاء

لله در شوقى فى هذا الوصف الذى يليق بأن ينشد عنده :

وان احسن بيت أنت قائله ... بيت يقال اذا انشدته صدقا

نعم كان محمد عليه الصلاة والسلام أشجع الشجعان وأقدمهم اذا حمى الوطيس وأثبتهم اذا دارت الدائرة على الصحابة كما ظهر فى يوم أحد وغيره وكان مع صلابته هذه أرأف الناس وارقهم قلباً واندام محجراً وكان اذا ظهر على عدوه يعرف أن يرق ويعفو ولم تكن خيله لتدوس على المطروحين بالعراء من أعدائه . ثم يقول :

الحق عرض الله كل أبية ... بين النفوس حمى له ووقاء

والحق والايمان ان صبا على ... بردٍ ففيه كتيبة خرساء

ويقول عن الصحابة الكرام :

نسفوا بناء الشرك فهو خرائب ... واستأصلوا الاصنام فهى هباء

يمشون تغضى الارض منهم هيبة ... وبهم حيال نعيمها إغضاء

حتى اذا فتحت لهم أطرافها ... لم يطغهم ترف ولا نعماء

ثم يقول مخاطباً الرسول :

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً ... ومن المديح تضرع ودعاء

أدعوك عن قوم الضعاف لأزمة ... فى مثلها يلقى عليك رجاء

أدرى رسول الله أن نفوسهم ... ركبت هواها والقلوب هواء

متفككون فما تضم نفوسهم ... ثقة ولا جمع القلوب صفاء

رقدوا وغرهم نعيم باطل ... ونعيم قوم فى القيود بلاء

أقطعتهم غرر البلاد فضيعوا ... وغدوا وهم فى أرضهم غرباء

ظلموا شريعتك التى نلنا بها ... ما لم ينل فى رومة الفقهاء

ما اصدق قوله : « وغدوا وهم فى أرضهم غرباء » الا ماندر .

ولشوقى غير هذه الهمزية فى الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة معارضة للبردة الشريفة رضى الله عن صاحبها ولو استشارنى شوقى فى هذه المعارضة لنهيته عنها. وهل نظمه فى هذه المعارضة للبردة أقل إبداعاً من سائر نظمه؟ أو أنزل عن طبقته المعهودة؟.

لا والله فنظمه نظامه نسج واحد هو نسيج وحده فى هذا العصر ولكن ياسبحان الله متى قابلته بالبردة فقد رونقه ذاك وصرت تريد أن تطويه على غره وتتجاوزه الى غيره فما القى الله بردة الفصاحة على قصيدة نبوية كميمية صاحب البردة هكذا كتب فى اللوح وجف القلم وآثر الله الأبوصيرى ببكارة البردة وأعجز كل فحل عن افتراع مثلها فما كانت معارضة شوقى للبردة بالرأى الموفق ولو كانت أبيات قصيدته كلها عامرة بالمحاسن ولنستشهد مع ذلك ببعض ماقاله فيها مثلا :

يانفس دنياك تخفى كل مبكية ... وان بدا لك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاهاً كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة ... جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

هنا جاء شوقى بمعنى عصرى وهو أن الكربون يقتل فى الزهر كما يقتل فى الفحم ولم أجد لذلك طلاوة لان الشعر بعيد عن الكيمياء بعد الأرض عن السماء ثم يقول:

يا ويلتاه لنفسى راعها ودهى ... مسودة الصحف فى مبيضة اللمم
ركضتها فى مريع المعصيات وما ... أخذت من حمية الطاعات للتخم
هامت على أثر اللذات تطلبها ... والنفس إن يدعها داعى الصبا تهم

اجتهد بقدر امكانه أن يقلد الأباصيرى فى نهجه وان يأتى بمثل ديباجته وان يقابل بيتاً ببيت ويحذو قذة بقذة فحام وما نزل ورمى وما قرطس إلا انه لما وصل الى المديح ارتقى عن ذى قبل وجاء بما من حقه ان تسمعه ولو كان من دون البردة :

لزمت باب أمير الانبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
فكل فضل وإحسان وعارفة ... ما بين مستلم منه وملتزم
علقت من مدحه حبلا أعز به ... فى يوم لا عز بالانساب واللحم
يزرى قريضى زهيراً حين أمدحه ... ولا يقاس الى جودى ندى هرم
محمد صفوة البارى ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة ... متى الورود وجبريل الأمين ظمى

ثم يقول :

لمـا رآه بحيرا قال نعرفه ... بما حفظنا من الاسماء والسيم
سائل حراء وروح القدس قد علما ... مصون سر عن الادراك منكتم

ثم قال :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلهـا ... لم يتصل قبل من قيلت له بفم
هناك اذن للرحمن فامتلأت ... أسماع مكة من قدسـية النغم
جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم

أى بالقرآن الحـكيم

آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقـدم

ومن مستحسن أبياتها :

جبت السموات أوما فوقهن بهم ... على منـورة ورديـة اللجم
ركوبة لك من عز ومن شرف ... لافى الجياد ولا فى الاينق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعتـه ... وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سمـاء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل كل نبي عند رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

ولما كان صاحب البردة قال :

فان لى ذمة منه بتسميتى ... محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

أراد أحمد شوقى أن يباريه فى ذمة مثلها من التسمية بأحمد :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لايتسامى بالرسول سمى
المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
الله يشهد أنى لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم
وانما أنا بعض الغابطين ومن ... يغبط وليك لايذمم ولا يلم

وقد أحسن أبو على بهذا الاستدراك وتنصله من معارضة سيد من جاء بالسهل الممتنع والدانى المرتفع . ثم قال خطابا للرسول عليه السلام :

ان قلت فى الأمر لا أو قلت فيه نعم ... فخيرة الله فى لامنك أو نعم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من الأمم

ودخل شوقى فى جدل مع الذين اعترضوا على الاسلام وقراع مع القادحين فيه فقال :

قالوا غزوت ورسل الله مابعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغلم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها ... بالسيف ماانتفعت بالرفق والرحم

يريد أن يقول ان كلام هؤلاء المعترضين سفسطة محضة لأن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن، وان نبى الاسلام فى بدء دعوته لم يأل جهداً فى الدعوة بالرفق والمقارعة بالبرهان، وانه مادفع الى الضرب والحرب الا من بعد أن رأى عقم الوعظ والنصح، وان لاحيلة فى الجهل والظلم اذا مرد الناس عليهما الا بالتأديب ان هذه المسيحية التى تعلن انها دين السلام أصابها من الطرد والقتل والتعذيب والانتقام والاصطلام مالا تسعه الكتب المؤلفة ، وبقى ذلك مدة ثلاثمائة سنة الى أن تنصر قسطنطين فحينئذ استقرت قواعدها وانتشرت فى الأرض وأمنت الغوائل، ولم تنتشر فى الأرض الا بقوة ملوكها وسلاطينها وكم من ملك من ملوك النصرانية بث المسيحية أو الكاثوليكية بالسيف مثل شارلمان وملوك فرنسا ومثل قياصرة بيزنطية ومثل ملوك الروسية وملوك الجرو غيرهم.
ثم عزز كلامه هذا بشواهد العصر الحاضر ، فقال :

تلك الشواهد تترى كل آونة ... فى الاعصر الغر لا فى الاعصر الدهم
بالامس مالت عروش واعتلت سرر ... لولا القذائف لم تثلم ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة ... ولم نعد سوى حالات منقصم

جاء فى الطبعة الثانية من ديوان شوقى تعليقاً على هذه الابيات ولعله بقلم الكاتب

الفاضل حسين بك هيكل ما يلى : ان المتشيعين اليوم للدين المسيحى « دين الهدوء والسلام » هم أهل القوة الحربية الدائبون على إعداد المهلكات فى الحروب حتى كأنهم أصبحوا ولم يبق لهم من شغل يشغلهم الا استخراج الذهب من بطون الأرض وانفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب فى طول الأرض وعرض البحر ، وقد افتنوا فى أسباب الاهلاك والتدمير ولم يكفهم أن يدمدموا على الناس ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم حتى قاموا على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رءوسهم بكل دهياء الخ.»

ثم هاجت بشوقى نخوة الاسلام، شأنه فى كل موقف، وحمى أنفه للمدنية الاسلامية وقارن بينها وبين غيرها فقال :

واترك رعمسيس ان الملك مظهره	فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت	دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بياناً عند ملتأم	ولا حكتها قضاءً عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها	على رشيدٍ ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم	تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون الى علم ومعرفة	فلا يدانون فى عقل ولا فهم

وختم شوقى هذه القصيدة بأبيات فى غاية التأثير تذوب لها القلوب حسرة وذكرى وتنحدر العبرات شفعاً ووتراً وتشهد لشوقى فوق شهادات لا تحصى بأنه شاعر الاسلام بجميع جوارحه رحمه الله وجزاه عن الاسلام خيرا:

يا رب هبت شعوب من منيتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم
سعد ونحس وملك أنت مالكه	تديل من نعمٍ فيه ومن نقم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته	أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا	ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به	فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

* * *

ومن احسن ما قال شوقى الخطاب الذى خاطب به الخديوى عند زيارته للمدينة المنورة :

اذا زرت يا مولاى قبر محمد ... وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة ... لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية ... وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق تنوفة ... وبانى صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله : يا خير مرسل ... أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها ... كأصحاب كهف فى عميق سبات
بايمانهم نوران ذكر وسنة ... فما بالهم فى حالك الظلمات
وذلك ماضي مجدهم وفخارهم ... فما ضرهم لو يعملون لآت
وهذا زمان أرضه وسماؤه ... مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم فى السماء وانشأوا ... بوارج فى الأبراج ممتنعات
فقل رب وفق للعظائم أمتى ... وزين لها الافعال والعزمات

شوقى والخلافة

وجاء فى ديوان شوقى الذى طبع مؤخراً وعليه مقدمة من قلم محمد حسين بك هيكل تحت عنوان « خلافة الاسلام » ما يلى :

ما كاد العالم الاسلامى يفرح بانتصار الأتراك على اعدائهم فى ميدان الحرب والسياسة ذلك النصر الحاسم الذى كان حديث الدنيا والذى تم على يد مصطفى كمال باشا فى سنة ١٩٢٣ — قلنا : هذا غلط مشهور فالحركة الوطنية فى تركيا قام بها كاظم قره بكير وغيره قبل مصطفى كمال ثم إنها بعد أن التحق مصطفى كمال بالحركة لم يكن فيها وحده بل كان فيها عدة ابطال مثل كاظم قره بكير وحسين رؤوف وعلى فؤاد ورأفت وعلى احسان ونور الدين وعمر فوزى وغيرهم ممن انقذ تركيا اجتماع مجهوداتهم وا كثر الفضل فى

انقياد الشعب التركى لهؤلاء يرجع الى علماء الدين الذين تقـدموا الى الشعب باسم الدين ولولاهم لم يقم أهل الأناضول بهذه الحرب الاستقلالية ـ حتى أعلن هذا الغاء الخلافة ونفى الخليفة من بلاد الاتراك فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثى فيها الخلافة وينبه ممالك الاسلام الى اسداء النصح لهذا الرجل لعله يبني ما هدم وينصف من ظلم:

عادت أغانى العرس رجع نواح   ونعيت بين معالم الأفـراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه   ودفنت عنـد تبلج الاصبـاح

أى ان مجلس أنقرة الـكبير ومصطفى كمال نفسه أعلنوا بمنشور رسمى يوم أسسوا الحكومة التركية فى أنقرة بأن جل مقصدهم من هذه الثورة على الدول الأجنبية المحتلة هو انقاذ الخلافة الاسلامية واستخلاص الخليفه الذى هو أسير فى استامبول بين أيدى الانجليز وأعلنوا هذا القرار على جميع سكان تركيا بل أوصلوه الى جميع العالم الاسلامى وكتبوا به الى الامام يحيي وغيره من ملوك الاسلام · فانقـاذ الخلافـة كان هو الغرض الأول بزعم مصطفى كمال من هذه الحرب الاستقلالية فلما انتهت الحرب بالطائلة للاتراك كان أول ما فعله مصطفى كمال الغاء نفس هذه الخلافـة الـتى زعم انه انما ثار لأجل المحافظة عليها فكان دفنها ليلة الزفاف كما قال شوقى. ثم قال :

شيعت من هلع بعبرة ضاحك   فى كل ناحيـة وسـكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر   وبكت عليك ممالك ونواح
الهنـد والهة ومصر حزينـة   أمحا من الارض الخلافة ماح ؟
وأتت لك الجمُ الجلائل مأتماً   فقعدن فيـه مقاعد الانواح
يا للرجال لحرة موءودة   قتلت بغير جريرة وجنـاح
ان الذين أستْ جراحك حربهم   قتلتك سـلمهم بغير جراح

أى ثاروا لاجل أن يضمدوا جراح الخلافة بزعمهم فلما اتسق لهم النصر قتلوا هذه الخلافة نفسها بغير جراح وبئس العهد وساءت الشيمة

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم   موشية بمواهب الفتـاح
نزعوا عن الاعناق خير قـلادة   ونضوا عن الاعطاف خير وشاح

حسب أنى طول الليالى دونــه قــد طاح بين عشية وصباح
وعلاقــة فصمت عرى أسبابها كانت أبرَّ علائق الارواح

نعم كانت الخلافة هى أحسن علاقة جامعة بين المسلمين وكان أربعمائة مليون مسلم فى العالم يتولون حكومة تركيا بحجة أنها دولة الخلافة. فجاء مصطفى كمال وقطع هذه العلاقة بين تركيا والعالم الاسلامى وزعم انه لايلوى على علاقة غير علاقة الترك خاصة وان سائر المسلمين والأجانب فى نظره سواء، وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع وللمصلحة ، وكان أنور رحمه الله يقول لى : ان الاتراك الذين فى الروسية لا يعطفون علينا نحن أتراك تركيا بسبب أننا ترك بل بسبب أننا مسلمون . وهؤلاء الياقوت الذين هم فى سيبيريا هم ترك فى المحتد مثلنا ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ولا يعرفوننا ولا نعرفهم .

جمعت على البر الحضور وربمــا جمعت عليــه سرائر النزَّاح
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم فى كل غــدوة جمعــة ورواح
بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضــاء وقاح

وقد علق تحت هذا البيت تفسيرا للعربيد وهو الشرير الكثير العربدة وهى سوء الخلق من السكر

أفتى خزعبلة وقال ضــلالة وأتى بكفر فى البلاد براح
ان الذين جرى عليهم فقهه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح

أى ان هذه النظريات انما انقاد لها أناس لا يعلمون شيئا سوى الحرب والضرب فأما الذين يفكرون فى مصاير الامور ويفهمون شدواً من السياسة فلا يمكن أن تعجبهم

ان حدثوا نطقوا بخرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصم رماح
أستغفر الأخلاق لست بجاحد من كنت أدفع دونه والاحى
مالى أطــوِّقه الــلام وطالمــا قلدته المــأثور من أمــداحى

لا جرم أن شوقى وغير شوقى قد استعجلوا فى الحكم وأنا نفسى من هؤلاء المستعجلين وطالما عذلت صديقى أنور على خلافه مع مصطفى كمال ولما كان مراد أنور

بعد الحرب أن ينسل نجياً من برلين الى الاناضول ويأخذ بنصيبه من الجهاد لاستقلال تركيا نهيته عن هذا الأمر خشية أن يكون ذهابه الى الاناضول مثار فتنة بينه وبين مصطفى كمال تكون نتيجتها صدع الوحدة وتشظية العصا .

وقد استعنت عليه بالدكتور ناظم بك — أحد أركان جمعية الاتحاد والترقى والوطنى المشهور الذى كانت نزاهته أشهر من ان تذكر ، وشنقه مصطفى كمال بتهمة المؤامرة على حياته ، وهو برىء من تلك المؤامرة براءة الذئب من دم يوسف ولكنه كان ينتقد سياسة الغازى علناً — فهذا الرجل هو الذى أعاننى على أنور عند ما كنا فى برلين حتى توقف عن الدخول الى الاناضول . وهكذا أمنا شر الاختلاف بين قائدى الاتراك الكبيرين. ولكن مصطفى كمال الى ذلك العهد كان جاعلاً شعاره الاسلام لاغير وكان يشهد الجمع ويحضر قراءة المولد ولا يبرح يخطب قائلا : أخواننا العرب ، أخواننا العرب ، اخواننا المصريون واخواننا المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها

وقد ذكرت مرة فى احدى الجرائد كيف قال لى : لا بد أن نسترجع القدس ان شاء الله وهذا محقق وإنما أقول ان شاء الله كمسلم لا أقول انى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله .. فهذه النغمات التى كان يسمعها الناس منه دائماً ولا يعلمون ما يطوى فى قلبه من دونها حملت الناس على حبه والثناء عليه باسراف. فلما انعقدت معاهدة لوزان وتم الصلح مع تركيا وظن الغازى أنه أمن المستقبل قلب ظهر المجن ونسى ما كان يقوله وجاهر بعكس ما كان يجاهر به من قبل :

هو ركن مملكة وحائط دولة — وقريع شهباء وكبش نطاح
أأقول من احيي الجماعة ملحد — وأقول من رد الحقوق اباحى ؟
الحق أولى من وليك حرمة — واحق منك بنصرة وكفاح
فامدح على الحق الرجال ولمهمو — أو خل عنك مواقف النصّاح

لا شك بان الحق أولى بان يقال ، ولكن نقطة العراك هنا هى تعيين الحق فانه بعد أن استقلت تركيا ضل الناس سبيل الحق فى تاريخ حوادث هذا الاستقلال فجعلوا الفضل كله فى تحرير تركيا لمصطفى كمال وزعموا انه هو الذى أوجدها من العدم بعد أن كان قضى عليها القضاء المبرم . وهذا خلاف الحق وهو الخطأ المشهور

الذى لابد للتاريخ من أن يصححه فى يوم من الأيام، ولو كان مصطفى كمال خدم تركيا فى الحرب الخدمة الكبرى وكان من أعاظم القواد بلا نكير :

ومن الرجال اذا انبريت لهدمهم هرم غليظ منكب الصفاح
فاذا قذفت الحق فى اجلاده ترك الصراع مضعضع الالواح
أدوا الى الغازى النصيحة ينتصح ان الجواد يثوب بعد جماح
ان الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك فى صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقرى والناس نقل كتائب فى الساح

أى أراد أن يلغى العقائد والتقاليد القديمة والاوضاع التى مضت عليها القرون بمجرد أوامر عسكرية أشبه بالأوامر التى يصدرها فى ساحة الحرب

تركته كالشبح المؤله أمة لم تسل بعد عبادة الاشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم حتى تناول كل غير مباح
غرته طاعات الجموع ودولة وجد السواد لها هوى المرتاح
واذا أخذت المجد من أمية لم تعط غير سرابه اللماح
من قائل للمسلمين مقالة لم يوحها غير النصيحة واح
عهد الخلافة فىّ أول ذائد عن حوضها ببراعة النضاح

لم يتخلف شوقى عن موقف صدق من مواقف الاسلام جميعها ومن جملتها تأييد الخلافة الاسلامية وقد سبق لنا شواهد كثيرة من شعره تؤيد صحة دعواه هذه

حب لذات الله كان ولم يزل وهوى لذات الحق والاصلاح
إنى أنا المصباح لست بضائع حتى أكون فراشة المصباح
غزوات أدهم كللت بذوابلى وفتوح أنور فصلت بصفاحى

أدهم هو أدهم باشا قائد الجيش العثمانى المظفر فى الحرب اليونانية وأنور هو أنور باشا المشهور أحد أبطال الاسلام فى التاريخ

ولت سيوفهما وبان قناهما وشبا يراعى غير ذات براح
لا تبذلوا برد النبي لعاجز عزل يدافع دونه بالراح

بالامس أوهى المسلمين جراحة ... واليوم مد لهـم يد الجراح
فلتسمعن بكل أرض داعيا ... يدعو الى الكذاب أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يباع الدين بيع سماح

رحم الله شوقى فلم يكن طبيب أبصر منه بعلل الاسلام الحاضرة وكان يعلم ان أكثر من يبيعون الدين ويفتون لاعداء الاسلام بما يريدون منه هم من رجال الدين ومن ذوى العمائم ويا للاسف، فقد جنت هذه الطبقة على الدين جنايات لا توصف وأخذت بالصادقين المخلصين من هـذه الطبقة ومنهم فقهاء الاناضول الذين لولاهم لم يتم القيام لمحاربة اليونان والحلفاء

يفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاح

قصيدة فى المولد النبوى

وله فى ذكرى المولد قصيدة ليس للقلب طاقة أن يمر بها فلا يأخذ منها الى هـذا الـكتاب شيئا ولاسيما أن فى أولها أبياتا هى اليوم لسان حالى الباعث بى لهذه الذكريات أضمد بها جراح النوى وأرد أوراد الاسي ، فهو يقول :

وكل بساط عيش سوف يطوى ... وان طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهمو غريب ... إذا عادته ذكرى الاهل ذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالى ... كمن فقد الأحبة والصحابا
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبـدل كل آونة اهابا
فمن يغتر بالدنيا فانى ... لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان الى غبى ... ولى ضحك اللبيب اذا تغابى
جنيت بروضها وردا وشوكا ... وذقت بكأسها شهدا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما ... ولم أر دون باب الله بابا
ولا عظمت فى الاشياء الا ... صحيح العلم والأدب اللبابا
ولا كرمت إلا وجه حر ... يقلد قومه المنن الرغابا
ولم أر مثل جمع المال داء ... ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها ... كما تزن الطعام أو الشرابا

أى حفظ المـال ينبغى أن يكون بميزان كما يزن الانسان طعامه وشرابه على قدر حاجته اليهما فلا يسرف ولا يقتر ويكون بين ذلك قواما . ثم يقول :

وخذ لبنيك والايام ذخرا ... وأعط الله حصته احتسـابا

فلو طالعت أحداث الليالى ... وجدت الفقر أقربها انتيابا

وان البر خير فى حيـاة ... وأبقى بعد صاحبه ثوابا

وان الشر يصدع فاعليـه ... ولم أر خيّراً بالشر آبا

فرفقا بالبنين اذا الليـالى ... على الاعقاب أوقعت العقابا

ولم يتقلدوا شكر اليتامى ... ولا ادّرعوا الدعاء المستجابا

عجبت لمعشر صلوا وصاموا ... ظواهر خشية وتقى كذابا

وتلفيهم حيـال المال صما ... اذا داعى الزكاة بهم أهابا

وهذا مرض المسلمين فى الوقت الحاضر تجدهم اختلفوا فى كل شىء الا انهم اجتمعوا على خلق واحد وهو الامساك الشديد فى المصالح العامة مع انهم يرون النصارى واليهود ماذا يبذلون وماذا يتكافون على مصالحهم العامة وانهم يجودون فى هذه السبيل جود من لا يخشى الفقر . وكأن المسلمين يريدون أن يكتفوا بالصلاة والصيام دون الزكاة التى لا يكون الاسلام اسلاما من دونها. وهذا أكثر الاصل فى بلائهم الذى يتخبطون فيه . وقد وفى شوقى هذا الموضوع حقه وكان كما قلنا نطاسياً تاما فى معرفة علل الاسلام الحاضرة :

لقد كتموا نصيب الله منه ... كأن الله لم يحص النصابا

ومن يعدل بحب الله شيئاً ... كحب المال ضل هوى وخابا

أراد الله بالفقراء براً ... وبالايتـام حبا وارتبابا

فرب صغير قوم علموه ... سما وحما المسوّمة العرابا

وكان لقومه نفعاً وفخراً ... ولو تركوه كان أذى وعابا

فعلم ما استطعت لعل جيـلا ... سيأتى يحدث العجب العجابا

ولولا البخل لم يهلك فريق ... على الاقدار تلقاهم غضابا

تعبت بأهله لوما وقبلى ... دعاة البر قد سئموا الخطابا

وكان شوقى سخياً بما يملك لا يأبى أن يجمع المال ولكنه كان يجمعه لينفقه ويعطى البر حقه ويمتع به أهله الذين كان لهم كما قال خليله المطران « رئبالا فى اللأواء » وكان فعل شوقى مطابقاً لقوله من جهة مؤاساة الفقراء . ثم انه أخذ يبين المساواة الطبيعية بين البشر ليتبصر بها الذين يستأثرون بالمال لأنفسهم ولا يريدون أن يجعلوا للفقير نصيباً .

ألم تر للهواء جرى فأفضى — الى الأكواخ واخترق القبابا
وان الشمس فى الآفاق تغشى — حمى كسرى كما تغشى اليبابا
وأن الماء يروى الأسد منه — ويشفى من تلعلعها الكلابا
وسوّى الله بينكم المنايا — ووسّدكم مع الرسل الترابا

ومن هنا تخلص الى ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذى لم يشرف الفقراء ولا اليتامى بشىء مثل كونه خرج منهم فقال شوقى :

وأرسل عائلاً منكم يتيما — دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبى البر بيّنه سبيلا — وسن خلاله وهدى الشعابا
تفرق بعد عيسى الناس فيه — فلما جاء كان لهم متابا
وكان بيانه للهدى سبلا — وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى — أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى — ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال — إذا الاقدام كان لهم ركابا

هذه الابيات تكاد تكون أمثالا سائرة أشبه بقول شوقى « وانما الامم الاخلاق ما بقيت » ثم ذكر شوقى مولد الهادى عليه السلام فقال :

تجلى مولد الهادى وعمت — بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب — يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهاجاً منيراً — كما تلد السموات الشهابا

ثم خاطب النبي قائلا له : انى سألت الله النصر لأبناء دينى فان كنت أنت الوسيلة عنده تعالى فانه المجيب هذا الدعاء فهو يقول :

سألت الله فى أبناء دينى ... فان تكن الوسيلة لى أجابا
وما للمسلمين سواك حصن ... اذا ما الضر مسهمو ونابا
كأن النحس حين جرى عليهم ... أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً ... وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركنا ... فخلوا الركن فانهدم اضطرابا

فكيف قلبت نظرك فى شعر شوقى وجدته يطوف فى الآفاق ويرجع الى مركز واحد هو الاسلام فى دينه ، والشرق فى وطنه ، والعربية فى لغته والأخلاق فى وصيته والعلم فى رغبته ، فكان عقله قويماً وذوقه سليما ووفاؤه عظيما. وقد قلت فيه يوم رثيته :

كانت قصائده هى الصوت الذى ... سرّى عن الاسلام ثقل سباته
بعثت به روح الحياة كأنها ... هى صور اسرافيل فى زعقاته

وقلت :

ماحل بالاسلام حيف مصيبة ... الا وكان لها لسان شكاته
يحمى حقائقه ويوضح سبله ... ويقيل طول الوقت من عثراته

وقلت :

وفّى عن الشرق القديم نضاله ... من يوم نشأته ليوم وفاته
أبداً يحذره استلاب تراثه ... منه ويحفزه لأخذ تراثه
لم يفتتن من عصره بمساوئ ... كلا ولم يغمطه من حسناته
قد لازم الانصاف فى أحكامه ... لا فرق بين صحابه وعداته

ملحمة شوقى فى حرب اليونان

ولا مراء فى انه لم يقل شوقى من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائية فى الحرب العثمانية اليونانية التى أولها

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب

فانها القصيدة الغراء واليتيمة الدهماء والكلمة التى طارت فى الآفاق فحلقت

فوق المحلقات ولانظن أنه يوجد عربي يمت الى الأدب بسبب الا وهو يروى من هذه القصيدة كثيراً أو قليلا. ونحن أولاء الآن نروى منها بعض المقاطع التى يلوح لنا أنها آخذ للألباب ، وأملك للقلوب من غيرها والا فهى من الألف الى الياء محكمة السرد متساوية النسج لاتجد فيها عوجاً ولا أمتاً .

قال :

ومملكة اليونان محاولة العرى رجاؤك يعطيها وخوفك يسلب
هددت أمير المؤمنين كيانها بأسطع مثل الصبح لا يتكذب
وما زال فجراً سيف عثمان صادقا يساويه من عالى ذكائك كوكب
اذا ما صدعت الحادثات بحدّه تكشف داجى الخطب وانجاب غيهب
سما بك يا عبد الحميد أبوة ثلاثون حضار الجلالة غيّب

يريد أنه سليل ثلاثين سلطانا ان كانوا قد درجوا فان جلالتهم لاتزال حاضرة فى الاذهان

قياصر أحياناً خلائف تارةً خواقين طوراً والفخار المقلّب

يريد بقوله قياصرة انهم استووا على عرش القسطنطينيين مكان قياصرة الرومان ، وبقوله خلائف انهم تسلموا الخلافة الاسلامية مذ عهد سليم الأول من بنى العباس ، وبقوله خواقين بأنهم سلاطين الاتراك لأن ملك الترك يقال له خاقان ، قال الحسن ابن هانى :

كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى

ثم قال :

نجوم سعود الملك أقمار زهوه لو ان النجوم الزهر يجمعها أب
تواصوا به عصراً فعصراً فزاده معممهم من هيبة والمعصب

ثم يقول :

ظهرت أمير المؤمنين على المدى ظهوراً يسوء الحاسدين ويتعب
سل العصر والايام والناس هل نبا لرأيك فيهم أو لسيفك مضرب

همو ملأوا الدنيا جهاماً وراءه جهام من الاعوان أهدى وأكذب
فلما استللت السيف أخلب برقهم وما كنت يا برق المنية تخلب
أخذتهمو لا مالكين لحوضهم من الذود الا ما أطالوا وأسهبوا
ولم يتكلف قومك الاسد أهبة ولكن خلقا فى السباع التأهب
كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب
ومن شرف الاوطان أن لا يفوتها حسام معز أو يراع مهذب

يعيد معنى بيته (وانما الامم الاخلاق) يذكر أن الاوطان لتكون عزيزة محتاجة الى الجمع بين السيف والقلم. ثم يقول :

ملكت سبيليهم ففى الشرق مضرب لجيشك ممدود وفى الغرب مضرب
ثمانون الفاً أسد غاب ضراغما لها مخلب فيهم وللموت مخلب
اذا حلمت فالشر وسنان حالم وان غضبت فالشر يقظان مغضب
فيالق أفشى فى البلاد من الضحى وأبعد من شمس النهار وأقرب
تلوح لهم فى كل افق وتعتلى وتطلع فيهم من مكان وتغرب
وتغشى أبيات المعاقل والذرى فثيبهن البكر والبكر ثيب
يقود سراياها ويحمى لواءها سديد المرائى فى الحروب مجرب
يجىء بها حينا ويرجع مرة كما تدفع اللج البحار وتجذب

ومنها :

ونادت فلبى الخيل من كل جانب ولبى عليها القسور المترقب
خفافاً الى الداعى سراعا كأنما من الحرب داع للصلاة مثوب
منيفين من حول اللواء كأنهم له معقل فوق المعاقل أغلب
وما هى إلا دعوة واجابة ان التحمت والحرب بكر وتغلب
فأبصرت مالم تبصرا من مشاهد ولا شهدت يوما معد ويعرب

هنا جاشت الفكرة برأس شوقى فذهبت به الى أبعد حدود المبالغة فلا نزاع فى الترك اذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا فى الذروة العليا التى ينحط عنها

السيل ولكن القول بأن مشاهدهم لم تشهدها معد ويعرب فيه نظر . ولعمرى أن معداً ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل فى ساحات لا يحصيها المدد فبينما جيوشها تحاصر القسطنطينية كانت جيوش أخرى تفتح اسبانيا وجنوبى فرنسا وأخرى تقاتل امة البربر العاصية وأخرى تتوغل فى افريقية وجحافل تغزو الهند وفيالق تغزو الخزر وجيوش فيما وراء النهر تغزو الاتراك فى عقر دارهم . وكل ذلك فى وقت واحد لا تلهيهم حرب عن حرب ولا تشغلهم ساحة قتال عن ساحة قتال وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة يستقل بها قائد مثل قتيبة بن مسلم الباهلى تجتمع عليه الترك من كل حدب فيوالى عليها الهزائم ويقودها بالخزائم وهو فى قلة بالقياس الى أمم الترك التى اجتمعت عليه من كل صوب، وما زال يثخن فيها حتى ضرب عليها الذلة والمسكنة الى حدود الصين ولاذت أخيراً من بأسه بالاسلام ودانت به فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك فى الدين العربى فصاروا فيما بعد أحمى حماته وأمضى سيوفه . ولكن لا يقال ان أمة من الامم تقدر أن تبذ العرب فى ميادين القتال اذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد . وما أتى العرب الا من تقطع ما بينهم وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد . وفى هذا يفضلهم الترك وبهذا سادوا عليهم .

ومن أحسن ما قال شوقى فى حياته فى هذه القصيدة وفى غيرها وما قاله شاعر قديم أو حديث وصف عبور الجيش العثمانى مضيق (ملونا) فى الحرب العثمانية اليونانية ولا يكاد يوجد فى العرب من يمتّ الى الأدب بسبب الا وهو يعرف هذه الأبيات قال :

جبالَ ملونا لا تخورى وتجزعى — اذا مال رأس أو تضعضع منكب
فما كنتِ الا السيف والنار مركباً — وما كان يستعصى على الترك مركب
علوا فوق علياء العدو ودونه — مضيق كحلق الليث او هو اصعب
فكان صراط الحشر ما ثمّ ريبة — وكانوا فريق الله ما ثمَّ مذنب
يمرّون مرَّ البرق تحت دجنةٍ — دخاناً به اشباحهم تتجلبب

الى ان قال فى قتال الحاج عبـد الأزل باشا قائد فرقة الفرسان الذى اقتحم الموت جهراً لا يعشى اليه الضراء وذلك طمعاً فى الشهادة

واشمط سوّاس الفوارس اشيبٍ ... يسير به فى الشعب اشمط اشيب

رفيقا ذهابٍ فى الحروب وجيئةٍ ... قد اصطحبا والحرُّ للحرّ يصحب

اذا شهداها جددا هزّةً الصبـا ... كما يتصابى ذو ثمانين يطرب

فـيهتز هذا كالحسام وينثـنى ... وينفـر هذا كالغزال ويلعب

توالى رصاص المطلقـين عليهما ... يخضل من شيبيهما ويخضب

فقيل أنلْ اقدامك الارض انها ... ابرّ جوادٍ ان فعلتَ وأنجب

فقال أيرضى واهب النصر اننا ... نموت كموت الغانيات ونعطب

ذرونى وشأنى والوغى لا مبالياً ... الى الموت أمشى أم الى الموت أركب

الى أن يقول :

فهل من ملونا موقف ومسامع ... ومن جبليها منبر لى فأخطب

فاسأل حصنيها المجيبين فى الورى ... ومدخلها الاعصى الذى هو أعجب

ويلاحظ هنا على قوله : (منبر لى فاخطب) بضم الفعل المضارع وقد سبق ذلك استفهام فى قوله :(فهل من ملونا) فالقاعدة هى ان الفعل ينتصب بعد الفاء اذا سبقه نفى او استفهام . ثم يقول عن الترك :

هل البأس الا بأسهم وثباتهم ... أم الحزم الا عزمهم والتلبب

أم الدين الا ما رأت من جهادهم ... أم الملك الا ما أعزّوا وهيبوا

وأى فضاء فى الوغى لم يضيقوا ... وأى مضيق فى الوغى لم يرحبوا

وقال عن تلاقى الترك واليونان فى سهل فرساله :

وفرسال اذ باتوا وبتنا أعاديا ... على السهل لداً يرقبون ونرقبُ

وقام فتانا الليل يحمى لواءَه ... وقام فتاهم ليله يتلعب

توسد هـذا قائم السـيف يتقى ... وهذا على أحلامه يتحسب

وهل يستوى القرنان هـذا منعم ... غرير وهذا ذو تجاريب قلب

الى أن يقول :

ورحنا يهب الشر فينا وفيهم ... وتشمل أرواح القتال وتجنب

أى ان رياح الحرب تهب شمالا وجنوبا

ثم يقول :

كأنا أسود رابضات كأنهم ... قطيع بأقصى السهل حيران مذنب

كأن خيام الجيش فى السهل أينق ... نواشز فوضى فى دجى الليل أشزب

كأن السرايا ساكنات موائجا ... قطائع تمطى الامن طوراً وتساب

كأن القنا دون الخيام نوازلا ... جداول يجريها الظلام ويسكب

كأن الدجى بحر الى النجم صاعد ... كأن السرايا موجه المتضرب

كأن المنايا فى ضمير ظلامه ... هموم بها فاض الضمير المحجب

كأن صهيل الخيل ناع مبشر ... تراهن فيه ضحكا وهى نحب

كأن وجوه الخيل غراً وسيمة ... درارى ليل طلع فيه ثقب

كأن انوف الخيل حراً من الوغى ... مجامر فى الظلماء تهدا وتلهب

كأن صدور الخيل غدر على الدجى ... كأن بقايا النضح فيهن طحلب

كأن سنا الابواق فى الليل برقه ... كأن صداها الرعد للبرق يصحب

كأن نداء الجيش من كل جانب ... دوى رياح فى الدجى تتذأب

كأن عيون الجيش فى كل مذهب ... من السهل جن جول فيه جوب

يريد بعيون الجيش جواسيسه وارصاده ثم يقول :

كأن الوغى نار كأن جنودنا ... مجوس اذا مايمموا النار قربوا

كأن الوغى نار كأن الردى قرى ... كأن وراء النار حاتم يأدب

كأن الوغى نار كأن بنى الوغى ... فراش له فى ملمس النار مأرب

وثبنا يضيق السهل عن وثباتنا ... وتقدمنا نار الى الروم أوثب

مشت فى سراياهم فحلت نظامها ... فلما مشينا أدبرت لا تعقب

لم يمر بى فى الشعر العربى كأنات أحلى وأجزل من هذه الكأنات التى هى مع

وصف عبور ملونا واستشهاد عبد الازل باشا عيون هذه اللحمة الجبارة ثم يقول :

فما فى القوى أن السموات ترتقى ... بجيش وان النجم يغشى فيغصب
سموتم اليه والقنابل دونه ... وشهب المنايا والرصاص المصوب

يريد بالقنابل كرات المدافع المنفجرة وهو خطأ دخل على لغة شوقى من كلام الجرائد وكم للجرائد من فريسة فى ميدان اللغة . فالقنابل فى اللغة جمع قنبلة وهو مصيدة يصاد بها أبو براقش والقنابل أيضا جمع قنبل بفتح فسكون ففتح وهو الطائفة من الناس والطائفة من الخيل قيل من الخمسين فصاعدا وقيل من الثلاثين الى الأربعين . وأما الكرة المحشوة بالديناميت التى تنفجر عند قذفها من فم المدفع فقد شبهوها بالقنبرة لا بالقنبلة أى بالراء لا باللام ووجه الشبه أن الكرة لها رأس ناتئ محدد وأن القنبرة وهى نوع من الدجاج لها فضل ريش فى رأسها وهذه الكرة فى شكلها كالقنبرة وأظن هذا الاستعمال بدأ فى زمان محمد على أمير مصر لأنى رأيت هذه اللفظة فى قصيدة للشيخ أمين الجندى الشاعر الحمصى حيث يقول :

ان قيل ابراهيم جاء محاربا ... سقطوا ولو كان الكلام تقولا
قامت قيامة عكة من بأسه ... وأحاط من كل الجهات بها البلا
بمدافع ما ان لها من دافع ... وقنابر تحكى القضاء المنزلا

ثم يقول شوقى :

صعدتم وما غير القنا ثم مصعد ... ولا سلّم الا الحديد المذرّب
كما ازدحمت بثزان جو بمورد ... أو ارتفعت تلقى الفريسة أعقب
فما زلتمو حتى نزلتم بروجه ... ولم تحتضر شمس النهار فتغرب

والشطر الثانى من البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة ينظر الى قول محمود سامى :

ونقع كموج البحر خضت غماره ... ولا عاصم الاّ الصفيح المشطَّب

وأما قوله (ولم تحتضر شمس النهار فتغرب) فالاولى فيه نصب فعل تغرب لأنه وارد بعد نفى كما تقدم الكلام عليه . وفى آخر القصيدة يقول شوقى مخاطباً السلطان عبد الحميد ولا ينسى فى هذا الخطاب نعمته الدائمة وهى انه شاعر النيل غير مدافع :

واني لطير النيـل لاطير غـيره ... وما النيل الا من رياضك يحسب
اذا قلت شعراً فالقوافي حواضر ... وبغـدادُ بغـداد ويثربُ يثرب
ولم اعدم الظلّ الخصيب وانمـا ... أجاز بك الظل الذى هوأخصب
فلازلت كهف الدين والهادى الذى ... الى الله بالزلفى له يتقرب

وهذا البيت الاخير ينظر الى قول القائل وأظنه الـكميت فى قصيدة يمدح بها آل البيت منها :

من النفر البيض الذين بحبهم ... الى الله فى ما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبىّ فانى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

***

قصيدة شوقى بمناسبة مجىء ملنر الى مصر

ولشوقى يوم جاء اللورد ملنر الى مصر سنة ١٩١٩ قصيدة رنانة عن المشروع الذى يسميه المصريون بمشروع ملنر لأن شوقى لم يغفل حادثة سياسية ذات بال فى الشرق حتى مهرها منظومة لتسجل تلك الحادثة على الدهر قال :

اثن عنـان القلب واسلم به ... من ربرب الرمل ومن سربه
ومن تثنّي الغيـد عن بانه ... مرتجة الأرداف عـن كثبه

الى أن يقول :

يا ظبيـة الرمل وقيت الهـوى ... وان سمت عيناك فى جلبه
ولا ذرفت الدمع يوماً وإن ... أسرفت فى الدمع وفى سكبه
هذى الشواكى النجل صدن امرأ ... ملقى الصبـا أعزل من غـربه
صيـاد آرام رمـاه الهوى ... بشادن لا برء من حبـه
شـاب وفى أضلعه صاحب ... خلو من الشيب ومن خطبـه
واهٍ بجنبى خافق كلما ... قلت تنـاهى لجَّ فى وثبـه
ما خف الا للهوى والعلى ... أو لجـلال الوفـد فى ركبه

بدأ هذه القصيدة بالنسيب كـكثير من قصائده لأنه كان على عادة شعراء العرب فى تقديم النسيب . وأما الذى لم يرافق صاحبه فى الشيب وشاب الصاحب ولم يشب المصحوب فيريد به القلب، لانه طالما يكون الانسان شيخاً ويكون قلبه شاباً ، وتقول العامة لمن كان فى هذه الحالة « نفسه خضراء » وأما قوله « واه بجنبى خافق » فهى كلمة للشيخ احمد الزرقانى الشاعر الذى أنشدنى قصيدة من شعره يوم ذهبت الى مصر قدمتى الاولى اليها منذ خمس وأربعين سنة . وما زال عالقا بذهنى منها ما يلى :

أرى لوعة بين الجوانح لا تهدا ... أهذا الذى سماه أهل الهوى وجدا ؟
ويا أيها الواهى الخفوق بجانبى ... أأنت هو القلب الذى يحفظ الودّا ؟

وكانت فى شعر الزرقانى رقة يشعر بها كل سامع . ثم يقول شوقى :

ما بال قومى اختلفوا بينهم ... فى مـدحة المشروع أوثلبـه
كأنهـم أسرى أحاديثهـم ... فى لـين القيـد وفى صلبـه
يا قوم هذا زمن قد رمى ... بالقيد واستكبر عن سحبه
لو أن قيداً جاءه من علٍ ... خشيت أن يأبى على ربه
وهذه الضجة من ناسه ... جنازة الرقّ الى تربه
من يخلع النـير يعيش برهةً ... فى أثر النير وفى ندْبه
يا نشأ الحىّ شباب الحمى ... سلالة المشرق من نخبه
بنى الألى أصبح احسانهم ... دارت رحى الفن على قطبه
موسى وعيسى نشآ بينـهم ... فى سعة الفكر وفى رحبـه
وعالجا أوَّل ماعالجا ... من علل العالم أو طبه
مانسيت مصر لكم برّها ... فى حازب الأمر وفى صعبـه

يقول لأهل مصر : مالكم تختلفون فى درجة الحرية التى هى مدار الخلاف بينكم وبين انجلترة ان هذا الزمان قد رمى القيود كلها وأبى أن يسحب قيداً ولو كان القيد من السماء وان هذه الضجة التى ترونها ان هى الا ضجة جنازة الرقّ المحمولة الى الدفن

ولكن من كان يحمل النير فانه وإن تخلص منه فلا يزال عليه أثر جرحه . ثم يذكر أهل مصر بماضيهم العظيم وبما هم جديرون به فى المستقبل[1]

رثاء المؤلف لمحمد فريد رحمه الله

وقد ذكرتنى هذه الأبيات أبياتاً قلتها فى رثاء المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى الذى توفى سنة ١٩١٩ فى برلين ولم اكن اطلعت على قصيدة شوقى هذه بل كانت وفاة فريد قبل مشروع ملنر وانما توارد الخاطر مع الخاطر . قلت :

فانظر الى مصر العزيزة بعضها — مثل البريم يبعضها مشدودا
تمشى الى التحرير لا هيّابة — خطراً ولا الموت الزؤام مبيدا
حاشا ولو جار القوىُّ ولو طغى — أحرار مصر ان تكون عبيدا
مهما استعزّ الغالبون بجندهم — فالحق اعظم قوة وجنودا
قد اقبل الزمن الذى أبناؤه — لا يحملون سلاسلا وقيودا

وهذا هو بيت القصيد . ومنها خطابا لفريد رحمه الله :

لله وفّيت الأمانة حقها — وبذلت فيها طارفاً وتليدا
وأذبت فى حسراتها كبداً بها — أوديت تحرق من ذويك كبودا

وكان موت فريد بمرض الكبد . ثم قلت :

لم تدّخر فى حب مصر واهلها — وُسعاً ولا جهدا هناك جهيدا
ماعزّ عندك أنْ تركت لأجلها — وطناً وقصرا كالسدير مشيدا
ولذائذا ونفائساً أورثتها — عنها انصرفت وعيلا ووليدا
غادرتهُ طفلا وطال بك النوى — فحرمت منظره وصار رشيد
لخلاص مصر قد تركت مآثرا — بيضاً سهرت لها ليالى سودا
كنت المتيم والعميد بحبها — فلذا لفتيتها غدوت عميدا
كم خطأوك وعاندوك وكلّ من — يفرى فريّك لم يزل محسودا

---

(١) آه لو عاش شوقى الى اليوم ورأى بعينه تحطيم هذا القيد وتحرير مصر اذاً لغنى الصوت الذى يرن فى الخافقين ولسقى من كرمة ابن هانى ما تغنى وترقص له جبال حنين

حتى تمخضت السنون حقائقاً خروا لديها ركعاً وسجودا
علموا بأنك لم تكن متهوّرا بل كنت تنظر مذ نظرت بعيدا
عمدوا لرأيك فانقلبت وتلك من نعم الإله مؤيدا تأييدا
لم تحتضر إلا ومصر كلها لنظير صنعك تستحث وفودا
فاشدَّ ماقرَّت عيونك عند ما حفّ الجميع لواءك المعقودا

لا شك أن الكثيرين ممن كانوا يرمون محمد فريد بالتهور وعقم المساعى عادوا بعد الحرب العامة الى أفكاره حتى أصبح الجميع وطنيين يدينون من العقيدة الوطنية بما كان يدين به فصار الجميع حزباً وطنياً . ومنها :

نم يا فريد على يقينك انه يوم تأذن بالخلاص عتيدا
لابد من فرج قريب عنده مصر تؤمّم شخصك الملحودا
ويبشرونك بالخلاص الى الثرى أن قم وشاهد يومك الموعودا

ولعمرى كان جديراً بالمصريين بعد عقد المعاهدة التى انعقدت بينهم وبين الانكليز أخيراً أن يؤموا قبرى مصطفى كامل ومحمد فريد ويترحموا عليهما وعلى الشيخ جاويش فى يوم مشهود

يبقى مع الأهرام ذكرك ثابتاً ويظل قبرك مثلها مشهودا
وهناك تنقلب المدامع قرة ويعود مأتمك المفجع عيدا

***

ولهذه المرثية نكتة لابأس بايرادها، وما زال الحديث شجونا، وذلك انى لما سمعت نعى محمد بك فريد كنت فى برن من سويسرة وكنت أسكن أنا وسعادة الدكتور عبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين اليوم فى أوتيل واحد على قمة الجبل المشرف على برن . فلما جاءنا خبر فريد وكان عزيزاً على كل منا بلغ الأسى منا مبلغه ، فقال عبد الحميد بك : لابد أن ترثيه . فقلت له : وهو كذلك . وثانى يوم قال لى بعد أن نهضنا عن الطعام : هل عملت الرثاء للمرحوم فريد ؟ فقلت : لا . قال فيجب أن تعمله الآن . قلت : لابد لى من القيلولة بعد الطعام . قال : إلا أن البريد سيمشى الآن

فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء . فصعدت الى غرفتى ونظمت هذه الأبيات فى نصف ساعة ورجعت الى عبدالحميدبك فناولته إياها فدهش وقال لى : اذهب الآن ونم . وحقيقة الحال أن سرعة النظم هى على قدر عمق التأثر ودرجة الاقتناع بالموضوع فاذا كان الانسان ملآن من الموضوع انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صبب آخذاً بعضها برقاب بعض . واذا كان الانسان محمولا على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادى الاقتناع كان فى نظمه أو نثره متعملا متكلفاً كأنما يصعد جبلا . فأوصاف محمد فريد وأعماله هى التى أملت على ناظم هذه المرثية ما أملته حتى قال هذه الابيات فى نصف ساعة وهو ثقيل الاجفان يريد أن ينتهى منها ليأخذ نصيبه من الراحة .

***

ولنعد الى قصيدة شوقى فى مشروع ملنر فهو يقول :

يا رب قيد لا تحبونه زمانكم لم يتقيد به
ومطلب فى الظن مستبعد كالصبح للناظر فى قربه
واليأس لا يجمل من مؤمن ما دام هذا الغيب فى حُجبه

قصيدة شوقى فى مشروع ٢٨ فبراير

وقال شوقى فى مشروع ٢٨ فبراير وياليته عاش حتى رأى مصر حرة مطلقة من عقالها كما هى اليوم :

أعِدَّت الراحة الكبرى لمن تعبا وفاز بالحق من لم يألُهُ طلبا

وجاء فى حاشية هذه القصيدة هذا التفسير وأظنه لمحمدحسين بك هيكل: «لم يأل لم يقصر قال تعالى (لا يألونكم خبالا) وهذا البيت من الحكم الغالية التى لا تتاح لغير أمير الشعراء فكم وراء جهاد الحياة من راحة وكم وراء الضعف من قوة » . قلت : ان لشوقى بلا نزاع حكما غالية لم تكن تتاح لغيره إلا أنه لم يكن أباعذرة هذه الحكمة التى استهل بها هذه القصيدة فان أبا تمام الطائى من قبله هو الذى قال :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب

وهي من قصيدته التى هنأ بها المعتصم على فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حدّه الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى   متونهن جلاء الشك والريب

ثم يقول شوقى :

وما قضت مصر من كل لبانتها   حتى تجر ذيول الغبطة القشبا

فى الامر مافيه من جد فلا تقفوا   من واقع جزعاً أو طائر طربا

لاتثبت العين شيئاً أو تحققه   إذا تحير فيها الدمع واضطربا

يريد أن يقول ان من الناس من استطاره طرباً هذا الاستقلال المقيد لأنه رآه بالقياس الى الماضي غير منتظر . ومنهم من استطاره جزعاً لأنه نصف استقلال وليس هو بنشيدة آمال المصريين . فهو ينهى الفريقين هذا عن الطرب وهذا عن الجزع . ثم يقول للجازع : ان العين لاترى المرئيات جيداً إذا كان يجول الدمع فى مآقيها فارفع الدمع من عينك حتى تقدر أن ترى جليّاً

اذا طلبتَ عظيماً فاصبرن له   أو فاحشدنّ رماح الخط والقضبا

ولا تعدَّ صغيرات الأمور له   ان الصغائر ليست للعلى أهبا

ولن ترى صحبةً ترضى عواقبها   كالحق والصبر فى أمر اذا اصطحبا

ان الرجال اذا ما ألجئوا لجأوا   الى التعاون فيما جل أو حزَبا

قال : اما الصبر واما الحرب فأما الصغائر فلا تصل بكم الى غاية . ثم قال :

تمهدت عقبات غير هينة   تلقى ركاب السرى من مثلها نصبا

وأقبلت عقبات لا يذللها   فى موقف الفصل الا الشعب منتخبا

كم صعب اليوم من سهل هممت به   وسهل الغد فى الاشياء ما صعبا

ضموا الجهود وخلوها منكرة   لاتملأوا الشدق من تعريفها عجبا

يريد أن يقول ان عقاباً كأداء قد تمهدت ولاتزال عقاب لاتقل عن تلك غير ممهدة . ولكن اذا اتفق الشعب وانتخب نوابه فقد يصل الى أربه وربما تيسر فى الغد مالم يتيسر اليوم (ولقد تيسر ماتكهن به شوقى بعد ثمانى سنوات مما قال)

فضموا مجهوداتكم واجعلوها فكرة منسوبة للبلاد بأسرها ولا تضيعوا الوقت فى نسبتها الى الاشخاص وتفضيل زيد على عمرو والاختلاف على من كان هو العامل

أفى الوغى ورحى الهيجاء دائرة　　تحصون من مات أو تحصون ما سلبا
خلوا الاكاليل للتاريخ ان له　　يداً تؤلفها دراً ومخشلبا
أمر الرجال اليه لا الى نفر　　من بينكم سبق الأنباء والكتبا

يقول : اذا كانت الهيجاء دائرة فليس من العقل أن يشتغل الناس باحصاء من ذهب أو احصاء ماذهب بل هذا متروك الى مابعد انتهاء المصاف كذلك المعارك السياسية التى التاريخ وحده هو الذى يعطى فيها كل مقاتل حقه فإلى التاريخ مرجع الفصل فى هذه القضية، وأما أنتم فلستم الآن فى تاريخ بل فى سياسة تجب معالجتها بما يناسبها ثم يقول :

قالوا الحماية زالت قلت لا عجب　　بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت　　كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

ولقد آتى الله الكنانة حزماً كافياً فى أثناء غارة ايطاليا على الحبشة فاستغلت الخصام الايطالى الانكليزى وقطعت ذنب تلك الحماية

لو تسألون «ألنبى» يوم جندلها　　بأى سيف على يافوخها ضربا
يافاتح القدس خل السيف ناحية　　ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
اذا نظرت الى أين انتهت يده　　وكيف جاوز فى سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة　　وان للحق لا للقوة الغلبا

أي أن الصليب كان خشباً لا حديداً وكان أصحابه أضعف خلق الله ومع هذا فقد انتهى أمرهم الى ما انتهى اليه من القوة فلا ينبغى أن يعتمد القوى على قوته ويسرف فى الاعتماد عليها وكم منّ الله على الذين استضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة

وهذه الأبيات الثلاثة الأخيرة هى من الأبيات الخالدة التى يحفظها مئات الألوف من الناطقين بالضاد ولا يبرحون يطرزون المجالس بها ولو ترجمت الى لغة أجنبية لما خسرت شيئاً من طلاوتها ولا من قوة معناها كما هو الشأن فيما يحول من لغة الى لغة

قصيدة شوقى عن تأجيل حفلة التتويج لملك انكلترة

ولشوقى قصيدة فى تأجيل حفلة التتويج لملك انجلترة ادوارد السابع ، وقالوا انها تأجلت لإصابة الملك بدمل ، ومطلع هذه القصيدة هو هذا :

لمن ذلك الملك الذى عز جانبه　　لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه

ومنها :

أيبطل عيد الدهر من أجل دمل　　وتخبو مجاليه وتطوى مواكبه
ويرجع بالقلب الكسير وفوده　　وفيهم مصابيح الورى وكواكبه
وتسمو يد الدهر ارتجالا بيأسها　　الى طنب الاقواس والنصر ضاربه
ويستغفر الشعب الفخور لربه　　ويجمع من ذيل المخيلة ساحبه

ما أحسن قوله يجمع من ذيل المخيلة ساحبه أى يقصر من ذيل الخيلاء الذى كان يجرره

ألا هكذا الدنيا وذلك ودها　　فهلا تأنى فى الأمانىّ خاطبه
أعدّ لها ادوارد أعياد تاجه　　وما فى حساب الله ماهو حاسبه

قصيدة شوقى فى ذكرى كارنارفون

وقال شوقى فى ذكرى كارنارفون :

من سره أن لا يموت فبالعلى　　خلد الرجال وبالفعال النابه
ما مات من حاز الثرى آثاره　　واستولت الدنيا على آدابه
قل للمدل بماله وبجاهه　　وبما يجل الناس من أنسابه
هذا الأديم يصد عن حضّاره　　وينام ملء الجفن عن غيابه

يريد بالأديم وجه هذه الأرض

إلا فتى يمشى عليه مجددا　　ديباجتيه معمرا لخرابه

قصيدة شوقي في تكريم الريحاني

وله في اكرام الفيلسوف الاديب الكبير الأستاذ أمين الريحاني اللبناني عندما جاء الى مصر وأقام له الأدباء حفلا على سفح الاهرام قال :

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بُناتك مجلس أو ناد ؟

ومنها :

ايه أمين لمست كل محجب في الحسن من أثر العقول وباد
قم قبل الاحجار والايدي التي أخذت لها عهدا من الآباد
وخذ النبوغ من الكنانة إنها مهد الشموس ومسقط الآراد
مازال يغشى الشرق من لمحاتها في كل مظلمة شعاع هاد
كم من جلائل أنعم لمحمد بل كم لاسماعيل بيض أياد
لولا اهتمامهما لظل الشرق في واد وأبناء الزمان بواد

ثم يخاطب الريحاني وهذا الخطاب يذكرني بدويا سمع مديحاً في رجل كبير فقال : القول على الفعل يزين

يانجم سوريا ولست بأول ماذا نمت من نير وقاد
أطلع على يمن بيمنك في غد وتجل بعد غد على بغداد
وأجل خيالك في طلول ممالك مما تجوب وفي رسوم بلاد

يقول له : لست أنت أول نجم من أنجم سورية فقد طلع منها نيرات وقادة قبلك فاطلع الآن بعد مصر على اليمن وتجلّ على العراق لترى ماترى في رسوم تلك الأربع وتتذكر مجد العرب القديم . ولقد قام الريحاني وايم الله بهذه المهمة وكتب عن أحوال جزيرة العرب الكتب الممتعة ودعا الى وحدة العرب بكل طريقة ولابد من الاعتراف بهذه الحقيقة . ثم قال له :

قضيت أيام الشباب بعالم لبس السنين قشيبة الأبراد
ولد البدائع والروائع كلها وعدته أن يلد البيان عواد
لم يخترع شيطان حسان ولم تخرج مصانعه لسان زياد

الله كرم بالبيان عصابة   في العالمين عزيزة الميلاد

يقول للريحاني انك قضيت أيام شبابك في عالم جديد أذل الله له أعراف البدائع الصناعية والآن أعطاف الروائع العلمية ولكنه لم يدرك شأو العرب في فصاحة اللسان ولم يلد شعراء كثيرين مثل حسان بن ثابت ولا خطباء كثيرين مثل زياد بن أبيه. ثم قال:

هومير أحدث من قرون بعده   شعراً وان لم تخل من آحاد
والشعر في حيث النفوس تلذه   لا في الجديد ولا القديم العادي

يقول: ان هومير وهو أقدم الشعراء لايزال شعره حديثاً طايا لم يبلغ درجته شعراء كثيرون تأخروا عنه عشرات من القرون وذلك أن الشعر ليس فيه قديم وجديد وانما فيه لذيذ وغير لذيذ. فما استلطفته النفوس فهو شعر لاتخلق ديباجته ولو كان قديماً. وما مجته الأذواق فليس بشعر ولو كان جديدا.

رأي المؤلف في قديم الشعر وجديده

قلت: ولو كانت القدمة مما يهجن الشعر لوجب أن يكون هومير منبوذاً فانه أقدم شاعر. ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لايفتأون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر ويزعمون أن لكل عصر «مدرسة» على قولهم في الشعر: ان هذه «المدرسة» تكون في العلم وتكون في الصناعة وتكون في الزراعة وتكون في كل شيء الا في الشعر. فان مدرسته هي القلب وان طريقته هي النفس وان النفس البشرية لم تتغير ولن تتغير فهي هي في أذواقها ومشاربها ومواردها في الحياة ومصادرها. فاذا كان العلم يتغير بظهور حقائق جديدة وبروز أسرار كونية كانت حتى اليوم خافية فان العلم شيء والشعر شيء آخر

وما سمعنا - ياليت شعري - أن الانجليز زهدوا في شعر شكسبير لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة، ولا أن الألمان عابوا غوته لقدم عهده ومجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة. ولم يزل غوته هو عند الألمان سيد الشعر ولم يزل شكسبير عند الانكليز أكبر الشعراء. وشكسبير وغوته وملتون وكورنيل وراسين ودانتي وكل هؤلاء لم يعرفوا شيئا من أوضاع العصر الحاضر ببداهة كونهم قدسبقوه بأعصر وهم على كل حال متقدمون لا محدثون.

وكم من مرة نقول لهم : ليس الشعر بكيمياء ولا طب ولا جغرافية ولا طبيعيات وانما هو تأثرات نفسية وانطباعات فكرية لاغير. هذا من جهة الشعر على العموم واما من جهة الشعر العربى الذى تريدون أن تفرنجوه فالشعر العربى لا يكون شعراً الا إذا وافق ذوق العرب ولاءم مشارب أنفسهم وجانس مذاهب لغتهم واتصل بمناحى حياتهم نظمه قديم أو متوسط أو محدث كلهم على حد سواء . فاذا باين الشعر العربى أساليب العرب فى بيانها وطرقها فى التعبير عن خوالج نفوسها لم يتأثر به قارئ ولا تسوغه سامع من العرب وربما لم يفهموه أصلاً على حد ماقال الأستاذ محب الدين الخطيب: ان الواحد من هؤلاء «يظل يومه يسطو على منظومات الافرنج يستل منها معانيها الغريبة عن الاذواق العربية فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً فلا يفهم منها القارئ العربى الا بقدر ماأفهم أنا من الصينى» . وأنا أيضاً معترف بأنى لاأفهم هذه اللغة التى يكتبون بها.

ثم يختم شوقى خطابه للريحانى :

أودع لسانك واللغات فربما ... غنى الأصيل بمنطق الأجداد
إن الذى ملأ اللغات محاسناً ... جعل الجمال وسره فى الضاد

احدى قصائد شوقى فى السلطان عبد الحميد

ولما ألقيت قذيفة على السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ونجا السلطان منها هنأه شوقى بقصيدة مطلعها :

هنيئاً أمير المؤمنين فانما ... نجاتك للدين الحنيف نجاة

ومنها :

بلوناك يقظان الصوارم والقنا ... اذا ضيع الصيد الملوك سبات
سهرت ولذّ النوم وهو منية ... رعايا تولاهـــا الهوى ورعاة
فلولاك ملك المسلمين مضيع ... ولولاك شمل المسلمين شتات
لقد ذهبت راياتهم غير راية ... لها النصر وسم والفتوح شيات
حنيفية قد عزها وأعزهـا ... ثلاثون ملكاً فاتحون غزاة
حماها وأسماها على الدهر منهمو ... ملوك على أملاكه سروات

أى أن سلاطين آل عثمان هم ذرى ملوك الاسلام

غمائم فى محل السنين هواطل | مصابيح فى ليل الشكوك هداة
تهادت سلاماً فى ذراك مطيفة | لها رغبات الخلق والرهبات
تموت سباع الجو غرثى حيالها | وتحيي نفوس الخلق والمهجات
سننت اعتدال الدهر فى أمر أهله | فبات رضياً فى ذراك وباتوا
أ كان لهذا الأمر غيرك صالح | وقد هوّنته عندك السنوات

أى صارت ادارة الملك ملكة عندك بطول اضطلاعك بها .

ومن يسس الدنيا ثلاثين حجة | تعنه عليها حكمة وأناة
وما زلت حسان المقام ولم تزل | تليني وتسرى منك لى النفحات
زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى | جوائز عند الله مبتغيات

يجعل نفسه من السلطان الخليفة بمقام حسّان من رسول الله عليه السلام ويقول انه لم يزل مغمورا بعطايا الخليفة ولكنه هو انما يرغب فى جوائز الله بتأييد خليفته فى الأرض لا فى جوائز هذه الدنيا .ولم يشأ شوقى أن يمدح الخليفة من دون أن يمدح نفسه مقتدياً فى ذلك بامامه ابى الطيب المتنبى الذى كان يقول :

فدع كل صوت غير صوتى فاننى | أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

ويقول :

خليلى انى لا أُرى غير شاعر | فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

ويقول وقد تجاوز الحد وانتهى بذلك الى الحمق:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا | بأننى خير من تسعى به قدم

وهذه قصيدته « وا حر قلباه ممن قلبه شبم » ملأى بأواً وعجباً وعجرفة لا يشك سامعها فى أن المتنبى قصد يومئذ فراق سيف الدولة وقطع صلته به ومن إعجاب الشعراء بأنفسهم ما يغتفره لهم الناس مثل قول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى | وأسمعت كلماتى من به صمم

ولكن منه ما يسمج على كل حال مثل قول المتنبى «بأنى خير من تسعى به قدم»

شهد لنفسه بما لا يوافقه عليه أحد . فأما شوقى فلم يصل الى ذلك الأمد فى البأو وإن كان لم يقصر فى ذلك عند قوله :

ومن كان مثلى احمد الوقت لم تجز   عليه ولو من مثلك الصدقات

ولى درر الأخلاق فى المدح والهوى   وللمتنبى درة وحصـــاة

أى انه كما كان احمد بن الحسين المتنبى رجل وقته فى الشعر فان أحمد شوقى هو رجل هذا الوقت وانه يفضل المتنبى بكون شعره سوياً لا تجد فيه عوجاً ولا أمتا وان المتنبى كان فى شعره يعلو ويسفل ويقرن بين الدر والحصى والسيف والعصا .

شوقى نصير الصون والعفاف

ولشوقى قصيدة القيت على جمع حافل من سيدات مصر فى حديقة الأزبكية تدل على شدة اهتمامه بصيانة الاخلاق والفضائل وتحصين التربية العائلية من نزعات العصر الحاضر ونزغات الخلاعة والفجور بينما كثير من الادباء يزينون للناشئة الخروج على تقاليد الصون ويريدونها فوضى اجتماعية لا لجام لها . وقال شوقى ولم يزل على صراط مستقيم :

قم حىّ هذى النيرات   حى الحسان الخيرات

واخفض جبينك هيبـة   للخرّد المتـخفرات

زين المقـاصر والحجـا   ل وزين محراب الصـلاة

هـذا مقام الأمهـات   فهل قدرت الأمهات ؟

لاتلغ فيه ولا تقل   غير الفـواصل محكمات

واذا خطبت فلا تكن   خطباً على مصر الفتـاة

اذكر لها اليابان لا   أمم الهوى المتهتـكات

ماذا لقيت من الحضا   رة يا أخى الـترهات

لم تلق غير الرق من   عسر على الشرقى عات

ينهى اهل مصر عن أن يقوم فيهم من يخطب فيفجر فيكون خطباً على مصر الناشئة ويرخى فيها من قيـود الآداب الاجتماعية ويسهل العبث بالتقاليـد القديمة

الكريمة ويقول لهم : تأملوا فى اليابان وشدة اعتصامها بتقاليدها مع علو كعبها فى المدنية ثم يقول لهم : ماذا افتتانكم الى ذلك الحد فى حضارة أوربيـة لم تجدوا من ورائها غير العسر والرق ، ثم يقول :

خـذ بالكتاب وبالحديـ ث وسيرة السلف الثقات
وارجع الى سنن الخليـ قة واتبع نظم الحياة
هذا رسـول الله لم ينقـص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسيا سة والشئون الأخريات
كانت سكينة تملأ الد نيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الاسلام تنـ طق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالما ت ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نميـ ن الهاتفات الشاعرات

جزاه الله عن الاسلام خيراً بل جزاه عن المجتمع الشرقى بأسره خيراً فإنه لم يقف موقفاً من مواقف الاجتماع غفل فيه عن الطريقة المثلى . وهو وان كان كلامه لم ينجع كما يجب ولم يؤثر بقدر ما نحب بسبب استيلاء الضلالة على العقول وافلات الشهوات من العقال فلا بد أن تكون للاخلاق كرة وأن يعود السلطان للشريعة ويتناشد الناس أقوال شوقى هذه ويرحموا عليه . ثم قال :

للصالحات عقائـل الـ وادى هوى فى الصالحات
الله أنبتهن فى طاعاته خير النبات
فأتين أطيب ما أتى زهر المناقب والصفات
لم يكف أن أحسن حـ تى زدن حظ المحسنات
يمشين فى سوق الثوا ب مساومات رابحات

مصر مجدد مجدها بنسائها المتجددات
النافرات من الجمو د كأنه شبح الممات
هل بينهن جوامدا فرق وبين المومياث
لما حضن لنا القضـ ية كن خير الحاضنات
غذينها في مهدها بلبانهن الطاهرات
ينفثن في الفتيان من روح الشجاعة والثبات
يهوين تقبيـل المهنـ د أو معانقـة القناة
ويرين حتى في الكرى قبَل الرجال محرمات

فرق شوقى بين الجمود وبين الاعتصام بالتقاليد الكريمة والمبادئ الفاضلة التى لا سعادة للمجتمع الا بها ، فليس هذا من هذا ، بل الجمود ليس من تقاليد هذه الامة وإن أحسن ما يعمل فى مدارس الاناث هو تحفيظ هذه الأبيات للآنسات وتجديد تلاوتها فى المحافل .

شوقى يدمدم على رذيلة الانتحار

ورأى شوقى مافشا فى مصر من انتحار صغار الطلبة لدن سقوطهم فى الامتحانات فنظم هذه القصيدة فى ذم اليأس ودعوة هؤلاء الشبان الى الثبات فى المعركة والى بسط الأمل فى الحياة فقال :

كل يوم خبر عن حـدث سئم العيش ومن يسأم يذر
عاف بالدنيـا بنـاء بعد ما خطب الدنيا وأهـدى ومهر
حل يوم العرس منها نفسه رحم الله العـروس المحتضر
ضاق بالعيشـة ذرعا فهوى عن شفا اليأس وبئس المنحدر
راحلا فى مثـل أعمار المنى ذاهباً فى مثـل آجال الزهر
لا أرى الأيام الا معركا وأرى الصنديد فيـه من صبر
ربّ واهى الجاش فيه قصف مات بالجبن وأودى بالحذر

لامه الناس وما أظلمهم وقليل من تغاضى أو عذر
ولقد أبلاك عذراً حسناً مرتدى الاكفان ملقىً فى الحفر
قال ناس صرعة من قدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة ورأيت العقل فى الناس ندر
ويقولون جفاء راعه من أبٍ أغلظ قلباً من حجر
وامتحان صعبته وطأة شدها فى العلم أستاذ نكر
لا أرى إلا نظاماً فاسداً فكّك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه وما أكثرها ذلك الكاره فى غضّ العمر
مارأى فى العيش شيئاً سره وأخف العيش ما ساء وسر
نزل العيش فلم ينزل سوى شعبة الهم وبيداء الفكر
ونهارٍ ليس فيه غبطة وليال ليس فيهن سمر
ودروس لم يذلل قطفها عالم ان نطق الدرس سحر

وبعد أن ذكر هذه الأسباب التى تضيق سبل العيش على الأحداث وأنحى باللائمة على الأهل والمعلمين عاد فنصح للأحداث بالصبر والتأنى والتقدم الى الأمام فقال :

نشأ الخير رويداً قتلكم فى الصبا النفس ضلال وخُسر
لو عصيتم كاذب اليأس فما فى صباها ينحر النفس الضجر
تضمر اليأس من الدنيا وما عندها من حادث الدنيا خبر
فيم تجنون على آبائكم ألم الثكل شديداً فى الكبر
وتعقون بلاداً لم تزل بين اشفاق عليكم وحذر
فمصاب الملك فى شبانه كمصاب الأرض فى الزرع النضر
ليس يدرى أحد منكم بما كان يُعطى لو تأنى وانتظر

أى ربما كان بين هؤلاء المنتحرين لاجل سقوطهم فى الامتحان من لو صبر على نفسه لجاء عالما كبيراً وكان فى عصره نادراً

روحوا القلب بلذات الصبا فكفى الشيب مجالا للكدر

أى بكرتم فى الغم من هذه الدنيا فسوف تأتيكم الشيخوخة بما هوحسبكم من هذه الجهة

عالجو الحكمة واستشفوا بها   وانشدوا ماضل منها فى السير
واقرأوا آداب من قبلكمو   ربما علم حياً من غبر
واغنموا ما سخر الله لكم   من جمال فى المعانى وصور
واطلبوا العلم لذات العلم لا   لشهادات وآراب أخر
كم غلام خامل فى درسه   صار بحر العلم أستاذ العصر

النشأ محركة جمع نشء وهوالنسل وكثيراً مايستعمل شوقىهذه اللفظة فى خطاب الشبان هذا وكم أصاب فى قوله اطلبوا العلم لذات العلم فقد رأيت كثيراً من الشبان يجعلون جميع وكدهم فى تحصيل الشهادة ويرون بها منتهى السعادة واذا حصل الواحد عليها ظن نفسه عالما لا يجوز أن يقال له أخطأت. أو ليس انه أحرز الشهادة ؟ ورأيت شبانا آخرين يكاد أحدهم يذوب حسرة وتألماً على كونه لم يصب الشهادة ولم يفز بمافاز به غيره وهو يتخيل ان الارض قدابتلعته فكنت أقول للفئة الاولى: لا يغرنكم نيل الشهادة فتناموا بعدها قائلين لأنفسكم انكم صرتم علماء بحجة ان الشهادة هى فى أيديكم . بل يجب أن تثابروا على الدرس والتحقيق كأن شهادتكم لم تكن فالشهادة ليست العلم. وكنت أقول للفئة الثانية : ما أرى تأخركم فى الامتحان الا خيراً لكم إذ بهذا التأخر تضطرون الى مراجعة دروسكم المرة والمرتين والثلاث فيكون ذلك وسيلة لتتمكنوا من العلم وتعرفوا أكثر مما عرفه أصحاب الشهادات واعلموا أن الشهادة ليست هى العلم الحقيقى بل هى علامة من علاماته . فمن عرف نفسه قد أحكم الفن الذى عكف عليه فلا ينبغى أن يحزن على تأخر الشهادة . ومن عرف نفسه لا يزال غير ضليع فى العلم الذى درسه فلا ينبغى أن يفرح بهذه الورقة التى أعطاه أياها الأساتيذ وكثيراً ما قدموا متأخراً وأخروا متقدماً فكم من طالب تأخر أيام التحصيل ثم بعد خروجه من الجامعة نبغ وتقدم وصار من كبار العلماء .

وهذا كما يقول شوقى الذى قسم الله له من المنطق مالم يقسم إلا لأعاظم الفلاسفة .

وختم شوقى هذه القصيدة بذم الانتحار واستنكار قتل النفس التى لا يجوز أن تموت الا باسم الله تعالى ولم يحمد موطناً يجوزفيه الاستخفاف بالنفس الا موطن الجهاد فقال رحمه الله :

قاتل النفس ولو كانت له ... أسخط الله ولم يرض البشر
ساحة العيش الى الله الذى ... جعل الورد بإذن والصدر
لا تموت النفس الا باسمه ... قام بالموت عليها وقهر
إنما يسمح بالروح الفتى ... ساعة الروع اذا الجمع اشتجر
فهناك الاجر والفخر معاً ... من يعش يحمد ومن مات أجر

شوقى يتوجع على بيروت يوم ضربها الطليان أيام حرب طرابلس

وله عندما ضرب الأسطول الايطالى مدينة بيروت فى أثناء حرب طرابلس الغرب:

يارب أمرك فى الممالك نافذ ... والحكم حكمك فى الدم المسفوك
ان شئت أهرقه وان شئت احمه ... هو لم يكن لسواك بالمملوك

ثم يقول :

بيروت مات الأسد حتف أنوفهم ... لم يشهروا سيفاً ولم يحموك
سبعون ليثاً أحرقوا أو أغرقوا ... ياليتهم قتلوا على «طبروك»

يريد بها «طبرق» الواقعة غربى السلوم ضمن حدود قضاء درنة وقد كان الناس دعوا جنود السفينة الصغيرة العثمانية الراسية فى المرفأ للخروج منها قبل أن يضربها الأسطول فأبى الضباط ذلك وأصروا على البقاء فى السفينة قياماً بالواجب ولو كانوا سيموتون لا محالة فتلقوا الموت اليقين حتى لا يقال إنهم فروا منه

بيروت ياراح النزيل وأنسه ... يمضى الزمان علىّ لا أسلوك
الحسن لفظ فى المدائن كلها ... ووجدته لفظاً ومعنى فيك
نادمت يوماً فى ظلالك فتيةً ... وسموا الملائك فى جلال ملوك
ينسون حساناً عصابة جلق ... حتى يكاد بجلق يفديك

يشير الى قول حسان :

(لله در عصابة آنستهم   يوماً بجلق فى الزمان الأول)
تالله ما أحدثت شراً أو أذى   حتى تراعى أو يراع بنوك
ان يجهلوك فان أمك سوريا   والأبلق الفرد الأشم أبوك
لك فى رُبى النيل المبارك جيرة   لو يقدرون بدمعهم غسلوك

يشير بالأبلق الفرد الأشم الى جبل لبنان وبنوه بسورية العزيزة وطن الكرم والشجاعة قائلا لبيروت انها أمك البرة

وصف شوقى لاستانبول

ولشوقى وصف للأستانة :

منى لعهدك يافروق تحية   كعيون مائك أو رُبى واديك
أو كالنسيم غدا عليك وراح من   فوق الرياض ووشيها المحبوك
أو كالأصيل جرى عليك عقيقهُ   أو سال من عقبانهِ شاطيك
تلك الخمائل والعيون اختارها   لك من رُبى جنَّاته باريك
قد أفرغت فيك الطبيعة سحرها   من ذا الذى من سحرها يرقيك
خلعت عليك جمالها وتأملت   فاذا جمالك فوق ما تكسوك
عن جيدك الحالى تلفتت الرُّبى   واستضحكت حور الجنان بفيك
إن أنس لا أنس الشبيبة والهوى   وسوالف اللذات فى ناديك
ولياليا لم ندر أين عشاؤها   من فجرها لولا صياح الديك
وصبوحنا من (بندلار) و(شرشر)   وغبوقنا (بترابيا) و (بيوك)

هذه منازل ومتنزهات فى البوسفور أما (البندلار) فهى أودية ذات سدود تشكلت منها بحيرات يذهب ماؤها الى الاستانة . وشرشر هى عين ماء وترابيا هى قرية على ضفة البوسفور وكذلك (بيوك دره) ثم يقول :

لا يحزننك من حماتك خطة   كانت هى المثلى وإن ساءوك
وهمو الخفاف اليك كالانصار إذ   قلّ النصير وعزَّ من يفديك
والمشتروك بمالهم ودمائهم   حين الشيوخ بجبّة باعوك

هنا تحامل أخونا شوقى على الشيوخ الذين لولاهم فى الحقيقة لم يقم اهل الاناضول ولا لبوا دعوة كاظم قره بكير ولا مصطفى كمال ولا أحد سواهما . فالجهاد التركى فى وجه الحلفاء واليونان وبعبارة أخرى الحرب التى يسمونها بحرب الاستقلال لم تكن الا بتحريض الأئمة والمشايخ وجميع أصحاب العمائم . وذلك بصارخة الاسلام التى لباها الشعب التركى .

هذه هى حقيقة لا يكابر فيها الا من أعمت الضلالة قلوبهم ومن غلبوا على الأمور اليوم فظنوا أنهم يسخرون الحقائق كما يسخرون الأهالى ويغلبون على التاريخ كما غلبوا على المناصب . ولا نعلم أحداً من علماء الترك باع بلاده من الاجانب بجبة وانما كان بعضهم سيء الظن ببعض القواد الذين أقحموا انفسهم بحرب الاستقلال وكانوا مطلعين من قبل على ضمائرهم بحق الاسلام والاخلاق متوقعين من غلبهم أن يؤول الأمر الى ما آل اليه من الإلحاد فى الدين ومن هدم الخلافة ومن القضاء على الاوضاع الاسلامية بأسرها مما عاد شوقى نفسه بعد قليل فاعترف به وناح وبكى من أجله وقصيدته الحائية التى مرت أعظم شاهد على ذلك . فالذين أفتوا بما أفتوا به لم يكونوا خائنين لوطنهم وانما كانوا أمناء لدينهم خائفين على الاسلام من امر يأتى .

وقد يجد المعترض على كلامى هذا وجهاً للجواب ولكنه يكون جواب سفسطة. ليس هنا محل الشرح والتفصيل لبيانه . وقد زلق شوقى فى هذه الفكرة كما زلق ملايين من الخلق ولكن الحقيقة لا يضرها كثرة عدد مخالفيها .

قصيدة شوقى فى اللورد كرومر

يوم عزل عن مصر

ومن قصائد شوقى المشهورة القصيدة المسماة (وداع اللورد كرومر) :

أيامكم أم عهد اسماعيلا   ام أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره   لا سائلا أبداً ولا مسئولا
يا مالكا رق الرقاب بيأسه   هلا اتخذت الى القلوب سبيلا

يقول لكرومر : انك غلبت على مصر بقوة الاسطول الانجليزي ، آمناً بذلك

فهل تقدر أن تقول انك ملكت قلبا واحداً من قلوب أهل مصر ؟ ومن لم يملك القلوب فلا يقال انه ملك شيئاً لأن الممالك لا يمكن أن ترتكز على رؤوس الحراب دائما

أوسعتنا يوم الوداع إهانة ... أدب لعمرك لا يصيب مثيلا

هلا بدا لك أن تجامل بعد ما ... صاغ الرئيس لك الثنا اكليلا

انظر الى أدب الرئيس ولطفه ... تجد الرئيس مهذباً ونبيلا

فى ملعب للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا

شهد (الحسين) عليه لعن أصوله ... وتصدر الأعمى به تطفيلا

لما جرت حفلة الوداع للورد كرومر فى دار الاوبرا يوم خروجه من مصر خطب رئيس النظار مصطفى باشا فهمى وبحسب العادة فى مثل تلك الحفلات أثنى على المودَّع وأظهر الأسف لفراقه . فأجابه اللورد كرومر بكلام نال فيه من كرامة الأمة المصرية ومن الخديوى اسماعيل ولم يُراع شيئاً من شروط الكياسة . وأغرب ما فى الأمر أنه قال ما قال فى حضور الأمير حسين كامل بن الخديوى اسماعيل وسلطان مصر فيما بعد وهذا ما يشير اليه شوقى بقوله (شهد الحسين عليه لعن أصوله) وأما الأعمى فهو صديقنا الاستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان وكان بصره ضعيفاً حتى كاد يكف فى الآخر وما نظن شوقى ذكره هنا الا على سبيل النكتة أو كما يقال جرته القافية فان الشيخ عبد الكريم لم يكن له شأن فى السياسة ولم يكن حضوره تلك الحفلة إلا كما يحضر سائر الاجتماعات فقد كان مولعاً بذلك وكان الناس يتنادرون عليه فى كثرة وجوده فى المآدب والمحافل وكان حلو الفكاهة يطارد فى ميدان المداعبة أحسن طراد وكانت الناس تستخف روحه . فأما أن يقوم الشيخ عبد الكريم ويرد على اللورد كرومر فى وجهه على حين الأمراء والوزراء تحملوا كلامه وأبلسوا أمامه فلم يكن من فرسان ذلك الميدان . ثم يقول :

أنذرتنا رقاً يدوم وذلة ... تبقى وحالا لا ترى تحويلا

أحسبت أن الله دونك قدرة ... لا يملك التغيير والتبديلا

الله يحكم فى الملوك ولم تكن ... دول تنازعه القوى لتدولا

فرعون قبلك كان أعظم سطوة ... وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعودَ حكومة ... كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه ... مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها ... وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى ... جحدوا الآله وصنعه والنيلا

نعم إن الكثيرين من سعاة الأجانب ودعاتهم كانوا دائماً يبينون للناس ما جرى من الاصلاحات فى مصر لعهد الانجليز وينسون أن الله تعالى أنعم على مصر بالنيل وانه لولا النيل لم تتسهل هذه الاصلاحات وان الانجليز دخلوا بلاداً غير مصر فلم يوفقوا الى شيء مما وفقوا به فى مصر لأنه لم يكن لتلك البلاد نيل يسقيها ويسيل الذهب فى واديها . ثم ان هؤلاء ينسون شيئاً آخر وهو أن مصر على فرض أن الانجليز لم يدخلوها ما كانت لتقف فى مكانها السياسى والاجتماعى والادارى وتبقى متأخرة عن عن درجة غيرها . أفلا يرون أن محمد على كان قد أنشأها نشأة جديدة وبنى فيها المدارس والمعاقل والمعامل ونظم الجيوش وأجرى فى البحر الأساطيل ومهد الطرق وبنى السدود وشق الجداول الى غير ذلك مما يعدده شوقى فيقول :

وحياة مصر على زمان محمد ... ونهوضها من عهد اسماعيلا
ومدارساً لبنى البلاد حوافلا ... حظ الفقير بهن كان جزيلا
ومعاقلا لا تمحى آثارها ... وجيوش ابراهيم والاسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا ... تذر اليباب مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا ... كانت حزونا فاستحلن سهولا
والقطن مزروعاً بفضل محمد ... فى مصر محلوجاً بها مغزولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى ... ظل الحضارة فى البلاد ظليلا
انقيس فى جود وفى سرف الى ... ما تنفقون اليوم عدّ بخيلا

يريد أن يقول ان الانجليز كانوا يجورون على خزانة مصر ويجحفون بها أكثر مما كان اسماعيل يجور عليها فلماذا لا يزالون ينتقدون اسرافه ؟

أوكان قد صرع المفتش مرة   فلكم صرعت بدنشواى قتيلا

أى انه إن كان اسماعيل باشا ظلم وقتل اسماعيل باشا المفتش ظلما فكم ظلمتم انتم وقتلتم ظلماً من أناس فى حادثة دنشواى، وهى ان جنوداً من جيش الاحتلال الانجليزى اصطادوا حماما لأهل دنشواى (قرية من أعمال المنوفية) برغم رجاء أهل القرية لهم أن لا يفعلوا . فوقع بين الفريقين نزاع من اجل صيد الحمام فاعتدى الجنود الانجليز على بعض الاهالى فدافعوا عن أنفسهم وفر أحد الانجليز فى الحر فأصيب بضربة الشمس فمات وعند ذلك قامت قيامة اللورد كرومر فأمر بأهل القرية فحوكموا محاكمة صارت مثلا مضروبا فى الظلم وشنق عدة أشخاص من أهل القرية وجلد آخرين وسجن كثيرين. وشاعت فظاعة هذه الحادثة حتى فى انجلترة نفسها فاضطرت الحكومة الانجليزية أن تصرف اللورد كرومر عن مصر بسببها ولذلك غلب عليه الحقد فتكلم بما تكلم به فى حفلة توديعه وخالف الادب بما فعله وتركها على نفسه سبة باقية زادها شعر شوقى تخليداً

لاتذكر الكرباج فى أيامه   من بعد ما أنبتّ فيه ذيولا

أي انه ان كان اسماعيل قد استعمل المقرعة فى أيامه فانت أيها اللورد جعلت لهذه المقرعة ذيولا وجلدت أكثر مما جلد اسماعيل ومن الجملة ما جلدت فى دنشواى

كم منة موهومة أتبعتها   منًّا على الفطن الخبير ثقيلا
فى كل تقرير تقول خلقتكم   هلا ترى تقريرك التنزيلا

أى كلما قدم اللورد كرومر تقريراً سنويا عن مصر والسودان ادعى لنفسه من الاصلاحات ما ادعى ونزل ذلك منزلة الحقائق التى لا شك فيها ومن بها على مصر منّاً ثقيلا كما قال بعضهم :

رأيتك تكوينى بميسم منة   كأنك كنت الأصل فى يوم تكوينى

ثم ذكر كيف أضاع اللورد كرومر الجيش المصرى وضعضع قوته عمداً وقلم أظفاره خبثاً ولؤماً وحرم ضباطه الترقى عن درجات معلومة فصاروا يعيشون بلا أمل ويخدمون بلا مكافأة مع أن انجلترة انما فتحت السودان بدم هذا الجيش المصرى لا بغيره . وقد

صاغ شوقى هذا الموضوع بالأبيات الآتية:

أم هل يعدّ لك الاضاعة منة　　جيش كجيش الهند بات ذليلا
انظر الى فتيانه ما شأنهم　　أو ليس شأناً فى الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا　　ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأمّلت　　مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد ما زفوا لادوارد العلى　　فتحاً عريضاً فى البلاد طويلا

ثم يذكر شوقى أصناف الناس الذين يحق لهم أن يأسفوا على انفصال كرومر عن ولاية أمر مصر مثل الانجليز الذين ملكهم كرومر زمام هذا القطر ومثل أعضاء الكلوب أو النادى فى القاهرة ومثل القسيسين المبشرين ومثل الصرافين بلندن ومثل جريدة التايمس والجرائد الاستعمارية ومثل شركة قناة السويس فقال :

لو كنت من حمر الثياب عبدتكم　　من دون عيسى محسناً ومنيلا

حمر الثياب كناية عن العسكر الانجليزى المحتل لمصر

أو كنت بعض الانجليز قبلتكم　　ملكا أقطّع كفه تقبيلا
أو كنت عضواً فى الكلوب ملأته　　أسفاً لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشراً　　رتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافاً بلندن دائناً　　أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت (تيمسكم) ملأت صحائفى　　مدحاً يردد فى الورى موصولا
أو كنت فى مصر نزيلا جاهدا　　سبحت باسمك بكرة وأصيلا

يشير بالبيت الأخير الى النزلاء الأجانب الذين يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ولا تقدر الحكومة المصرية أن تواجه منهم أحدا الا عن طريق قنصله . وهذه الامتيازات كان اللورد كرومر من أشد المحافظين عليها رغبة فى تقييد مصر وكسر شوكتها

أو كنت سريوناً حلفت بأنكم　　أنتم حبوتم بالقناة الجيلا

سريون هذا مدير شركة قناة السويس

عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم　　لا يبخسون المحسنين فتيلا

أى أن الفرنج لا يبخسون المحسنين حقهم وهل من رجل أحسن اليهم بقدر احسانك فى مصر ؟ وذلك على ظهر أهلها

فارحل بحفظ الله جل صنيعه　　مستعفياً ان شئت أو معزولا

واحمل بساقك ربطة فى لندن　　واخلف هناك غراى أو كمبيلا

أو شاطر الملك العظيم بلاده　　وسس الممالك عرضها والطولا

كان اللورد كرومر قد حمل على الاستعفاء من بعد حادثة دنشواى ولكنه هو وأصحابه حاولوا اقناع الناس بأنه استعفى بمجرد ارادته واختياره . فشوقى يقول له : على كل حال قد ذهبت عنا مستعفياً أو معزولا فارحل بحفظ الله وقوله (بحفظ الله) أسلوب من أساليب الكلام التى يقصد بها غير ظاهرها كما يقول الانسان :(اذهب مع السلامة) لمن يريد أن يتخلص منه . ثم يقول له : كن ما شئت بعد أن تخلصت مصر منك فليعطوك وسام ربطة الساق ولتخلف هناك الوزير غراى أو الوزير كمبيل ولتشاطر ادوارد فى ملكه . هذا كله لا يهمنا على شرط أن ترحل عنا . ثم يقول :

انا تمنينا على الله المنى　　والله كان بنيلهن كفيلا

من سب دين محمد فمحمد　　متمكن عند الاله رسولا

يقول لكرومر : قد تمنينا على الله أن يقلعك فانقلعت . وهذا كل ما نريد . وان من سب دين محمد فمحمد عليه السلام له جاه عظيم عند الله فالله ينتقم له . وهذا إيماء الى ما جاء فى تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ من أن دين الاسلام دين لا يصلح لهذا العصر . فقد بلغ من جبروت هذا العميد الانجليزى وغطرسته وعداوته للاسلام أن قذف بدين أهالى مصر التى كان يلى أمرها وبدين أتباعه وهم خمس العائلة البشرية وذلك فى تقرير رسمى يقدمه لحكومته وينتشر فى الارض، فلا جرم أن مصر قد صبرت على الأذى فى دنياها ودينها الى أقصى مراحل الصبر، ولقد تأذن الله بفك قيودها الثقيلة فى هذه السنة بفضل نزاع انكلترة مع ايطاليا (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) .

ولا نظن أديباً أو شاديا شيئاً من الأدب فى مصر وجوارها غير حافظ لقصيدة شوقى هذه وحافظ له جميلها فهى لسان المصرى الموتور التأجج صدره وغرا المنتقم لوطنه ودينه وشرفه وملكه وماله الذى ينطق عن قلب ملآن وكبد قد قرحتها الأحزان ويتكلم بلسان من دونه السنان .

قصيدة شوقى فى الثورة السورية

ولما دمر الفرنسيس دمشق فى ابان الثورة السورية - وفى أيام العداوة بين السوريين والفرنسيس - أقيمت فى القاهرة حفلة استنكار لذلك العمل وتليت فيه الخطب والقصائد فقال شوقى القصيدة الآتية وتسابقت الصحف الى نشرها ، فاشترت جريدة السياسة امتياز السبق الى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً وضم هذا المال الى اعانة منكوبى الثورة السورية :

سلام من صبا بَرَدَى أرقّ ... ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافى ... جلال الرزء عن وصف يدق
وذكرى عن خواطرها لقلبى ... اليك تلفّت أبداً وخفقُ
وبى مما رمتك به الليالى ... جراحات لها فى القلب عمق
دخلتك والأصيل له ائتلاق ... ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الأنهار تجرى ... وملء رباك أوراق ووُرْق
وحولى فتية غر صباح ... لهم فى الفضل غايات وسبق
على لهواتهم شعراء لُسْنٌ ... وفى أعطافهم خطباء شُدْقُ
رواة قصائدى فاعجب لشعر ... بكل محلة يرويه خَلق

يقول انه كان حوله يوم دخل دمشق فتية غر الافعال صباح الوجوه هم بلهواتهم كناية عن أفواههم - شعراء لسن جمع ألسن وهو الفصيح وفى أعطافهم - كناية عن مواقفهم - خطباء شدق جمع أشدق وهو المفوه البليغ . ومع هذا فإنهم رواة شعرى الذى بكل محلة من الدنيا له رواة . قلت: لم يبالغ شوقى فى هذا ولكن لم يرو عنه الرواة من الشعر كما رووا من هذه القصيدة . ثم قال :

غمزت إباءهم حتى تلظت ... أنوف الأسدِ واضطرم المَدَق
وضج من الشكيمة كل حر ... أبيّ من أُمية فيه عتق
لحاها الله أنباء توالت ... على سمع الولى بما يشق
يفصلها الى الدنيا بريد ... ويُجملها الى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهى صدق
وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل أصابها تلف وحرق

يقول انه كانت تأتى أخبار هذه القارعة النازلة بدمشق الصاكة للاسماع مجملة بالبرقيات مفصلة بالكتابات يكاد الناس يحسبونها من الخرافات المخيلة . والحقيقة أنها وقائع وقعت فعلاً وقيل انه دمرذلك اليوم أبنية تاريخية وبيوت مزدانة بأفخر الصنعة العربية. ثم قال :

ألست دمشق للإسلام ظِئْراً ... ومرضعة الأبوة لا تُعقّ
صلاح الدين تاجك لم يجمّل ... ولم يوسم بأزين منه فرق
وكل حضارة فى الأرض طالت ... لها من سرحك العلوى عرق
بنيت الدولة الكبرى وملكا ... غبار حضارتيه لا يُشقّ
له بالشام أعلام وعرس ... بشائره بأندلس تدق

بعد أن ذكر صلاح الدين دفين دمشق ذكر الدولة الكبرى ويريد بالدولة الكبرى دولة بنى أمية لأنه لم تتسع فتوحات الاسلام فى دور كما اتسعت فى زمانهم لاسيما خلافة عبد الملك بن مروان . ويشير بقوله (غبار حضارتيه الخ) الى الحضارة الأموية فى دمشق والحضارة الأموية فى قرطبة فان الثانية هذه لها عروق من الاولى ثم قال :

رباع الخلد ويحك مادهاها ... أحق إنها درست أحق ؟
وهل غرف الجنان منضدات ... وهل لنعيمهن كأمس نسق ؟
وأين دمى المقاصر من حجال ... مهتكة وأستار تشق
برزن وفى نواحى الايك نار ... وخلف الايك أفراخ تزق
اذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق

بليل للقـــذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
اذا عصف الحديد احمـر أفق على جنبـاته واسود افق

اذا قرأ القارئ هـذه الابيات تصور الحالة كأنه يراها بعينه ، عقائل مقصورات في الحجال برزن الى الطرق للنجاة والنـار تعمل فى البيوت وتأخذ على الهـاربين والهاربات أفواه الطرق ، وعلى أيدى أولئك العقائل أطفال كالافراخ التى تزقها أمهاتها بمناقيرها ، وقد ضاقت على الناس الارض بما رحبت فكيف سلكوا فهى النار النازلة عليهم فى جوف الظلام تخطف الأرواح وتصعق الأجسام طول الليل — لأن ضرب دمشق بالمدافع استمر ٥٦ ساعة — كلما نزلت كرة من كرات الديناميت احمرّ جانب من الافق بلون اللهيب واسود الجانب الآخر بلون الدخان . ويستحيل على أى شاعر أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة فى وصف القذائف الحربية ولا سيما تحت الظلام . ثم قال :

سلى من راع غيدك بعد وهن أبين فـؤاده والصخر فـرقُ؟
وللمستعمـرين وإن ألانوا قلوبٌ كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسـا أخو حرب به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاَّب حق يقول: عصابة خرجوا وشقوا

يقول: هل من أدخل على نساء دمشق هذا الهول كله يقال إن بين قلبه والصخر فرقاً ؟ لا لعمرى إن قلبه لكالصخر قسوة وهذه حال الدول الاستعمارية بأسرها فان رجالها وإن ألانوا القول فلينهم رياء وفعاهم بعكس قولهم وقلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة . وقد رماك يادمشق ورمى فرنسا نفس وطنه بسبب رميك قائد متكبر أحمق يعنى به الجنرال سراى . وقدكان الناس اذا جاءوه يرجونه الكف عن ضرب دمشق أجابهم انه انما يضرب عصاة شقوا عصا الطاعة

ويشير بقوله (رمى فرنسا) الى أن هذا الفعل قد بقى سبة وعارا فى التاريخ على فرنسا بسبب هذا القائد ولم يقدر أن يدافع عنه أحد .

قلت : وقد نشرت أنا فى ذلك رسالة بالافرنسية وطبعتها فى جنيف ووزعتها فى

الآفاق واستحسنها الناس وجاءنى من المستر ماكدونالد نفسه استنكار لتدمير دمشق وقد كان ذلك بعد رئاسته الاولى لنظار انجلترا . ولكن ماكدونالد هذا لم يكن باقل ظلماً فى عمله لتهويد فلسطين التى فجيعتها لا تقاس بها فجيعة ثم قال :

دم الثوار تعرفه فرنسا　　وتعلم أنه نور وحق
جرى فى أرضها فيه حياة　　كمنهل السماء وفيه رزق
بلاد مات فتيتها لتحيي　　وزالوا دون قومهم ليبقوا
وحررت الشعوب على قناها　　فكيف على قناها تسترق ؟

يريد أن فرنسا لها ضراوة بدم الثوار وهى تعلم ما أوجدته الثورة فيها من حقوق كانت ضائعة وأنوار علم كانت خافية وان الثورة كانت حياة لفرنسا وقدمات فيها البعض ليحيى الكل . ومن عادة الشعوب أن تنال حريتها برؤوس الحراب فكيف يعقل أن سورية تزداد رقاً على رق برؤوس الحراب بعد أن سفك السوريون دماءهم لاجل الحرية ؟ ثم قال :

بنى سورية اطرحوا الأمانى　　وألقوا عنكم الأحلام القوا
فمن خدع السياسة أن تغروا　　بألقاب الامارة وهى رق
وكم صيد بدا لك من ذليل　　كما مالت من المصلوب عنق
فتوق الملك تحدث ثم تمضى　　ولا يمضى لمختلفين فتق

يخاطب أبناء سورية قائلا : ذروا الأمانى وانبذوا الاحلام الكواذب ولا تغتروا بلقب (الدولة السورية) ولا (لبنان الكبير) ولا (دولة جبل الدروز) ولا (حكومة العلويين) وما أشبه ذلك من ألقاب مملكة فى غير موضعها فان كل هذه الحكومات اسماء ماأنزل الله بها من سلطان وكلها مستعبدة لفرنسا . وقد تجدون من عليه لقب أمير أو وزير وهو جالس على كرسيه وانما هو مائل العنق ينظر الى نقطة واحدة يخاله الناس أميراً أصيد من شدة كبره . وليس ذلك بعبرة، بل المصلوب أوالمشنوق يميل بعنقه وهو ميت . وقد أنث شوقى العنق هنا وليس ذلك بخطأ وان كان التذكير أقوى . ثم قال ان فتوق الملك تحدث فى كل مكان ولكنها قابلة للرتق إلا اذا انصدعت الوحدة

وتفرقت كلمة الشعب فذلك فتق لا رتق له وشق لايحاص فاياكم وان تصدعوا وحدتكم بالخلاف فيما بينكم . ولو عاش شوقى الى اليوم لقرت عيونه بما رآه من وحدة كلمة السوريين التى حملت فرنسة على الاعتراف باستقلالهم فى الوقت الذى كانت فيه انكلترة تعترف باستقلال مصر فتحرز القطران الشقيقان فى وقت واحد

نصحت ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلادٌ بيان غير مختلف ونطق

يقول : ليست مصر والشام بدار واحدة ولكن مصر والشام كلتاهما من الشرق فبينهما جامعة شرقية ولسان كل من القطرين هو اللسان العربى وأية رحم شابكة أكثر من هذا ؟

وقفتم بين موت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حرّ يد سلفت ودَينٌ مستحق
ومن يسقى ويشرب بالمنايا اذا الاحرار لم يُسقوا ويسقوا
ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ولا يحق
ففى القتلى لأجيال حياة وفى الأسرى فدا لهمو وعتق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

ينثر شوقى بهذا النظم نصائحه الغالية لأهل سورية مبنية على التجربة والتاريخ والمبادئ السرمدية، فيقول للسوريين : وقفتم الآن بين الموت والحياة فان رمتم الراحة الكبرى فاتعبوا وان نشدتم النعيم المقيم فاختاروا لأنفسكم الشقاء مدة من الزمن لأنه لايدرج النعيم الا من أوكار العذاب . وان دماء الأحرار المسفوكة فى سبيل الأوطان ديون مستحقة لابد للدهر من أن يتوفر على ايفائها ومن لعمرى يسقى ويشرب بكؤوس المنايا نهلا وعلا اذا كان أحرار البلاد لايشربون بتلك الكؤوس ولا يسقون بها وهو معنى فيه شيء من قول الشاعر

سقينا همو كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

وقال انه لاشيء يقوم عليه أساس الممالك مثل الضحايا ولا ما يحق الحقوق غيرها

فكل أمة بذلت فى سبيل حريتها دماء فان تلك دماء تنال لها حقوقها فى الحرية ولا يقدر أن يكابر فيها مكابر ، وبالجملة فلا تحيا الأمم إلا بقتل بعض رجالها ولا يعيشون طلقاء الا بأسر البعض الآخر . وما قرع باب الحرية الحمراء الا الايدى الملطخة بالدم. وقد وصف الحرية (بالحمراء) كناية عن كونها لاتنال الا بالدم المسفوك ويجوز أن يقال فى معنى « الحمراء » انها « الشديدة » وذلك ان العرب وصفوا الشدة دائما بالحمرة ثم قال :

جزاكم ذو الجلال بنى دمشق   وعز الشرق أوله دمشق

نصرتم يوم محنته أخاكم   وكل أخ بنصر أخيه حق

يدعو لأهل دمشق أن يؤيدهم الله ويذكرأن دمشق فىالحقيقة كانت أول مركز عز وسيادة للشرق فان الدولة الاسلامية الأولى وهى دولة بنى أمية انما اتخذت دمشق لها عاصمة . ثم يقول لأهل دمشق : مرحى لكم انتم الذين نصرتم اخوانكم الدروز يوم زحف اليهم الفرنسيس فلم تذوزهم منفردين وشغلتم الفرنسيس من الوراء بثورة الغوطة . ولا عجب فى ذلك فانكم انما نصرتم اخوانكم وكل أخ حق بنصرأخيه. وقوله حق : هو بمعنى حقيق أوجدير . ثم يقول :

وما كان الدروز قبيل شر   وإن أخذوا بما لم يستحقوا

ولكن ذادة وقراة ضيف   كينبوع الصفا خشنوا ورقوا

لهم جبل أشم له شعاف   موارد فى السحاب الجون بُلقُ

لكل لبوءة ولكل شبل   نضال دون غابته ورشقُ

كأن من السموءل فيه شيئا   فكل جهاته شرف وُخلقُ

قال : وان اخوانكم الدروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شر وانهم لم يستحقوا النكال الذى أراد الفرنسيس أن ينزلوه بهم . فالدروز فى الحقيقة قوم كرام يعزون الضيف ويمنعون حماهم بالسيف وهم يجمعون بين الرقة والخشونة، فى حال السلم وعدم الاعتداء عليهم تراهم أرق الناس خلقا وأكثرهم أدبا وأخفضهم جناحا فاذا اعتدى عليهم معتد انقلب كل منهم ليثاً عاديا ، بعد ان كان حملا وديعاً ، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من

الصخر فى الجمع بين الرقة والجمود . ولهم جبل أشم له رؤوس كأنها موارد للسحاب وهذه الرؤوس تجمع بين البياض من صخورها والسواد من السحب التى تترا كم عليها فلذلك هى بلق . واذا اعتدى معتد على الدروز وجدت كل امرأة منهم أسدة تناضل عن قومها وكل شاب أسداً يراشق عن قومه وكأنما هو السموأل فى وفائه وشرف نفسه وحمية أنفه مع سعة حلمه ورقة طبعه فهو من كل الجهات شرف وحسن خلق.

قال شوقى فى الدروز هذه الابيات وأحسن مافيها انه قال قولا لم ينكره أحد عليه لأن الاجماع واقع على انصاف بنى معروف بهذه الخلال التى عرفها شوقى فيهم . إما من التاريخ واما فى أثناء قدماته الى الشام واما من الاثنين معا .

ومما أذكره عن هذه الأبيات انى لما قفلت من الحج الشريف ووقفت أياما فى السويس وجاء احمد شوقى رحمه الله يسلم علىّ فى تلك البلدة، فيمن جاءوا من مصر للسلام علىّ ، كان لابد من أن نتذاكر الشعر فجرتنا القافية الى قصيدته الدمشقية هذه لأن العالم العربى كله قام لها وقعد وهلل بها وكبر، فلما وصلنا الى الأبيات المختصة بالدروز قلت له : عند ما بدأت بقولك : (لكل لبوءة ولكل شبل) خفت أن يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارته ورشق) فقال لى : (وهى إيه) . قلت له : (هى نضال دون غابته ورشق) والغابة هى والمغارة كلتاهما مأوى للأسد ولكن الغابة أخف وقعاً على السمع وأقرب الى الانس .

هذا وقيل ان هذه القصيدة التى لم يقل فيها شوقى شيئا سوى الحق كانت سبباً فى غضب الفرنسيس على شوقى وفى حرمانه زيارة المغرب . سمعت أنه استأذن الحكومة الافرنسية فى هذه الزيارة فأبت عليه الاذن بها معتلة عليه بقصيدته هذه . وقد حرمت عالم الأدب بمنعها شوقى من زيارة المغرب بدائع آثار ويتائم أشعار كانت تسير فى الاقطار فلو رأى شوقى ذلك القطر العظيم بما فيه من آثار المدنية العربية البالغة حد التناهى فى الفخامة ودقة الصنعة وسلامة الذوق والتى هى نسج واحد مع حمراء غرناطة ومسجد قرطبة وقصر اشبيلية وشاهد من بقايا حضارة الاسلام ما حدا الكاتبين الافرنسيين الكبيرين جيروم وجان تارو أن يقولا : ان الذى لم يشاهد مقبرة الملوك

السعديين فى حاضرة مراكش لم يعلم الى أية درجة تناهت المدنية الاسلامية فى العالم وكانت ولا شك قد استفزته تلك المناظر وهاتيك المساكن المتناسبة مع أهلها المأهولة بذلك الشعب المغربى الكريم وتلك الامة الموصوفة بالعزة والمنعة من القديم ماأنطقه بقواف سائرات فى الأقطار وفاخرات باللآلئ الكبار لاسيما وهو شاعر الاسلام غير مدافع وصناجة العرب غير منازع فى هذا العصر

قصيدة شوقى فى السلطان حسين

ولشوقى قصيدة فى السلطان حسين كامل يذكر فيها مفاخر عائلة محمد على فيقول :

الملك فيكم آل اسماعيلا ... لا زال بيتكم يُظل النيلا
لطف القضاء فلم يمل لوليكم ... ركنا ولم يشف الحسود غليلا
هذى أصولكم وتلك فروعكم ... جاء الصميم من الصميم بديلا

الى أن يقول :

أأخون اسماعيل فى أبنائه ... ولقد ولدت بباب اسماعيلا
ولبست نعمته ونعمة بيته ... فلبست جزلا وارتديت جميلا
ووجدت آبائى على صدق الهوى ... وكفى بآباء الرجال دليلا
رؤيا علىّ يا حسين تأولت ... ما أصدق الأحلام والتأويلا
القوم حين دهى القضاء عقولهم ... كسروا لأيديهم بمصر غلولا
هدموا بوادى النيل ركن سيادة ... لهم كركن العنكبوت ضئيلا

يقول : ان حلم محمد على بجعل مصر مملكة مستقلة تمام الاستقلال عن السلطنة العثمانية قد تحقق هذه المرة فالأتراك حينما دخلوا فى الحرب العامة ساقوا انجلترة الى اعلان فصل سيادتهم عن مصر فكأنهم هم بأيديهم قطعوا روابطهم مع وادى النيل ثم يقول:

يا أكرم الأعمام حسبك أن ترى ... للعبرتين بوجنتيك مسيلا
من عثرة ابن أخيك تبكى رحمة ... ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعت إقالة لعثاره ... من صدمة الأقدار كنت مقيلا

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم فالله خير موئلا ووكيلا
جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التحويلا
أخذت عنانا منه غير عنانها سبحانه متصرفا ومديلا
هل كان ذاك العهد إلا موقفا للسلطتين وللبلاد وبيلا

يقول للسلطان حسين انك أكرم الأعمام وحسبنا أننا نراك تبكى رحمة على عثرة ابن أخيك الخديوى عباس كما انك تبكى من خوف الخضوع لمن أجلسوك على العرش ولعمرى لو استطعت أن تعيد ابن أخيك الى سريره لفعلت ولآثرته على نفسك . ثم يقول لأهل مصر : دعوا التدبير لله فلقد كان العهد الماضى موقفا لسلطتين متناقضتين ولم يكن فى ذلك خير للبلاد . يريد بالسلطتين السلطة الشرعية التى كانت للسلطان ووكيله الخديوى والسلطة الفعلية التى كانت للانجليز المحتلين .

قصيدة شوقى فى أبى الهول

وله فى أبى الهول :

أبا الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غير الضجر
عجبت للقمان فى حرصه على لبد والنسور الأخر
وشكوى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر
ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة لحقت بصانعك المقتدر
فإن الحياة تفلّ الحديد اذا لبسته وتبلى الحجر

يقول ان بقاءك يا أبا الهول الى اليوم انما هو لأنك لست حياً فلو كنت حياً للحقت بالذين نحتوك لأن الحياة مالبست كائنا إلا أبلته ولو كان حديدا .

وقال :

أبا الهول ويحك لا يستقل مع الدهر شىء ولا يحتقر
تهزأت دهراً بديك الصباح فنقر عينيك فيما نقر
أسال البياض وسلّ السواد وأوغل منقاره فى الحفر

فعدت كأنك ذو المحبسين قطيع القيام سليب البصر
كأن الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر
كأنك فيها لواء القضاء على الأرض أو ديدبان القدر
أبا الهول أنت نديم الزمان نجى الاوان سمير العصر
بسطت ذراعيك من آدم ووليت وجهك شطر الزمر
تطل على عالم يستهل وتوفى على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجود وأخرى مشيعة من غبر
فحدث فقد يهتدى بالحديث وخبر فقد يؤتسى بالخبر
ألم تبل فرعون فى عزه الى الشمس معتزيا والقمر
وأبصرت اسكندرا فى الملا قشيب العلا فى الشباب النضر
وشاهدت قيصر كيف استبد وكيف أذل بمصر القصر
وكيف تجبر أعوانه وساقوا الخلائق سوق الحمر
وكيف ابتلوا بقليل المديد من الفاتحين كريمى النفر
رمى تاج قيصر رمى الزجاج وفل الجموع وثل السرر
فدع كل طاغية للزمان فإن الزمان يقيم الصعر

يقول لأبى الهول : لا يحتقر شىء مع الدهر . الا ترى أنك أنت عندما هزأت بديك الصباح أى الزمن الذى لايخلو من ديك يصيح با كراً جاء هذا الزمن فنقر عينيك فعدت كأنك أبو العلاء المعرى . ثم يقول له : إنك من على عنق الدهر باسط ذراعيك تنظر الى الناس ، تودع الغابر من الامم وتستقبل القادم ، فحدثنا عما رأيت فإنك تاريخ عام .

ثم أخذ شوقى يسرد الوقائع التاريخية التى مرت على مصر وما قيل فى أبى الهول شىء من الشعر يدانى هذه القصيدة .

شعر شوقى فى الازهر

ولشوقى قصيدة فى الأزهر مطلعها :

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا   وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واخشع ملياً واقض حق أئمة   طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة   يجدون كل قديم شىء منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا   من مات من آبائهم أو عمّرا
من كل ماض فى القديم وهدمه   واذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة   والعلم نزرا والبيان مثرثرا

يخاطب نفسه قائلا : قم وحى هذا المعهد العلمى الأكبر واخشع له واقض حقوق الأئمة الأبحر الذين ماجوا فيه من قديم الزمان ولا تكن كأولئك المفتونين الذين ينكرون كل قديم ولو استطاعوا لأنكروا آباءهم وهم مع شدة رغبتهم فى الهدم وكونهم فرساناً فى التخريب نجدهم راجلين فى البناء . فاذا دعوت الواحد منهم الى صناعة لم يحسنها أو الى علم لم يأت بشىء منه أو الى بيان ما جاء الا بالثرثرة. ثم يقول : انى وان لم أكن ممن تخرجوا فى الأزهر فانى لا أقصر دون غايات البيان وان اصلاح الازهر ليهمنى كمسلم ولذا قمت مهنئا بهذا الاصلاح باسم الحنيفة

ما ضرنى أن ليس أفقك مطلعى   وعلى كواكبه تعلمت السرى
لا والذى وكل البيان اليك لم   أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الاصلاح قمت مهنئا   باسم الحنيفة بالمزيد مبشرا
نبأ سرى فكسا المنارة حبرة   وزها المصلى واستخف المنبرا

يأنى زها لازماً ومتعدياً

وسما بأروقة الهدى فأحلها   فرعَ الثريا وهى فى أصل الثرى
ومشى الى الحلقات فانفرجت له   حلقاً كهالات السماء منوّرا
حتى ظننا الشافعىّ ومالكا   وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

كيف يتغنى بوصف الازهر ولا يذكر المصلى والمنارة والمنبر ولا يشير الى الاروقة والى حلقات الدروس ولا يذكر أئمة المذاهب الاربعة انه لشاعر لا يؤتى من جهة فى فنه .

قصيدة شوقى فى الرحالة حسنين

وله من قصيدة عن الرحالة المصرى محمد حسنين بك وصف فيها رحلته الشاقة فى صحراء ليبيا جاء فيها :

كم فى الحياة من الصحراء من شبه ... كلتاهما فى مفاجاة الفتى شرع
وداء كل سبيل فيهما قدر ... لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع

أى حياة الانسان هى كالصحراء فى كل دقيقة يجوز أن يطلع عليه قدر لا يتوقعه

فلست تدرى، وإن كنت الحريص متى ... تهب ريحاهما أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصحو فاجئة ... من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدرى وإن قدرت مجتهداً ... متى تشدّ رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى ... ان الدليل وان أرداك متّبعُ
وما الحياة إذا أظمت وإن خدعت ... إلا سراب على صحراء يلتمع

. ما نحت شاعر من مقاطع التشبيه أبدع من هذه التشابيه التى وجدها شوقى بين الصحراء والحياة، كل منهما لا يدرى السائر فيها متى تهب عواصفها ومتى تسكن ومتى يطلع فيها السبع ومتى يختفى ومتى يشد السائر الرحل أو متى يضعه، وانه اذا اتبع دليلا فهو رهن معرفة الدليل لا مناص له من اتباعه وان أداه الى الهلاك ، وانه يلوح فى كل منهما بارق الأمل فاذا به خلّب واذا الشراب سراب . ثم يمتدح همة الرحالة حسنين فيقول :

أكبرت من حسنين همةً طمحت ... تروم ما لا يروم الفتيةُ القنعُ
وما البطولة الا النفس تدفعها ... فيما يبلّغها حمداً فتندفع
ولا يبالى لها أهل اذا وصلوا ... طاحوا على جنبات الحمد أم رجعوا

قال ان الدافع الذى يجعل من الانسان بطلا هو أنه يطمح الى ما لا يطمح القانعون وان نفسه تسمو به الى مايبلغها المجد، ذهبت فى سبيل المجد أم رجعت سالة . ثم هو يسأل حسنين عما رأى فى تلك الصحارى وعن أهلها الذين لم يزالوا على الفطرة من عهد آدم والذين اهتدى اليهم الاسلام فى فيافيهم المنقطعة واهتدوا به وأصبحوا مصلين صائمين فقال :

رحالة الشرق ان البيد قدعلمت ... بانك الليث لم يخلق له الفزع
ماذا لقيت من الدو السحيق ومن ... قفر يضيق على السارى ويتسع
وهل مررت بأقوام كفطرتهم ... من عهد آدم لا خبث ولا طبَع
ومن عجيب لغير الله ما سجدوا ... على الفلا ولغير الله ما ركعوا

ما النافية لا يتقدمها شئ مما فى حيزها خلافاً للكوفيين ونحو قول الشاعر :

اذا هى قامت حاسراً مشمعلة ... نخيب الفؤاد رأسها ما تقنع

مع شذوذه محتمل للتأويل :

كيف اهتدى لهم الاسلام وانتقلت ... اليهم الصلوات الخمس والجمع
جزتك مصر ثناء أنت موضعه ... فلا تذُبْ من حياءٍ حين تستمع
ولو جزتك الصحارى جئتنا ملكا ... من الملوك عليك الريش والودَع

أى ملكا من ملوك أواسط افريقية الذين عنوان الملك عندهم الريش والودع .

قصيدة له فى حفلة تكريم

ومما أحب أن أنوه به من شعر شوقى قصيدته فى تكريم الاخوان عبد الملك بك حمزه واسماعيل بك كامل وعوض بك البحراوى بعد رجوعهم الى مصر من الغربة التى اغتربوها أثناء الحرب العامة، فان شعر شوقى فيهم يعبر عن شعور كثيرين وراقم هذه الاسطر منهم أو فى طليعتهم . قال :

وطنٌ يرفّ هوى الى شبانه ... كالروض رقته على ريحانه
هم نظم حليته وجوهر عقده ... والعقد قيمته يتيم جمانه
يرجو الربيع بهم ويأمل دولة ... من حسنه ومن اعتدال زمانه

من غاب منهم لم يغب عن سمعه　　وضميره وفؤاده ولسانه
واذا أتاه مبشر بقدومهم　　فمن القميص ومن شذا أردانه
ولقد يخص النافعين بعطفه　　كالشيخ خصّ نجيبه بحنانه
هيهات ينسى بذلهم أرواحهم　　فى حفظ راحته وجلب أمانه
وقفوا له دون الزمان وريبه　　ومشت حداثتهم على حدثانه
فى شدةٍ نقلت أناة كهولة　　فيها وحكمتهم الى فتيانه

هذا البيت الاخير معنى مطروق كثيراً ومما أتذكره منه قول الشيخ ناصيف اليازجى شاعر سورية فى وقته فى الارسلانيين :

فتيانهم فى العقل مثل شيوخهم　　وشيوخهم فى البأس كالفتيان

ثم قال :

قم ياخطيب الجمع هات من الحلى　　ما كنت تنثره على آذانه
ناد الشباب فلم يزل لك نادياً　　والمرء ذو أثر على أخدانه
ألق النصيحة غير هائب وقعها　　ليس الشجاع الرأى مثل جبانه
قل للشباب زمانكم متحرك　　هل تأخذون القسط من دورانه ؟

وقد صادف الاحتفال بتكريم هؤلاء المجاهدين الثلاثة أيام الأزمة المالية فى مصر وسقوط أسعار القطن فقال شوقى :

يامن لشعب رزؤه فى ماله　　أنساه ذكر مصابه بكيانه
الملك كان ولم يكن قطن فلم　　يغلب أبوتنا على عمرانه
الفاطميــة شيدت من عزه　　وبنى بنو أيوب من سلطانه
بالقطن لم يرفع قواعد ملكه　　فرعون والهرمان من بنيانه
لكن بأول زارع نفض الثرى　　بذكائه وأثاره ببنانه
وبكل محسن صنعة فى دهره　　تتعجب الاجيال من اتقانه
وبهمة فى كل نفس حلقت　　فى الجو وارتفعت على كيوانه
ملك من الأخلاق كان بناؤه　　من نحت أولكم ومن صوانه

ماقاله يوم أطلق أحد الشبان المفتونين الرصاص على سعد زغلول

وقال فى الزعيم الاكبر سعد باشا زغلول عندما أطلق عليه الرصاص أحد الشبان فأنجى الله سعدا ووقى مصر شرا مستطيرا

نجا وتمائل ربانها ودق البشائر ركبانها
وهلل فى الجو قيدومها وكبر فى الماء سكانها
تحول عنها الأذى وانثنى عباب الخطوب وطوفانها
نجا نوحها من يد المعتدى وضل المقاتل عدوانها
فياسعد جرحك ساء الرجال فلا جرحت فيك أوطانها
وقتك العناية بالراحتين وطوق جيدك احسانها
رماك على غرة يافع مثار السريرة غضبانها
وقدماً أحاطت بأهل الأمور ميول النفوس وأضغانها
تلمس نفسك بين الصفوف ومن دون نفسك ايمانها
يريد الامور كما شاءها وتأبى الأمور وسلطانها
وعند الذى قهر القيصرين مصير الامور وأحيانها
أرى مصر يلهو بحد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقول يجيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلاد ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضي دولة وتقبل أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلاد وبالعلم تشتد أركانها

وهذا ماقلناه دائما وما قد انتهت اليه مصر بهذه المعاهدة الأخيرة مع الانكليز فليكن لمصر الجيش المهيب فكل شيء يتسق بعد ذلك

فأين النبوغ وأين العلوم وأين الفنون واتقانها ؟
وأين من الخلق حظ البلاد اذا قتل الشيب شبانها ؟

وفى هذه القصيدة كلام عن ضرورة السودان لمصر يجدر أن نأثره ويجب على كل

مصرى أن يحفظه عن ظهر قلبه. ولقد أراد الله بفضل خصام انـكلترة مع ايطالية فى هذه السنة أن يعود المصريون الى السودان فليبشر شوقى فى قبره

وياسعد أنت أمين البلاد قد امتلأت منك أيمانها
ولن نرتضى أن تقد القناة ويبتر من مصر سودانها

أى، لن نرضى أن تفصل قناة السويس عن مصر ولا أن يبترعنها السودان

وحجتنا فيهما كالصباح وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولـكنه وريد الحياة وشريانها
تتمم مصرا ينابيعه كما تمم العين انسانها
وأهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها
وأما الشريك فعلاته هى الشركات وأقطانها

يريد بالشريك انجلترة وانها تريد فصل السودان عن مصر لمشروعاتها الزراعية. وأنا أقول ليس للقطن فقط يقصد الانجليز الاستيلاء على السودان ، ولـكن ليجعلوا لجام مصر دائماً فى قبضة أيديهم فان مصر هى النيل واذا كان النيل بيد الانجليز فـكيف تخرج عن إرادتهم مصر . ثم قال :

وحرب مضت نحن أوزارها وخيل خلت نحن فرسانها

أى باشروا حربا كنا نحن أسلحتها على خيل كنا نحن فرسانها ولـكن ليكون الملك لهم

وكم من أناك بمجموعة من الباطل الحق عنوانها
فأين من (المنش) بحر الغزال وفيض (نيانزا) وتهتانها
وأين التماسيح من لجة يموت من البرد حيتانها
ولـكن رؤوس لأموالهم يحرك قرنيه شيطانها
ودعوى القوى كدعوى السباع من النار والظفر برهانها

أى أين بلاد الانجليز من السودان وما الصلة بين المانش وبحر الغزال والحال هى كقول القائل :

سهم أصاب وراميه بذى سلم   من فى العراق لقد أبعدت مرماك

ولكن دعوى القوى على الضعيف كدعوى الضوارى المفترسة ، براهينها من النيوب وأدلتها من الاظفار لاترجع الى قوة المنطق بل الى شهوة الافتراس والجشع فى الأكل

قصيدة شوقى عن الطائفة البلقانية وحواشى تاريخية للمؤلف

ومن كلمات شوقى التى تقصر عن وصفها الكلم وشوارده التى يسهر الخلق جراها ويختصم، قصيدته فى الحرب البلقانية. وهى التى يسميها بالأندلس الجديدة فقد نظمها وفى قلوب المسلمين نار الله الموقدة مما جرى على الاسلام فى حرب البلقان فطاشت لذلك العقول وطارت الافئدة . وكان نصيب شاعر الاسلام من تلك الفادحة بقدر رقة شعوره ورهافة حسه وسهمه من الالتياع على ماحل بمسلمى البلقان على نسبة شفوف طبعه ونفاسة نفسه، فقال وأرسلها للقرون والاجيال وناطها بالأيام والليال :

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والاسلام

نزل الهلال عن السماء فليتها   طويت وعم العالمين ظلام

أزرى به وأزاله عن أوجه   قدر يحط البدر وهو تمام

يودع بلاد الروملى ويقول : أصابك ما أصاب أختك الأندلس من قبل ونزل الهلال فيك عن سمائه يريد بالهلال الراية العثمانية التى نزلت فى تلك البلاد عن عليائها بحكم قدر بنقص البدر بعد تمامه، كأنه يقول : اذا تم شىء بدا نقصه ، وكأنه يشير الى قول القائل:

وان البدر أوله هلال   وآخره يعود الى الهلال

ثم يقول :

جرحان تمضى الأمتان عليهما   هذا يسيل وذاك لايلتام

بكما أصيب المسلمون وفيكما ... دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يطو مأتمها وهذا مأتم ... لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت ... فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرون كليلة وتصرمت ... دول الفتوح كأنها أحلام
والدهر لا يألو الممالك منذراً ... فاذا غفلن فما عليه ملام

يقول: ان جرح الأندلس لمّا يلتئم ولايزال فى قلوب العرب منه نزيز واذا بجرح البلقان بدأ يسيل وقد أدمى قلوب الترك وان كلا من الأمتين لمنكوبة بكل من هاتين الكائنتين اللتين دفن القلم والسيف فيهما . وهذه المئات الأربع من السنين التى مضت بين مأتم الأندلس ومأتم البلقان كانت فيها الأيام تجرى تارة فيما نحب وطوراً فيما نكره يشير بقوله فيما نحب الى فتوحات آل عثمان فى بلاد البلقان حتى انتهوا الى المجر وبولونيا وحصروا فينا ولولا قليل لفتحوها . وفى قوله فيما نكره الى الجزر الذى عقب ذلك المدّ والمصائب التى نزلت بالاسلام فى السنين الأخيرة حتّى انقضت أيام تلك الفتوحات كأنها لم تكن . وقد كانت هذه المثلات تقرع المسلمين حتى يتنبّهوا لشئونهم وينهضوا كما نهض غيرهم فلبثوا يغطون فى نومهم وتركوا الحبل على الغارب فليس على الدهر ملام اذا كانوا هم لبثوا غافلين عن شأنهم . ثم يقول:

مقدونيا والمسلمون عشيرة ... كيف الخؤولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا وكان بعزّهم ... وعلوّهم يتخايل الاسلام
إذ أنتِ ناب الليث كل كتيبة ... طلعت عليك فريسة وطعام
ما زالت الايام حتى بدّلت ... وتغير الساقى وحال الجام
أرأيت كيف أديل من أسد الشرى ... وشهدت كيف أبيحت الآجام
زعموك همّا للخلافة ناصباً ... وهل الممالك راحة ومنام ؟
ويقول قوم كنت أشأم مورد ... وأراكِ سائغةً عليك زحام
ويراك داءَ الملك ناسُ جهالة ... بالملك منهم علةٌ وسقام
لو آثروا الاصلاح كنتِ لعرشهم ... ركناً على هام النجوم يقام

وَهمٌ يقيد بعضهم بعضاً به   وقيود هذا العالم الأوهام
صور العمى شتى وأقبحها اذا   نظرت بغير عيونهن الهام
ولقد يقام من السيوف وليس من   عثرات أخلاق الشعوب قيام

يقول : أي مقدونية — مقدونية هي قسم مما يسميه الأتراك بالروملي والروملي عبارة عن القسم الأمامي من شبه جزيرة البلقان كان يحتوى على ست ولايات عثمانية هي أدرنة وسلانيك ومانستر وقوصوه واشقودره ويانيا والولايات الثلاث الاخيرة هي بلاد الأرناؤط — يسأل عنك المسلمون لأنهم مهما تنوعت أجناسهم فهم عشيرة واحدة فاذا سألوا عنك فانما يسألون عن أخوالهم وأعمامهم أتريهم ذلوا بعد ذلك العزّ ؟ وبعد أن كانت كل كتيبة تطلع عليهم تعود فريسة لهم ؟ نعم قد تحولت الأيام وسقيت بغير الكأس التى كنت تشربين بها، وأديل من الآساد واستباح الاعداء آجامها القديمة، وزعم بعض الناس ان وجودك يا مقدونية كان على الخلافة مشئوما وأنه كان هماً ناصباً، وهل الممالك تكون للراحة وتدار بدون تعب ؟ واذا كنت مورداً وبيئاً فلماذا تتزاحم عليك الدول؟ ان الذين يرون هذا الرأى انما هم قوم جهالة كانوا علة فى جسم هذه السلطنة العثمانية وبدلا من أن يدلوا بهذه الاقوال الدنيئه كان عليهم أن يصلحوا الادارة فى الروملي فكانت تكون لهم ركناً عالياً وحصناً حصيناً. ولكن هؤلاء الضالين يبثون هذه الاوهام فى الناس فيأخذها بعض الناس عن بعض ويلوكونها بألسنتهم بدون تدبّر، وللعمى صور شتى وانها قد تعمى الأبصار ولكن تعمى اكثر منها القلوب التى فى الصدور ، وانه قد ينهض الشعب من بعد الهزيمة وقد تعود بقية السيف الى النمو ولكن المصيبة التى لانهوض منها ولا اقالة لها هى عثرة الاخلاق وانحطاط الهمم

قلت : حالف المنطق أقوال شوقى فى جميع مصادره وموارده ولولا ذلك لم يكن شاعر هذا العصر بالاتفاق، فبلاد البلقان كانت الحصن الحصين للدولة العثمانية، وكانت تستورد منها خزانة السلطنة أعظم دخلها لا سيما القسم الذى ذهب على أثر الحرب الروسية العثمانية وهو ولايات الطونة وهى اليوم بلاد البلغار وقسم من رومانيا . وكان

وجود الروملي في يد الدولة واقياً للاناضول نفسه أي كانت أوروبة العثمانية مجنّا لآسية العثمانية. وماكان على أولئك المعترضين بدلا من اعتراضاتهم وتهوينهم أمر ذهاب الروملي الا أن يهبوا لاصلاح ادارتها وينشدوا وسائل استبقائها لانه شرط ضروري لحماية السلطنة وجعل عاصمتها اسطنبول التي هي مركز لا نظير له في العالم وسطاً في المملكة لا طرفا لها. أفلا ترى أنها بعد أن ذهبت الروملي صارت من ثغور المملكة ولم يبق بينها وبين العدو إلا مسافة ساعات معدودات. فتذكر الانسان في أمرها قول الشاعر وهو بيت قديم :

كانت هي الوسط المحمي فانتقصت   منها الحوادث حتى أصبحت طرفا

فالأستانة التي كانت وسطاً محمياً قبل ذهاب الولايات البلقانية من يد الدولة أصبحت طرفاً يكاد يكون عورة لقرب العدو منها وسهولة غارته عليها، وقد شاهدنا ذلك بأعيننا أيام الحرب البلقانية وكنت أنا نفسي في الاستانة فكنا نسمع فيها أصوات المدافع من شطلجة حيث كان الجيش البلغاري يحاول دخول الاستانة. ولأياً في ذلك اليوم قدر الاتراك أن يدحروا البلغار الى الوراء. وهي الواقعة الوحيدة التي وفقوا فيها من حرب البلقان. ولولاها لاستولى البلقانيون على عاصمة آل عثمان. فقول من قال ان الروملي كانت للدولة همّاً ناصباً هو ضلال مبين ورأي من لا يريد التعب ولا يحسن ادارة الممالك

وفي هذه المسألة أراني وشوقي متواردين على رأي واحد وليست هذه بالمرة الوحيدة التي أجدني فيها واياه على وفاق كأن قلبينا قلب واحد وكأنّا نفكر عن خلية دماغ واحدة ، فانه لما استردت الدولة أدرنة مستفيدة من اختلاف البلغار مع حلفائهم الصرب واليونان دعت الدولة وفداً عربياً الى الاستانة لبعض مذاكرات تتعلق بالعرب وكنت أنا من أعضاء ذلك الوفد الثمانية فدعتنا الدولة لزيارة أدرنة وتهنئة أهلها على رجوعهم الى حضن الدولة. فلما وصلنا الى تلك البلدة أقاموا لنا حفلة عظيمة كان فيها أعيان البلدة وضباط الجيش العثماني فأنشدت في ذلك الحفل قصيدة ميمية أتذكر منها الأبيات التالية :

قصيدة المؤلف فى استرداد أدرنه

فدى لحمانا كل من يمنع الحمى ... ومن ليس يرضى حوضه متهدما
فما العيش الا أن نموت أعزة ... وما الموت الا أن نعيش ونسلما
تأملت فى صرف الزمان فلم أجد ... سوى الصارم البتار للسلم سلما
ولم أر أنأى عن سلام من الذى ... تأخر يعتدُّ السلامة مغنما
يقولون وجه السيف أبيض دائما ... وما ابيضَّ الا وهو أحمر بالدما
تجاهل أهل الغرب كل قضية ... اذا لم يجئ فيها الحسام مترجما
وكابر قوم ينظرون بأعين ... ألا عمه الالباب أعمى من العمى

انظر الى قول شوقى :

صور العمى شتى وأقبحها اذا ... نظرت بغير عيونهن الهام

والى قولى : (ألا عمه الالباب أعمى من العمى)

وذلك فى عرض الكلام على وجوب الدفاع عن الروملى وعدمه فتعلم اتحادنا فى الفكر . ثم إنى أقول فى آخر هذه القصيدة ما يأتى :

فمن مبلغ البلغار أنا الى الوغى ... واخواننا الاتراك نزحف توأما
وان جميع العُرب والترك اخوة ... عليهم اليهم يبتغون تقدما
وليس يزال العُرب والترك أمة ... حنيفية بيضاء لن تتقسما
وقولوا لهم بانت سعاد فلا يزل ... فؤادكمو صبّاً عليها متيما
فلا يطمعَنْكم فى أدرنة مطمع ... ولا تفتحوا فى شأنها أبداً فما
أدرنةُ صارت عندنا تِلوَ مكة ... وماء المريج اليوم أشبه زمزما
ستلبث عثمانية رغم أنفكم ... وأنف الالى منا يصيحون لوّما

فأنت ترى أيضا أن الذين كان يعرض بهم شوقى ويجعلهم علة للملك وسقما فى جسم الدولة هم الذين كنت أعرض بهم أنا أيضا وأقول اننا استرددنا أدرنة برغم الاعداء من الخارج وبرغم هؤلاء المضلين المثبطين من الداخل .

ثم يقول شوقى :

ومبشر بالصلح قلت لعله خير عسي أن تصدق الأحلام
ترك الفريقان القتال وهذه سلم أمر من القتال عقام

يقول : ان الفريقين قد تتاركا القتال ويقال انه سينعقد الصلح ولكن هذا الصلح الذى تذهب فيه ولايات الروملى من يد الدولة كره أكثر من القتال . ثم يقول :

ينعى الينا الملك ناع لم يطأ أرضاً ولا انتقلت به أقدام
برق جوائبه صواعق كلها ومن البروق صواعق وغمام
ان كان شرٌ زار غير مفارق أو كان خير فالمزار لِمَامُ
بالامس أفريقا تولت وانقضى ملك على جيد الخضم جسام
نظم الهلال به ممالك أربعاً أصبحن ليس لعقدهن نظام
من فتح هاشم أو امية لم يضع آساسها تتر ولا أعجام
واليوم حكم الله فى مقدونيا لانقض فيه لنا ولا ابرام
كانت من الغرب البقية فانقضت فعلى بنى عثمان فيه سلام

يقول : جاءنا البرق بخبر هذا الصلح ومن البروق صواعق نقمة ومنها غمائم رحمة فأما نحن معاشر المسلمين فبروقنا كلها صواعق وإذا كان الشر زارنا فهو غير مفارق واذا كان الخير زارنا فلماماً . واللمام أو الغب هو الزيارة فى الأحايين . وبالامس ذهب لنا فى افريقية ممالك أربع : مصر وطرابلس وتونس والجزائر. كانت راية الهلال تخفق فوقها فانطوت عنها وهى أقطار لم يفتحها مسلموا التتر ولا العجم ولكنها من فتح الخلفاء الراشدين وبنى امية من بعدهم . واليوم نفذ حكم الله فى مقدونية على أيدى البلقانيين ومن ورائهم الدول الاوروبية متحدة علينا . وقد كانت هذه الولايات الست المساة بالرمللى بقية الملك العثمانى فى أوروبة وقبلها كانت له مملكة البلغار ومملكة رومانيا ومملكة الصرب ومملكة البانيا ومملكة اليونان ومملكة المجر وبلاد بوسنة والهرسك كلها تابعة للسلطنة العثمانية .فذهبت تلك الممالك فى القرن الماضى ولحقت به هذه البقية الباقية فى هذه النوبة فعلى ملك بنى عثمان فى أوروبة السلام . ثم قال :

أخذ المدائن والقرى بخناقها جيش من المتحالفين لهام

غطت به الارض الفضاء وجوهها وكست مناكبها به الآكام
تمشى المناكر بين أيدى خيله أنى مشى والبغى والاجرام
ويحثه باسم الكتـــاب أقسة نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سخرت لهم الشعوب كأنها أنعـام
من كل جزار يروم الصدر فى نادى الملوك وجـده غنـام
سكينه ويمينه وحزامـــه والصولجـان جميعهـا آثام

قال ان الدول البلقانية تحالفت على الدولة العثمانية ـ وكان تحالفها على هذه بواسطة قيصر الروسية وتحت كفالته فهو الذي نظم شتات دول البلقان وشجعهن على محاربة تركيا وقد لقاه الله جزاءه بعد الحرب العامة فقتله البلاشفة شر قتلة يمكن أن يتصورها العقل لأنهم بعد أن نفوه وحبسوه زحفت الجيـوش الروسية التى يقودها أعـداء البولشفيك لتستخاص القيصر من محبسه فعجل هؤلاء بقتله أمام عائلته وقتل عائلته أمامه . فأطلقوا عليهم الرصاص فى لحظة واحدة وكان هو وامرأته وابنه ولى العهـد وبناته الأربع ـ وسقن جيوشاً جرارة تغطت بها الارض زاحفة صوب تركيا والمناكير والقبائح والفظائع تمشى بين يديها ، فقد كانت جيوش البلقانيين ترتكب من قتل الاهالى الوادعين واستباحة أعراض النساء ذوات الصون والستر ونهب الأموال واهانة شعائر دين الاسلام مالم يقع نظيره الا فى الاندلس . ولذلك سمى شرقى البلقان بالاندلس الجديدة

وكما كانت حروب الاندلس وفظائعها تغشى بتحريض القسوس الذين يخالفون فى أعمالهم جميع ماقرأوا فى كتابهم الانجيـل كذلك كانت الصليبية البلقانية يؤجج نارها الأحبار والقسيسون من بلغار ويونان وصربيين وكان الملوك الاربعة ملك البلغار وملك اليونان وملك الصرب وملك الجبل الأسود ينشرون المناشير الحربية التى لاتزال نصوصـها محفوظة كأنها محررة فى القرون الوسطى من الحث على استئصال المسلمين والتحريض على قتالهم بغير هوادة باسم النصرانية .

نعم تقضى أمانة التاريخ أن نذكر كون الجيش الصربى تجنب الآثام فى معاملة المسلمين اكثر من الجيشين البلغارى واليونانى . وقد رفعنا يومئذ الاحتجاجات الى الدول العظام

بناء على كون هذه الفظائع مخالفة لحقوق الامم وللانسانية، وقلنا ان من واجبات الدول بحسب التكافل الانساني والتعاون المدنى أن تقيم النكير على البلقانيين من أجلها وكان لهذا الفقير اليه تعالى برقية من الاستانة فى غاية التأثير والشدة الى السير ادوارد غراى ناظر الخارجية الانجليزى اطلع على صورتها بعد ارسالها كامل باشا الصدر الاعظم وذلك بواسطة صديقى المرحوم محمد باشا الشريعى، فأعجب بها الصدر جداً وأرسل يشكرنى عليها، ولكن من جهة النتيجة لم تعمل الدول أدنى عمل يدل على أنها تزن المسلمين بميزان واحد مع البلقانيين ولا مع سائر البشر . ولا سمعنا انها خاطبت دول البلقان ولو من قبيل النصح بالاعتدال فى سيرهن أو بمراعاة حقوق الانسانية فى أثناء الحركات الحربية. ولا نبض عرق لجمعية أوربية من تلك الجمعيات التى لايحصى عددها المتشدقات بحفظ حقوق الانسان .

وقد بلغ عدد الذين هاجروا من مسلمى البلقان فراراً من وجه الاعداء بعد أن سمعوا بما حل بإخوانهم على الحدود مائة وخمسين ألف نسمة دخلوا الى الأستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس على كثرتها وكان ذلك فى قلب الشتاء وفشت فيهم الكوليرة وكانت خطوب الدولة تشغلها عن ايوائهم واطعامهم فقامت مصر حماها الله فى تلك الأزمة مقاما لاينساه لها تاريخ الاسلام بل التاريخ العام . فأرسلت اليهم الاعانات التى كفلت نجاة هؤلاء الاخوان المهاجرين من الموت برداً وجوعاً الى أن تمكنت الدولة من إجازتهم الى الأناضول. وقد كان ماأعانت به مصر الجيش العثمانى فى تلك الحرب أربعمائة ألف جنيه وما وزعته من الاعانات على هؤلاء المهاجرين مائة وخمسين ألف جنيه . وكنت أنا من جملة أعضاء اللجنة التى وزعت الاعانات من قبل لجنة الاعانة الكبرى بمصر التى كان يرأسها أمين هذه الأمة الأمير عمر طوسون أمتع الله الاسلام بطول حياته. وإليه والى الامير محمد على توفيق رئيس الهلال الأحمر كنا نرسل البرقيات استمدادا واستعجالا بالإعانات كلما قدمت طائفة من المهاجرين وكانت جميع تلك البرقيات تقريباً بقلم كاتب هذه السطور وأنا الذى أبرق للأمير عمر طوسون بسقوط سلانيك ووجود ١٥٠ ألف نسمة من المسلمين فيها تحت خطر الموت جوعا . فما مضى على هذه البرقية الابضعة أيام حتى وصلت البواخر من مصر

الى ميناء سلانيك ثم الى ميناء «قواله» مشحونة بالارزاق والألبسة وجميع الحوائج التى تكفلت انقاذ أولئك المساكين من الموت وتخفيف ويلات اخواننا مسلمى مقدونية أجمع . فجزى الله كنانته مصر خيرا عن هذه المبرات التى وان كانت بحسب الشرع فرضاً عليهم لامنة لهم فانه لايجوز للتاريخ أن يغفلها ولا يجوز للأمة التركية بخاصة أن تتناساها .

ثم يقول شوقى عن ملوك الدول البلقانيـة الذين تولوا تلك الآثام ما هو واضح لايحتاج الى تفسير ولا الى تعليق . ومن الغريب انهـم ارتـكبوا تلك الموبقات باسم السيد المسيح بزعمهم والحال ان سبيل المسيح كان كله محبة ورحمة كما لايخفى وكان ينهى عن سفك الدماء بكل حال والى هذا أشار شوقى بقوله :

عيسى سبيلك رحمة ومحبـة ... فى العالمين وعصمة وسـلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ ... هان الضعاف عليه والايتام
ياحامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت علينا باسمـك الآلام
أنت الذى جعل العباد جميعهم ... رحما وباسمـك تقطع الارحام
أنت القيامة فى ولاية يوسف ... واليوم باسمـك مرتين تقام

يريد بيوسف صلاح الدين بن أيوب وان الحرب الصليبية وقعت فى أيامه واليوم قد تجددت أولا وثانياً . ثم يقول :

واليوم يهتف بالصليب عصائب ... هم للاله وروحه ظـلاّم
خلطوا صليبك والخناجر والمدى ... كل أداة للأذى وحمام
أو ما تراهم ذبحوا جيرانهـم ... بين البيوت كأنهم أغنـام
كم مرضع فى حجر نعمته غدا ... وله على حـد السيوف فطام
وصبية هتـكت خميلة طهرها ... وتناثرت عن نوره الأكمام

هل قيل فى هتك أعراض الابكار أبلغ من هذا القول وأشد تأثيراً فى النفس ؟

وأخى ثمـانين استبيح وقاره ... لم يغن عنه الضعف والأعوام
وجريح حرب ظامىء وأدُوه لم ... يعطفهمُ جرح له وأوام
ومهاجرين تنـكرت أوطانهم ... ضلوا السبيل من الذهول وهاموا

السيف ان ركبوا الفرار سبيلهم والنطع ان طلبوا القرار مقام

لعمرى ليس فى ما وصفه شوقى هنا شيء من المبالغة فقد جرى من البلقانيين كل هذه الافعال وأوروبا تنظر كأنها جاهلة ، بل كانت فى الحقيقة مرتاحة الى قهر المسلمين واعناتهم حتى لا يرفعوا رؤوسهم . ودليل ارتياحها أنها لو أرادت وجزمت لما تجرأ البلقانيون طرفة عين على مخالفتها . ثم بعد أن سرد شوقى ماسرد من هذه الفجائع التفت نحو الأتراك فنصحهم بالوئام وعذلهم على الانقسام وقال لهم :

يا أمة بفروق فرق بينهم قدر تطيش اذا أتى الاحلام
فيم التخاذل بينكم ووراءكم أمم تضاع حقوقها وتضام
لا يأخذن على العواقب بعضكم بعضاً فقدماً جارت الأحكام
تقضى على المرء الليالى أوله فالحمد من سلطانها والذام
من عادة التاريخ ملء قضائه عدل وملء كنانتيه سهام
ماليس يدفعه المهند مصلتا لا الكتب تدفعه ولا الاقلام
ان الألى فتحوا الفتوح جلائلاً دخلوا على الأسد الغياض وناموا
هذا جناه عليكمو آباؤكم صبرا وصفحا فالجناة كرام
رفعوا على السيف البناء فلم يدم ما للبناء على السيوف دوام
أبقى الممالك ما المعارف أسه والعدل فيه حائط ودعام

قال لهم : ان القدر اذا نزل تطيش له الاحلام ولكن يجدر بكم أن تذروا التخاذل فيما بينكم والجدل فيمن كان مخطئاً ومن كان مصيبا . فان وراءكم وانتم مشغولون بالفتن الداخلية أمماً تضام وتهان وتؤكل حقوقها . فدعوا الخطأ والصواب الى التاريخ واعلموا انه ان لم يكن سيف يدفع الظلم لم يكن للأقلام قبل بدفعه . لقد فتح آباؤكم هذه البلدان وناموا على فتوحاتهم ولم يفكروا فى أن هذه الامم المغلوبة لا تزال تترصد الفرصة حتى تثور وتأخذ بالثار . فالخطأ انما هو خطأ آبائكم الذين أحسنوا الظن وصفحوا عن الذنب ووثقوا دائما بالنصر ثم هناك عيب آخر وقع فى البناء الذى بنوه وهو أنهم رفعوه على رؤوس الحراب ووقفوا عن تحصينه بالعلم ودعمه بالعدل . ولما كان ملك السيف

لايدوم كانت هذه العاقبة منتظرة لـكم . ثم يقول :

وقف الزمان بكم كموقف طارق ... اليـأس خلف والرجاء أمام

الصبر والاقدام فيه اذا همـا ... قتلا فأقتل منهما الاحجام

أى ان موقفكم اليوم اصبح كموقف طارق بن زياد يوم اجاز الى الاندلس وتواقف مع لذريق ملك الاسبانيول فقال لجيشه : البحر وراءكم والعدو أمامكم فلا نجاة لـكم إلا بالاقدام لأنـكم إذا انهزمتم فليس وراءكم إلا البحر .وهذا يارجال السلطة العثمانية هو موقفـكم اليوم . ولنقل ان فى اقدامكم هلـكا فالجواب عليه أن الهلك الذى فى الاحجـام هو أوكد من الهلك الذى فى الاقدام . ثم يقول لهم : لو أنـكم أحسنتم إدارة البقية الباقية من ملك آل عثمان لكانت لكم بها دولة وصولة لا يفت فى عضدها.

هذى البقية لو حرصتم دولة ... صال الرشيد بها وطال هشام

قسم الأئمة والخلائف قبلـكم ... فى الارض لم تعدل به الاقسام

سرت النبوة فى طهور فضائه ... ومشى عليه الوحى والالهام

وتدفق النهران فيه وازهرت ... بغداد تحت ظلاله والشـام

أثرت سواحله وطابت أرضه ... فالدر لج والنضـار رغام

أى ان صولة الرشيد كلها وطائلة هشام بن عبد الملك وعزة أولئك الخلائف انمـا كانت بهذه البلاد التى بقيت لـكم وهى نعم الاقسام إذا تقاسم البشر الأرض وفيها ظهر الانبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وفيها جرى الفرات ودجلة وازدهرت الشام وبغداد . ثم ذكر أدرنة وحسن دفاع شكرى باشا عنها فقال :

شرفاً ادرنة هـكذا يقف الحمى ... للغاصبـين وتثبت الاقدام

وترد بالدم بقعة أخذت به ... ويموت دون عرينـه الضرغام

والملك يؤخذ أو يرد ولم يزل ... يرث الحسام على البـلاد حسام

علم الزمان مكان (شكرى) وانتهى ... شـكر الزمان اليـه والإعظام

يذكر ان شكرى باشا وقف من أدرنة موقف مدافع ثابت الأقدام ولم يسلم شبراً من أرضها إلا بالدم وهذا هو حق الدفاع . فاستحق بذلك شـكر الناس وإجلالهم .

ولما دخل ملك البلغار الى أدرنة ترك لشكرى باشا سيفه عند الاستسلام إعجابا ببسالته وثباته.

والحق ان شكرى باشا لولا أن مس جيشه الجوع ما كان يمكن أن يدخل البلغار والصرب عليه فى أدرنة مهما طال الحصار ولكنه لم يبق للجيش زاد يقتات به.

ومن حيث اننا ذكرنا فى التعليق على الأبيات السابقة شيئاً من قصة الحرب البلقانية حباً فى اظهار فضل شوقى فيما سجله شعره من هذا الموضوع فلا بأس بأن نورد تحت هذه الأبيات مانعلمه بنفسنا لانقلا عن رواة ولا حكاية عن سُهار وهو : انه لما كان شكرى باشا تحت الحصار وجد رسولا أنفذه الى الاستانة يلتمس من الباب العالى أن ينجدوه ولو بعشرة آلاف جنيه ليشترى بها رزقا للجيش. وجاء الرسول فحدثنا بالخبر و كنت أنا ومحمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال لأننا كنا ندير لجنة الاعانات والهلال الاحمر المصرى وعلمنا انهم كانوا فى الباب العالى لم يجدوا المال فى الحال وأشاروا الى الرسول بالتلوّم الى أن يجدوه والحال ان شكرى باشا كان من الانتظار على أحر من النار فقررت لجنة الاعانة المصرية على مسئوليتى أنا ورفاقى لا سيما الشريعى ارسال العشرة آلاف جنيه الى شكرى باشا باسم الجرحى والمرضى وذهب بها الرسول وعاد بورقة الوصل.

ومن هذه الحادثة وحدها يعلم القارئ اللأواء التى وصل اليها الجيش العثمانى أثناء حصار أدرنة .

وبناء على ماعلمناه من أزمة الجيش وأزمة مسلمى أدرنة الذين كانوا يموتون جوعا بعد سقوط أدرنة فى أيدى البلغار التمسنا من الهلال الاحمر المصرى ببرقيات مكررة كتبتها كلها بقامى ان الهلال الاحمر فى مصر يطلب من انجلترة التوسط لدى حكومة البلغار بأن تسمح بدخول بعثة الهلال الاحمر المصرى الى أدرنة . فتوسطت الحكومة الانجليزية وأمكن الهلال الاحمر المصرى جزى الله أهله خيراً من إغاثة مسلمى أدرنة الذين كان عددهم يربى على أربعين الف نسمة وكان الجوع يفتك بهم . ولما ذهبنا نحن الوفد السورى الذى تقدم الكلام عليه الى أدرنة بعد استرداد الدولة لها شاهدت بعثة الهلال الاحمر المصرى لا تزال هناك . وقد كان والى أدرنة الحاج عادل بك أعدّ للوفد ولى أنا من الجملة مكاناً للمبيت فاستأذنته فى الذهاب الى محل الهلال الاحمر المصرى وبت هناك بناء على انى كنت من مفتشيه فى أثناء الحرب البلقانية. ولما

نهضت صباحاً شاهدت بعيني الوفاً من مسلمي أدرنة بأيديهم السطول يأخذون بها الحساء من مطبخ الهلال الاحمر فتعجبت من كثرة عددهم. فقال لي رجال الهلال الاحمر: لو رأيت الحالة قبل أن تسترجع الدولة أدرنة لرأيت عجباً فالآن انما نطعم ثلاثة أو أربعة آلاف وأما من قبل فقد كنا نعول ثلاثين أو أربعين الفاً. فهذا ماشاهدته بعيني فضلا عن كونه عملا كنت أنا ولله الحمد من الساعين فيه وكان المصريون الكرام هم السبب في إتمامه بحيث أنقذوا من الهلاك عشرات الألوف من اخوانهم مسلمي تلك البلاد. ولا بأس أن يكون للتاريخ مكان من كتاب أدب لا سيما اذا تعلق بالحمية والانسانية .

ثم قال احمد شوقي :

صبراً أدرنة كل ملك زائل ... يوما ويبقى المالك العلاّم
خفتَ الأذان فما عليك موحّد ... يسمى ولا الجمع الحسان تقام
وخبت مساجد كنّ نوراً جامعاً ... تمشى اليه الاسد والآرام
يدرجن في حرم الصلاة قوانتاً ... بيض الإزار كأنهن حمامُ
وعفت قبور الفاتحين وفُضّ عن ... حُفر الخلائف جندل ورجام
نبشت على قعساء عزتها كما ... نبشت على استعلائها الأهرام
في ذمة التاريخ خمسة أشهر ... طالت عليك فكل يوم عام
السيف عارٍ والوبآء مسلط ... والسيل خوف والثلوج ركام
والجوع فتاك وفيك صحابة ... لو لم يجوعوا في الجهاد لصاموا

وهذا ما أشرنا اليه في حديثنا عن هذه الحرب المشؤومة واستمداد قائد أدرنة القوت الضروري

ضنوا بعرضك أن يباع ويشترى ... عرض الحرائر ليس فيه سوام
ورمى العدا ورميتهم بجهنم ... مما يصبّ الله لا الاقوام
بعت العدو بكل شبرٍ مهجة ... وكذا يباع الملك حين يرام
ما زال بينك في الحصار وبينه ... شم الحصون ومثلهن عظام
حتى حواك مقابراً وحويته ... جثثا فلا غبن ولا استذمام

يصف هنا كيفيــة الدفاع عن أدرنة كما تقدم الكلام عليه بأن شكرى باشا لم يبع منها شـبراً الا بعد أن غطاه دما وانه لم يسلمّ البـلدة إلا بعد أن فتك بجيشـه الجوع والمرض فكان تسليما شريفا أعذر فيـه ذلك القائد الباسل الى قومه وحفظ فيه شرف أمتـه. ثم ذكر كيف آلت أدرنة بعد غلبـة البلغار عليها. ولا شك فى ان نظم شوقى هذه القصيدة وقع فى المدة التى هى بين تسليم أدرنة للبلغار واسترداد تركيالها فلذلك قال شوقى : خفت الأذان من أدرنة فمافيها موحد يسمى ولاجمعة تقام الخ.

وبعد ثلاثة أوأربعة أشهر من قول شوقى هذا كنت أنا أقول فى قصيدتى الميمية التى تقدم بعضها :

أدرنة يا أم الحصون ومنْ غدت — لدار بـنى عثمان سـوراً ومعصما
فديتــك ربعاً ما أبرّ بأهله — وأمّا علينـا ما أعز وأكرما
عمرناك أحقابا طوالا فلم نزل — بأهلك من أهل البسيطة أرحما
فلما أتاك المصلحون بزعمهم — أصاروا الى تلك الجنان جهنما
ألا قل لفرديناند أسرفت عاديا — وأبعدت فى وادى الضلالة مزعما
وهاجمت والأحلاف غدراً وغيلة — رجالا غدوا عما تكيـدون نوّما

وذلك ان الدول البلقانيـة الاربع اتحدت على قتال الدولة العثمانيـة تحت كفالة قيصر الروس وتآمرت بجميع ما بقى من الملك العـثمانى فى أوروبة . والاتراك غافلون عما يكيد لهم البلقانيون مشغولون بالشقاق بعضهم مع بعض. ولما فاجأ البلقانيون تركيا بالحرب كانت قد صرفت جيشا عظيما لها فى الروملى الى أوطانه ممايدل أعظم دلالة على الغفلة التى كانت فيها . ثم أقول :

رجالاً مضى بعض ببعض تشاجراً — فكان قضـاء الله فيهـم محتما
تعرض هذا الملك منـكم ومنهمو — لسهمين كل منهما انقض أسهما

ثم أقول عن استرداد أدرنة عند مازحف اليها القائد عزة باشا وطرد البلغار منها:

أدرنتنا لو كان للصخر ألسن — بهـا يوم عاد الراجعوها تكلمـا
فما من فتى إلا وأجهش بالبـكا — ولا من جواد عاد إلا وحمحما
ولا غادة إلا وكفكف دمعهـا — مكر حماة العرض كالسيل مفعما

ولا منـبر إلا وأورق بهجـة وقام عليـه ساجـع مـترنما
وقرّت عيون المصطفى فى ضريحه وهناه فى الفردس عيسى بن مريما

ولما ذهبنا الى أدرنة كما سبق الـكلام عليه شهرنا صلاة الجمعة فى جامع السلطان سليم وهو من الجوامع الـكبرى فى العـالم الاسلامى لا ينقص جـلالة عن السليمانية والفاتح والسلطان أحمد وغيرها فى الاستانة ، وازدحم الجمع فى تلك الجمعة لما بلغ أهل أدرنة مجىء وفد عربى يهنئهم بالرجوع الى الدولة . وكنا قد استصحبنا من استانبول صديقنا الاستاذ الشيخ احمد الفقيه من علماء مكة المـكرمة ومن أفصح الناس لسانا وأشجاهم صوتاً وكان فى القـديم إماماً للشريف عون الرفيق أمير مكة ، فالشيخ أحمد الفقيه رحمه الله خطب فى تلك الجمعة على منبر جامع السلطان سليم واستنزل العبرات فى خطبته المؤثرة وكان للناس فى أربع زوايا الجامع نشيج وشهيق من ذكرى الفجائع التى حلت بالاسلام وخروج ذلك البلد من يد الدولة ثم من ذكرى استرداد الدولة له وتبدل ذلك المأتم عرساً وذلك الخوف أمنا وتلك الوحشة أنساً . والى هذا والى جيش عزت باشا أشير بقولى :

تعجلتمو منا ثغوراً شواغراً فهلا وقد جاء الخميس عرمرما

أى انـكم هاجمتم ثغورنا على غرة والجيش الذى كان مرابطاً فيهـا قد صرفته الدولة الى أوطانه وصارت ثغورها عورة عند ذلك فما أمكن استدعاؤه تحت السلاح من جديد حتى كنتم قد أوغلتم فى البلاد وأصبح التلاقى صعباً . فأما الآن وقد زحف اليكم الجيش على أهبة وعلى تعبئة فلماذا لا تنهدون اليه ؟

خميس اذا النيات صحت رأيته يخـيم معـه نصره حيث خيما
تأمل أهاضيب الجبال وقد رست وحدث عن البحر المحيط وقد طمى
تضىء نواحيـه بغـرة عـزة مشيم ما تحت الضلوع غشمشما
يليه من الابطال كل غضنفر إذا عبس الموت الزؤام تبسما
تراهم ليوثاً فى الوغى وضيـاغما وفى أفق النـادى بدوراً وأنجما

ثم أقول فى حالة أهل أدرنه بعد استردادها :

فيالك من يوم غدا فى خطوبنا   كشادخة غراء فى وجه أدهما
وكانت بقايا السيف تبكى فأصبحت   تضاحكهم طراً ملائـكة السما
عسي كل يوم بعـد يوم أدرنة   يعود على الاسلام عيداً وموسما
وليس على المولى عزيز بأن نرى   هنـاء محا ذاك العـزاء المقدما

وهـذا الشطر الأخير تضمين لبيت قـديم من قصيدة أظنها لابن نباتة يهنئ فيها ملـكا تولى العرش بعد أبيه . ولقد كان فى الواقع استراد أدرنه بعد تلك الـكائنة البلقانية الفجيعة أشبه بغرة بيضاء فى وجه جواد أدهم. واذكر انى كنت دخلت أنا والمرحوم محمد باشا الشريعى على السلطان محمد رشاد رحمه الله وكان وقتئذ فى قصر يلدز فبعد أن جاسنا فى حضرته أظهر التألم من الحوادث التى قضت بهزيمة الدولة فى حرب البلقان ثم تبسم وقال : « لـكن أدرنه استردادیله متسلى اولدق » اى اننا مع هذا قد تسلينا باسترداد أدرنة

قصيدة شوقى فى الانقلاب العثمانى

ومن قصائد شوقى التى سارت بها الركبان منظومته فى الانقلاب العثمانى وسقوط السلطان عبد الحميد الثانى قال فيها :

سل يلدزاً ذات القصور   هل جاءها نبـأ البـدور

يلدز معناه بالتركية النجم وكان اسم القصر الذى يقيم به السلطان عبد الحميـد وهو على رابية مشرفة على البوسفور وشوقى يريد أن يقول ان هذا النجم جاءته نوبة الافول كالبدر الذى يطلع ثم يغيب

لو تستطيـع اجابة   لبكتك بالدمع الغزير
أخنى عليهـا ما أنا   خ على الخـورنق والسدير

الخورنق والسدير من قصور المناذرة بالحيرة

ودها الجزيرة بعد اسـ   ماعيل والملك الـكبير

يريد بالجزيرة القصر الذى كان يقيم به الخديوى اسماعيل بمصر

ذهب الجميع فلا القصو ر ترى ولا أهـل القصور

فلك يدور سعـــوده ونحوســه بيـــد المدير

أين الاوانس فى ذرا ها من ملائكة وحور

المترعات من النعيـ م الراويات من السرور

المـأثرات مـن الدلا ل الناهضات من الغرور

الآمرات على الولا ة الناهيـات على الصدور

الصدور جمع صدر وكان يقال لـكبير وزراء السلطنة العثمانية « الصدر الأعظم » وفى هذا البيت مبالغة بلا شـك لان جوارى القصر السلطاني لاسيما حظايا السلطان كان لهن نفوذ الـكلمة فى الاعصر القديمة لا فى الزمن الاخـير ولـكن شوقى قال هذا لطلاوة الشعر ، ثم يقول :

الناعمـات الطيبـــا ت العرف أمثـال الزهور

يلاحظ هنا أن الزهر لا يجمع على الزهـور بل على الأزهار وجمع الجمع الازاهر ولـكن قد توجد هذه اللفظة فى كتابات المحدثين

الذاهـلات عن الزما ن بنشوة العيش النضـير

من كل بلقيس على كرسي عزتهـا الوثير

أمضى نفـوذا من زبيـــدة فى الامارة والأمـير

بين الرفارف والمشـا رف والزخارف والحرير

والروض فى حجم الدنا والبحر فى حجم الغدير

وذلك ان البوسفور يضيق حتى كأنه بعض الأنهر

والدر مؤتلق السنا والمسك فياح العبير

فى مسكن فوق السما ك وفوق غارات المغـير

بين المعاقل والقنا والخيل والجم الغفير

سموه يلدز والأفو ل نهاية النجم المغير

ويلاحظ هنا على قوله المغير ان كانت بمعنى الآفل فصـوابه الغائر يقال غارت

الشمس غياراً وغؤوراً أى غربت ولعل شوقى أراد بقوله «المغير» أى المسرع فلاغبار على البيت حينئذ

دارت عليهن الدوا ئر فى المخادع والخدور
أمسين فى رق العبيـ ـد وبتن فى أسر المشير
ما ينتهين من الصلا ة ضراعة ومن النذور
يطلبن نصرة ربهن وربهن بلا نصير

ربهن الأول هو الله والثانى هو السلطان

صبغ السواد حبيرهن وكان من يقق الحبور
أنا ان عجزت فإن فى بُردَىّ أشعر من جرير

مضى هنا الشاعر على طريقته فى الفخر وهو مثل قوله :

ان الذى قدردها وأعادها فى بُردتيك أعاد فىّ البحترى

ثم قال :

خطبَ الامام على النظيـ ـم يعز شرحا والنثير
عظة الملوك وعبرة الا يام فى الزمن الاخير
شيخ الملوك وان تضعـ ـضع فى الفؤاد وفى الضمير
نستغفر المولى له والله يعفو عن كثير

فى كتاب الله (يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) فى سورة المائدة . وفى سورة الشورى (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير)

ونراه عند مصابه أولى ببِاكٍ أو عذير
ونصونه ونجله بين الشماتة والنكير
عبد الحميد حساب مثلك فى يد الملك الغفور
سدت الثلاثين الطوا ل ولسن بالحكم القصير
تنهى وتأمر ما بدا لك فى الكبير وفى الصغير

يريد أن يقول انه كان آمرا ناهيا على الكبير والصغير من رعيته وفى الكبير والصغير من شؤون المملكة

لا تستشير وفى الحمى عدد الكواكب من مشير

يقول : كنت مستبداً برأيك لاتقبل عليك مشيرا مع انه كان عندك وزراء ممن لهم رتبة مشير لايأخذهم العد . وفى هذا شيء من المبالغة لأن عبد الحميد طالما استشار وأخذ برأى أعوانه وانما كان يفترق عن غيره من الملوك الدستوريين بكونه لايتقيد باشارة أحد منهم

كم سبحوا لك فى الروا ح والملوك لدى البكور
ورأيتهم لك سجداً كسجود موسى فى الحضور
خفضوا الرؤوس ووتروا بالذل أقواس الظهور

أى كانوا ينحنون أمامك حتى تصير ظهورهم كالأقواس من الانحناء وانما كان وترها الخضوع لك

ماذا دهاك من الامو ر وكنت داهية الامور

دهاك بمعنى أصابك وأما داهية فمعناه باقعة وفى البيت جناس بين دهاك وداهية كما أن فى البيت الذى مر قبل هذا بثلاثة أبيات جناساً معنوياً بين تستشير ومشير .
ثم قال :

ما كنت ان حدثت وجدّ ت بالجزوع ولا العثور
أين الروية والأناة وحكمة الشيخ الخبير
ان القضاء اذا رمى دكّ القواعد من ثبير

الثبيران بالتثنية جبلان مفترقان يصب بينهما افاعية وهو واد يصب من منى يقال لأحدهما ثبير « غينا » وللآخر ثبير الأعرج . وقالوا ثبير جبل بمكة بينها وبين عرفة سمى ثبيرا برجل من هذيل مات فى ذلك الجبل فسمى به . وكانوا فى الجاهلية اذا أرادوا الافاضة يقولون : أشرق ثبير كى ما نغير . فانهم كانوا اذا أشرقت الشمس من ناحية ثبير أغاروا الى النحر أى أسرعوا . وبمكة أثبرة غير هذا منها ثبير الزنج وثبير الخضراء وثبير

النصع وهو جبل المزدلفة وثبير الأحدب . واشتقاق اللفظة هو من ثبره عن الأمر يثبره بالضم ثبراً اذا احتبسه. قيل ان ثبيرا سمى ثبيراً لأنه يوارى حراء . ثم قال :

دخلوا السرير عليك يحـ تكمون فى رب السرير
أعظم بهم من آمريـ ن وبالخليفة من أسير
قالوا اعتزل قلت اعتزا ت الحكم للملك القدير
صبروا لدولتك السنيـ ن وما صبرت سوى شهور

أى انهم صبروا على حكمك المطلق ثلاثين سنة وبعد أن أجبروك على اعلان الشورى لم تصبر أنت عليها سوى بضعة أشهر حتى حاولت أن تقوضها

اوذيت من دستورهم وحننت للحكم المسير
وغضبت كالمنصور أو هارون فى خالى العصور

أى أردت أن تستبد استبداد أبى جعفر المنصور أو حفيده هارون الرشيد ولكن هذا الوقت غير ذلك الوقت

ضنوا بضائع حقهم وضننت بالدنيا الغرور
هلا احتفظت به احتفا ظ مرحب فرح قـدير
هو حلية الملك الرشـيـ ـد وعصمة الملك الغـرير
وبه يبارك فى المما لك والملوك على الدهـور

قال انهم حرصوا على حق الرعية الضائع وحرصت أنت على تحكيم ارادتك وليس هذا بحق ولقد كنت تحسن لو تلقيت الدستور بصدر رحب وعين قرة فان الدستور للملك العاقل الرشيد حلية وللملك الذى لايملك التدبير عصمة ووقاية والدستور بركة على الممالك والملوك مادام قائما . ثم خاطب الجيش العثمانى الذى خلع عبد الحميد فقال :

يا أيها الجيش الذى لا بالدعى ولا الفخور
يخفى فان ريع الحمى لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف فى الفعا ل وليس يسرف فى الزئير

يقول ان الجيش العثمانى يخفى بعدم تدخله فى السياسة وادارة الملك حتى اذا ريع

حمى الملك بشيء من النوازل وثب وظهر بكل قوته فهو كثير الفعل قليل الضوضاء. وهذان البيتان هما من أبدع ماقال شوقى ولـكنه مع الاسف قد بدأ منذ خلع هـذا الجيش للسلطان عبد الحميد يتعرض للسياسة وللادارة ودخول الجيوش فى سياسة الممالك طالما كان قاصما لظهورها . ولم يكن انهزام هذا الجيش العثمانى فى الحرب البلقانية خالياً من هذا السبب . قال :

يتلو الزمان صحيفـة غرّاء مذهبة السطور
فى مدح أنورك الجرى ء وفى نيازيك الجسور

أنور كان ضابطا صغيرا عندما ثار بشرذمة من العسكر فى بلاد الروملى يطلب اعادة الدستور وكذلك نيازى الذى ثار مثله فى بلاد الارناووط فطار صيتهما فى ذلك الوقت وما زال أحدهما أنور يرقى حتى صار ناظرا للحربية العثمانية

يا شوكت الاسلام بل يا فاتح البلد العسير
وابن الا كارم من بنى عمر الـكريم على البشـير
القابضين على الصليـ ـل كجدهم وعلى الصرير
هل كان جدك فى ردا ئك يوم زحفك والكرور
فقنصت صياد الاسـو د وصدت قناص النسور
وأخذت يلدز عنوة وملـكت عنقاء الثغور

كان شائعاً يوم جرت هذه الحادثة ان محمود شوكت باشا الذى قاد الجيش المسمى بجيش الحركة الذى زحف من سلانيك الى استانبول وخلع السلطان عبد الحميد هو من ذرية الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وليس ذلك بصحيح فمحمود شوكت باشا هو من عائلة كرجية الأصل استوطنت بغداد وصارت من بيوتات الوجاهة فيها ويقال ان بينها وبين آل العمرى فى الموصل مصاهرة فان كان محمود شوكت باشا يمتّ الى عمر رضى الله عنه بنسب فيـكون من جهة الامهات لا الآباء . وأما قوله : (عمر الـكريم على البشير) فمعناه انه العزيز على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن البشير من اسمائه

ولاخي نسيب رحمه الله فى دخول جيش الحركة الى استانبول زحفاً من سلانيك تحت قيادة محمود شوكت باشـا قصيدة رنانة املاها عليه التـأثر بما كنا فجعنا به من استشهاد ابن عمنـا الامير محمد المصطفى ارسلان الذى كان أحد نواب الامة ورئيساً للجنة الامور الخارجية فى مجلس النواب وكان الحزب الحميدى قد ثار على الحـكومة غيظـاً بجمعية الاتحـاد والترقى التى كانت قوام الحـكومة حينئذ وخدعوا العسا كر وساقوها الى ساحة أياصوفية حيث ارادوا الفتك بالنواب ولـكنهم بعد ان فتـكوا بالامير محمد ارسلان وناظم باشا ناظر العدلية وقع فيهم الرعب وبلغهم ان عسا كر أخرى من أنصار الدستور آتية للاقتصاص منهم فتفرقوا ولـكن فتـكوا بكثيرين من أنصار الدستور وانتدب السلطان عبدالحميد توفيق باشا صدرا أعظم مكان حسين حلمى باشا الصدر الذى وقعت عليه الثورة وتوارى عن الانظار.

ولما بلغ الاتحاديين الذين كان مركز جمعيتهم سلانيك ما وقع فى الاستانة قرروا الزحف الى الاستانة بجيش سلانيك، وانضم اليه جيش أدرنة. ونشر محمود شوكت باشا بيانا للامة العثمانية عن الأسباب التى حملت على هذه الحركة وهى أن الرجعيين ثاروا فى العاصمـة ونادوا بسقوط الحـكومة الدستورية ، وتجمعت العسا كر التى أثاروها فى ساحـة مجلس النواب أو المبعوثين وقرروا الفتك بهم، واستـُشهد بأيديهم الاثيمة مبعوث الأمة محمد أرسلان بك وناظر العدلية ناظم باشا، ولذلك يزحف جيش الحرية لاعادة الدستور وتوطيـده الاقتصاص من الجناة .

ثم دخـل الجيش ولم تحصل له مقاومة الا أمام بعض الثـكن والعسكرية ، لأن السلطان خشى عاقبة الحرب الداخلية. وكان توفيق باشا الصدر الجديد أشار عليه بعدم المقاومة تخفيفا للشر، فلمـا استولى جيش الحرية على العاصمة أنفذ الاتحاديون أنور بك ومعه جماعة فأبلغوا السلطان وجوب التخلى عن الملك فلم يسعه الا الطاعة وأرسلوه الى سلانيك حيث تخصص له قصر أقام به الى ماقبـل الحرب البلقانية بقليل، فردوه الى الاستانة وأنزلوه بقصر «بكلر بك» حيث مات سنة ١٩١٧

أما قصيدة أخى فى محمود شوكت باشا فهى هذه :

محمود شوكت ماخشيت فروقا   حتى مهدت من الصواب طريقا

سقيا لهمتك التى قد شاكلت يوم المغار من الرياح خريقا
يا من تداركت الخلافة بعدما أمسى بها الخطر الاجل حقيقا
اسمع لقمرى المديح وقد غدا غصن النجاح بجانبيك وريقا
بك قد أراد الله أن يمحو البلا ويلم شمل الدولة المفروقا
ما ان أتاح من الظلام دجنة حتى أتاح من الهلال شروقا

ومنها :

لك عند أمتك التى أنقذتها فضل يطوق جيدها تطويقا
أنحى عليها الخائنون بكيدهم فرددت سهم أذاهم المرشوقا
أنفوا من الشورى وطاب لديهم قتل الكرام دعارة وفسوقا
حفقت قلوب الظالمين بقدر ما شهدوا لمنصور اللواء خفوقا
سدروا فما أبقى التحير ألسنا منهم ولا أبقى التخوف سوقا
تلقاهم صفر الوجوه كأنهم دهنوا المحاجر والجباه خلوقا

ومنها :

أمطرت من ديم المنايا بعدما قدمت من لمع السيوف بروقا
لما أهنت القصر فى شرفاته أكرمت بيتاً فى الحجاز عتيقا
بات المتوج فى أسارك عنوة سبحان من ترك العزيز رقيقا
وذعرت سرب الغيد فى أكنانها فغدا تناغيها لديك شهيقا
من للحسان وقد تميس بنعمة ما شارفت نكداً ولا ترنيقا
جزعت على الدنيا عشية آنست مما دهاها البين والتفريقا
ورأت أزاهرها بيلدز خضبت بدم يرد الياسمين شقيقا

ان شوقى وان كان أودع خطابه للسلطان عبد الحميد ما أودعه من اللوم فى القالب الجميل لم ينس ولاءه للخليفة السابق الذى طالما تغنى بمدائحه فلهذا أشار بوجوب توقيره وحفظ كرامته وتذكر امامته والاغضاء عن سيئاته متروكا حسابه الى الله الذى سيفصل فيه . وما زال شوقى يوصى بالسلطان عبد الحميد فى شخصه الى الآخر . ولكن شوقى

لم يكن يهمه السلطان عبد الحميد لأجل شخصة بل لأجل منصب الخلافة الذى كان يتقلده وهو منصب تهوى اليه أفئدة جميع المسلمين . وهذا المنصب لا يزول بزوال عبد الحميد بل قد شغله الآن أخوه السلطان محمد رشاد الذى بويع سلطاناً وخليفة باسم محمدالخامس . فالشاعر الاسلامى الأمين عملا بمبدأه الذى لايحيدعنه يودع السلف ويحيّي الخلف لأن الخلافة يجب أن تبقى . وهو يهدى الى الخليفة الجديد سلام أهل مصر الذين بايعوه فى من بايعه من الأمة الاسلامية فيقول :

المؤمنون بمصر يهـ ـدون السلام الى الأمير
ويبايعـــونك يا محمـ ـد فى الضمائر والصدور
قد أملوا لهلالهم حظ الاهلة فى المسير
فابلغ به أوج الـكما ل بقوة الله النصير
أنت الـكبير يقلدو نك سيف عثمان الكبير
شيخ الغزاة الفاتحـ ـين حسامه شيخ الذكور

يهنى السلطان محمداً الخامس بتقليده سيف آل عثمان. ومن عادة هذا البيت الكريم انهم عند مبايعة السلطان يقلدونه سيف جده عثمان وذلك فى حفلة عظيمة تقام فى مقام الصحابى الجليل أيوب الانصارى رضى الله عنه المدفون كما لا يخفى فى آخر خليج استانبول. ويكون الذى يقلد السلطان هذا السيف شيخ الطريقة المولوية المنسوبة الى مولانا جلال الدين الرومى، يستدعونه من قونية الى الاستانة ليقوم بهذا التقليد. وهى عادة قديمة لم يريدوا أن يغيروها طول الدهر حتى تولى السلطان محمدوحيد الدين الملقب بمحمد السادس وهو السلطان الأخير من بنى عثمان . فلما جرت حفلة تقليد السيف فى مقام أبى أيوب الانصارى وذلك فى السنة الأخيرة من الحرب العامة كان المجاهد الـكبير السيد احمدالشريف السنوسى قدقدم بغواصة من طرابلس الغرب الى الاستانة فآثر السلطان أن يجعل تقليده سيف آل عثمان من يد السيد السنوسى رضى الله عنه .

ثم يقول :

بشرى الخلافة بالاما م العادل النزه الجدير
الباعث الدستور فى الا إسلام من حفر القبور
أودى معاوية به وبعثته قبل النشور
فعلى الخلافة منكما نور تلألأ فوق نور

يقول شوقى لمحمد الخامس : ان الحكم المقيد قد بعث فى أيامك بعد ان كان الخليفة معاوية ابن أبى سفيان قد طوى بساطه فأنت نشرته من جديد وأنشأته استئنافا . يشير الى أن الحكم الشوروى لم يستتب الا مدة الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين الأربعة رضى الله عنهم . وبعد ذلك جاء معاوية فحول الخلافة الى ملك عضوض وجعلها بالارث لابالانتخاب . والله وارث الأرض ومن عليها .

قصيدة لشوقى فى النسيب ومعارضتها لأخى نسيب

هذا ومن قصائد شوقى فى النسيب قوله :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوهه ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتعبه ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة شجناً فى الدوح ترده
كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه والسورة انك مفرده
قد ود جمالك أو قبساً حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

أى صواحبات امرأة العزيز اللواتى قطعن أيديهن لما رأين يوسف

جحدت عيناك زكىَّ دمى اكذلك خدك يجحدهُ
قد عزَّ شهودى إذ رَمتا فأشرتُ لخدك أشهدهُ
وهممتُ بجيدك أشركه فأبى واستكبر أصيده
وهززتُ قوامك أعطفهُ فنبا وتمنع أملده
سبب لرضاك أمهّده ما بال الخصر يعقده
بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واشٍ يفسده
ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجنّ به فأقول وأوشك أعبده
مولاى وروحى فى يده قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدقّ له وحنايا الأضلع معبده
قسماً بثنايا لؤلؤها قسم الياقوت منضده
ورضابٍ يوعد كوثره مقتول العشق ومشهده
وبخالٍ كاد يحجّ له لو كان يقبل أسوده
وقوامٍ يروى الغصن له نسباً والرمح يفنده
وبخصرٍ أوهن من جَلدى وعوادى الهجر تبدّده
ما خنتُ هواك ولا خطرت سلوى بالقلب تبرّده

وقد عارضها اخى نسيب بهذه القصيدة التى أحببت أن أعرضها للقراء فى جانب قصيدة شوقى وهى هذه :

مضناك عصاه تجلده هل أنت بعطفك منجده
منهوك الجسم به كمد احناء الأضلعِ موقده
ترجيع الورق يهيجه ووميض البرق يسهده
وله نفس لو ما خفقت أحشاه لعزَّ تردّده
إنْ تهجره فعزاؤك فى دَنفٍ يتهامس عوّده
لا يسرى طيفكَ فى غلس قد زوّدَ نورك فرقده

ما حال فؤادي في شغف يستبكى الصخر توجده
اذ يغدو الصدغ يصدعه ويروح الخدّ يخدّده
ويكرّ الطرف فيأسره فيقوم الفرع يصفده
والصدّ له جرح جلل لولا الآمال تكمده
افدى مولاى فكل فتى يشقيه الحب ويسعده
كم فزت بمرأى طلعته فوزاً يتقطع حسده
وسكرت براح شمائله سكراً ما فاه معربده
غصن أغرتني رقته اترى شكواى تؤوده
والشعر صداح في وله يهوى الأغصان مغرده

أقول : ما يخالج نفسى عند قراءة هذا الشعر سواء المعارض أو المعارض وهو انه ليس فيه كبير امر وان هناك صنعة تعمدها الشاعران اللذان قيدهما هذا الوزن فاصبحا له أسيرين يسخران له المعانى ويجرّان القوافى. ولا جرم ان الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر وسلباه حرّية التصرّف فى ابراز معانيه كيف شاء ولهذا كان أطول الشعراء باعاً وأعلاهم درجة من تراه حراً وهو مقيد. ولكن بحراً كهذا الذى نظما عليه وان كان مرقصاً يعجب القارئ بمقاطعه ويلذ بخببه ترى الشاعر فيه راسفا فى قيد ثقيل يمنعه ان يجرى جريه المعتاد

قصيدة شوقى فى شكسبير

ولشوقى قصيدة فى شكسبير بالغ بها فى مدح عظمة الانكليز فقال :

اعلى الممالك ما كرسيه الماء وما دعامته بالحق شماء
ياجيرة المنش حلاًّ كم ابوّتكم ما لم يطوّق به الابناء آباء
ملك يطاول ملك الشمس عزّته فى الغرب باذخة فى الشرق قعساء
تأوى الحقيقة منه والحقوق الى ركن بناه من الاخلاق بناء
اعلاه بالنظر العالى ونطقه بحائط الرأى أشياخ اجلاّء
وحاطه بالقنا فتيان مملكة فى السلم زهر ربى فى الروع ارزاء

يستصرخون ويرجى فضل نجدتهم   كأنهم عرب فى الدهر عرباء
ودولة لا يراها الظن من سعة   ولا وراء مداها فيه علياء
عصماء لا سبب الرحمن مطرح   فيها ولا رحم الانسان قطعاء
تلك الجزائر كانت تحتهم ركناً   وراءهن لباغى الصيد عنقاء
وكان ودهم الصافى ونصرتهم   للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

لا نزاع فى عظمة الانكليز المادية وفى كثير من عظمتهم المنوية وان كانت هذه قد غدت تتضاءل فى نظر الناس شيئا فشيئا وصار ثوبها يشف عما تحته . وعلى كل حال فقد أصاب شوقى بتقييد ود الانكليز الصافى للمسلمين بفعل « كان » اذ أننا اذا نظرنا الى العصر الأخير لا نجد لهذا الود أثراً يستحق أن ينوه به . ثم قال فى شكسبير :

ماأنجبت مثل شيكسبير حاضرة   ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحده إنكلترا شرفا   ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء

كان كارليل يقول : ان شكسبير أفضل عندنا من الهند .

لم تكشف النفس لولاه ولا بليت   لها سرائر لا تحصى واهواء
شعر من النسق الأعلى يؤيده   من جانب الله الهام وايحاء

سبق لى كلام نقله المنفلوطى وهو ان الشعر هو من الوحى بمكان الدرجة الثانية من العلياء

ثم انه يخاطب شكسبير فيقول له: قد افضيت الينا عن الحياة باسرار لم يكشفها حتى الآن شاعر قبلك فهل تقدر أن تفضى الينا بشىء عما بعد الحياة ؟ فان السر هو هنا

ياصاحب العصرِ الخالى ألا خبر   عن عالمِ الموت يرويه الألباء
اما الحياة فامر قد وصفت لنا   فهل لما بعد تمثيل وإدناء

ثم يسأله عن جمجمته ماذا جرى عليها بعد موته فيقول :

بمن أماتك قل لى كيف جمجمة   غبراء فى ظلماتِ الأرض جوفاء
كانت سماء بيان غير مقلعة   شؤبوبها عسل صاف وصهباء
فأصبحت كأصيص غير مفتقد   جفته ريحانة للشعرِ فيحاء

الاصيص نصف الجرة يزرع فيها الرياحين

وكيف بات لسان لم يدع غرضاً ولم تفتــه من الباغين عوراء

عفــا فامسى ذنابى عقرب بليت وسمها فى عروق الظلـم مشاء

وما الذى صنعت أيدى البلى بيد لها الى العيْب بالاقلام ايماء

فى كل أنملة منهــا اذا انبجست برق ورعد وأرْواح وانواء

واين تحت الثرى قلب جوانبه كأنهن لوادى الحق ارجاء

تصغى الى دقه أذن البيــان كما الى النواقيس للرهبان إصغاء

لئن تمشى البلى تحت التراب به لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

وصف جمجمة شكسبير بما لم يصف به شاعر رأس شاعر وقال ان رأسـاً جباراً كهذا الرأس لا يسطو عليه الا الثرى الذى يجعله أجزاء كالليث لا يؤكل الا اذا صار أشـلاء . ومن أحسن ما ورد فى هذه القصيدة ذكره للمدنية المصرية التى كان ترقى الانسان فيها بالعلم سبباً لزيادة تفننه فى ضروب القتل والافناء فهو يقول :

ياواصف الدم يجرى ههنــا وهنا قم انظر الدم فهـو اليـوم دأماء

قال : يا شكسبير قد كنت تصف الدم يجرى من هنا ومن هناك أشبه بجداول وتجد ذلك فظيعاً فقم اليوم وانظر الدم فانه ليس بجداول ولا بانهار ولكنه دأماء أى بحر عجاج متلاطم بالأمواج ، ثم قال :

لاموك فى جعلك الانسان ذئب دم واليوم تبدو لهم من ذاك أشياء

وقيل اكثر ذكر القتل ثم أتوا ما لم تسعه خيــالات وأنبــاء

كانوا الذئاب وكان الجهل داءهم واليــوم علمهم الراقى هو الداء

قصيدة شوقى فى كتاب حافظ عوض عن تاريخ مصر الحديث

ولشوقى أبيات فى كتاب فتح مصر الحديث للاستاذ الفاضل السياسى المحنك حافظ بك عوض يبدأ فيها بذكر الصاحب الأمين الذى هو الكتاب فيقول :

انا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لى وافياً الا الكتابا

صاحب ان عبته أو لم تعب ليس بالواجد للصاحب عابا

صالح الاخوان يبغيك التقى ورشيد الكتب يبغيك الصوابا

ثم اختص التاريخ من بين الكتب بزيادة الاجلال فقال :

غال بالتاريخ واجعل صحفه من كتاب الله فى الاجلال قابا
واطلب الخلد ورمه منزلا تجد الخلد من التاريخ بابا
عاش خلق ومضوا ما نقصوا رقعة الأرض ولا زادوا الترابا
أخذ التاريخ مما تركوا عملاً أحسن أو قولا أصابا

يقول: كم عاش أمم وأقوام ومضوا فما قدروا أن ينقصوا الارض ولا أن يزيدوها حبة تراب وانما تركوا ما حفظه لهم التاريخ لا غير . وهو كما قال الآخر وهو ابن دريد :

وانما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ثم يصف القوم بدون تاريخ لهم فيقول :

مثل القوم نسوا تاريخهم كلقيط عى فى الناس انتسابا
أو كمغلوب على ذا كرة يشتكى من صلة الماضى انقضابا

ثم يصف العربية الفصحى أيد الله سلطانها فيقول :

ان للفصحى زماما ويداً تجنب السهل وتقتاد الصعابا
لغة الذكر لسان المجتبي كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها ان صادفت منزلا رحبا واهلاً وجنابا

يقول: ان لغة القرآن ولسان المصطفى عليه السلام ليست باللغة التى يعييها اجابة من يناديها الى البيان عن ضرب من ضروب القول والاعراب عن خالج مهما دق من خوالج النفس وهى لعمرى مليئة بحوائج كل عصر بشرط أن تجد من يحسن الاطلاع على دقائقها والاضطلاع بحقائقها. ثم يذكر كيف كان الأزهر هو الكوكب الوحيد فى دجنة أيام المماليك فيقول :

ظلمات لا ترى فى جنحها غير هذا الأزهر السمح شهابا
زيدت الأخلاق فيه حائطاً فاحتمى فيها رواقاً وقبابا
قسما لولاه لم يبق بها رجل يقرأ أو يدرى الكتابا

ولشوقى وصف للجبرتى المؤرخ ينطبق عليه أحسن انطباق فهو يقول عنه :

صحف الشيخ ويومياته ... كزمان الشيخ سقما واضطرابا
من حواش كجليد لم يذب ... وفصول تشبه التبر المذابا
والجبرتى على فطنته ... مرة يغبى وحيناً يتغابى

أى انه يجمع الفطنة والغباوة فى نسق واحد وهو من الأصل فطن شديد الذكاء الا أنه قد يتغابى أحياناً بحسب غرضه .

ثم يذكر أيام مصر فى حروبها ، فقال ان المصريين فيها لهم وعليهم . ففى وقعة نصيبين التى يقول لها الأتراك وقعة نزب لبسواارداء الفخر، وفى وقعة التل الكبير التى على أثرها احتل الانكليز مصر التحفوا رداء الذل . ثم ذكر وقعة الاهرام ووصف جيش نابليون فقال :

شهد الجيزى[1] منهم عصبةً ... لبسوا الغار على الغار اغتصابا
كذئاب القفر من طول الوغى ... واختلاف النقع لوناً وإهابا
قادهم للفتح فى الأرض فتىً ... لو تأنى حظه قاد السحابا

ثم ذكر عجز المصريين يوم اقتحم بلادهم بونابرت فقال :

وبنو الوادى رجالات الحمى ... وقفوا من ساقة الجيش ذنابى
موقف العاجز من خلف الوغى ... يحرس الاحمال أو يسقى مصابا

زهريات ولتأملات لشوقى

هذا ولما كان شوقى يأبى الا أن يجيد فى كل لون من ألوان التأثر بمظاهر الحياة عالج أيضا الزهريات بما يناسبها من شعره نضارة ورونقاً فقال فى الربيع :

آذار أقبل قم بنا يا صاح ... حىّ الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها ... فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقاً ... لتجاوب الأوتار والأقداح
واستأنسنّ من السقاة برفقة ... غر كأمثال النجوم صباح

---

(١) هرم الجيزة

واجعل صبوحك فى البكور سليلة　　للمنجبين : الكرم والتفاح

ثم يذكر الحمام فيقول :

بيض القلانس فى سواد جلابب　　حُلين بالأطواق والأوضاح
رتلن فى أوراقهن ملاحناً　　كالراهبات صبيحة الافصاح

ثم يقول عن الربيع :

ملكُ النبات فكل أرض داره　　تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورة أعلامه من أحمر　　قان وأبيض فى الربى لمّاح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها　　ومرحن فى كنف له وجناح
يغشى المنازل من لواحظ نرجس　　آناً وآناً من ثغور اقاح
ورؤس منثور خفضن لعزه　　تيجانهن عواطر الأرواح
الورد فى سرر الغصون مفتح　　متقابل يثنى على الفتاح
مر النسيم بصفحتيه مقبِّلا　　مرَّ الشفاه على خدود ملاح
هتك الردى من حسنه وبهائه　　بالليل ما نسجت يد الإصباح
ينبيك مصرعه وكل زائل　　ان الحياة كغدوة ورواح
ويقائق النسرين فى أغصانها　　كالدر ركب فى صدور رماح
والياسمين نقيه ولطيفه　　كسريرة المتنزه السماح
متألق خَللَ الغصون كأنه　　فى بُلجة الافنان ضوء صباح
والجلنار دم على أوراقه　　قانى الحروف كخاتم السفاح
وكأن محزون البنفسج ثاكل　　يلقى القضاء بخشية وصلاح
والسرو فى الحبر السوابغ كاشف　　عن ساقه كمليحة مفراح
والنخل ممشوق القدود معصب　　متزين بمناطق ووشاح
كبنات فرعون شهدن مواكبا　　تحت المراوح فى نهار ضاح
وترى الفضاء كحائط من مرمر　　نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينة　　بركت وأخرى حلقت بجناح

الى أن يقول فى وصف السواقى التى ترفع الماء :

وجرت سواق كالنوادب بالقرى ... رُعن الشجى بأنة ونواح

الشاكيات وما عرفن صبابة ... الباكيات بدمع سَحاح

من كل بادية الضلوع غليلة ... والماء فى أحشائها مِلواح

وما زال الشعراء يصفون أنين السواقى والنواعير، وأشهر هذه فى الأنين والبكاء نواعير مدينة حماة على وادى العاصى التى صارت مضرب المثل لارتفاع دواليبها التى قد يبلغ الواحد منها ثمانية أمتار فيكون لها أنين يسمع الى مسافة بعيدة . هذاوليس فى زهريات الشعراء أجمع مايبـذ زهرية شوقى هذه التى قدمها الى الكاتب الروائى الشهير (هول كين) وختمها بخطاب له يقول فيه :

(هول كين)مصر رواية لا تنتهى ... منها يد الكتاب والشراح

فيها من البردى والمزمور والـ ... ـتوراة والفرقان والاصحاح

(ومنا) و (قمبيز) الى اسكندر ... فالقيصرين فذى الجلال صلاح

يريد بصلاح صلاح الدين الأيوبى بعد ذكره أعاظم من ملكوا مصر ثم يقول لهذا الكاتب العظيم :

تلك الخلائق والدهور خزانة ... فابعث خيالك يأت بالمفتاح

قصيدة شوقى فى مسجد أياصوفيا

وله فى مسجد أيا صوفيا

كنيسة صارت الى مسجد ... هدية السيد للسيد

كانت لعيسى حرما فانتهت ... بنصرة الروح الى أحمد

شيدها الروم واقيالهم ... على مثال الهرم المخلد

تنبىء عن عز وعن صولة ... وعن هوى للدين لم يخمد

مجامر الياقوت فى صحنها ... تملأه من ندها الموقد

ومثل ماقد أودعت من حلى ... لم تتخذ دار ولم تحشد

كانت بها العذراء من فضة ... وكان روح الله من عسجد

عيسى من الأم لدى هـالة والأم من عيسى لدى فرقد
جلاهما فيها وحلاهمـا مصور الروم القدير اليـد

ومنها :

قد جاءها (الفاتح) فى عصبة من الاسود الركع السجد
رمى بهم بنيانها مثـل ما يصطدم الجلمد بالجلمد
وما توانى الروم يفدونها والسيف فى المفدى والمفتدى

ثم يقول عن السلطان محمد الفاتح :

بفاتح غاز عفيف القنا لا يحمل الحقد ولا يعتدى
أجار من ألقى مقاليده منهم وأضفى الامن للمرتدى
وناب عما كان من زخرف جلالة المعبود فى المعبـد
فيالثأر بيننا بعـده أقام لم يقرب ولم يبعـد
باق كثأر القدس من قبـله لا ننتهى منه ولا يبتدى
فلا يغرنك سكون الملا فالشر حول الصارم المغمد

انى أرى المختار من شعر شوقى انما يكثر فى الاوابد ووصف المبانى والمشاهد وكل ماله صلة بالتاريخ فلذلك يعلو فى هذه السموات مالا يعلو فى غيرها، فشعره فى المواضيع التاريخية والملاحم ينحط عنه كل سيل بلاغة ولا يرتقى اليه طير فصاحة ولذلك أفضل قصائده فى هذه المقامات المائلة على قصائده فى الغزل والنسيب والرثاء والمديح مع رقة الأولى وجزالة الثانية .

وانظر الآن الى قصيدته السينية الاندلسية فان شوقى فى أيام الحرب الكبرى قد ارتحل الى الاندلس وزار أنخر مآثر العرب فيها قال : وكان البحترى رحمه الله رفيقى فى هذا الترحال وسميرى فى الرحال فانه أبلغ من حلى الأثر وحيى الحجر ونشر الخبر وحشر العبر ومن قام فى مأتم على الدول الكبر الخ ثم استشهد بالعماد الاصفهانى صاحب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » وهو قوله : فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحترى فى وصفه تجدوا الايوان قد خرّت شمفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحترى قد بقى بها كسرى فى ديوانه أضعاف ما بقى شخصه فى ايوانه اه.

قلت : من حيث أراد شوقى معارضة البحترى فى سينيته الكسروية فيحسن أن نورد قصيدة البحترى هذه وبعدها قصيدة شوقى ثم نقابل بينهما . ولا يعيب شوقى ان قصر عن البحترى فى مداه البعيد والبحترى ثالث ثلاثة مع أبى تمام والمتنبى

سينية البحترى فى ايوان كسرى

صنت نفسى عما يدنّس نفسى ... وترفعت عن جدا كل جبس

وتماسكت حين زعزعنى الدهـ ... ـر التماساً منه لتعسى ونكسى

بلغٌ من صبابة العيش عندى ... طففتها الأيام تطفيف بخس

وبعيد ما بين وارد رفهٍ ... عَلل شربه ووارد خمس

وكأن الزمان أصبح محمو ... لا هواه مع الأخس الأخس

واشترائى العراق خطة غبن ... بعد بيعى الشآم بيعة وكس

لا ترزنى مزاولا لاختبارى ... عند هذى البلوى فتنكر مسى

وقديماً عهدتنى ذا هنات ... آبيات على الدنيئات شُمس

ولقد رابنى نبوّ ابن عمى ... بعد لين من جانبيه وأُنس

واذا ما جفيت كنت حريا ... أن أُرى غير مصبح حيث أُمسى

حضرت رحلى الهموم فوجهـ ... ـت الى أبيض المدائن عنسى

أتسلى عن الحظوظ وآسى ... لمحل من آل ساسان درس

ذكرتنيهم الخطوب التوالى ... ولقد تذكر الخطوب وتنسى

وهم خافضون فى ظل عال ... مشرف يحسر العيون ويُخسى

مغلق بابه على جبل القبـ ... ـق الى دارتى خلاط ومكس

حلل لم تكن كأطلال سُعدى ... فى قفار من البسابس مُلس

ومساع لولا المحاباة منى ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

نقل الدهر عهدهن عن الجد ... ة حتى غدون انضاء لبس

فكأن الجرماز من عدم الأنس ... واخلاله بنية رمس

الجرماز بالكسر بناء عظيم كان عند أبيض المدائن وقد عفا أثره، جاء ذلك فى تاج العروس . وقد أشرنا الى هذا عمداً لأنه لا يوجد فى العربى لفظ الجرماز وانما يوجد الجرموز قالوا عنه انه الحوض المتخذ فى قاع أو روضة ويكون مرتفع الأعضاد فيسيل منه الماء ثم يفرغ بعد ذلك. وقيل الجرموز البيت الصغير وقيل الجرموز الركيَّة فوجب التنبيه الى أن الجرماز مكان معين

لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لايشاب البيان فيهم بلبس
فاذا ما رأيت صورة انطا كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنو شر وان يزجى الصفوف تحت الدرَفس

الدرفس كدمقس ، وهو العلم الكبير وقد قالوا ان هذا البيت هو بيت هذه القصيدة

فى اخضرار من اللباس على أصـ فر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح ومُليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد احياء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى تتقراهم يداى بلمس
قد سقانى ولم يصرد أبو الغو ث على العسكرين شربة خلس
من مدام تقولها هى نجم أضوأ الليل أو مجاجة شمس
وتراها اذا أجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسى
أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة الى كل نفس
وتوهمت أن كسرى أبرويـ ز معاطىّ والبلهبذ أُنسى

مااهتديت الى الآن الى معنى البلهبذ الذى هو لفظ فارسى فيما يظهر

حُلم مطبق على الشك عينى أم أمان غيرن ظنى وحدسى
وكأن الايوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعن جلس

يتضنى من الـكآبة أن يبـ ـدو لعينىَّ مصبح أو ممسى
مزعجاً بالفراق عن أنس الف عزّ أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليـالى وبات الـ ـمشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبـدى تجلداً وعليه كلـكل من كلا كل الدهر مرسى
لم يعبه ان بز من بُسط الديـ ـباج واستلّ من ستور الدمقس
مشمخر تعلو له شرفات رُفعت فى رءوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فمـا تبـ ـصر منها الا غـلائل برس

البرس هو القطن والغلائل جمع غلالة بالـكسر وهو شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع ويجوز أن يكون (فلائل) جمع فليلة وهو الشعر المجتمع ولـكن الأول هو الأقرب

ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أنى أراه يشهد ان لم يك بانيـه فى الملوك بنـكس
فـكأنى أرى المراتب والقـو م اذا ما بلغت آخر حسى
وكأن الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقاصيـ ـر يرجحن بين حُوّ ولُعس
وكأن اللقاء أول من أمـ ـس ووشك الفراق أول أمس
وكـأن الذى يريد اتباعاً طامع فى لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهراً فصارت للتعزى رباعهم والتأسى
فلها ان أعينها بدموع موقفات على الصبابة حبس

موقفات حقها أن تـكون موقوفات ولـكن البحترى تكلم هنا بلغة تميم فـكانوا يقولون أوقف بمعنى وقف وأنكرها الأصمعى وقال الـكلام وقف بغير الف وجاء عن بعضهم مايمسك باليد يقال فيه أوقفته وما لا يمسك باليد يقال فيه وقفته

ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غرس

أيدوا ملكنا وشدوا قواه بكُماة تحت السنوّر حُمس
وأعانوا على كتائب أريا ط بطعنٍ على النحور ودَعس
وأرانى من بعد أكلف بالاشـ ـراف طراً من كل سنخ وأس

من تأمل فى هذه القصيدة وما ختمها به البحترى لم يجد نظمها مجرداً لاجلال الفن والتنويه بعظمة البنيان الذى لاتزال فخامته دليلا على عظمة الملوك الذين بنوه وبُعد شأوهم فى العمران . وانما اتخذها أبو عبادة فرصة للتغنى بمجد فارس التى كان ينتسب اليها كثيرون من أمراء الدولة العباسية ومن هؤلاء من كان يسنى العطاء للبحترى ويواصل اجازته بحيث لم يكن يدع فرصة يتغنى بها بمجد فارس الا ويتوردها فكم جاء ذلك فى شعره ، فمنه قصيدة يمدح بها ابراهيم بن الحسن بن سهل قال فيها :

اشادة أبى عبادة بمجد العجم

كسروى عليه منه جلال يملأ البهو من بهاء ونور
وترى فى روائه بهجة المـ ـلك اذا ما استوفاه صدر السرير
واذا ما أشار هبت صبا المسـ ـك وخلت الايوان من كافور
يابن سهل وأنت غير مُفيقٍ من بناء العلياء أخرى الدهور
ان للمهرجان حقا على كل كبير من فارس وصغير
عيد آبائك الملوك ذوى التيـ ـجان أهل النهى وأهل الخير
من قباذ ويزدجرد وفيرو ز وكسرى وقبلهم ازدشير
شاهدوه فى حلبة الملك يغدو ن عليه فى سندس وحرير

وله فيه أيضا من قصيدة أخرى :

مجد سهل والفضل والحسن والاحـ ـسان فى مجدك الرفيع الشريف
كسرويُّون أوليون فى السؤ دد بيض الوجوه شم الانوف

وقال فيه أيضاً ولم يغفل نسبه الساسانى ولا تاجه الخسروانى :

آل سهل أنتم عيون بنى سا سان جوداً ونجدةً وحلوما

كسروىّ تلقاه فى الحرب ليثا　　قسوريا وفى الندىّ حكيما

وقال أيضاً من قصيدة أخرى :

قد ورثت العلياء عن ازدشير　　وقباذ وعن أنو شروان

وأرى الليل والنهار سواء　　حين تبدو بوجهك الاضحيان

وقال أيضا :

أفتى بنى الحسن بن سهل انهم　　فتيان فارس نجدة وحلوما

لا توجبن لكريم أصلك منة　　لو كنت من عِكلٍ لكنت كريما

وللبحترى فى احمد بن على الاسكاف ويظهر انه كان من غطاريف فارس:

همة ترذل الدنايا ونفس　　شرفت ان تهمّ بالاشراف

وعُلى فى الصهبذين ودنا　　انها فى الزيود والاعواف

قدمته قوادم الريش منهم　　حين خاست بآخرين الخوافى

رهط سابور ذى الجنود وطلا　　ب مساعى سابور ذى الاكتاف

وصف البحترى لواقعة بحرية

وله فى مدح احمد بن دينار بن عبد الله وكان أمير البحر وقد غزا بلاد الروم ويظهر انه من أصل فارسى:

تظن النجوم الزهر بتن خلائفاً　　لأبلج من سر الاعاجم أزهر

هو الغيث يجرى من عطاء ونائل　　عليك فخذ من صيب الغيث اوذر

ولما تولى البحر والجود صنوه　　غدا البحر من أخلاقه بين أبحر

أضاف الى التدبير فضل شجاعة　　ولا عزم الا للشجاع المدبر

وله فى وصف مركبه الخاص:

غدونا على الميمون صبحا وانما　　غدا المركب الميمون تحت المظفر

أطلّ بعطفيه ومر كأنما　　تشرّف من هادى حصان مشهر

اذا زمجر النوتى فوق عَلاته　　رأيت خطيبا فى ذؤابة منبر

اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحا عقاب فى السماء مهجر
اذا ما انكفى فى هبوة الماء خلته تلفع فى أثناء برد محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسر
اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع الا عن شواء مقتر
صدمت بهم صهب العثانين دونهم ضراب كايقاد اللظى المتسعر

يريد بصهب العثانين الروم الذين غزاهم ذلك الأمير بحراً . ثم يقول :

يسوقون أسطولا كأن سفينهم سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين زماحهم اذا اختلف الترجيع عود مجرجر

لك أن تقول عود مجرجر أى مصوت من جرجر أى صوت ، ولك أن تقول انه كبير من الابل يردد رغاء فى حنجرته من جرجر البعير أى ردد رغاءه

فمارمت حتى أجلت الحرب عن طلى مقطعة فيهم وهام مطير
على حين لا نقع تطوحه الصبا ولا أرض تلفى للصريع المقطر
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليا بأن توهى صفات ابن قيصر
جدحت له الموت الذعاف فعافه وطار على ألواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يول الصنيعة يشكر
اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما تنقصه جرىُ الردى المتمطر

وله فيه أيضاً من قصيدة :

له سلف فى آل فيروز برزوا على العجم وانقادت لهم حفلة العرب
مرازبة الملك التى نصبت لهم منابره العظمى جبابرة الحرب
لهم بنى الايوان فى عهد هرمز وأحكم طبع الخسروانية القضب
ودارت بنو ساسان طراً عليهم مدار النجوم السائرات على القطب

وله أيضاً فى مدح يعقوب بن احمد بن صالح :

كريم من أرومة شيرزاد نفخمه الجهارة والبيان
وما تخفى المكارم حيث كانت ولا أهل المكارم حيث كانوا

وله فى مدح الحسن بن مخلد ويظهر انه كان فارسي النسب :

قوم أشاد بعلياهم وورثهم   كسرى ابن هرمز نجداً واضح الأمن

الامن يسكن ويحرك

تسمو بواذخ ما يبنون من شرف   كما سما الهضب من ثهلان أو حضن

الفاعلون اذا لذنا بظلهم   ما يفعل الغيث من شؤبوبه الهتن

لله انتم فانتم اهل مأثرة   فى المجد معروفة الاعلام والسنن

ان جئتموها فليست بكر أنعمكم   ولا بيدء اياديكم الى اليمن

أيام رد انوشروان ملكهم   على عميدهم سيف ابن ذى يزن

وله فى ابراهيم بن المدبر :

نشدوا فى بنى المدبر عهداً   غير مستقصر ولا مذموم

فى المحل الجليل من رتبة الملـ   ك استقلت والمذهب المستقيم

للندى الأول الاخير الذى بر   ز والسؤددِ الحديث القديم

هى اكرومة نمت من بنى سا   سانَ فى خير منصبٍ واروم

للصريح الصريح والاشرف الاشـ   ـرف ان عدَّ والصميم الصميم

وله فى اسماعيل بن نبيخت :

ما للمكارم لا تريد سوى ابى   يعقوب اسحق ابن اسماعيل

والى ابى سهل بن نبيخت انتهى   ما كان من غرر لها وحجول

نسباً كما اطردت كعوبُ مثقف   لدن يزيدك بسطة فى الطول

يفضى الى بيب ابن جوزرز الذي   شهر الشجاعة بعد فرط خمول

اعقاب املاك لهم عاداتها   من كل نيل مثل مدّ النيل

الوارثون من السرير سراته   عن كل ربّ تحيةٍ مأمول

والضاربون بسهمة معروفة   فى التاج ذى الشرفات والاكليل

قد استوفينا هنا اكثر ما تهافت عليه البحترى من الاشادة بمجد العجم وذكر ملكهم القديم وحسبهم الصميم ، ولا نزاع فى أن ممدوحيه من امراء الدولة العباسية

الذين ينتمون الى الفرس كانوا اولى حسب ضخم وسؤدد فخم ولكن لم نجد مثل البحترى فى شعراء العرب من ينوه بمجد العجم باسراف فلا عجب ان نظم تلك القصيدة الخالدة فى وصف ايوان كسرى وانتهى منها الى مدح فارس وذكر مواقف رجالات الفرس من خدمة الخلافة الاسلامية

سينية شوقى

ولنعد الآن الى شعر شوقى ونثبت سينيته الأندلسية التى يليق أن تقرن بسينية البحترى.

يقول شوقى انه اتخذ قصيدة البحترى مثالا ونسج على منوالها وقد صرح عن ذلك بقوله: ثم جعلت أروض القول على هذا الروى وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة وأتممت هذه الكامة الريضة اه ·

وقد تأملت فى معارضة شوقى للبحترى فوجدت القسم الأول من قصيدته نازلا نزولا بارزاً عن طبقة البحترى الا أنه عند ماوصل الى الأوابد وشرع فى وصف الملاحم والوقائع رجع فأخذ يعلو حتى قارن البحترى سائراً واياه الكتف مع الكتف · قال:

اختلاف النهار والليل يُنسى ... أذكرا لى الصبا وأيام أُنسى

وصِفا لى مُلاوةً من شباب ... صُوِّرت من تصورات ومس

الملاوة مثلثة : البرهة من الدهر

عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سِنة حلوة ولذة خَلس

وسلا مصر هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسي

جانس شوقى هنا بين « سلا » و « سلا » الاولى من السؤال والثانية من السلوّ وقد سبق لى هذا الجناس نفسه ولم أكن اطلعت على شعر شوقى هذا وهو فى قولى فى رثاء الشيخ عبد القادر الشيبى سادن البيت الحرام رحمه الله ·

سلانى هل على بعدٍ سلانى ... وهل كان الغياب سوى العيان

ثم قال :

كلما مرت الليالى عليه ... رقّ والعهد فى الليالى يُقسي

مستطار اذا البواخر رنت ... أول الليل أو عوَت بعد جرس

راهب فى الضلوع للسفن فطن　　كلما ثرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل　　ماله مولعاً بمنع وحبس
احرام على بلابله الدو　　ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا　　فى خبيث من المذاهب رجس

ما رأيت فى هذا الشعر الى هنا سوى التكلف والتعمل كأنما شوقى يقطع فى صوان فلشد مالقى من عناء المعارضة وقد حاول مباراة مثل البحترى الا أنه مالبث أن أسلس له القول فقال :

نفسي مرجل وقلبي شراع　　بهما فى الدموع أسرى وأرسى
فاجعلي وجهك (الفنار) ومجرا　　ك يد الثغر بين رمل ومكس

الثغر هو الاسكندرية وهذا هو اسمها من قديم الزمان والرمل والمكس هما من ضواحيها . ثم قال :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه　　نازعتنى اليه فى الخلد نفسي

هذا بيت خالد ومعنى طريف أى أنه لو سكن الجنة لبقى ينزع الى وطنه مصر وكأنه يشير الى بيت المتنبى :

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا　　لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ثم يقول :

وهفا بالفؤاد فى سلسبيل　　ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى　　شخصه ساعة ولم يخل حسى
يصبح الفكر و (المسلة) ناد　　يه و (بالسرحة الزكية) يمسى
وكأنى أرى الجزيرة أيكا　　نغمت طيره بأرخم جرس
هى بلقيس فى الخمائل صرح　　من عباب وصاحب غير نكس
حسبها أن تكون للنيل عرساً　　قبلها لم يجن يوماً بعرس
لبست بالأصيل حلة وشى　　بين صنعاء فى الثياب وقس

ينسب الوشي عادة الى صنعاء وهنا مكان آخر تنسب اليه الثياب وهى القسيّة وهى ثياب من كتان مخلوط من حرير كانت تجلب من بلدة يقال لها القس بين العريش

والفرما من أرض مصر وهى على ساحل البحر الملح قال فى تاج العروس انها خربت من زمان ولم يبق الا آثارها . وهناك تل عظيم من رمل خارج فى البحر الشامى . قال وقد يكسر القاف فى قس وأهل مصر يقولونه بالفتح

قدها النيل فاستحت فتوارت　　منه بالجسر بين عرى ولبس

وأرى النيل كالعقيق بواديـ　　ـه وان كان كوثر المتحسّى

وادى العقيق هو فى المدينة المنورة وكانت فيه أيام عمران المدينة القصور الباذخه والجنان الغناء

إبن ماء السماء ذو الموكب الفخـ　　ـم الذى يحسر العيون ويخسى

أخذ جملة « يحسر العيون ويخسى » من كلام البحترى . ثم قال :

لا ترى فى ركابه غير مثن　　بجميل وشاكر فضل غرس

ورأى الجيزة الحزينة ثكلى　　لم تفق بعد من مناحة رمس

يريد برمس الملك رمسيس ولكن رخّم الاسم نظير قولهم :«ياحار» أى ياحارث و« ياأحم » أى يا أحمد. والترخيم نوع من أنواع البديع وفى بديعية ابن حجة الحموى « كالأغصان حين تمى » أى تميس وتميل وتميد .

اكثرت ضجة السواقى عليه　　وسؤال اليراع عنه بهمس

اليراع هنا هو القصب

وقيام النخيل ضفرن شعراً　　وتجردن غير طوقٍ وسلس

سلست النخلة ذهب كرَبها محركة وهو أصول السعف الغلاظ

وكأن الأهرام ميزان فرعو　　ن بيومٍ على الجبابر نحس

أو قناطيره تأنق فيها　　ألف جاب وألف صاحب مكس

روعة فى الضحى ملاعب جنّ　　حين يغشى الدجى حماها ويغسى

(ورهين الرمال) أفطس الا　　أنه صنع جنة غير فطس

يشير الى أبى الهول

تتجلى حقيقة الناس فيه　　سبع الخلق فى أسارير إنسى

لعب الدهر فى ثراه صبياً والليالى كواعباً غير عنس
ركبت صيد المقادير عينيه لنقد ومخلبيه لفرس
فأصابت به الممالك كسرى وهرقلاً والعبقرىّ الفرنسى

العبقرى الفرنسى هو نابليون بونابرت

يا فؤادى لكل أمرٍ قرارٌ فيه يبدو وينجلى بعد لبس
عقلت لجة الأمور عقولاً كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لايصاح بطافٍ أو غريق ولا يصاخ لحسّ
فلك يكشف الشموس نهاراً ويسوم البدور ليلة وكْس

ليلة الوكس هى ليلة دخول البدر فى نجم منحوس

ومواقيت للأمور اذا ما بلغتها الأمور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهنات بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوارٍ لطمت كل رب روم وفرس

من هنا بدأ شوقى يسامت البحترى لأنه انما يستولى على أمد الاجادة فى الملاحم ثم قال :

سددت بالهلال قوساً وسلّت خنجراً ينفذان من كل ترس
حكمت فى القرون (خوفو) و(دارا) وعفت وائلا وألوت بعبس
أين مروان فى المشارق عرش أموى وفى المغارب كرسى

أى كان لبنى أمية فى الشام عرش عم الاسلام وفى قرطبة كرسى خص الأندلس

سقمت شمسهم فردّ عليها نورها كل ثاقب الرأى نطس
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس
وعظ البحترىَّ ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

أى ان ايوان كسرى كان موعظة للبحترى وأما أنا فبلغت منى غاية الوعظ قصور بنى أمية آل عبد شمس

رب ليل سريت والبرق طرفى وبساط طويت والريح عنسى

أنظم الشرق فى الجزيرة بالغر ب واطوى البلاد حزناً لدهس

أى اطوى شرق الجزيرة الأندلسية وغربها واجوب وعرها وسهلها .

فى ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طمس

كان امراء بنى امية فى قرطبة لا يقدرون أن يدعوا الخلافة فلم يكن يقال لهم الخلفاء بل كان هذا اللقب لبنى العباس بل كان يقال لأمراء قرطبة الخلائف كناية عن أنهم ذرية الخلفاء آبائهم الذين كانوا بالشام وبقى ذلك الى زمان الناصر عبد الرحمن الثالث فهو أول من تلقب بالخليفة من أمراء قرطبة .

وأما الطوائف فهم ملوك الأندلس المتفرقون بعد أن انتثر سلك الخلافة فيها مثل بنى جهور فى قرطبة وبنى ذى النون فى طليطلة وبنى هود فى سرقسطة وبنى رزين فى السهلة والموالى العامريين فى بلنسية ودانية وبنى صمادح فى المرية وبنى عبّ د فى اشبيلية وبنى الأفطس فى بطليوس وهلم جرا

وربى كالجنان فى كنف الزيـ تون خضر وفى ذرا الكرم طلس

لم يرعنى سوي ثرًى قرطبى لمست فيه عبرةَ الدهر خمسى

يا وقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى

قرية لا تعدُّ فى الأرض كانت تمسك الأرض أن تميد وترسى

غشيت ساحل المحيط وغطت لجة الروم من شراع وقاس

ركب الدهر خاطرى فى ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدْس

الحدس هنا ليس الظن والتخمين بل هو بمعنى السير على غير هداية

فتجلت لى القصور ومن فيـ ـها من العز فى منازل قعس

ماضفت قط فى الملوك على نذ ل المعالى ولا تردت بنجس

وكأنى بلغت للعلم بيتاً فيه مال العقول من كل درس

قدُساً فى البلاد شرقاً وغرباً حجَّهُ القوم من فقيه وقسّ

كانت قرطبة فى وقتها مدينة العلماء لم يخرج من العلماء من خرج من قرطبة لا فى الكمية ولا فى الكيفية وكان اذا أجمع أهالى قرطبة على شىء فعليه تكون

الفتوى وكان فيها العلم بأنواعه وفنونه وكما كانت قرطبة عاصمة الاسلام فى العلم فقد كان الى جانب علماء المسلمين فيها أحبار وأقسة يفتون فى دين النصرانية ولهم بيع وأديار مشهورة

وعلى الجمعة الجلالة و(النا صر) نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفارق (دون) ويحلى به جبين (البرنس)

يتكلم عن الخليفة عبد الرحمن الناصر وعن جلالة الجمع التى كان يشهدها فى المسجد الأعظم بقرطبة أو فى مسجد الزهراء المدينة التى كان شيدها لسكناه فى سفح جبل العروس من قرطبة ويقول انه كان نوراً للجيوش تحت العلم الكبير وكانت تلجأ اليه ملوك الافرنج والاسبان وغيرهم وربما خلع بعضها وأدال لبعضها من بعض

ولنضرب مثالا على ذلك ماجاء فى نفح الطيب :

(وفى سنة ٤٤ بعد الثلاثمائة جاء رسول أردون يطالب السلم فعقد له (أى الناصر) ثم بعث فى سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتيلة فى عهده فأذن له فى ذلك وأدخل فى عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ، ومال الى أردون بن ردمير. وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكونس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ، ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه. وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لشانجة وأمه وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه . وخلع الجلالقة طاعة أردن اليه وبعث الى الناصر يشكره على فعلته وكتب الى الأمم فى النواحى بذلك وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة فى نكثه ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك. ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالشرق وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغبا فى الصلح فأجابه الناصر. ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب) انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار

قلنا : لم يبق ملك من ملوك ذلك العصر الذى عاش فيه الناصر الا أرسل اليه وفده يخطب ودّه وأعظمهم اوتون امبراطور المانية الذى طالما تبادل السفارات مع الخليفة الناصر وكذلك امبراطور القسطنطينية الذى كان يرسل الى الناصر الهدايا والالطاف ويوفد الوفود الحافلة .

والى ذلك أشرت فى قصيدتى الأندلسية التى قلت فيها

وصقر قريش حين جاء مشرداً فأنشبَ فيهم أى ظفرٍ مظفر
وشاد بهاتيك القواصى امارةً لها أحفل المنصور والد جعفر

يقال ان أبا جعفر المنصور هو الذى لقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش وقال « الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبينه »

وخلف أملاكا سموا وخلائفا أسود عرين منهم كل مخدر
كفى بالامام الناصر الفذ عاهلاً كسا أمة الاسلام حلة مفخر
تقبل أملاك الفرنجة كفه ويقصد عالى بابه وفدُ قيصر
غداةَ تجلى للخلافة رونق به ظهر الإسلام أروع مظهر
وأضحت بها الزهرا تميد جموعها فيالك من يوم أغر مشهر
تلعثم فيه كل رب فصاحة فعيوا سوى قاضى الجماعة منذر

اشارة الى المحفل النادر الذى احتفل به الخليفة الناصر لوفود صاحب القسطنطينية وذلك فى قصره الزهراء وانتدب كثير من العلماء للكلام فى ذلك المحفل فأرتج عليهم من شدة المهابة وتكلم ارتجالا القاضى منذر بن سعيد البلوطى وكانت خطبة رنانة وهى مذكورة فى الكتب

ولا تهمل المستنصر الحكم الذى تلاه ومن يستنصر الله ينصر
غدت قبة الإسلام قرطبة العلى وسارقت الزوراء لحظة أزور
وبارى بنى العباس فيها أمية وجروا على بغداد ذيل التبختر
وكان بها العمران يزخر مثلما تلاطم أمواج الخضم المهدر
ولما رأيت المسجد الجامع الذى بقرطبة من فوق فوق التصور

عضضت على كفى بكل نواجذى ... وقلت لعينى اليوم دورك فاهمرى
هو الجامع الطامى العباب بوقته ... يحاكى به عماره لجّ أبحر
ظللت به بين الاساطين سابحا ... بفكرى حتى غاب عنى محضرى
تخيلته والذكر يتلى خلاله ... نظير دوى النحل من كل مصدر
تأمل خليلى كم هنا من مهلل ... الى ربه صلى وكم من مكبر
وكم أزهرت فيه ألوف مصابح ... وكم أوقدت أرطال عود وعنبر
وكم قارئ بالسبع فى وسط حلقة ... وكم خاطب بالسجع من فوق منبر
وكم عالم يلقى على الجمع درسه ... وكم واعظ يمرى مدامع محجر
وكم ملك ضخم وكم من خليفة ... هنا كان يجثو عن جبين معفر
تسدّ فجاج المغربين جيوشه ... ويبدو هنا فى ثوب أشمط أغبر

كان الخليفة الناصر يأتى أحيانا الى المسجد فى الجمع المشهودة مرتديا ثوبا خلقا تواضعا منه لله تعالى

خليلى تأمل كالعرائس تنجلى ... أساطين قد تحصى بألف وأكثر
أساطين من صم الجماد مواثل ... يذوب لها قلب الحنيف المفكر
تراها صفوفا قائمات كأنها ... حدائق نصت من جماد مشجر
من العمد الاسنى فكل يتيمة ... لها نسب من مقطع متخير
أجادت تحريها قروم أمية ... معادن شتى من فلذ ومرمر
نبت دونها زرق الفؤوس وأصبحت ... لدى الفرى تهزا بالحديد المصفر
ولكن لفضل الفن ألقت قيادها ... فصالت بها الصناع صولة عنتر
فبينا هى الصم الصلاد اذ انثنت ... مقاطع جبن أو قوالب سكر
عرائس للتخريم فوق رؤوسها ... أكاليل در فى قلائد جوهر
ووجه الى المحراب طرفك ينسرح ... من الصخر فى مثل الطراز المحبر
وحدق بهاتيك النقوش وزهوها ... كأن فاتها صناعها منذ أشهر
وبالقبة العلياء يبدو شعاعها ... بألمع من زهر النجوم وأزهر

لو أن الثريا فى سماها تعرضت لظلت تحدى للثريا وتزدرى

***

ثم نعود الى سينية شوقى

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار مابها من أنيس واذا القوم مالهم من محس

اشارة الى قوله تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)

ورقيق من البيوت عتيق جاوز الألف غير مذموم حرس

الحرس بفتح أوله فسكون هو الدهر أو قطعة منه يقال مضى عليه حرس من الدهر وهو يريد بهذا البيت العتيق مسجد قرطبة . ثم يقول :

أثر من محمد وتراث صار للروح ذى الولاء الامسّ
بلغ النجم ذروةً وتناهى بين ثهلان فى الأساس وقدس

قدس جبل عظيم بأرض نجد قال الأزهرى قدس وآرة جبلان لمزينة وهما معروفان بحذاء سقيا مزينة ، وقيل فى الحجاز جبلان كل منهما اسمه قدس: قدس الأبيض وقدس الأسود وهما عند ورقان وكلاهما لمزينة . والقدس أيضا البيت المقدس

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء ألفاتُ الوزير فى عرض طرس

يعنى بالوزير ابن مُقلة الخطاط الشهير

فترة الدهر قد كست سطَريها ماا كتسى الهدب من فتور ونعس

السطر بالسكون وبالتحريك : الصف من الشىء

ويحها كم تزينت لعليم واحد الدهر واستعدت لخمس

يريد أن يقول كم تزينت لعالم من أفراد الدهر واستعدت لاقامة الصلوات الخمس ولو قال كم تزينت لامام كان أحسن

وكأن الرفيف فى مسرح العيـــن ملاء مدنرات الدمقس

وكأن الآيات فى جانبيه يتنزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال لم يزل يكتسيه أو تحت (قس)

يريد بمنذر القاضي منذر بن سعيد البلوطى وبقس قس بن ساعده . أى بخطيب نظيره فى الفصاحة

فاما منذر فقد كان مشهوراً بالعدل والصلابة فى الحق وقد تولى قضاء الجماعة فى الاندلس وكان الناصر وولده المستنصر يبالغان فى تعظيمه ولكنه لشدة ورعه لم يكن يتوقف عن تقريع الخليفة اذا رأى منه ما يوجب ذلك ولما كان الناصر كلفاً بالبناء وأمره فى هذا الباب مشهور وقد بنى الزهراء التى قدّروا النفقة على بنائها بثلاثمائة الف دينار كل عام واستمر ذلك خمسة وعشرين عاماً حتى قيل ان ماانفقه على الزهراء بلغ ١٥ من مائة من دخل الدولة كلها وبلغ من انهماكه بالبناء فيها أنه تأخر ثلاث جمع متواليات عن شهود صلاة الجمعة بمسجد الزهراء وكان القاضى منذر بن سعيد خطيب ذلك المسجد فلم يصبر على هذا الاهمال ولما صلى الخليفة بعد ذلك صلاة الجمعة عرّض منذر به فى الخطبة تالياً فى أول خطبته قوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدّكم بما تعلمون أمدّكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) ثم أخذ يتكلم بما يناسب تلك الآية مقرعاً وموبخاً ومورداً ما جاء فى هذا المعنى فى كتاب الله الى أن تلا (أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وكان الناصر يسمع ويعلم أن القاضى منذرا انما يشير اليه. ثم قرن منذر بن سعيد هذه الآى العظام بالاحاديث النبوية والآثار المروية وأضاف اليها من بلاغته النادرة وفصاحته الساحرة حتى خشع كل المصلين ذلك اليوم ورقوا وبكوا وضجوا وتضرعوا الى الله تعالى أن يغفر لهم، وبكى الخليفة نفسه معهم واستعاذ بالله من سخطه، الا انه وجد فى نفسه على منذر لغلظ ما قرعه به فشكا ذلك لولده الحكم (المستنصر) وقال : والله

لقد تعمدنى منذر بخطبته وما عنى بها غيرى وكاد بعصاه يقرعنى . وأقسم لا يصلى الجمعة وراء منذر وجعل يلتزم صلاتها وراء احمد بن مطرّف امام المسجد الاعظم فى قرطبة ويجانب الصلاة بجامع الزهراء حيث يؤم منذر بن سعيد . فقال له الحكم : ما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته . فقال له الناصر : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه يُعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون وانى لاستحى من الله أن لا اجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكنه أحرجنى فأقسمت . ولوددت انى أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض منه أبداً اه فتأمل فى عظمة أخلاق هذا الخليفة العظيم وفى انصافه من نفسه

ومكان الكتاب يغريك رياً ورده غائباً فتدنو بلمس

صنعة (الداخل) المبارك فى الغر ب وآلٍ له ميامين شُمْسَ

ثم انتهى شوقى من قرطبة وبدأ بذكر حمراء غرناطة فقال :

من لحمراء جللت بغبار الد هر كالجرح بين برءٍ ونكس

كسنا البرق لو محا الضوء لحظاً لمحتها العيون من طول قبس

حصن غرناطة ودار بنى الأحـ مر من غافلٍ ويقظان ندس

جلل الثلج دونها (رأس شيرى) فبدا منه فى عصائب برس

سرمد شيبه ولم أر شيباً قبله يرجى البقاء ويمسى

مشت الحادثات فى غرف الحمـ راء مشى النعى فى دار عُرس

هتكت عزّة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس

عرصات تخلت الخيل عنها واستراحت من احتراس وعس

ومغان على الليالى وضاء لم تجد للعشى تكرار مس

لا ترى غير وافدين على التا ريخ ساعين فى خشوع ونكس

يصف زائرى تلك المعاهد الذين انما يأتون ليشاهدوا آثار تاريخ ماض

نقلوا الطرف فى نضـارة آس   من نقوش وفى عصـارة ورس

وقبـاب من لا زورد وتـبر   كالربى الشمّ بـين ظل وشمس

وخطوط تكفلت للمعـانى   ولألفاظهـــا بأزين لبس

أتذكر بين الـكتابات التى قرأتها على جدران الحمراء بالخط المذهب قصيدة لابن زمرك من كتاب بنى الأحمر

وترى مجلس السبـاع خـلاء   مقفر القاع من ظبـاء وخنس

لا (الثريا) ولا جوارى الثريا   يتنزلن فيـه أقـار انـس

الثريا احدى ملـكات بنى الأحمر

مرمر قامت الاسود عليـه   كلة الظفر لينـــات المجس

تنثر المـاء فى الحياض جمانـاً   يتـنزى على ترائب ملـس

آخـر العهد بالجـزيرة كانت   بعـد عرك من الزمان وخرس

فتراهـا تقـول راية جيـش   باد بالأمس بين أسر وحـس

ومفاتيحها مقـاليد ملك   باعهـا الوارث المضيع ببخس

خرج القوم فى كتائب صم   عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشاً وكانت   تحت آبائهم هى العرش أمس

يقول ان السفن كانت لهم فى الآخر نعشاً كما كانت فى الأول عرشاً فقد جاءوا الأندلس راكبين البحر ففتحوها ثم أعادهم أعداؤهم ركوباً فى البحر لما برحوها

رب بانٍ لهـادمٍ وجمـوع لمشتٍّ   ومحسن لمخسّ

إمرة النـاس همـةٌ لا تأتى   لجبان ولا تسنى لجبس

واذا ما أصاب بنيـان قوم   وهْىُ خلق فانه وهى أسّ

بعد أن أشار الى انقراض ملك العرب بالأندلس بوهى أخلاقهم أحب أن يعظ أبناء وطنه مصر حتى يتنبهوا ويتجنبوا النبوات والنفلات التى بمثلها تضيع الممالك، فقال :

يا دياراً نزلت كالخلد ظلاً   وجنىً دانياً وسلسال أُنس

محسنات الفصول لا ناجر فيـ ـها بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رُباها غير حورٍ حُوِّ المراشف لُعس
كُسيَتْ أفرخى بظلك ريشاً وربا فى رُباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسـان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هـذه الطلول عظات من جديد على الدهور ودرس
واذا فاتك التفاتٌ الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

قصيدة شوقى فى آثار الاقصر

وخاطب روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحـــدة عنـد ما زار الصعيـد بالقصيدة التـالية

أيها المنتحى بأسوان داراً كالثريا تريد أن تنقضّا
إخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضاً سابحـات به وأبدين بضا
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الـكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كأنما نفض الصا نع منه اليدين بالأمس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرت أعصر بالسراج والزيت وُضا
وخطوط كأنها هُـدب ريم حسنت صنعة وطولا وعرضا
وضحايا تـكاد تمشى وترعى لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها عَزَمات من عزمة الجن أمضى

ثم يقول :

يا قصوراً نظرتها وهى تقضى فسكبتُ الدموع والحق يُقضى

أنت سطر ومجد مصر كتاب ... كيف سام البلى كتابك فضا
وأنا المحتفى بتاريخ مصر ... من يصن مجد قومه صان عرضا
ربّ سر بجانبيك مُزال ... كان حتى على الفراعين غمضا
قل لها فى الدعاء لو كان يُجدى ... ياسماء الجلال لا صرت أرضا
حار فيك المهندسون عقولا ... وتولت عزائم العلم مرضى

شوقى يعارض ابن سينا

ولشوقى معارضة لقصيدة الشيخ الرئيس ابى على ابن سيناء التى مطلعها

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

فقال شوقى :

ضمى قناعك يا سعاد أو ارفعى ... هذى المحاسن ما خلقن لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها ... ستر الجلال وبعد شأو المطلع
يا دميةً لا يستزاد جمالها ... زيديه حسنَ المحسن المتبرع

يخاطب النفس فيقول لها تبرجى أوتسترى فان محاسنك ما خلقت حتى يسدل فوقها نقاب فهى محاسن ضاحية ظاهرة وان كان متناولها بعيداً وستر جلالها حاجباً بينها وبين المتأمل فيها، ان حسنك ليس عليه من مزيد أفلاتريدين أن تزيديه بالاحسان.

ماذا على سلطانه من وقفة ... للضارعين وعطفة للخشع
بل ما يضرك لو سمحت بجلوة ... ان العروس كثيرة المتطلّع
ليس الحجاب لمن يعز مناله ... ان الحجاب لهين لم يمنع

يقول : أنت تحرصين على حجابك والحال أن الحجاب أنت فى غنى عنه لأنه لا وصال اليك وما كان الحجاب الا لغير المنيع

أنت التى اتخذ الجمال لعزه ... من مظهر ولسره من موضع
وهو الصناع يصوغ كل دقيقة ... وأدق منك بنانه لم تصنع

يحكم بأن الجمال صناع اليد وأنه صنع بدائع كثيرة ولكنه لم يصنع أدق وألطف من النفس

لمستك راحته ومسك روحه   فأتى البـديع على مثال المبدع

البديع يأتى بمعنى المبدع ومنـه قوله تعـالى (بديع السموات والأرض) وهو يأتى أيضاً بمعنى المبدع بالفتح كما هو هنا

اللهَ فى الأحبـار من متهالك   نضو ومهتوك المسوح مصرَّع
من كل غاو فى طوية راشد   عاصى الظواهر فى سريرة طيع
يتوهجون ويطفأون كأنهم   سرج بمعـترك الرياح الأربع
علموا فضاق بهم وشق طريقهم   والجاهلون على الطريق المهيع

يقول: ان الأحبار والحكماء هلـكوا من العناء فى البحث عن حقيقة النفس ومنهم من غوى فى سبيل الرشاد وعصى وهو يريد الطاعة، وكانوا كلما آنسوا ناراً خبت فهم أبداً بين وميض وخمود أشبه بمصابيح لعبت بها الرياح، وما كان العلم فى هذا المقام الا ليزيدهم خبالاً. أما العامة الجهلاء فهم سائرون على سواء السبيل لأنهم مؤمنون متوكلون لا يتفلسفون . وهنا يتذكر الانسان قول الفخر الرازى : اللهم ايماناً كايمان العجائز

ثم يقول :

ذهب ابن سينا لم يفز بك ساعة   وتولت الحكماء لم تتمتع
هذا مقام كل عز دونه   شمس النهار بمثله لم تطمع
فمحمد لك والمسيح ترجلا   وترجلت شمس النهار ليوشع
ما بال احمـد عىّ عنك بيـانه   بل ما لعيسى لم يقل أو يدعى

يقال ان شوقى كان قد جعل هذا الشطر (بل مالعيسى لا يقول ويدعى) فلاحظ عليه بعضهم بأنه لو قال ذلك لـكان المعنى ما بال عيسى لا يشرح لنا حقيقة النفس وهو يدعى معرفة ذلك فعاد شوقى وغير ما قاله أولا وقال « بل ما لعيسى لم يقل أو يدع » أى لم يقل عن النفس شيئاً ولا ادعى أنه قال عن النفس شيئاً

ولسان موسى انحل الا عقدة   من جانبيك علاجها لم ينجع
لما حللت بآدم حـل الحُبى   ومشى على الملأ السجود الركع

أى لما نفخك الله فى آدم استوى قائمـاً ومشى يبارى الملائـكة

وأرى النبوة فى ذراك تـكرمت   فى يوسف وتكلمت فى المرضع

وسقت قريش على لسان محمد ... بالبابلىّ من البيان الممتع
ومشت بموسى فى الظلام مشرداً ... وحدته فى قلل الجبال اللمع
حتى اذا طويت ورثت خلالها ... رفع الرحيق وسره لم يرفع

أى حتى اذا طويت وبقيت أنت خلالها رفعت وبقى أثرها كما يبقى أثر الرحيق بعد رفعه

النيل فى شعر سوقى

ولشوقى يخاطب النيل وجدير بالشاعر الذى أنجبه هذا الوادى أن يكون له منه خطاب شهير :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق
وبأى عين أم بأية مزنة ... أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج برده ... للضفتين جديدها لايخلق
تسود ديباجا اذا فارقتها ... فاذا حضرت اخضوضر الاستبرق
فى كل آونة تبدل صبغة ... عجباً وأنت الصابغ المتأنق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق ... بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا ... والأرض تغرقها فيحيي المغرق
أخلقت راووق الدهور ولم تزل ... بك حمأة كالمسك لا تتروق
حمراء فى الاحواض الا انها ... بيضاء فى عنق الثرى تتألق
دين الاوائل فيك دين مروءة ... لم لا يؤلّه من يقوت ويرزق
لو أن مخلوقا يؤله لم تكن ... لسواك مرتبة الالوهة تخلق
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة ... ان العبادة خشية وتعلق
دانوا ببحر بالمكارم زاخر ... عذب المشارع مَدّهُ لا يُلحق
متقيد بعهوده ووعوده ... يجرى على سنن الوفاء ويصدق
يتقبل الوادى الحياة كريمة ... من راحتيك عميمة تتدفّق

ومهما قيل فى النيل فهو قليل الا أن شوقى جاء من وصف النيل بما يناسب جلاله وجماله ولا أظن شاعرا قديماً ولا حديثاً وصف النيل بمثل هذه الاجادة . ثم انه انتقل من وصف النيل الى وصف الفراعنة واهرامهم فلا نعلم أحدا جاء بمثل فريه فى هذا الباب فقد قال:

أين الفراعنة الأولى استذرى بهم   عيسى ويوسف والكليم المصعق

يقال صعقته السماء وأصعقته

الموردون الناس منهل حكمة   أفضى اليه الأنبياء ليستقوا

الرافعون الى الضحى آباءهم   فالشمس أصلهم الوضيء المعرق

منذ وجد الانسان على الارض لم يجد فى نظره أجل وأنفع من الشمس فلذلك عبدها كثير من بنى الانسان قبل أن جاء الأنبياء فأخبروهم بأن هذه الشمس هى أيضاً مخلوقة وهى مادة لاتقدر على شيء بنفسها وانما الذى تجب له العبادة هو الذى أوجد الشمس وسائر الشموس السابحة فى الأفلاك ودبرها وهو وراء المادة وفوق الطبيعة وهو العلة الأولى وهو الأزل وهو الابد فمنذ جاء الأنبياء ارتقت عبادة البشر وسمت الى الافق اللائق بهذه النفس الناطقة ولكن الاقدمين من شدة اجلالهم للشمس جعلوها هى مصدر كل شيء ورفعوا اليها انساب ملوكهم

وكأنما بين البلى وقبورهم   عهد على أن لامساس وموثق

فحجابهم تحت الثرى من هيبة   كحجابهم فوق الثرى لايخرق

لم يصف أحد الموميا ولم يمثل معناها بمثل ماوصفها شوقى . ثم يقول :

بلغوا الحقيقة من حياة علمها   حجب مكثفة وسر مغلق

وتبينوا معنى الوجود فلم يروا   دون الخلود سعادةً تتحقق

والحقيقة هى أنهم حاولوا الخلود فلم يقدروا عليه فاعتاضوا منه بتخليد الاجسام بعد أن يئسوا من خلود الحياة فى هذه الدنيا

يبنون للدنيا كما تبنى لهم   خرباً غراب البين فيها ينعق

فقصورهم كوخ وبيت بداوة   وقبورهم صرح اشم وجوسق

رفعوا لها من جندل وصفائح عمداً فكانت حائطا لاينتق

ثم قال فى الاهرام :

ولمن هياكل قد علا البانى بها بين الثريا والثرى تتنسق
منها المشيد كالبروج وبعضها كالطود مضطجع أشم منطق
جدد كأول عهدها وحيالها تتقادم الأرض الفضاء وتعتق
من كل ثقل كاهل الدنيا به تعب ووجه الأرض عنه ضيق
عال على باع البلى لا يهتدى ما يعتلى منه وما يتسلق
متمكن كالطود اصلاً فى الثرى والفرع فى حرم السماء محلق
هى من بناء الظلم الاّ أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق
لم يرهق الامم الملوك بمثلها فخراً لهم يبقى وذكراً يعبق

ثم يذكر عادة المصريين القدماء فى القاء عذراء فى النيل كل سنة فى يوم مخصوص وموسم كانت تحتفل به الفراعنة فيقول :

ونجيبة بين الطفولة والصبا عذراء تشربها القلوب وتعلق
كان الزفاف اليك غاية حظها والحظ ان بلغ النهاية موبق
فى كل عام درة تلقى بلا ثمن اليك وحرة لا تصدق

أى لاتعطى صداقها

حول تسائل فيه كل نجيبة سبقت اليك متى يحول فتلحق
والمجد عند الغانيات رغيبة يبغى كما يبغى الجمال ويعشق
حتى اذا بلغت مواكبها المدى وجرى لغايته القضاء الأسبق
وكسا سماء المهرجان جلالة سيف المنية وهو صلت يبرق
وتلفتت فى اليم كل سفينة وانثال بالوادى الجموع وحدقوا
القت اليك بنفسها ونفيسها وأتتك شيقة حواها شيق
خلعت عليك حياءها وحياتها أأعز من هذين شىء ينفق
واذا تناهى الحب واتفق الفدى فالروح فى باب الضحية أليق

ما وصف هذا المشهد الغريب من عبادة النيل قبل شوقى شاعر بمثل هذا الوصف الذى بلغ فيه الاحسان مداه الاقصى وظنى أنه لن يباريه فيه شاعر آخر ولقد أبطل الاسلام عادة تقديم بكر كل سنة للنيل لأن الاسلام لا يعرف عبادة ماء ولا سماء ولا بشر ولا حجر ولا خشب ولا شجر ولاشىء من الاشياء كلها وانما هو عبادة الواحد الاحد خالق كل شىء بقدرته ومدبر كل شىء بحكمته سبحانه وتعالى عما يصفون

ما العالم السفلى الا طينة ... أزلية فيه تضىء وتغسق

ما كان فيها للزيادة موضع ... والى حماها النقص لا يتطرق

منبثة فى الارض تنتظم الثرى ... وتنال مما فى السماء وتعلق

منها الحياة لنا ومنها ضدها ... أبداً نعود لها ومنها نخلق

والزرع سنبله يصيب وحبه ... منها فيخرج ذا وهذا يفلق

وتشد بيت النحل فهو مُطنّب ... وتمد بيت النمل فهو مروق

وتظل بين قوى الحياة جوائلا ... لا تستقر دوائلا لا تمحق

هى كلمة الله القدير وروحه ... فى الكائنات وسره المستغلق

الكلمة بفتح فسكون وكذلك بكسر فسكون وكذلك بفتح فكسر والجمع كلمات وكلم وهو ماينطق به الانسان مفرداً كان أو مركباً . واما كلمة الله فهى خلقه يقال كلمات الله أى مخلوقاته وقيل فى عيسى عليه السلام انه كلمة الله وفسروا ذلك انه انتفع به وبكلامه على حد قولهم سيف الله وأسد الله . وقيل بل لان الله تعالى خلقه بمجرد كلمة « كن » من غير أب أى القى الكلمة ثم كونها بشراً . ومعنى الكلمة معنى الولد قاله الازهرى فى تفسير قوله تعالى (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم) أى يبشرك بولد اسمه المسيح. وقيل كلمة الله بمعنى مشيئته وقدرته وقيل غير ذلك كما فى تاج العروس. والظاهر ان شوقى يريد بكلمة الله هنا المادة التى خلقها الله وبروحه هذه الحياة التى بثها فيها الى أن قال :

فتنت عقول الأولين فألهوا ... من كل شىء ما يروع ويخرق

سجدوا لمخلوق وظنو خالقاً ... من ذا يميز فى الظلام ويفرق

قال ان الناس فى القدم فتنوا بهذه المادة فألّهوها وبدلا من أن يعبدوا الخالق عبدوا المخلوق لان الانسان كما انه لايميز فى الظلام لايميز فى الضلال. ثم قال عن ضلال البشر:

يدعون خلف الستر آلهة لهم ملأوا الندىّ جلالة وتأبقوا تأبّق استتر

واستحجبوا الكهان هذا مبلغ ما يهتفون به وذاك مصـــدق

لا يسألون اذا جرت ألفاظهم من أين للحجر اللسان الأذلق

ثم ذكر مآثر مصر التاريخية مخاطباً وادى النيل :

اصل الحضارة فى صعيدك ثابت ونباتها حسن عليـــك مخلق

ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلها منك الحـــفى المشفق

ملأت ديارك حكمة مأثورها فى الصخر والبردى الكريم منبق

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق

واستحدثت ديناً فكان فضائلا وبناء أخلاق يطول ويشهق

مهد السبيل لكل دين بعده كالمسك رياه بأخرى تفتق

يدعو الى بر ويرفع صالحاً ويعاف ما هو للمروءة مخلق

للناس من اسراره ما علموا ولشعبة الكهنوت ماهو أعمق

الى أن يقول :

وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل يزكو لذكراها النبات ويسمق

وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً بركات ربك والنعيم الغيدق

وودائع الفاروق عندك دينه ولواؤه وبيـــانه والمنـطق

بعث الصحابة يحملون من الهدى والحق ما يحيى العقول ويفتق

فتح الفتوح من الملائك رزدق فيه ومن اصحاب بدر رزدق

يبنون لله الكنانة بالقنا والله من حول البناء موفق

يذكر فتح الاسلام لوادى النيل . ثم ينهى هذه الكلمة التى تاهت على الكلمات

وجرت من مطارف الحكمة ما يندر فى ماض وآت بخطاب للوادى هو هذا :

كنف كمعن أو كساحة حاتم ... خلق يودعه وخلق يطرق
وعليك تجلى من مصونات النهى ... خود عرائس خدرهن المهرق
لى فيك مدح ليس فيه تكلف ... أملاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ ... سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو اليهم فى التراب قلوبنا ... وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم والله جل جلاله ... منا ومنك بهم أبر وأرفق

يقول لوادى النيل : ان ثنائى عليك ليس فيه تكلف وحبى لك ليس من باب التزلف ويكفى أننا نترك عندك أولادنا ترزق فى جوانبك بعد أن نكون افترقنا عنهم فاننا نفكر فيهم ولو كنا ترابا . وما زال شوقى من أبر الناس باهله ووطنه ولكنه فى الآخر مع شدة حبه لوادى النيل لم يشأ أن يعبده عبادة المصرى القديم فانه مسلم لا يعبد غير الله فهو يقول للنيل : أنت المرجى لأولادى وانما الله تعالى من فوقك هو أبر بهم منى ومنك

كلمة شوقى فى الطيران

ولشوقى قصيدة فى الطيران والطيارات نظمها عندما كان أمر الطيارة عجباً ـ ولم يزل عجباً ـ وكان الناس لما يألفوا مثل اليوم هذه الاعجوبة المعدودة من المعجزات العصرية فقال شوقى :

قم سليمان بساط الريح قاما ... ملك القوم من الجو الزماما
حين ضاق البر والبحر بهم ... أسرجوا الريح وساموها اللجاما
صار ما كان لكم معجزة ... آية للعلم آتاها الأناما

ثم يقول :

رفعوا لولبها فاندفعت ... هل رأيت الطير قد زف وحاما
شال بالاذناب كل ورمى ... بجناحيه كما رعت النعاما

تنبرى فى زرق الأفق كما سبح الحوت بدأماء وعاما
بعضها فى طلب البعض كما طارد النسر على الجو القطاما

الى أن يقول :

طلبة قد رامها آباؤنا وابتغاها من رأى الدهر غلاما
أسقطت (ايكار) فى تجربة (وابن فرناس) فما اسطاعا قياما

يشير الى العباس بن فرناس القرطبي الاندلسي الذى كان من العلماء أول من حاول الطيران وكانت كنيته أبا القاسم وكان مع علمه بالعلوم الطبيعية أديبا مشهورا عاش فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثانى صاحب الاندلس وقيل انه أول من ابتنى طيارة وطار بها ولكنه لم يحسن التحيل فى أمر نزولها فسقطت به ومات

فى سبيل المجد أودى نفر شهداء العلم أعلاهم مقاما
خلفاء الرسل فى الأرض هم يبعث الله بهم عاما فعاما
قطرة من دمهم فى ملكه تملأ الملك جلالا ونظاما

ثم يقول فى مغزى الطيران :

رب ان كانت لخير جعلت فاجعل الخير بناديها لزاما
وان اعتز بها الشر غداً فتعالت تمطر الموت الزؤاما
فاملأ الجو عليها رجماً رحمة منك وعدلا وانتقاما

نقول : مع الأسف ان الشر قد اعتز بهذه الطيارات اعتزازاً جاء فوق ما كان يخشاه شوقى وصارت تمطر الموت الزؤام فى كل مكان تقع فيه حرب وصارت عمدة فى القتال الحديث وأخذت الدول التى تزعم أنها تريد نشر المدنية ونصر الانسانية فى العالم تطير من هذه الطيارات اسرابا ترمى منها بالموت الزؤام على الضعفاء الذين لا قبل لهم بمقاومتها وكثيراً ما تقتل النساء والاطفال والعاجزين وتدمر البيوت على رؤوس أصحابها.

وقد تحرك عرق الانسانية بكثير من رجال السياسة والعلم وحاولوا حمل جمعية الأمم على اتخاذ قرار يمنع القتال بالطيارات ففشلوا والى الآن لا يزال اعتماد الدول الا كبر على القتال فى الجو ونرى الدول يكاثر بعضها بعضاً فى عدد الطيارات التى لا تشتغل معامل الاسلحة بشىء شغلها بها . ثم قال شوقى :

ملك هـذا الجو فى منعتـه ... طالمـا للنجم والطير استقاما
حسد الانسان سربيه بما ... أُوتيـا فى ذروة العز اعتصاما
دخل العش على أنسره ... أترى يغشى من النجم السناما
أيهـا الشرق انتبه من غفلة ... مات من فى طرقات السيل ناما
لا تقولن عظـامى أنا ... فى زمان كان للناس عصاما

ثم قال فى اظهار الفرق بين قدرة الخالق والمخلوق :

خالق العصفور حيرت به ... أممـاً بادوا وما نالوا المراما
أفنوا النقـدين فى تقليـده ... وهو كالدرهم ريشاً وعظاما

ما قاله فى توت عنخ آمون

وقال فى توت عنخ آمون وحضارة مصر القديمة :

درجت على الـكنز القرون ... وأتت على الدن السنون
خير السيوف مضى الزما ... ن عليه فى خير الجفون
فى منزل كمحجب الـ ... غيب استتر عن الظنون
حتى أتى العـلم الجسـو ... ر ففض خاتمه المصون
والعـلم (بدرى) أحـل ... لاهـله ما يصـنعون

يشير الى ماورد فى الأثر من أن أهل بدر مغفورة لهم ذنوبهم (الا الكبائر)

هتـك الحجال على الحضا ... رة والخدور على الفنون
واندس كالمصباح فى ... حُفر من الاجداث جون
حجر ممردة المعـا ... قل فى الثرى شم الحصون
لا تهتدى الريح الهبـو ... بُ لها ولا الغيث الهتون
خانت أمانة جارها ... والقبر كالدنيا يخون
يا ابن الثواقب من (رع) ... وابن الزواهر من (أمون)
نسب عريق فى الضحى ... بذ القبائل والبطون

أرأيت كيف يؤوب من غمر القضاء المغرقون
حب الخلود بنى لكم خلقاً به تتفرّدون
لم يأخذ المتقدمو ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم الى الإحسان فيما تعملون
لم تتركوه فى الجليـ ل ولا الحقير من الشؤون
هذا القيام فقل لنا اليوم الاخير متى يكون
البعث غاية زائل فان وأنتم خالدون
السبق من عاداتكم أترى القيامة تسبقون

ثم يصف تلك الآثار التي وجدت تحت الارض واليك انموذجا من وصفه:

وبكل ركن صورة وبكل زاوية رقين
وترى الدمى فتخالها اذ تثرت على جنبات زون
صور تريك تحركا والأصل فى الصور السكون
ويمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
صحبَ الزمانَ دِهانُها حيناً عهيداً بعد حين
خدعَ العيونَ ولم يزل حتى تحدّى اللامسين
غلمان قصرك فى الركا ب يناولون ويطردون
والبوق يهتف والسها م ترنّ والقوس الحنون
وكلاب صيدك لهث والخيل جنّ لها جنون
والوحش تنفر فى السهو ل وتارة تثب الحزون

فعل وثب لابد من أن يتعدى بحرف ولكن شوقى عداه بلا حرف على نزع الخافض

والطير ترسف فى الجرا ح وفى مناقرها انين
وكأن آباء البريـ ة فى المدائن محضرون
وكأن دولة آل شمـ س عن شمالك واليمين

قصيدة شوقي في دمشق

والشوقي قصيدة دمشقية يوم زار دمشق غير القصيدة الطائرة الصيت التي قالها يوم ضرب تلك الحاضرة بالقنابر :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم احداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له   رث الصحائف باق منه عنوان
بنو أمية للانباء ما فتحوا   وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم   فهل سألت سرير الغرب ماكانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها   في كل ناحية ملك وسلطان
ياويح قلبي مهما انتاب أرسمهم   سرى به الهم أو عادته أشجان
بالأمس قمت على الزهراء اندبهم   واليوم دمعي على الفيحاء هتان

يريد أن يقول انه بكى آثار بني أمية عندما كان بالأندلس واليوم يبكي آثارهم وهو في دمشق

في الأرض منهم سماوات وألوية   ونيرات وانواء وعقبان
لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت ببني العباس بغدان

يشير الى أن فتح الأندلس كان الأصل فيه دمشق وان عاصمة بني أمية هي التي استلحقت عاصمة القوط ولولا عاصمة بني أمية لما كانت عاصمة بني العباس الذين انتزعوا منهم الخلافة موحدة · وبغدان لغة في بغداد .

مررت بالمسجد المحزون اسأله   هل في المصلى أوالمحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت   على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان اذان في منارته   اذا تعالى ولا الآذان آذان

الحقيقة أن الأذان لايزال كما كان وانما اختلف تأثيره في الآذان وعسى كل شيء يعود الى اصله .

آمنت بالله واستثنيت جنته   دمشق روح وجنات وريحان

عاد فاستثنى دمشق وقال : آمنت بالله . يقلد الدمشقيين فى كلماتهم لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً فى موضع العجب .

قال الرفاق وقد هبت خمائلها ... الأرض دار لها الفيحاء بستان

جرى وصفق يلقانا بها بردى ... كما تلقاك دون الخلد رضوان

دخلتها وحواشيها زمردة ... والشمس فوق لجين الماء عقيان

وربوة فى الواد جلباب راقصة ... الساق كاسية والنحر عريان

والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطير ألحان

وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً ... أفوافه فهو اصباغ وألوان

وقد صفى بردى للريح فابتردت ... لدى ستور حواشيهن أفنان

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا ... جفت من الماء أذيال وأردان

خلفت لبنان جنات النعيم وما ... نبئت أن طريق الخلد لبنان

أى ظننت لبنان هو الجنة ولكن بعد ماأفضت منه الى دمشق علمت أنه لم يكن الا طريق الجنة

حتى انحدرت الى فيحاء وارفة ... فيها الندى وبها طىّ وشيبان

اختص بالذكر من قبائل العرب طيأ التى منها حاتم وشيبان التى ينسب اليها معن بن زائدة .

نزلت فيها بفتيان جحاجحة ... آباؤهم فى شباب الدهر غسان

بيض الاسرة باق فيهم صيد ... من عبد شمس وإن لم تبق تيجان

يافتية الشام شكراً لا انقضاء له ... لو أن احسانكم يجزيه شكران

خميلة الله وشّتها يداه لكم ... فهل لها قيم منكم وجنّان

الجنان بمعنى البستانى لفظة مولدة لم نعثر عليها فى كتب اللغة وقداستعملها صاحب نفح الطيب من المتأخرين

شيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها ... فالملك غرس وتجديد وبنيان

الملك أن تعملوا ما اسطعتم عملا ... وأن يبين على الأعمال اتقان

الملك أن تخرج الاموال ناشطة لمطلب فيه اصلاح وعمران

أصاب شوقى هنا شاكلة الداء الذى به انحط الشرق وتقهقر العالم الاسلامى وهو عدم ائتلاف اهلها الاتفاق على المصالح العامة بخلاف الاوربيين الذين كان اكبر عوامل نجاحهم وفلاحهم بذل كل واحد منهم على قدر حالته فى مصلحة الجمهور . ثم قال :

الملك أن تتلاقوا فى هوى وطن تفرقت فيه أجناس وأديان

كنا نتمنى لوعاش شوقى الى هذا العهد وشهد انحلال المسئلتين المصرية والسورية باستقلال كل من القطرين الشقيقين فكان لذلك البلبل الصداح غناء يرقص الجماد كما كان له من أجل استيلاء الاجانب عليها نواح يذيبه .

حنين شوقى من الاندلس الى وطنه مصر

ولشوقى قصيدة نظمها وهو فى منفاه بالأندلس أيام الحرب العامة يحن فيها الى مصر وطنه ويعارض قصيدة ابن زيدون فى ولادة بنت المستكفى وهو يخاطب حمام وادى الطلح الذى بظاهر اشبيلية:

يانائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم تأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يداً قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا أخا الغريب وظلا غير نادينا
اذا دعا الشوق لم نبرح لمنصدع من الجناحين عي لا يلبينا
فان يك الجنس يابن الطلح فرقنا ان المصائب يجمعن المصابينا

واكثر أبيات هذه القصيدة شبهاً بقصيدة ابن زيدون وهى التى تلى:

يامن نغار عليهم من ضمائرنا ومن مصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين اليكم فى خواطرنا عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا الى الصبر ندعوه كعادتنا فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا

نطوى دجاه بجرح من فراقكم　　يكاد فى غلس الاسحار يطوينا
اذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا　　حتى يزول ولم تهدأ تراقينا

المكتب فى شعر شوقى

ومن ألطف كلمات شوقى وصفه حياة المكتب وكيف يتدرج الناشىء فى أطوار الحياة :

ألا حبذا صحبة المكتب　　وأحبب بأيامه أحبب
ويا حبذا صبية يمرحون　　عنان الحياة عليهم صبى
كأنهم بسمات الحياة　　وأنفاس ريحانها الطيب
يراح ويغدى بهم كالقطيع　　على مشرق الشمس أو مغرب
الى مرتع ألفوا غيره　　وراع غريب العصا اجنبى
ومستقبل من قيود الحياة　　شديد على النفس مستصعب
فراخ بأيك فمن ناهض　　يروض الجناح ومن أزغب
مقاعدهم من جناح الزمان　　وما علموا خطر المركب
عصافير عند تهجى الدروس　　مهار عرابيد فى الملعب
خليون من تبعات الحياة　　على الأم يلقونها والأب
جنون الحداثة من حولهم　　تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبد بعقل الصبى　　واعدى المؤدب حتى صبى
لهم جرس مطرب فى السراح　　وليس اذا جد بالمطرب

الى أن يقول :

قطيع يزجيه راع من الدهـ　　ـر ليس بلين ولا صلّب
أهابت هراوته بالرفاق　　ونادت على الحيّد الهُرَّب
وصرّف قطعانه فاستبد　　ولم يخش شيئاً ولم يرهب
أراد لمن شاء رعى الجديب　　وانزل من شاء بالمخصب

وروى على ريها الناهلات ورد الظماء فلم تشرب
والقى رقابا الى الضاربين وضن بأخرى فلم تضرب
وليس يبالى رضا المستريح ولا ضجر الناقم المتعب
وليس يعبق على الحاضرين وليس يباك على الغيب

ثم ذكر دخول الانسان فى دور الكهولة بعد أن ودع الشباب :

حياة يغامر فيها أمرؤ تسلح بالناب والمخلب
وصار الى الفاقة ابن الغنى ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب الممتلى صحة وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم تصحب
الى ان فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبسب

اذا وضعت هذا الشعر فى شعر المتنبى لم تفرقه عنه. وما زال شوقى أشبه الشعراء المحدثين بابيه ابى الطيب لا سيما اذا طرق باب الحكمة وتكلم فى الاوابد .

كلمة شوقى عن لبنان

ولشوقى قصيدة عن لبنان من جملتها هذه الأبيات :

لبنان والخلد اختراع الله لم يوسم بأزين منهما ملكوته
هو ذروة فى الحسن غير مرومة وذرى البراعة والحجى بيروته
ملك الهضاب الشم سلطان الربى هام السحاب عروشه وتخوته
سيناء شاطره الجلال فلا يرى الا له سبحاته وسموته
والأبلق الفرد انتهت أوصافه فى السؤدد العالى له ونعوته
جبل على آذار يزرى صيفه وشتاؤه يئد القرى جبروته
أبهى من الوشى الكريم مروجه وألذ من عطل النحور مروته

يغشى روابيه على كافورها | مسك الوهاد فتيقه وفتيته
وكأن أيام الشباب ربوعه | وكأن أحلام الكعاب بيوته
وكأن ريعان الصبا ريحانه | سر السرور يجوده ويقوته
وكأن أثداءَ النواهد تينه | وكأن أقراط الولائد توته
وكأن همس القاع فى اذن الصفا | صوت العتاب ظهوره وخفوته
وكأن ماءها وجرس لجينه | وضح العروس تبينه وتصيته

يظهر من البيتين الاخيرين أن شوقى استلطف وادلى عين زحلة وهناك نبعان أحدهما يقال له نبع القاعة والآخر نبع الصفا والمسافة بينهما قصيرة يجتمعان فيسيل منهما نهر الصفا الذى ينحدر الى البحر عند الدامور .وقد عبَّر شوقى عن القاعة بالقاع وليس كذلك بل هو بالتاء والقاع فى اللغة هو الأرض السهلة المطمئنة ولا محل له هنا وانما سمى احد هذين النبعين بنبع القاعة لانه يخرج من مغارة تراها كأنها منحوتة باليد فاطلقوا عليها اسم القاعة التى هى البهو عند أهل الشام وهكذا يسمى أهل الجبل هذا الكهف .

كلمة شوقى عن حرية المرأة

ولشوقى شعر فى حفلة نسائية عظيمة انعقدت تحت رئاسة السيدة هُدى شعراوى :

قل للرجال طغى الاسير | طير الحجال متى يطير
أوهى جناحيه الحديد | وحزّ ساقيه الحرير
ذهب الحجاب بصبره | وأطال حيرته السفور
هل هيئت درج السماء له | وهل نص الأثير
وهل استمر به الجناح | وهمّ بالنهض الشكير
وسما لمنزله من الدنيا | ومنزله خطير
ومتى تساس به الرياض | كما تساس به الوكور

أوَ كل ما عند الرجا ل له الخواطب والمهور
والسجن فى الأكواخ أو سجن يقال له القصور
تالله لو أن الأد يم جميعه روض ونور
فى كل ظل ربوة وبكل وارفة غدير
وعليه من ذهب سيا ج أو من الياقوت نور
ما تمّ من دون السما ء له على الارض الحبور
ان السماء جديرة بالطير وهو بها جدير
هى سرجه المشدود وه و على أعنتها أمير
حرية خلق الانا ث لها كما خلق الذكور

نعم وكل من هاتين الحريتين لايجوز ان تكون مطلقة كما يتوهم بعضهم بل يجب ان تكون مقيدة بقيود الشرع والا فسد المجتمع وانتشرت الاباحة وهذا التقيد بقيود الشرع لا يعنى أسر المرأة ولا قصرها فى الحجال غير مشتركة فى الحياة العامة . ثم يخاطب قاسم بك امين رحمه الله فيقول له :

يا قاسم انظر كيف سا ر الفكر وانتقل الشعور
جابت قضيتك البلا د كأنها مثل يسير
ما الناس الا أول يمضى فيخلفه الأخير

موشح اندلسى لشوقى

ولشوقى موشح اندلسى فى عبد الرحمن الداخل الذى لقبه ابو جعفر المنصور وهو عدوه بصقر قريش :

من لنضو يتنزى ألما برح الشوق به فى الغلس
حنّ للبنان وناجى العلما أين شرق الارض من أندلس

* * *

بلبل علمه البين البيان بات فى حبل الشجون ارتبكا

في سماء الليل مخلوع العنان ضاقت الارض عليه شبكا
كلما استوحش في ظل الجنان جن فاستضحك من حيث بكى
ارتدى برنسه والتأما وخطا خطوة شيخ مرعس
ويرى ذا حدب ان جثما فان ارتد بدا ذا قمس

ثم يقول :

يا شباب الشرقّ عنوان الشباب ثمرات الحسب الزاكي النمير
حسبكم في الكرم المحض اللباب سيرة تبقى بقاء ابني سمير
في كتاب الفخر (للداخل) باب لم يلجه من بني الملك أمير
في الشموس الزهر بالشام انتمى وعلى الاقمار بالاندلس
قعد الشرق عليهم مأتما وانثنى الغرب بهم في عُرُس

ثم أخذ يسوق قصة بني أمية مع بني العباس وكيف ثارت بين العائلتين الثارات الى أن تغلبت العباسية على الاموية وأخذ بنو العباس يقتلونهم في كل سهل وجبل فقال :

جُزيت مروان عن آبائها ما أراقوا من دماء ودموع
ومن النفس ومن أهوائها ما يؤديه عن الاصل الفروع
خلت الاعواد من أسمائها وتغطت بالمصاليب الجذوع
ظلمت حتى أصابت أظلما حاصد السيف وبيء المحبس
فطناً في دعوة الآل لما همس الشاني ومالم يهمس

قال ان الظالمين من بني أمية وأعوانهم كيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف وغيرهما قد كانوا السبب فيما لقيه أعقابهم من ظالمين مثلهم من بني العباس وأعوانهم كأبي العباس السفاح وأبي مسلم الخراساني وغيرهما وما ظالم الا سيبلى بأظلم . ثم ذكر كيف نجا عبد الرحمن بن معاوية سبحاً بالفرات ومعه أخوه وهو ولد فبعد أن خاض الولد وراء أخيه في الماء غلب عليه الخوف وناداه الجند من عن الشاطىء ليعود وله الأمان فانخدع بقولهم فرجع فقتلوه وأخوه عبد الرحمن يرى قتله بعينه من الشاطىء الآخر . قال شوقي :

صحب الداخل من اخوته حدث خاض الغمار ابن ثمان
غلب الموج على قوته فكأن الموج من جند الزمان
واذا بالشط من شقوته صائح صاح به : نلت الأمان
فانثنى منخدعا مستسلما شاة اغترت بعهد الاطلس
خضب الجند به الارض دما وقلوب الجند كالصخر القسى

ثم أتى على قصة عبد الرحمن ونجاته وانسلاله الى المغرب واختفائه ثم اجازته الى الاندلس وغلبته على تلك الأرض بعد أن لقى من الأهوال ماتشيب له ذوائب الاطفال وكيف صبر وآل به الصبر الجميل الى الملك فاستخرج شوقى العبرة اللازمة. ولم يزل فى الحكم والمواعظ الشاعر الذى لايشق له غبار ولايصطلى له بنار

أيها اليائس مت قبل الممات أو اذا شئت حياة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمات ان هى اشتدت وأمّل فرجا
ذلك الداخل لاقى مظلمات لم يكن يأمل منها مخرجا
قد تولى عزُّهُ وانصرما فمضى من غده لم ييئسِ
رام بالمغرب ملكا فرمى أبعد الغمر وأقصى اليبس

نعم كان عبد الرحمن بن معاوية من أفحل رجال الإسلام فى عقله وتدبيره وصبره وشدة بأسه ولكن كان وراءه عظمة اسم بنى أمية . ذكر صاحب «أخبار مجموعة» فى فتح الأندلس وذكر أمرائها، وهو أقدم تاريخ عربى لها انه لما وصلت رسل عبد الرحمن ابن معاوية الى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الاندلس يلتمس منه تمكينه من الاجازة الى الاندلس والسكن بها كان أجمع فى البداية أن يسمح له بدخولها وانصرف الرسل وقد حصلوا على هذا الوعد ثم ماساروا أكثر من ساعة حتى سمعوا صائحا يصيح خلفهم ليتوقفوا فاذا الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن الذى كان بمقام الوزير عند الامير يوسف الفهرى يقول لهم : كنا قد أجبنا دعوة ابن معاوية ولكننا روينا فى هذا الامر فوجدنا ان عبد الرحمن بن معاوية هو من قوم لوبال أحدهم فى هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله، والله ان أول سيف يسلّ عليه هو سيفى. وهكذا انقطع رجاء جماعة عبد الرحمن

من ربيعة ومضر فى نصرته وانما استمالوا اليمانية لما كان فى صدورهم من الاحقاد على المضرية

قال فى «أخبار مجموعة» نقلا عن رسل عبد الرحمن: فألفينا قوما وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم ورغبوا فى عقد بنى أمية بالاندلس . ثم ساق القصة الى آخرها. وخلاصتها ان عبد الرحمن بن معاوية لم يتمكن من الاندلس الا بواسطة عداوة اليمانية للمضرية الذين كانوا جماعة يوسف الفهرى وكان اسم بنى أمية مليا بأن ينهض به مهما كان مهيض الجناح على أن عبدالرحمن كان جامعاً بين الاسم والفعل

أبيات شوقى عن زحلة من لبنان

ولشوقى قصيدة يصف بها زحلة من لبنان لا نحب أن نختم هذا الكتاب بغير ذكر بعض أبياتها الرشيقة :

شيعتُ احلامى بقلبٍ باكِ ولمحت من طرق الملاح شباكى

ومنها :

بنت البقاع وامّ بردونيها طيبى كجلق واسكبى بردَاكِ

البردونى هو نهر زحلة

ودمشق جنات النعيم وانما الفيت سدة عدنهن رباك

قسماً لو انتمت الجداول والربى لتهلل الفردوس ثم نماك

مرآك مرآه وعينك عينه لم يا زحيلة لا يكون أباك

ثم يقول :

يغشى اليك اللحظ فى الديباج أو فى العاج من أى الشعاب أتاك

ضمت ذراعيها الطبيعة رقة صنين والحرمون فاحتضناك

جبل صنين من أعلى قمم لبنان وهو مطل على زحلة من الغرب والحرمون هو جبل الشيخ الذى قنته تعلو عن البحر ثلاثة آلاف وخمسمائة متر وهو يقابل زحلة من جهة الشرق وبينهما سهل البقاع ، ثم يقول :

شرفاً عروس الارز كل خريدة   تحت السماء من البـلاد فداك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى   أرضاً تمخضُ بالشموس سواك

كلام شوقي عن استقلال سورية وذكرى شهدائها واولهم يوسف العظمة

وله قصيدة عن استقلال سورية وذكرى شهدائها جاء فيها .

كأن الله اذ قسم المعالى   لأهل الواجب ادخر الـكمالا
ترى جداً ولست ترى عليهم   ولوعـاً بالصغـائر واشتغـالا
وليسوا أرغد الأحياء عيشاً   ولـكن أنعم الأحياء بالا
اذا فعلوا فخير الناس فعـلاً   وان قالوا فأكرمهم مقالا
وان سألتهم الأوطـان أعطوا   دماً حراً وابنـاء ومالا
بنى البلد الشقيق عزاء جارٍ   أهاب بدمعه شجن فسالا
قضى بالأمس للابطال حقاً   وأضحى اليوم بالشهداء غالى
يعظم كل جهـد عبقرى   أكان السلم أم كان القتالا
ذكرت المهرجان وقد تجلى   ووفد المشرقين وقد توالى
تسلل فى الزحام الىّ نضو   من الاحرار تحسبه خيـالا
رسول الصابرين ألم وهنـا   وبلغنى التحية والسؤالا
دنا منى فناولنى كتاباً   أحست راحتاى له جلالا
وجدت دم الأسود عليه مسكاً   وكان الأصل فى المسك الغزالا
كأن اسامى الابطـال فيه   حواميم على رق تتالى
رواة قصائدى قـد رتلوها   وغنوها الاسنة والنصالا

ثم يقول :

سأذكر ماحييت جدار قبر   بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون   يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه   واول سيد لقى النبالا

يذكر يوسف بك العظمة قائد الجيش السورى الذي استشهد فى وقعة ميسلون ثم يقول عنه :

أقام نهاره يلقى ويلقى ... فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالى ... وغيب حيث جال وحيث صالا
اذا مرت به الاجيال تترى ... سمعت لها أزيزاً وابتهالا

كلمة شوقى عن تمثال نهضة مصر

وله فى تمثال نهضة مصر :

جعلت حلاها وتمثالها ... عيون القوافى وامثالها
وارسلتها فى سماء الخيال ... تجر على النجم أذيالها
وانى لغريد هذى البطاح ... تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره ... وكل معلقة قالها
وتلمح بين بيوت القصيد ... حجال العروس وأحجالها
أدار النسيب الى حبها ... وولى المدائح اجلالها

لم يخالف شوقى طريقته فى التيه بشعره على نسق المتنبى الذى كان تياهاً بعبقريته وليس هذا بوجه الشبه الوحيد بينهما . ثم قال :

فؤاد ارفع الستر عن نهضة ... تقدم جدك ابطالها
ورب امرئٍ لم تلده البلاد ... نماها ونبه أنسالها
وليسَ اللآلئ ملكَ البحور ... ولكنها ملكُ من نالها
وما كعلىٍ ولا جيله ... اذا عرضت مصر أمثالها
بنوا دولة من بنات الاسنة لم يشهد النيل أمثالها

يقول ان محمد على وان لم يكن مصرياً فى نسبه فقد أسس لمصر دولة لم يشهد وادى النيل مثلها .

قصيدة شوقى فى عيده الحسينى

ولما احتفل بعيد شوقى الخمسينى سنة ١٩٢٧ وانشد الشعراء فى ذلك المحفل العظيم القصائد التى شرّقت وغرّبت اجابهم عليها بهذه القصيدة التى نأخذ من أبياتها ما نجعله مسك الختام لهذا الكتاب الذى أهديناه الى روحه العبقرية والى عشاق شعره من أبناء العربية . قال :

مرحباً بالربيع فى ريعانه   وبأنواره وطيب زمانه
رفت الارض فى مواكب آذا   ر وشط الزمان فى مهرجانه

ومضى فى وصف الربيع الى أن قال :

نغم فى السماء والارض شتى   من معانى الربيع أو ألحانه
أين نور الربيع من زهر الشعـ   ـر اذا ما استوى على افنانه
سرمد الحسن والبشاشة مهما   تلتمسه تجده فى إبّانه
حسن فى أوانه كل شيء   وجمال القريض بعد أوانه
ملك ظله على ربوة الخلـ   ـد وكرسيه على خلجانه
أمر الله بالحقيقة والحكـ   ـمة فالتفتا على صولجانه
لم تثر أمة الى الحق الا   بهدى الشعر أو خطى شيطانه

وكان لابد لشوقى من ذكر ملك البلاد فى حفلة عيده هذا فقال :

ظللتنى عناية من فؤاد   ظلل الله عرشه بأمانه
ورعانى رعى الإله له الفا   روق طفلا ويوم مرجو شانه

وقد وصل الفاروق الى اليوم الذى أشار اليه شوقى بعد تسع سنوات من قوله هذا وبويع الفاروق ملكا على مصر والسودان موفقامنصورا ان شاء الله وزاد تيمن الناس به نيل وادى النيل استقلاله التام لدى استهلال ملكه

ثم ذكر سعد زغلول فقال :

منبر الحق فى أمانة سعد   وقوام الامور فى ميزانه
لم ير الشرق داعيا مثل سعد   رجه من بطاحه ورعانه

ثم ذكر عيده الذى تداعى اليه الشعراء فقال :

يا عكاظا تألف الشرق فيه ... من فلسطينه الى بغدانه
حملت مصر دونه هيكل الد ... ين وروح البيان من فرقانه
وطدت فيك من دعائمها الفصحى ... وشد البيان من أركانه
انما أنت حلبة لم يسخر ... مثلها للكلام يوم رهانه
تتبارى أصائل الشام فيها ... والمذاكى العتاق من لبنانه
موكب الشعر حرك المتنبى ... فى ثراه وهز من حسانه
قد عرفنا بنجمه كل أفق ... واستبنا الكتاب من عنوانه
لست أنسى يداً لاخوان صدق ... منحونى جزاء مالم أعانه
رب سامى البيان نبه شانى ... أنا أسمو الى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين أولى ... لو جرى الحظ فى سواء عنانه

يريد أن يقول من باب التواضع انه كان فى الشعراء من هو أولى منه بالسبق فى هذا الميدان ولكنه هو نهض بحظه ففات غيره لا بفضله على غيره

انما أظهروا يد الله عندى ... وأضاعوا الجميل من احسانه
ما الرحيق الذى يذوقون من كر ... مى وان عشت طائفا بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع ... أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى ... من يد فى صفائه وليانه

ثم قال وهى نزعة شرقية لم تفارقه طول حياته كنا نود أن تكون عند كل مصرى وكل شرقى وعند كل عربى بخاصة .

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ... ق وكان العزاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... حُ وان نلتقى على اشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد ... تتنزى الليوث فى قضبانه
نحن فى الفكر بالديار سواء ... كلنا مشفق على أوطانه

خاتمة الكتاب

ولقد فككنا ولله الحمد هذه القيود وبهذا ختمنا هذا الكتاب الذى كان ذمة علىّ لأخ قديم رعيته ورعانى مدة أربعين سنة، ولشاعر عظيم بايعناه جميعاً بامارة الشعر فى هذا العصر .وكان السيد الامام صاحب المنار رحمه الله قد كتب أن شكيب ارسلان كان أول من لقب شوقى بامير الشعراء . وليس من سعادة للمرء فى هذه الحياة مثل ان يحب من يحترم وأن يحترم من يحب وقد كان هذا شأنى مع احمد شوقى رحمه الله وأبقى كلماته على الدهر حلية للأدب ومفخرة للغة العرب .

وكان الفراغ من املاء هذا الكتاب لسبع بقين من رجب الفرد
سنة خمس وخمسين وثلاثمائة والف
والحمد لله أولاً وآخراً

بيان الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٧	بعض أبيات	بعض الأبيات
١٣	١٧	نسبتها	نسيتها
١٩	١٩	حيثما	حينما
٢٠	٢٠	مذ	منذ
٢٧	٢٣	تقيد	تقييد
٢٨	١	الحية	الحيية
٢٨	١٣	تعريفه	تعريضه
٢٩	١	غضب	غضبت
٢٩	٥	بن ميادة	ابن ميادة
٣٩	١١	المراسيم	المواسم
٤٣	١٠	ت	بدت
٥٢	١٠	يفيض من أرزافهم	يفيض من أرزاقهم
٥٥	٢٥	فغتح	ففتح
٥٦	٥	نقاها	نفاها
٦٠	٦	جملة	جُملهِ
٧٦	١٤	حبا	حيا
٨٤	١٧	بعقلتها	بمقتلها
٨٤	١٨	غوتة	غوته
٩٢	١١	تونس الخضراء فيها	تونس الخضراء والمغرب فيها
٩٦	١٤	جلساته	حلباته

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٦	٢٢	يبعث	يعبث
١٠٣	١٣	ثأت	نأت
١٠٦	١٢	على ضبابة	عنى ضبابة
١٠٨	١٠	حدعوها	خدعوها
١١٧	٢٣	لم يرد أطار بمعنى طار	لم يرد طار بمعنى أطار
١٢٩	١١	يفزى هذا الفزى	يفرى هذا الفرى
١٣٣	١١	لوعه	لوعة
١٣٦	٧	عدّت	عدت
١٣٩	١٥	بالسعادة	بالسعاية
١٤٠	٢	شفاقا	إشفاقا
١٤٥	٢٣	ريقها	ريعها
١٤٨	٥	عادلا	عاذلا
١٥٧	٤	خلب	خلت
١٥٨	١٥	يجرر	يحرر
١٦٣	١٧	عنت	عتت
١٦٨	١٥	ويخرج	ويحرج
١٦٩	١٧	وأجزعا	لاجزعا
١٧٧	٨	اجتار	اجتاز
١٨١	١٢	تفجع	تفجع
١٨٥	٩	فيعولون	فيعولوا
١٨٧	١٥	تشبعت	تشعبت
١٩٠	١	هُم	هَمّ
١٩٠	٤	مراها	تراها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩٥	٦	يدركون	يذكرون
١٩٦	٢٣	كلفت الصليبيين	كفلت للصليبيين
١٩٨	١٨	امبراطور	كونت
٢١٠	٩	سهل	سل
٢١٦	٣	منكب	مناكب
٢١٧	٧	بالصادقين	الصادقين
٢١٧	١٣	وأرد	وأردد
٢٢٣	١٥	سادواعليهم	سادوهم
٢٢٥	٥	مذنب	مذئب
٢٢٨	١٥	يعيش	يعش
٢٣٢	٢٢	كأداء	كؤودا
٢٨٢	٣	شهرنا	شهدنا
٢٨٢	١٧	التلاقى	التلافى
٢٩١	١٥	أيوب	أبى أيوب
٢٩٥	١٦	فى العلياء	من الاولى
٣١٥	٧	أحفل	أجفل
٣١٦	١٧	فلذ	فلز
٣٣٠	٢٣	الاكبر	الكبر
٣٣٤	٦	وربوة فى الواد	وربوة الواد
٣٣٤	٧	جلباب راقصة	فى جلباب راقصة
٣٣٥	٣	الانفاق	على الانفاق

فهرست

شوقى ، أو صداقة أربعين سنة